

مصر والشرق الأدنى القديم

(١٢)

التاريخ والتأريخ

دراسة في ماهية التاريخ وكتابته
ومذاهب تفسيره ومناهج البحث فيه

الأستاذ الدكتور
محمد بسيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

دار المعرفة الجامعية
شارع ستيفن الأفندي
الاسكندرية



التاريخ والتاريخ
دراسة في ماهية التاريخ وكتابته
ومذاهب تفسيره ومناهج البحث فيه

مصر والشرق الأدنى القديم

(١٢)

التاريخ والتأريخ

دراسة في ماهية التاريخ وكتابته
ومذاهب تفسيره ومناهج البحث فيه

الأستاذ الدكتور
محمد يوحى مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

دار المعرفية الجامعية
١٠ شارع ستيرز - القاهرة
الاسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ،

مولانا وسيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

[اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على
ابراهيم وآل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما
باركت على ابراهيم وآل ابراهيم في العالمين انك حميد مجيد]

إهداء

الى من هو اعز من نفسى

الى زينة الدنيا ، ودعوة الآخرة

الى ولدى ابراهيم

اهدى هذه الدراسة

تقديم

التاريخ هو المصدر الأساسى للمعرفة الانسانية ، وهو ذلك السفر الخاند الذى يحو بين دفتيه كل التطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى مرت بها البشرية ، منذ أن قدر الله تعالى للانسان أن يبدأ حياته على الأرض ، وحتى يغير الله الأرض غير الأرض ، ومن ثم فالانسان هو الوحيد - بين الكائنات الحية - ذو التاريخ ، وهو الكائن الحى الوحيد الذى يصنع التاريخ ، ويصنعه التاريخ .

ولاريب فى أن الانسان قد بدأ يكتب تاريخه منذ أن نقش على الحجر ، ثم بعد أن كتب على الورق ، ايماننا منه بأن تسجيل تاريخه ، لأمر جد عظيم ، ذلك لأن التاريخ ، سواء أدرك ذلك أو لم يدرك ، انما هو - كما يقول ابن خلدون فى مقدمته المشهورة - فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا -

ومن هنا كانت أهمية التاريخ ، فهو يبحث فى المجتمع الانسانى ، وفى حكايته ، وكيف أصبح كما هو الآن ، ويدهى أن معرفتنا لما كانت عليه المجتمعات فى الماضى ، انما تبصرنا بالعوامل التى تؤثر فيها ، فضلا عن التيارات والقوى التى تحركها ، الى جانب الدوافع والمصادمات التى تشكلها - عامة كانت أم خاصة - انه بحث تتناول فيه الطبيعة البشرية فى كل وقت ، وهنسا تبرز أهمية تراجم الشخصيات التاريخية ، ويتضح - بالتالى - ما تقدمه قراءة تلك التراجم من فائدة ، فضلا عما تقدمه من متعة عقلية .

فالتاريخ لا يتناول حياة القادة فحسب ، وانما يمكن أن يقال - على

صورة ما - انه يتكون من رواسب حياة الملايين من الرجال والنساء، من غمار الناس وأواسطهم ، ممن لم يظفوا أسماء لامة في صفحات التاريخ . وانما حسبهم انهم قدموا نصيبهم من المشاركة في بناء تاريخ أممهم ، الأمر الذى يجعل مادة التاريخ أشبه ما تكون بالشعب المرجانية ، التى تتكون من حياة ملايين المخلوقات البحرية الصغيرة ، التى قد تكون قليلة الأهمية .

وهكذا يمكن القول : انه لا غنى للإنسان عن دراسة ماضيه ، باعتباره كائنا اجتماعيا ، ومن ثم ينبغى عليه أن يعرف تاريخ تطوره القريب والبعيد ، فضلا عن تاريخ آثاره المادية ، وغير المادية .

على أن دراسة أحداث التاريخ - بارزها وماخفى منها في الأعماق - ليس لها في حد ذاتها - من حيث هى حوادث مجردة - كبير فائدة ، ما لم تتفاعل مع الفكر الإنسانى ، ذلك أن حوادث التاريخ إنما تصبح ذات قيمة ، عندما ينطقها المؤرخ بعد خرس ، باستفساره إياها ، والحاحه فى سؤالها ، عن قدر مسئوليتها ، ومدى تأثيرها ، فى تغيير وضع الإنسان وتوجيه مصيره .

ومن ثم ، فالتاريخ إذن غايته وضالقه ، أن يفهمه الناس ، وأن يربطوا الأسباب بالمسببات ، وأن يجعلوا من كإمل الواقع المتشعب ، والمتراعى الاطراف ، شيئا له نظامه وإنسجامه - اضطرابا والزما - بحكم التسلسل والتولد المنطقى ، ذلك لأن التاريخ إنما هو بناء منطقى لعالم الإنسان .

ولارىب فى أن الفكر الوضعى لايد وأن يقاثر بطبيعة العصر الذى يعيشه - سلبا وإيجابا ، بدرجة أو بآخرى - وهذا التأثير المحتوم ينعكس على معطياته الفكرية ، سواء كانت صيغة هذا التأثير بشكل تقبل لقيم العصر ، أو وضاعه ومناهجه ورؤاه ، أو رفض لها وتمرد عليها ، وفى كل من الحالين إنما يقوم الجانب للتأثيرى الانفعالى ، والاستقطابات للظاهرة والخفية فى الوعى واللاوعى ، بدوره فى الرؤية التى يمارسها الفكر تجاه الأوضاع والأحداث والأشياء .

فإذا كان ذلك كذلك ، وكان الفكر مفسرا للتاريخ ، وتفسير التاريخ

- فيما نعلم - انما هو توسيع للتطويل صوب الماضي والمستقبل اللذين يندان كثيرا عن الحصر والضبط والتطويل ، فان لنا ، دونما ريب ، أن نتصور كم سيجيء هذا التفسير مطبوعا بطابع العصر الذي يعيشه المفسر ، وكيف أن الأشياء والوقائع والأحداث في الماضي والمستقبل ، سوف تأخذ اللون الذي يجد المفسر نفسه مضطرا الى النظر من خلال زجاجته التي اسقطت عليها مواضع العصر ، الظلال والأضواء ؟ وهذا بدوره سوف يؤدي الى أن تبعد التفسيرات الوضعية - وليس السماوية - بدرجة أو باخرى ، عن العلمية ، فضلا عن الموضوعية والحياد .

ومن هنا ، فان أية نظرة سريعة تجاه معطيات الفكر الفلسفي الراهن ، وعروض المكتبة المعاصرة ، انما تطلعننا على حشد كبير من الأبحاث والمؤلفات المتعلقة بنظريات التفسير الوضعي للتاريخ ، والتي تختلف طبقا لوجهة نظر أصحابها .

وهكذا بدأ عدد من المفكرين يحاولون تقنين التاريخ على أساس علمي ، يهدف الى ارساء قواعد ثابتة ، تصبح معها أحداث التاريخ مجرد تفاصيل أو تجارب ، ينتظمها ما تضمنته هذه القواعد من مقدمات ونتائج ، وهكذا ظهر عدد من المذاهب المختلفة لتفسير التاريخ ، يكاد يجمعها طابع واحد هو : انها تنظر للتاريخ على أنه تطور للمجتمع ، قبل أن يكون سجلا لأعمال الأفراد ، وان اختلفت فيما بينها في تحديد الاتجاه الذي يسلكه هذا التطور ، والدافع الذي يكمن وراءه ، والنتيجة التي يهدف اليها .

ويدهى أن التاريخ لا يدرس عقوا ، ولا يكتب اعتباطا ، ويدهى أيضا أنه ليس كل من يحاول الكتابة في التاريخ يصبح مؤرخا ، كما يتصور بعض الناس ، أو كما يتخيل بعض الكتاب . حينما يسطرون صفحات طويلة عن أحداث ماضية كانت أو معاصرة ، ويظنون بذلك أنهم يكتبون تاريخا ، ماداموا قد أمسكوا بالقلم والقرطاس ، ودارت لهم المطابع ، وملاّت كتاباتهم زخرف المكينات ، ذلك لأنه من الضروري أن تتوافر في المؤرخ الصفات الضرورية ، وأن تتحقق له الظروف التي تجعله قادرا على دراية التاريخ وكتابته .

ومن هنا فلقد وضع العلماء صفات خاصة للتاريخ ، بعضها يتصل
 بشخصية المؤرخ ، وبعضها الآخر يتصل بقدراته العلمية ، ذلك لأن البحث
 العلمى إنما هو موهبة فنية يمنحها الله تعالى لبعض الناس ، ولا يمنحها
 لآخرين ، ومن ثم فليس الاطلاع ، ولا جمع المادة العلمية وترتيبها
 بالعناصر الكافية وجدها لانتاج بحث علمى أو رسالة أكاديمية فى التاريخ
 وإنما يجب أن تتوفر القدرة على البحث عند المؤرخ أولاً ، ذلك لأن جمع
 المادة العلمية وترتيبها ، شئ ، وتفسيرها وإبراز أهميتها ، واستخلاص
 النتائج شئ آخر ، بل أن هذا الأمر الأخير إنما هو الصعب والمهم فى
 كتابة الرسائل العلمية والأبحاث التاريخية .

وانطلاقاً من كل هذا ، فإن الباحث يجب أن يكون له مقدرة يستطيع
 أن يستقل بها فى فهم الحقائق وفى تفسيرها ، كما أن فهمها وتفسيرها شئ
 قابل للاختلاف من شخص لآخر ، فإذا لم يكن الباحث قد وهب هذه
 المقدرة ، فهو دون المستوى اللازم للمناهج العلمى المطلوب .

وليس هناك من ريب فى أن هناك خصلاً خلقية معينة يجب توافرها
 فيمن يتعرض لمهمة البحث العلمى ، أهمها : الصدق والأمانة والاخلاص
 والنزاهة والشجاعة ، ذلك لأنه من البديهيات المسلم بها علمياً أنه يستحيل
 على مؤرخ الحقائق العلمية أن يكون انساناً مزوراً ، أو كاذباً ، أو غير
 معبر عما تنص عليه الوثائق التاريخية .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه هنا ، أن الثقافة الإسلامية إنما قد أبدعت
 فى تقويم الرجال فنا قائماً بذاته ، هو «الجرح والتعديل» ، فقد كان
 المسلمون يأخذون الأخبار من أفواه الرجال ، وما قيده فى نسخهم ،
 ناظرين دائماً الى هيئة الرجل وصلابه ، فهم لم يكونوا يفصلون بين علم
 الفرد وسلوكه ، فالفرد - فى نظرهم الصائب - وحدة متكاملة ، يؤثر فيها
 سلوكه على عمله ، أو العكس ، ولا مناص من بحث حاله بحثاً متقصباً ،
 يتناول أدق تفاصيل حياته الذهنية والسلوكية ليتمكن قبول نقله أو رفضه ،
 وما نطن - علم الله - أن ثقافة فى الأرض قامت على مثل هذا الأساس
 النقدى المنهجى النزيه ، فذلك شئ ، إنما تفرد به المسلمون وحدهم .

وهناك صفات أخرى تتصل بقدرات المؤرخ العلمية ، إذ اشترط العلماء

أن تكون لدى المؤرخ قدرات واستعدادات تدريبية في الناحية اللغوية والعلمية تتصل بصفة خاصة بفرع التاريخ الذى يدرسه ، ذلك لأن توفر الصفات الخلقية النبيلة فى المؤرخ ، ليست وحدها بكافية لأداء عملية التاريخ ، وإنما تكملها عملية الاستعداد العقلى والعملى لأداء هذه المهمة ، ولأريب فى أن أول جوانبها قدرة المؤرخ اللغوية ، وخاصة لغة العصر ، التى كتبت بها وثائقه ، ذلك لأن اللغة هى وسيلة التعبير ، ومن ثم فعلى المؤرخ أن يحس بمدلولها ، وما تريد أن تعبر عنه ، وهكذا كان على دارس التاريخ الفرعونى - مثلا - أن يعرف اللغة المصرية القديمة ، وعلى دارس التاريخ الإسلامى أن يجيد اللغة العربية ، وهكذا .

ومن البدهى أن ملكة النقد إنما هى من الصفات الضرورية للمؤرخ ، فلا يجوز له أن يقبل كل ما هو مكتوب ، أيا كان صاحبه من ذوى الشهرة والرين ، وعليه أن يتمسك بالمقولة الحقبة ، أن كل رجل يؤخذ من قوله ، ويرد عليه ، ماعدا سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ ، فهو وحده المعصوم عن أن يقول ، إلا ما هو حق وهدى ، وهدى ربنا - جل جلاله - فى قوله تعالى عن نبيه الكريم ﷺ «وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى» (١) ، وروى عنه ﷺ أنه قال : «لا أقول الا حقا» (٢) .

وعلى المؤرخ كذلك الا يصدق كل وثيقة أو مصدر ، بغیر الدرس والفحص والاستقصاء ، فياخذ ما يثبت له أنه الصدق ، ويترك ما دون ذلك ، حتى ان كان هذا الصدق لا يتفق مع عواطفه الشخصية أو الوطنية ،

(١) سورة النجم آية ٤ (٢) روى الامام أحمد فى مسنده (١٦٢/٢) عن عبد الله بن عمرو ، أنه قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ ، أريد حفظه ، فنهتني قریش فقالوا : انك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ بشر ، يتكلم فى الغضب ، فامسكت عن الكتابة ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : «أكتب فوالذى نفسى بيده ، ما خرج منى الا الحق» ، وروى الامام أحمد بسنده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : «لا أقول الا حقا» ، قال بعض أصحابه : فانك تداعبنا يا رسول الله ؟ قال : «انى لا أقول الا حقا» (مسند الامام أحمد ٢/٣٤٠ ، تحفة الأحوذى ٣/٣١٦ ، سنن أبى ماجه ١/٥٨٩ ، تفسير ابن كثير ٤/٣٨٣ (بيروت ١٩٨٦) ، وانظر : محمد بيومى مهران : السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثالث - بيروت ١٩٩٠ ص ١٩٤ - ١٩٥) .

فالحق أحق أن يتبع ، ولا ريب في أن كل وثيقة أو مصدر يؤخذ منه ، ويرد عليه ، إلا القرآن الكريم ، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد (٣) .

وفي الواقع أن المؤرخ إذا أعوزته ملكة النقد ، سقطت عنه صفته ، وأصبح مجرد شخص يحكى كل ما يبلغه ، على أنه حقيقة واقعة ، ومن ثم فمن الواجب على المؤرخ أن يفهم آراء الغير ، وأن يكون دقيقاً في نقل عباراته ، فكثيراً ما يقع بعض الباحثين في أخطاء جسيمة بالنسبة لآراء الآخرين ، أما لخطأ في النقل أو لسوء فهم — كما أن على المؤرخ أن يفتح عينيه وقلبه لما يقرأ ، وأن يكون على حذر ، فلا يسلم بكل ما قرره باحثون من قبله من آراء ، وإنما عليه أن يفكر فيها طويلاً ، وأن يمعن النظر في كل ما يذهب إليه بفكر ثاقب ، وعقل متفتح ، وما أكثر الأمثلة التاريخية التي خالف فيها اللاحقون السابقين .

وانطلاقاً من كل هذا ، فمن أوجب واجبات المؤرخ أن يدرس بنفسه الأحداث والأسباب التي أدت إليها ، ثم يقارن النصوص بعضها ببعض ، وأن يبرز في كل مراحل البحث شخصيته ، بصفة ايجابية مؤثرة ، ولكن حذار من المبالغة في ذلك ، ثم حذار من أن يحاول بالحق وبالباطل أن يصل الى ما يريد ، فهذا ما يجب أن يبعد عنه طالب العلم ، البعد كل البعد ، فالحق أحق أن يتبع .

هذا ومن المعروف أن التاريخ إنما يتصل بكثير من فروع المعرفة الإنسانية ، ومن ثم فعلى من يتصدى لكتابة التاريخ أن يقوم بتحصيل هذه المعرفة ، ذلك لأنه أن أحسنها ، فهو بالتالى إنما يحسن ما يكتبه من الدراسات التاريخية ، ذلك لأن المؤرخ قد يصادف في دراسته للماضى مسائل في الفلسفة والقانون والاقتصاد وغيرها ، ويقدر ما تتعدد معرفته بفروع المعرفة المختلفة ، بقدر ما يكون أكثر استعداداً لعمله كمؤرخ .

(٣) سورة فصلت : آية ٤٢ ، وانظر : سورة البقرة : آية ٢٥٢ ، آل عمران : آية ٣ ، ٦٢ ، النساء : آية ٨٧ ، الكهف : آية ٦٣ ، فاطر : آية ٣١ ، الزمر : آية ٢ ، ٤١ ، الجاثية : آية ٦ ، محمد : آية ٢٠ .

وقد اصطلح العلماء على تسمية هذه المعارف المختلفة باسم «العلوم المساعدة» أو «العلوم الموصلة» ، وهى بطبيعة الحال تختلف بالنسبة للباحث باختلاف العصر أو الموضوع مجال البحث ، فدارس التاريخ القديم مثلاً ، انما تختلف علومه المساعدة عن دارس التاريخ الوسيط ، وهذه تختلف عن دارس التاريخ الاسلامى أو الحديث .

وبدهى انه ليس من الضرورى أن يستخدم المؤرخ كل العلوم المساعدة فى أبحاثه ، وانما يمكن الافادة منها ، طبقاً لمقتضى الحال ، بما يخدم الموضوع الذى يدرسه ، أو المرحلة التاريخية التى يعالجها ، فمن الممكن أن يستخدم المؤرخ أحد العلوم المساعدة عند دراسته لموضوع بذاته ، ولا يستخدمها عند دراسته لموضوع آخر ، أو يستخدمها بشكل محدود .

وأخيراً ، وليس آخراً ، فلقد تعرضت هذه الدراسة لموضوعات مختلفة عن التاريخ وكتابته ، وعن مقومات هذه الكتابة ، فضلاً عن منهج البحث التاريخى ، وان أعطت أهمية خاصة لكتابة الرسائل الجامعية (الماجستير والدكتوراه) ، وكل ما يبغيه صاحبها أن يكون فيها بعض النفع ، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

«وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب» .

دكتور

محمد بيومى مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

بولكلى - رمل الاسكندرية فى
الاول من ذى القعدة عام ١٤١١هـ
الخامس عشر من مايو عام ١٩٩١م

الفصل الأول

التاريخ : ماهيته وأهدافه ومكانته
بين الفنون والعلوم

(١) تعريف التاريخ :

يدل لفظ «التاريخ» على معانٍ متفاوتة، ففى لغة القرآن الكريم — أى لغتنا العربية — تأتى كلمة التاريخ والتاريخ والتواريخ بمعنى الاعلام بالوقت ، وتاريخ شئ من الاشياء قد يدل على وقته الذى ينتهى اليه ، مضافا اليه ما وقع خلال هذا الوقت من حوادث ووقائع ^(١) .

ويقول شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى (٨٣١ — ٨٩٠ هـ = ١٤٢٧ — ١٤٩٧ م) : التاريخ فى اللغة الاعلام بالوقت ، يقال : أرخت الكتاب وورخته ، أى بينت وقت كتابته ، وفى الاصطلاح : التعريف بالوقت الذى تضبط به الاحوال من مولد الرواة والائمة ووفاة وصحة وعقل وبدن ورحلة وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم فى ابتدائهم وحالهم واستقبالهم ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور ملعة — وتجديد فرض ، وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه وانتقال دولة ، وربما يتوسع فيه لبدى الخلق وقصص الانبياء ، وغير ذلك من أمور الامم الماضية وأحوال القيامة ومقدماتها مما سيأتى ، أو دونها كبناء جامع أو مدرسة أو قنطرة أو رصيف أو نحوها مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مشاهد أو خفى سماوى كجراد وكسوف وخسوف ، أو أرضى كزلزال وحريق وسيل وطوفان وقحط وطاعون وموتان وغيرها من الايات العظام والعجائب الجسام .

والحاصل : أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التبيين والتوقيت عما كان فى العالم ، وأما موضوعه فالانسان والزمان ، ومسائلة

(١) محمد عواد حسين : صناعة التاريخ — مجلة عالم الفكر — المجلد الخامس — العدد الاول ١٩٧٤ ص ١١٥ .

أحوالها المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة
للإنسان وفي الزمان^(٣) .

ويقول الجوهري : التاريخ تعريف الوقت ، والتورخ مثله ، يقال :
أرخت وورخت ، وقيل اشتقاقه من الأرخ ، يعنى بفتح الهمزة وكسرهما ،
وهو الأنثى من بقر الوحش ، لانه شئ حدث كما يحدث الولد ، هذا
وقد فرق عبد الملك الباهلي الأصمعي (٧٤٠ - ٨٣١هـ) بين اللغتين ، فقال :
بنو تميم يقولون : ورخت الكتاب تورخا ، وتقول قيس : أرخته تأريخا ،
وهذا يؤيد كونه عربيا ، وقيل انه ليس بعربي محض ، بل هو معرب
مأخوذ من «ماه روز» بالفارسية ، ومعنى «ماه» القمر ، و «روز»
اليوم ، وكان الليل والنهار طرفة ، قال «أبو منصور الجواليقي»
(١٠٧٣ - ١١٤٤) في كتابه «المعرب من الكلام الأعجمي» يقال : ان
التاريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي ، وانما أخذه المسلمون عن أهل
الكتاب ، وتاريخ المسلمين أرخ من سنة الهجرة ، كتب في خلافة عمر ،
رضي الله عنه ، فصار تاريخا الى اليوم^(٤) .

وعلى أية حال ، فلقد أكد جب H. Gibb : أن لفظ تاريخ ، انما
هو لفظ عربي ، بمعنى العهد أو الحساب أو التوقيت ، أى تحديد الوقت
وتحديد الشهر^(٥) .

ويقول أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب (٨٨٨ - ٩٥٨هـ) في كتابه
«المخارج» : تاريخ كل شئ آخره ، فيؤرخون بالوقت الذى فيه حوادث
مشهورة ، ونحوه قول «إبراهيم بن العباس الصولي» (٧٩٢ - ٨٥٧هـ) :
تاريخ كل شئ نهايته ووقته الذى ينتهى اليه زمنه ، ومنه قيل لفلان
تاريخ قومه ، اما لكون اليه المنتهى في شرف قومه - كما قال الطرزي -

(٢) شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوى : الاعلان بالتورخ
لن ذم التاريخ - بيروت - دار الكتاب العربى - ١٩٨٣ ص ٦ - ٧ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٦ - ٧ .
(٤) هـ. جب : علم التاريخ - تعريب لجنة ترجمة دائرة المعارف
الإسلامية - بيروت - دار الكتاب اللبنانى - ١٩٨١ ص ٢٦ - ٢٧ .

وذلك بالنظر لاضافة الامور الجلية من كرم أو فخر أو تحوُّلها اليه ،
واما لكونه ذاكرة للأخبار وما شاكلها (٥) .

وعلى أية حال ، فلفظ التاريخ ، انما يدل على معانٍ متفاوتة ، فهو
— في نظر الكتاب — انما يشتمل على المعلومات التي يمكن معرفتها عن
نشأة الكون كله ، بما يحويه من أجرام وكواكب ، ومن بيئها الارض ،
وما جرى على سطحها من حوادث الانسان (٦) ، ومن ثم فقد بدأ
المؤرخون الاقدمون كتاباتهم عن نشأة الارض — فعمل ذلك مؤرخو
التوراة ، كما جاء في سفر التكوين (٧) — وفعله المؤرخون المسلمون
كالطبري (٢٢٤ — ٣١٠هـ) وابن الاثير (٥٥٥ — ٦٣٠هـ) وابن كثير (٧١٠ —
٨٧٤هـ) كما فعله بعض المؤرخين المحدثين ، مثل «هربرت جورج ويلز»
(١٨٦٦ — ١٩٤٦م) ، حيث بدأ كتابه «الموجز» (٨) — وكذا المعالم (٩)
بدراسة نشأة الكون ، والارض وما ظهر على سطحها من مظاهر الحياة
المختلفة ، ثم تدرج في عرض تواريخ الامم والشعوب والتحضارات
المختلفة منذ نشأتها حتى العصر الحديث ، معبرا في ذلك عن وحدة
البشرية ، على الرغم من جزئيات تواريخها وتفصيلاتها (١٠) .

على أن جمهرة المؤرخين انما تذهب الى أن معنى التاريخ انما يقتصر
على بحث واستقصاء حوادث الماضي ، كما يدل على ذلك لفظ (Historia)

(٥) السخاوي : المرجع السابق ص ٧ .

(٦) حسن عثمان : منهج البحث التاريخي — القاهرة — دار المعارف
١٩٦٥ ص ١١ .

(٧) انظر : الاصحاحات العشر الاولى من سفر التكوين .

(٨) هـ جـ ويلز : موجز تاريخ العالم — ترجمة عبد العزيز توفيق
جاويد ، ومراجعة محمد مأمون نجا — القاهرة — مكتبة النهضة المصرية
١٩٦٧ ، وانظر الاصل :

H. G. Wells, A Short History of the World, (Penguin Books), 1965.

(٩) هـ جـ ويلز : معالم تاريخ الانسانية — المجلد الاول — ترجمة
عبد العزيز توفيق جاويد — القاهرة — لجنة التأليف والترجمة والنشر —
١٩٦٧ ، وانظر الاصل :

H. G. Wells, The Outline of History, London, 1963.

(١٠) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١١ .

المستمد من الأصل اليونانى القديم ، أى كل ما يتعلق بالانسان منذ بدأ يترك آثاره على الصخر والارض^(١١) بتسجيل أو وصف أخبار الحوادث التى ألت بالشعوب والافراد ، غير أن هذا الماضى ليس ماضيا قارا ذا حدود معينة ثابتة .

ومن ثم فقد عرف فريق آخر التاريخ : بأنه ذلك الذى يجرى مطلق مجرى الحوادث الفعلى الذى يصنعه الابطال والشعوب ، والتى وقعت منذ أقدم العصور ، واستمرت وتطورت فى الزمان والمكان حتى الوقت الحاضر^(١٢) .

على أن هناك وجها ثالثا للنظر يذهب الى أن التاريخ انما هو «علم الماضى» غير أن الماضى انما هو وعاء لكل مظاهر الكون بمختلف أشكالها وأنواعها ، يتسع للجيولوجيا ، ولعلم تطور الحياة ونشوتها وارتقاؤها ، ولعلم الفلك وغيره ، ولكل صنف من أصناف الكائنات ، من جماد ونبات وحيوان ، وهذا التاريخ له علماءه ، وله اختصاصيه ، ومن هنا فقد حاول البعض زيادة الايضاح فقالوا : انه معرفة الماضى الانسانى بمصادره اذن هى ما جرى فى الزمن السالف^(١٣) .

فالتاريخ إذن : هو المصدر الأساسى للمعرفة الانسانية ، وهو ذلك السفر الخالد الذى يحوى بين دفتيه التطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى مرت بها البشرية منذ قدر الله للانسان أن يبدأ حياته على الارض ، وحتى يغير الله الارض غير الارض .

11. C. Oman, in the Writing of History, London, 1939, p. 2.

(١٢) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٢ ، ف. هرنشو : علم التاريخ - ترجمه وزاد عليه عبد الحميد العبادى ، القاهرة ، ١٩٣٧ ص ٨ .
(١٣) شاكز مصطفى : التاريخ هل هو علم أم فن ؟ مجلة عالم الفكر المجلد الاول - العدد الاول - ١٩٧٤ ص ١٧٤ وانظر تعريفات أخرى فى : و. ن. ولى : المدخل الى فلسفة التاريخ - ترجمة أحمد حمدي محمود - القاهرة ١٩٦٢ ، وانظر الاصل :

W. N. Walsh, Introduction to the Philosophy of History, London, 1951.

هذا ويتناول التاريخ حياة الانسان - من حيث هو انسان - وليس موضوعه حياة الانسان - من حيث هو كائن حي - فذلك شأن العلوم البيولوجية التى تبحث فى أثر الزمن فى الكائنات الحية من حيث النمو والتطور والانحلال ، أما الانسان فهو الوحيد بين الكائنات الحية الذى يدرك معنى الزمن ، وبالتالي فالانسان هو الوحيد ذو التاريخ ، وهو الكائن الحى الوحيد الذى يصنع التاريخ ويصنعه التاريخ ، ومن ثم فإذا تناول المؤرخون بعض الاحداث الطبيعية ، مثل حدوث زلزال أو فيضان ، فإنما يهدفون من وراء ذلك الى دراسة أثر تلك الاحداث الطبيعية على الانسان بالذات (١٤) .

(٢) غاية التاريخ وأهدافه :

يقول المسعودى (ت ٣٤٥هـ - ٩٥٧م) عن التاريخ : انه علم يستمتع به العالم والجاهل ، ويستعذب موقعه الأحقق والعاقل ، فكل غريبة منه تصرف ، وكل أعجوبة منه تستظرف ، ومكارم الأخلاق ومعالجها منه تقتبس ، وآداب سياسة الملوك وغيرها منه تلتبس ، يجمع لك الاول والاخر ، والناقص والوافر والبادى والحاضر ، والموجود والغابر ، وعليه مدار كثير من الاحكام ، وبه يتزين فى كل محفل ومقام (١٥) .

ويقول ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ) : اعلم أن فن التاريخ عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الامة فى أخلاقهم والانباء فى سيرهم والملوك فى دولهم وسياساتهم حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا (١٦) .

ويقول أبو الفرج الاصبهاني (٨٩٧ - ٩٦٧) فى مقدمة كتابه الاغانى

(١٤) عادل حسن غنيم وجمال محمود حنجر : فى منهج البحث التاريخي - الاسكندرية - دار المعرفة الجامعية - ١٩٨٩ ص ١٣ - ١٤ .
(١٥) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر - الجزء الاول - بيروت ١٩٧٣ ، احمد محمود صبحي : فى فلسفة التاريخ - الاسكندرية - مؤسسة الثقافة الجامعية ص ١٠٤ .

(١٦) مقدمة ابن خلدون - دار القلم - بيروت ١٩٨١ ص ٩٠ .

ان القارىء اذا تأمل ما فيه (أى التاريخ) من الفقر ونحوها ، لم يزل منتقلا بها من فائدة الى فائدة ، ومتصرفا منها بين جد وهزل ، وآثار وأخبار ، وسير وأشعار ، متصلة بأيام العرب المشهورة ، وأخبارها المأثورة ، وقصص الملوك فى الجاهلية ، والخلفاء فى الاسلام ، يجعل بالمقارنين معرفتها ، وتحتاج الاحداث الى دراستها ، ولا يرتفع من فوقهم من الكهول عن الاقتباس منها ، اذا كانت مفتحة من غرر الاخبار ، ومفتحة من عيونها ، ومأخوذة من مظانها ، ومنقولة عن أهل الخبرة بها (١٧) .

ويقول المقرئى (٧٦٦ - ٨٤٥ = ١٣٦٤ - ١٤٤٢م) فى كتابه «الواعظ والاعتبار بذكر الخط والاثار» : ومنفعته (أى التاريخ) أن يشرف المرء فى وقت قصير على ما كان من الحوادث والتغيرات فى الأزمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة ، فتعذب بتدبير ذلك نفسه ، وترتاض أخلاقه فيحجب بالخير ويقعله ، ويكره الشر ويقتنبه (١٨) .

ولعل ابن الاثير (٥٥٥ - ٦٣٠ = ١١٦٠ - ١٢٣٢م) انما قد فصل القول أكثر من غيره فى مفهوم العبرة أو المغزى من دراسة التاريخ ، فجعلها منافع دنيوية وأخرية ، فأما الدنيوية ، فمنها أن الانسان لا يخفى أنه يحب البقاء ، ويؤثر أن يكون فى زمن الاحياء ، فباليت شعرى ، أى فرق بين ما رآه أمس أو سمعه ، وبين ما قرأه فى الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المتقدمين ؟ فاذا ظالمها فكأنه حاضرهم ، واذا علمها فكأنه حاضرهم ، ومنها أن الملوك ومن اليهم الامر والنهى اذا ما وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان ورأوا مدونة فى الكتب يتناولها الناس ، فيرونها خلف عن سلف ، ونظروا الى ما أعقبت من سوء الذكر ، وقبيح الاحدثة ، وخراب البلاد ، وهلاك العباد ، وذهاب الاموال ، وفساد الاحوال ، استقبحوها وأعرضوا عنها وأطرحوها ،

(١٧) أبو الفرج الاصفهانى : الاغانى - الجزء الاول - القاهرة ١٩٢٩ ، أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ١٠٤ .
(١٨) نفس المرجع السابق ص ١٠٤ .

واذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها ، وما ينجمهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم ، وأن ممالكهم وبلادهم عمرت ، وأموالها درت ، استحسنوا ذلك ورغبوا فيه ، وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه ، هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الأعداء ، وخلصوا بها من المهالك ، واستصانوا نفائس المدن وعظيم الممالك ، ولو لم يكن فيها غير هذا ، لكفى به فخرا •

ومنها ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير إليه عواقبها ، فانه لا يحدث أمر ، الا قد تقدم هو أو نظيره ، فيزداد بذلك عقلا ، ويصبح لأن يقتدى به أهلا ، ومنها ما يتجمل به الانسان في المجالس والمحافل من ذكر شيء من معارفها ، ونقل طريقة من طرائقها ، فترى الاسماع مصغية اليه ، والوجوه مقبلة عليه ، والقلوب متأملة ما يورده ويصدره ، مستحسنة ما يذكره •

وأما الفوائد الاخرية ، فمنها أن العاقل اللبيب اذا تفكر فيها ، ورأى تقارب الدنيا بأهلها ، وتتابع نكباتها الى أعيان قاطنيتها ، وأنها سلبت نفوسهم وخذاثرهم ، وأعدمت أضافرهم وأكابرهم ، فلم تثق على جليل وحقير ، ولم يسلم من نكدها غنى ولا فقير ، زهد فيها وأعرض عنها ، وأقبل على التزود للآخرة منها ، ورغب في دار تنزهت عن هذه الخصائص وسلم أهلها من هذه النقائص •

ومنها التخلق بالصبر والتأسي ، وهما من محاسن الاخلاق ، فاز بالعاقل اذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبى مكرم ، ولا ملك معظم ، بل ولا أحد من البشر ، علم أن يصيبه ما أصابهم وينوبه ما نابهم ، ومن أجل هذه الحكمة وردت القصص في القرآن المجيد ، قال تعالى «ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» فان ظن قائل أن الله سبحانه وتعالى ، أراد بذكرها الحكايات والاسمار ،

لقد تمسك من أقوال الزينج بمحكم سببها حيث قالوا : هذه أساطير
الأولين (١٩) .

ويقول السخاوى : وأما فائده (أى التاريخ) فمعرفة الامور
على وجهها ، ومن أجل فوائده أنه أحد الطرق التى يعلم بها النسخ
في أحد الخبرين المتعارضين المتعذر الجمع بينهما ، ويقول محمد
ابن ابراهيم بن مساعد بن الاكفانى في «ارشاد القاصدين الى أسنى
المقاصد» : وكتب التاريخ ينتفع بها في الاطلاع على أخبار الملوك
والعلماء والاعيان وحدث الحداث في الماضى من الزمان ، وفي ذلك
ترويح لل خاطر ، وعبر لاولى الابصار .

ويقول الموفق أبو الحسن على بن أبى بكر الخزرجى في مقدمة «تاريخ
اليمن» : حدانى على جمعه ما رأيت من افعال الناس لفن التاريخ ، مع
شدة احتياجهم اليه ، وتعويلهم عليه في كثير من الامور ، ولما يندرج في
ضمنه من المواعظ والاداب ، وتفصيل شوابك الاحكام والانساب ، قال :
ولولا معرفة التاريخ ما اتصل أحد من الخلف بشيء من أخبار السلف ،
ولا عرف قاضل مفضول ، ولا امتاز معروف عن مجهول .

ويقول المزمز الكتانى الحنبلى : لاشك في جلالة علم التاريخ ، وعظم
موقعه من الدين ، وشدة الحاجة الشرعية اليه ، لان الاحكام الاعتقادية
والمسائل الفقهية ، مأخوذة من كلام المهادى من الضلالة ، والمبصر من
العمى والجهالة ، والنقطة لذلك هم الوساطة بيننا وبينه ، فوجب البحث
عنهم ، والفحص عن احوالهم ، وهذا أمر مجمع عليه ، والعلم المتكفل
بذلك ، هو علم التاريخ ، ولهذا قيل انه من فروض الكفاية (٢٠) .

وعلى أية حال بغان الامر الذى لا ريب فيه ، أن الجامعات الان في كل
أنحاء العالم ، انما تمتلئ بأعداد كبيرة من الطلاب الذين يدرسون في

(١٩) ابن الاثير : الكامل في التاريخ - المجلد الاول - بيروت - دار
صادر ودار بيروت - ١٩٦٥ ص ٦ - ٩ .
(٢٠) السخاوى : المرجع السابق ص ٧ ، ٢٩ - ٣٠ ، ٥٥ .

أقسام التاريخ «بمرحلة الليسانس» فضلا عن مرحلة الدراسات العليا، للحصول على درجتى الماجستير (M. A. Thesis) (M. A = Master of Arts) والدكتوراه (Doctorate) ، وليس هناك من شك فى أن هذه الأقسام ، انما تعمل على تكوين أجيال متخصصة فى الدراسات التاريخية بين طلاب كليات الآداب فى كل الجامعات ، وهكذا يفتح التاريخ لهم مستقبلا أكاديميا (Academic) ثم ان هناك ميلا أمام معلمين أحسن اعدادهم لهذه المادة فى كليات ومدارس من كل المستويات وتحيط بهيئة التدريس وظائف ثقافية معينة يشغلها أمناء المكتبات وموظفو السجلات وأمناء المتاحف وسكرتاريو المعاهد وموظفو الخدمة الاجتماعية ، ولا مرأ فى أن تلك الوظائف آخذة الان فى الازدياد، تبعا لمطالب العصر الاجتماعية.

وثمة مهنة أخرى — ذات أهمية لا ريب فيها — وهى مهنة الصحافة وغيرها من وسائل الاعلام ، كالأذاعة والتلفزيون ، وانها لمزية كبرى لسحفى الشؤون السياسية والمراسلى الشؤون الخارجية والحربية أن يكونوا قد توفروا على دراسات تاريخية ، وذلك أن كثيرا جدا من الشؤون التى عليهم أن يتناولوها تفتقر الى ذلك الأساس ، لكى يتفهمها هؤلاء ويشرحونها ، وليس يخلو من مفزى أن تكون طائفة من أئدر الصحفيين الذين أسهموا بقسط كبير فى تكوين رأى عام أريب فى الشؤون العامة ، توفرت جميعا على أساس من الدراسة التاريخية ، ولو لم يتوفر لاولئك الصحفيين خلفية من هذه الدراسة التاريخية ، إكان تفسيرهم للحوادث ، وتحقيقهم عليها أقل وزنا .

وربما كان أهم من ذلك الخدمة المدنية التى تتزايد أهميتها اليوم فى كل البلاد ، تبعا لتزايد المصالح العامة ، ويمد احدى السبل المسلم بأهميتها لتولى المناصب الكبرى ، وذلك حىق اذ أنه يهيبء الخلفية المناسبة لأغلب الشؤون التى علينا تناولها فى الوظائف الادارية (٢١) .

(٢١) ل. ٠٩ . راوس : التاريخ : أثره وفائدته — ترجمة مجد الدين

وأما بالفنبة لرجال السياسة ، فالتاريخ أكثر من ضرورى لمباشرة أعمالهم بمهارة ووجدية ، فان جعل ذوى المناصب الكبرى فى المجال السياسى بالتاريخ ، انما نتيجه المؤكدة جهلهم بفهم تطورات العالم النسياسية بعقلية تاريخية ، ومثالنا على ذلك بريطانيا التى دفعت ثمنها باهظا لجهل قادتها قبل الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) بحقائق التاريخ الاوربى ومتجهاته ، ولم يكن أنصار العزلة فى أمريكا خيرا من أولئك ، ذلك لان انسحاب أمريكا فى عام ١٩٣٠م من مكانها الطبيعى فى السياسة الدولية ، انما قد أفضى فى النهاية الى اعتداء اليابان وألمانيا ، ونشوب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) (٢٢) .

غير أن أهمية التاريخ أهم من ذلك وأخطر بكثير ، أنه يبحث فى المجتمع الانسانى ، وفى حكايته ، وكيف أصبح الانسان كما هو الان ، وأن معرفة ما كانت عليه المجتمعات فى الماضى ، وكيفية تطورها لعلتصرن بالعوامل التى تؤثر فيها ، فضلا عن التيارات والقوى التى تحركها ، الى جانب الدوافع والمصادمات التى تشكلها - عامة كانت أم خاصة - أنه بحيث تتناول فيه الطبيعة البشرية فى كل وقت ، وهنا تبرز أهمية تراجم حياة الشخصيات التاريخية ، ومن ثم يتضح مقدار ما تقدمه قراءة تلك التراجم من فائدة ، فضلا عما تقدمه من متعة عقلية ، فالتاريخ لا يتناول حياة العظماء من الافراد وحسب ، فلقد يقال على صورة ما أنه يتكون من روايب حياة ملايين من الرجال والنساء الذين تقل أهميتهم ، والذين لم يخافوا اسما ، بل قدموا فقط حصتهم من المشاركة ، ان حياة هؤلاء لتجعل مادة التاريخ أشبه بالشعب المرجانية التى تتكون من حياة ملايين من المخلوقات البحرية الصغيرة القليلة الاهمية (٢٣) .

وهكذا يمكن القول : أنه لا غنى للانسان عن دراسة ماضيه باعتباره

حفى ناصف ، ومراجعة محمد أحمد أنيس - القاهرة - مؤسسة سجل العرب - ١٩٦٨ ص ٥ - ٦ وانظر الاصل :

A. L. Rowse, The use of History, London, 1946.

(٢٢) - نفس المرجع السابق ص ٩ .

(٢٣) - نفس المرجع السابق ص ١٥ .

مكائنا. اجتماعيا ، نؤمن ثم ينبغي عليه أن يعبرف تاريخ تطوره وتاريخ أعماقه وآثاره^(٢٤)، على أنه يجب أن نلاحظ أن دراسة الاحداث التاريخية - بارزها وما خفى منها في الاعماق - ليس لها في حد ذاتها - من حيث هي حوادث مجرد - كبير فائدة ، ما لم تتفاعل مع الفكر الانساني، ذلك أن الحوادث انما تصبح ذات قيمة عندما ينطقها المؤرخ بمدخرس ، باستفساره اياها ، والحاحه في سؤالها ، عن قدر مسؤوليتها ومدى تأثيرها في تغيير وضع الانسان وتوجيه مصيره ، فالتاريخ اذن غايته وفضالته أن يفهم ، وأن يربط العلل بالمعاملات والاسباب بالمسببات، وأن يجهن من كامل الواقع المتشعب والمتراعى الاطراف ، شيئا له نظامه وانسجامه - اضطرابا والزاما - بحكم التسلسل والتوالد المنطقي . فالتاريخ بناء منطقي لعالم الانسان^(٢٥) .

وانطلاقا من كل هذا ، وبناء عليه ، فمن واجب المؤرخ أن يدرس - مثلا - العوامل التي أدت الى حدوث الغارات والحروب وما لابس ذلك ، وما خلفته من الآثار ، ويتتبع - مثلا - حركة الكشف الجغرافي في أخريات القرن الخامس عشر الميلادي . وما ترتب على ذلك من تغيير طريق التجارة العالمى بين الشرق والغرب ، وما أدى اليه من تدهور أهم وارتفاع أخرى ، وينبغي عليه - مثلا - أن يتبين أثره في هيئة الحاكمين وفي مجموع الشعب ، كما عليه - مثلا - أن يدرس الاسباب التي أوجدت أنواعا من الادب ، أو ألوانا جديدة من فنون التصوير والنحت والعمارة ، أو أساليب جديدة من فنون الموسيقى ، وأن يبين الى أى مدى ارتبط ذلك كله بالعصر ، وبالبيئة وبالبعقريات الادبية والفنية التي أوجدت هذه النماذج المبتكرة في مختلف مجالات الادب والفن ، وما الى ذلك من أوجه النشاط الانساني ، ومقومات الحضارة^(٢٦) .

وإذا كان الامر كذلك ، فانه ينبغي - كى يكون البناء متين الاساس

(٢٤) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٥ .

(٢٥) محمد الطالبي : التاريخ ومشاكل الغد - مجلة عالم الفكر -

المجلد الخامس - العدد الاول ١٩٧٤ ص ١٤ - ٢٥ .

(٢٦) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٥ .

وفى مأمن من مزلق الخيال — أن لا يعمل المؤرخ فى مظهر من مظاهر الواقع ، ذلك لان الاغفل هنا قد يؤدى الى عدم الفهم ، أو الى شر من ذلك ، الى سوء الفهم ، واشادة قصور من ورق ، سرعان ما تتهار ، وتسلم أصحابها الى أوحش العواقب ، اذ أنه يستحيل عليه — مثلاً — أن يفهم الانسان فهما صحيحا مفيدا اليوم وغدا — والانسان هو موضوع علم التاريخ — اذ اكتفى باحصاء الكوارث ، واذا اجتهد فى وضع قوائم الحوادث ، ذلك لان الانسان لا يفهم ما لم نعتن كذلك بحياته الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية والسياسية والمقدنية والادبية والفنية بصفة عامة ، وغير ذلك مما يكونه ويكون بيئته وماهيته ، ومن ثم فان المؤرخ انما يلجأ اليوم الى تخصص أدق ، حتى يتمكن من أداء رسالة التاريخ على وجهها الصحيح ، أى حتى يتمكن من اعانتنا على فهم ذاتنا أكثر فأكثر (٢٧) .

ولعل السبب فى ذلك ، أن التاريخ — كما يقول سير تشارلز فيرث — ليس فرعاً من التحصيل يدرس لذاته ، ولكنه نوع من المعرفة يفيد الناس فى حياتهم اليومية ، وأن غاية كل مناحى التاريخ — فيما يرى سير ووالتر رالى — هى تعليمنا ، عن طريق عبر الماضى ، الحكمة التى قد توجه أعمالنا ورغباتنا ، الامر الذى دفع «بيكون» أن يبحث مزايأ أنواع الدراسات المختلفة ، وأن يقول : قراءة التاريخ تلقن الناس دروساً فى الحكمة ، وعلى أن يقول «سيلى» عبارته المشهورة التى طال الجدال حولها : «التاريخ هو السياسة الماضية ، والسياسة هى التاريخ الحاضر» .

غير أن التاريخ لا يمكن أن يؤدى وظائفه هذه ، الا بشرط مطابقته للواقع ، حتى لا يكون بناء الحاضر والمستقبل على مقدمات واهية توهن أسف ، فان توفر هذا الشرط الذى يحطم به كل مؤرخ مخلص لعمله ، ليس عسيراً فحسب ، بل هو مستحيل تماماً فى كافة العلوم الانسانية ، وفى التاريخ على وجه الخصوص ، ومن ثم فان كل كتابة للتاريخ — مهما

احتطنا — ليست هي الحقيقة الكاملة ، ذلك لان التاريخ الذي نكتبه ليس أبدا عين الحقيقة في ذاتها المجردة .

ثم هناك مشكلة الوثائق التي يعتمد عليها المؤرخ في كتابة التاريخ فهذه الوثائق لا تمثل أبدا كل الواقع — مهما كان التاريخ الذي نكتبه قريبا أو بعيدا — وخاصة اذا ما كان بعيدا ، فان ما يبلغنا من وثائق لا يحيط بجميع نواحيه ، ذلك أن يد الدهر ، ويد الانسان ، وأنواع الصدف في النهاية ، إنما تضمن البقاء للبعض ، بينما تعرض البعض لإلآخر للتلطف ، الأمر الذي يترك ثقوبا في نسيج التاريخ تكثر أو تقل ، ويتسع خرقها ويزيد بمرور الزمن أو يضيق ، وكل هذا يختم في النهاية بألوان من التحريف لاسيما عندما يستعين المؤرخ بالخيال ليرتق الفتق ويملا البياض ، ويرغو الثقب .

ومع ذلك ، فهناك أخطر من هذا كله ، فقد يقصد أحيانا ، لأسباب شتى ، التزوير عن قصد بطرق مختلفة ، تتراوح أحيانا ، ما بين التدليس الصراح ، والافتراء السافر ، إلى الاغفال المدبر ، وغض الطرف ، واسدال الستر ، ومن أسف ، فان الامثلة على هذا جد كثيرة ، تجدها في أقدم عصور البشرية ، كما تجدها في عصرنا الحاضر هذا (٢٨) .

(٣) مكانة التاريخ بين الفنون والعلوم :

في أخريات القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين ، قام جدل شديد بين رجالات العلم والتاريخ والادب في وصف التاريخ بصفة العلم ونفيها عنه ، وكان الجدل على أشده في أوروبا ، وقد ظل هكذا محتما زمنا ، وخاصة في ألمانيا ، حيث أمسى جزءا من مناهضة شهيرة بين المؤرخين والفلاسفة ، ومن ثم فقد انقسم العلماء إلى فريقين :

ذهب الفريق الاول — ومنهم وليام ستانلى جيفونز (William Stanley Gevons) (١٨٣٥ — ١٨٨٢م) — أن التاريخ لا يمكن أن يكون علما ،

(٢٨) نفس المرجع السابق ص ٢٩ — ٣٠ ، وانظر عن فلسفة التاريخ: احمد محمود صبحي : المرجع السابق ص ١٢٣ — ١٣١ .

وكذا K. Jaspers, The Origin and Goal of History, p. 232, 271. وكذا B. Croce, History, its Theory and Practice, pp. 51-83, 104-153.

لانه يعجز عن اخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة ، ومن ثم فلن نستخلص من دراسته قوانين علمية يقينية ثابتة ، على نحو ما هو موجود بالنسبة لعلم الطبيعة أو الكيمياء مثلا ، ومما يبعد التاريخ عن صفة العلم - في نظرهم - قيام عنصر المصادفة ، ووجود عنصر الشخصية الانسانية وحرية الارادة ، مما يهدم الجهود الرامية الى اقامة التاريخ على أسس علمية ، على نحو ما يفعل علماء الطبيعة أو الكيمياء وأضرابهم .

هذا ويذهب رجال الادب الى أنه - سواء أكان التاريخ علما أم لم يكن - فهو فن من الفنون ، وأن العلم لا يمكنه أن يعطينا عن الماضي ، سوى العظام المعروفة اليابسة ، وأنه لا بد من الاستعانة بالخيال لكي تنشر تلك العظام ، وتبعث فيها الحياة ، ثم هي بحاجة كذلك الى براعة الكاتب حتى تبرز في الثوب اللائق بها (٢٩) فمثلا لا يستطيع المعلم الطبيعى أن يفسر لنا حريق موسكو في عهد «نابليون بونابرت» (١٧٦٩ - ١٨٢١م) في عام ١٨١٢م ، على أساس قصصنا الاستعالي ، ولا بد من تدخل المؤرخ أو الأديب ، لكي يصف لنا الحريق وما تركه من آثار ، وقبل ذلك لا بد من تدخل المؤرخ لكي يشرح لنا الاسباب والظروف السياسية والعسكرية التي أدت الى ذلك الحريق بوهكذا فكل من المؤرخ وعالم الطبيعة انما يشرح الحادث بطريقته ، وكل منهما يكمل الآخر ، وكلاهما ضرورى لتقدم المعرفة الانسانية (٣٠) .

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة الى أن المدرسة التاريخية انما تصير على التفرقة بين التاريخ والعلوم الطبيعية ، وتتضح هذه التفرقة عند «فيلهلم فيندلباند» (Wilhelm Windelband) الذي ميز بين علوم «واضعة

(٢٩) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٦ ، ف. هرنشو : المرجع السابق ص ٣ - ٤ .
(٣٠) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٦ ، وكذا

F. M. Fling, The Writing of History, An Introduction to Historical Method, New Haven, Yale Un. Press, 1926, p. 20.

للقوانين» وبين علوم «مصورة للأفكار»، فالمعلوم الطبيعية واضحة للقوانين ، لأنها تهدف الى صياغة قوانين عامة ، وأما المعلوم الانسانية، ومناهجها مختلفة ، فهي «مصورة أفكار» ، ومنها «علم التاريخ» ، وتدرس العلوم واضحة القوانين ما يتكرر على نمط واحد ، بينما تدرس العلوم «مصورة الأفكار» — كالتاريخ مثلا — ما حدث مرة ، ولا يحدث مرة أخرى .

• وإذا نظرنا الى طريقة تفكير كل من العالم والمؤرخ ، لوجدنا العالم انما يهدف الى المعرفة ، وهذه هي غاية العلم ، بينما يهدف المؤرخ الى التقويم ، ومن ثم فيمكن أن يمد التاريخ من علوم القيم ، فالأحكام الاخلاقية التي يصدرها المؤرخون ، والتي تشكل ما يعرف باسم «حكم التاريخ» تجعل هذا العلم قريبا من علم الاخلاق .

هذا وقد اكتملت النزعة التاريخية عند المفكر الايطالى «بنديكتو كروتشه» (Benedetto Croce) الذى انتقد الاسس التى تستند اليها النزعة الطبيعية ، أما الاهتمام بجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات التاريخية ، فلا يجعل التاريخ — فى نظره — الا مجرد سرد ، أو تقويم ، حيث الاهتمام بمجرد التحليل والتصنيف ، دون بحث عما وراء القصص فلا يعد تاريخا ، وانما هو مجرد تسجيل للوقائع الماضية الحقة^(٣١) .

على أن هناك من اعتمد على أن التاريخ انما يهتم أساسا بتسجيل الماضى ، حيث يسمى المؤرخ الى تقديم وصف دقيق للفترة الطويلة التى عاشها الانسان على الارض ، وهو بذلك انما يصف الحوادث بطريقة موضوعية ، ويحاول أن يربطها فى سياق زمنى ، بغية تقديم قصة مستمرة من الماضى الى الحاضر ، الأمر الذى دفع الى تطوير المعرفة التصويرية Idiographic فى التاريخ ، ومن ثم فقد ذهب الكثيرون الى القول بأن

(٣١) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٣٩ .

التاريخ لا يعد علما ، وإنما هو منهج له تطبيقاته في ميادين مختلفة من ميادين المعرفة (٣٣) .

ويرى «هرنشو» (Hearnshaw) أنه على الرغم من أننا لا نستطيع أن نستخلص من دراسة التاريخ قوانين علمية ثابتة ، على غرار ما هو كائن في العلوم الطبيعية ، فإن هذا لا يجوز أن يجرّد التاريخ من صفة العلم ، وأن العجز عن بلوغ أغراض محددة في دراسة «المتيورولوجيا» Metallurgy مثلا ، بسبب عدم دقة قوانينها ، لا يجوز نفى صفة العلم عنها ، ومن ثم ، فالرأي عنده ، أنه يكفي في اسناد صفة العلم الى موضوع ما ، أن يمضى الباحث في دراسته ، مع سعيه لتوخي الحقيقة ، وأن يؤسس بحثه على حكم ناقد طرح عنه هوى النفس ، وباعد نفسه عن كل افتراض سابق ، مع امكان التصنيف والتبويب فيه (٣٣) .

ويرى «لويس جوتشالك» (Louis Gottschalk) في كتابه «كيف تفهم التاريخ» : من المؤكد أن التاريخ علمي في منهجه ، فإن ملايين الحقائق التاريخية يمكن أن تقرر بحيث تقنع غير المختصين والخبراء سواء بسواء فالمنهج التاريخي علمي في حدوده أي أن نتائجه تخضع للتحقيق والاتفاق بين الخبراء وعجم الاتفاق بينهم ، عن فهم وإدراك (٣٤) .

على أن هناك فريقا ثالثا انما يذهب الى أن التاريخ علم من العلوم ، فالأورخ الأنجليزي «ج.ب. بيوري» (J. B. Bury) (١٨٦١ - ١٩٢٧م) يقول في محاضراته الافتتاحية في كامبردج (تاريخ حرية الفكر) : أن التاريخ قد عانى من كونه جزءا من الادب ، بينما التاريخ علم لا أكثر

(٣٢) محمد علي محمد : علم الاجتماع والمنهج العلمي - الاسكندرية دار المعرفة الجامعية - ١٩٨٨ ص ١٣٩ ، وكذا E.G. Seignobes, Methode Historique Applique aux Seince Social, Paris, 1907.

(٣٣) ف. هرنشو : المرجع السابق ص ٦ - ٧ ، حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٦ - ١٧ .
(٣٤) حسان حلاق : مقدمة في منهج البحث التاريخي - بيروت دار النهضة العربية ١٩٨٦ ص ٦٣ .

ولا أقل ، وأن وقائمه ، يمكن أن تدرس موضوعيا كوقائع الجيولوجيا والفلك ، أى أن تدرس على أنها أشياء خارج الذات ، إذ لا يقضى قيام علم على أساس ذاتي ، وأن الوقائع التاريخية يمكن أن تجمع وتصنف وتفسر ، كما هو الحال في أى علم ، ثم يقول : ما بقى التاريخ يعد أدباء ، فليس في الامكان التثبت جديا من الصدق ومن الدقة ، ثم يورد عبارة أكثر حزمًا ، يقول فيها : أحب أن أذكركم أن التاريخ ليس فرعًا من الأدب (٣٥) .

هذا وقد كرر هذا التأكيد — قبل بيوري وبمعه — جميع أولئك المؤرخين الذين أصروا أمام انتصارات العلوم الطبيعية وفوزها بتسليم الجميع ، وبقيادة الرفاه الانساني ، على الصاق التاريخ بالعلم الطبيعي ووضع عنوان «العلم» على بابهِ بالمسامير ، وقد كانوا يريدون من خلال هذا التوكيد على علمية التاريخ نفى تلك الريبة التي تلاحقهم حول قيمة التاريخ العلمية ، ومن ثم فقد ذهب «كارل همبل» Carl Hempel الى : أن التاريخ يمكن أن يستوعب فردية وقائع لا تقبل ولا تزيد عن الطبيعة والكيمياء ، وأن المؤرخ يستطيع أن يفسر اغتيال القيصر تماما ، كما يفسر الجيولوجي زلزالا ، إذ يبين أن الحادثة لم تقع مصادفة وإنما وفقا لظروف معينة ، فمنطق التفسير واحد في جوهره في كل من التاريخ والعلوم الطبيعية ، وليست النبوءة في التاريخ تكنية ، ولكنها تنبؤ علمي قائم على افتراض قوانين عامة لا غنى للمؤرخ عنها ، وأن كانت هذه القوانين لا تعنى الحتمية ، وإنما تدع مجالا للامكان والاحتمال (٣٦) . وإلى مثل هذا ذهب «باتريك جاردنر» في كتابه «طبيعة التفسير

(٣٥) أحمد محمود صبحي : المرجع السابق ص ٤٤ ، أول : راوس : المرجع السابق ص ٨٣ ، وكذا

T. R. Tholfsen, Historical Thinking, p. 218.

(٣٦) أحمد صبحي : المرجع السابق ص ٢٤ — ٢٥ ، وكذا

C. Hempel, The Functions of General Laws in History

التاريخي»^(٣٧) و «وليم دراى» فى كتابه «القوانين والتفسيرات فى التاريخ»^(٣٨) .

وافن ، فالتاريخ الحديث اليوم سوف يعنى ما قد يسمى بالتاريخ الجديد ، وذلك لكى يتيسر التمييز بينه وبين التاريخ القديم ، فالتاريخ الجديد : تاريخ يكتبه أولئك الذين يعتقدون أنه ليس قسما من «العلوم الادبية» ، وأنه ليس مجرد قصة طريفة مقيدة ومسلية ، وانما هو نوع من العلوم ، وهذا العلم – ككثير من العلوم الاخرى – انما هو من ابتكار القرن التاسع عشر الميلادى الى حد كبير^(٣٩) .

هذا وقد آثار الذين ينادون بأن التاريخ ليس علما أمرين ، الواحد: أن المؤرخ لا يلاحظ الظواهر التى يدرسها بطريقة مباشرة ، وانما عن طريق السمع والنقل عن الآخرين ، أو الاخذ عن بعض الوثائق التى كتبها أشخاص شاهدوا هذه الظواهر أو سمعوا عنها ، وبدهى أن نتعامل مع هذه الطريقة بحذر ، فضلا عن الشك فى نتائجها ، ذلك لان كثيرا ما يشوه البعض الحقائق عند نقلها ، خاصة تلك الحقائق التى تضرب بأغوار بعيدة فى الزمان والمكان .

وأما الأمر الثانى : فليس من حقنا أن نطلق على أى بحث نظرى اسم البحث العلمى، إلا اذا أمكن استخدامه فى التنبؤ بالمستقبل، وبمعنى آخر : إلا اذا مكنتنا من الكشف عن بعض العلاقات أو القوانين العامة التى يمكن تطبيقها على الظواهر ، مهما اختلفت أزمانها وأماكنها ، الأمر الذى لا يمكن تحقيقه فى التاريخ، ذلك لاننا لانستطيع القول بأن المؤرخ يمكنه أن يستخلص القوانين العامة التى تمكته من التنبؤ بالحوادث قبل وقوعها .

(٣٧) انظر :

Patrick Gardiner, Theories of History, London, 1954

(٣٨) انظر :

William Dray, Laws and Explanation in History

(٣٩) راوس : المرجع السابق ص ٨٣ .

غير أن الذين يتبنون فكرة «التاريخ العلمي» ، أو الدعوة الى أن التاريخ إنما شأنه شأن أى علم آخر ، إنما يردون على القضية الأولى بأن التاريخ إنما قد أخذ فعلا بعض الشيء من العلوم الاستقرائية، ذلك لأن المؤرخين اليوم يبتعدون عن مجرد وصف الحوادث وتتابعها، محاولين تفسيرها ، فضلا عن الكشف عن العناصر الجوهرية في النظم السياسية والاجتماعية ، بغية أن يقفوا على أسباب الظواهر التاريخية ، وبهذا أصبحوا أشبه بعلماء الاجتماع، وأن خالفوهم في الاعتراف بتأثير العوامل الفرجية ، وعلى أية حال ، فإن المؤرخين اليوم لا يعتمدون على سماع الأخبار ونقلها ، ولا يقبلون الخبر ، الا بعد نقده وتمحيصه ، والا بعد المقارنة بين مختلف الروايات ، رغبة في الوصول الى حقيقة تاريخية مجردة من كل طابع شخصي ، وهكذا ضاقت الهوة التي تفصل التاريخ عن العلوم التجريبية منذ أن طبق المؤرخون أساليب التفكير الاستقرائي على بحوثهم ، فهم يبدأون بجمع الوثائق وتحليلها ، ثم وضع الفروض التي يمكن التأكد من صدقها ، عن طريق الحوادث التاريخية ، وقد تكون الوثائق ناقصة ، وهنا تبدو حاجة المؤرخ الى المقارنة حتى يستطيع التثبت من صدق توقعاته .

وأما القضية الثانية ، فيذهبون في الرد عليها الى أنه يجب التوسع في مفهوم العلم ، صحيح أن العلم لا يدرس سوى للعام أو الكلي، وأنه يكشف عن العلاقات السببية التي توجد بين الأشياء ، ولكنه صحيح كذلك أن تعريف العلم على هذا النحو إنما يفرض منه بعض البحوث النظرية التي لا شك في أنها علمية ، كعلم الجيولوجيا الذي لا يدرس سوى حالات خاصة عندما يبين الاطوار الخاصة التي مرت بها طبقات الارض في مختلف العصور ، والواقع أنه ليس ثمة فارق كبير بين التاريخ وعلم الجيولوجيا ، فالتاريخ إنما يدرس ماضي المجتمعات الانسانية ، ويدرس علم الجيولوجيا ماضي الكرة الارضية ، وهذا الى أن التاريخ — كما أشرنا آنفاً — إنما يدرس الحوادث الماضية ، فضلا عن الكشف عن العلاقات السببية التي توجد بينها ، لتفسيرها وتحليلها .

على أن التاريخ بمعناه العام إنما يبحث في الظواهر الانسانية ،
الحاضرة والماضية ، ومن ثم فهو يدرس ماضى الطبيعة وماضى المجتمعات
ويمكن معالجة جميع الظواهر على أساسين ، الواحد نظري ، والاخر
تاريخي ، فمثلا يستطيع العالم دراسة تاريخ الارض والمجموعة
الشمسية ، والقوانين التي تخضع لها هذه الاجرام في الماضى والحاضر
والمستقبل ، وأما التاريخ بمعناه الضايق ، فرسم صورة واضحة عن
الانسانية ، اعتمادا على ما تركه الانسان من آثار مادية وأدبية ودينية ،
فإنظاهرة التاريخية ظاهرة اجتماعية في جوهرها ، وإن كانت محدودة
الزمان والمكان ، بمعنى أن التاريخ لا يعالج نشأة الديانات بصفة عامة ،
مثلا ، وإنما يدرس كيف ظهرت إحدى الديانات كالاسلام أو المسيحية ،
كما لا يقف التاريخ عند دراسة المجتمعات الانسانية ، وإنما يدرس
حياة الافراد أيضا ، إلى جانب تأثيرهم في أقوامهم أو عصورهم ، ومن
ثم فهو يؤرخ لأبطال التاريخ الذين خلقوا فوق عصورهم ، وقادوا
أممهم ، وتطبعوها بطابع خاص (٤٠) .

وهكذا ، ومنذ أعلن «ليوبولد فون رانكه» (Leopold Von Ranke)
(١٧٩٥ - ١٨٨٦م) - أشهر مؤرخى الالمان في القرن التاسع عشر ، مؤرث
المدرسة العلمية الالمانية - أن التاريخ يبين بوضوح وبساطة كيف
انبعثت الأشياء ، وأن الغاية القصوى منه أن يصور ما حدث بالضبط ،
وأن يستبعد المؤرخ جميع عواطفه ليصبح تاريخه صورة صادقة للحوادث
كما حدثت دونما زيادة أو نقصان ، ودونما أى تدخل منه ، وهذا يعنى
أن يكون رائده الموضوعية المطلقة والتجرد التام ، وهذه من مطالب
المدرسة الوضعية فى التاريخ .

وهكذا اعتبر المؤرخون أنهم ظفروا أخيرا بمنتهى الموضوعية التى
يطلبها العلم ، وأن «رانكه» إنما أعلن ميلاد «التاريخ العلمى» ، ولم
يبق عليهم إلا تحديد الطريق الذى يصلون به إلى «ماحدث بالضبط» .

(٤٠) محمد على : المرجع السابق من ١٣٩ - ١٤٢ .

غير أن «رائكة» من ناحية أخرى ، إنما يعتبر الواقعة التاريخية فردية ، لها طابعها الذى تتفرد به ، ومن ثم لا تتماثل واقعتان ، ولا تتدرجان تحت نوع ، كما يندرج الأفراد فى العلوم الطبيعية ، ذلك لأن ديمقراطية أثينا — مثلا — ليست هى الديمقراطية بمفهومها الحديث ، ومن ثم فلا تندرج الوقائع التاريخية تحت مقولات عامة ، وأن التعلق بالمقولات العامة مزعة صورية تتنافى مع واقعية الدراسة التاريخية (٤١) .

ولعل سائلا يتساءل : إذا لم يكن التاريخ علما بالمفهوم الفيزيائى -
للعلم ، فما هو التاريخ إذن ، وما منهجه ؟

إن الفرق بين العلم والتاريخ هو الفرق بين الممكن والواقع ، بين الكلى والجزئى ، بين المنهج الاستقرائى والمنهج الحسمى ، ذلك لأن التاريخ لا يستدل ، أنه يسرد ، ولكنه لا يقف عند مجرد السرد الظاهرى إذ أن موقف المؤرخ إنما هو أقرب الى موقف الفنان ، حيث يتمثل كلاهما الواقع بنظرة فردية ، فمثلا ، إذا أردت أن تدرك عن قرب تاريخ رجل صقلى من العصر الحجري الحديث ، فحاول أن تكون صقليا من نفس العصر ، أى أن تفكر مثل تفكيره ، فإن لم تستطع أو لا تريد أن تكون كذلك فافنع نفسك بالوصف والتصنيف الى جماجم وآلات ورسوم تخص أناس العصر الحجري الحديث ، ولكن ذلك لا يشكل تاريخا .

وأيما إذا لم تستطع أن تدخل فى فكر الصقلى ، ولا أن تفكر كما يفكر ، وأن تتعمق فى أسلوب حياته وفكره الى حد أن تجعل أفكاره ، كما لو كانت لك ، فليس ذلك تاريخا ، قد يندرج ذلك تحت علم آخر ، كعلم الاجناس أو الآثار ، وهكذا ينصح «كروتش» من يعجز عن أن يتعاش

(٤١) شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ١٨٨ ، محمد صبحى : المرجع السابق ص ٣٥ ، وكذا

T. R. Tholfsen, Op. Cit., pp. 157-185.

مع العصر ، أو الفرد الذى يؤرخ له ، أن لا يصبح مؤرخا ، حيث تعوزه البصيرة التاريخية»^(٤٢) .

على أننا يجب أن نلاحظ ، أن للتاريخ - فيما يرى هرنشو - ليس علم تجربة واختبار ، ولكنه علم نقد وتحقيق ، وأن أقرب العلوم الطبيعية شيئا به هو «علم الجيولوجيا» ، بل إن «أدولر كلر» انما يذهب الى أن الهوة التى تفصل المؤرخ عن الجيولوجى ، ليست أصق أو أكثر من تلك التى تفصل الجيولوجى عن الفيزيائى ، ذلك لأن كلا من الجيولوجى والمؤرخ انما يدرس آثار الماضى ومخلفاته ، لكن يستخلص ما يمكنه استخلاصه عن الماضى والحاضر ، سواء بسواء ، ويميز عمل المؤرخ عن الجيولوجى من حيث اضطراب الاول الى أن يدرس ويفسر العامل البشرى الارلى الانفعالى ، حتى يقترب ، قدر الامكان ، من الحقائق التاريخية ومن ثم فالتاريخ مزاج من العلم والادب والفن فى آن واحد^(٤٣) .

وهكذا يمكن القول بأن التاريخ بما يتميز به من صفات مرنة ، باستطاعته أن يحوى كل العلوم ، اذ بإمكان المؤرخ ، ضمن اختصاصه أن يكون مؤرخا للشعوب والدول والاحداث ، وفى نفس الوقت يمكن أن يكون مؤرخا للعلوم والهندسة والطب والفلك والرياضيات ، ذلك لانه كان ، وما يزال ، هناك تاريخ للهندسة وتاريخ للطب وتاريخ للفلك والكيمياء والفيزياء والرياضيات ، وبمعنى آخر ، فإن التاريخ باستطاعته أن يستوعب مختلف العلوم والاداب ، وهو الوحيد القادر على احتوائها فى قلبه التاريخى المميز ، فالملاحظ أن هناك تاريخا للعلوم كالهندسة والطب مثلا ، ولكن ليس فى المقابل هندسة تاريخية أو طب تاريخى ، وانما هناك تاريخ للطب^(٤٤) .

(٤٢) أحمد صبحى : المرجع السابق ص ٣٢ - ٣٣ ، وكذا

B. Croce, History as the Story of Liberty, 1941.

(٤٣) ف. هرنشو : المرجع السابق ص ١٢ - ١٣ ، حسن عثمان :

المرجع السابق ، ص ١٧ ، وكذا

R. Carr, What is History (Penguin Book), 1961.

(٤٤) حسن هلاق : المرجع السابق ص ٦٣ .

الفصل الثانى

المذاهب المختلفة فى تفسير التاريخ

لاريب في أن الفكر الوضعي لا بد وأن يتأثر بطبيعة العصر الذي يعيشه — سلبا وإيجابا ، وبدرجة أو بأخرى — وهذا التأثير المحتمل ينعكس على معطياته الفكرية ، سواء كانت صيغة هذا التأثير بشكل تقبل لقيم العصر وأوضاعه ومناهجه ورؤاه ، أو رفض لها وتمرد عليها ، ففي كلتا الحالتين يلعب الجانب التأثيري الانفعالي ، والاسقاطات الظاهرة والخفية في الوعي والملاوعي ، دوره في الرؤية التي يمارسها الفكر تجاه الأوضاع والاحداث والاشياء .

فإذا ما تحدث ، وكان المفكر مفسرا للتاريخ ، وتفسير التاريخ — فيها نعلم — توسيع للتحليل صوب الماضي والمستقبل اللذين يندان كثيرا عن المحصر والضبط والتحديد ، فإن لنا أن نتصور كم سيجيء هذا التفسير مطبوعا بطابع العصر الذي يعيشه المفسر ، وكيف أن الأشياء والوقائع والاحداث ، في الماضي والمستقبل ، ستأخذ اللون الذي يحدد المفسر نفسه مضطرا إلى النظر من خلال زجاجته التي أسقطت عليها مولضعات العصر الظلال والاضواء ، وهذا يؤدي — بدوره — إلى أن تبعد التفسيرات الوضعية — بدرجة أو بأخرى ، عن العلمية والموضوعية والحياد (١) .

ومن هنا فإن أية نظرة سريعة تجاه معطيات الفكر الفلسفي الراهن ، وعروض الكتبة المعاصرة ، إنما تطلعننا على حشد كبير من الابحاث والمؤلفات المتعلقة بنظريات التفسير الوضعي للتاريخ (٢) ، والتي تختلف طبقا لوجهة نظر أصحابها .

(١) عماد الدين خليل : التفسير الاسلامي للتاريخ — بيروت — دار العلم للملايين — ١٩٨٣ ص ١٠ — ١١ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨ .

وهكذا بدأ عدد من المفكرين يحاولون تقنين التاريخ على أساس علمي يهدف إلى إرساء قواعد ثابتة تصبح معها الحوادث التاريخية مجرد تفاصيل أو تجارب ينتظمها ما تضمنته هذه القواعد من مقدمات ونتائج، وهكذا ظهر عدد من التفسيرات — بجانب التفسير الفردي للتاريخ، الذي يمجّد الأشخاص البارزين ويضخم من دورهم — يجمعها طابع واحد هو : أنها تنظر للتاريخ على أنه تطور للمجتمع ، قبل أن يكون سجلا لأعمال الأفراد — وأن اختلفت فيما بينها في تحديد الاتجاه الذي يسلكه هذا التطور والدافع الذي وراءه ، والنتيجة التي يهدف إليها (١) .

وصوف نتعرض هنا بالمناقشة للمذاهب التالية في تفسير التاريخ :

- ١ - التفسير الديني ٢ - التفسير الفردي ٣ - التفسير النفسي
- ٤ - التفسير الطبيعي ٥ - التفسير المادي ٦ - التفسير الحضاري
- ٧ - التفسير الأخلاقي ٨ - التفسير الإسلامي .

(١) التفسير الديني :

يذهب أصحاب هذا التفسير إلى أن حركة التاريخ إنما تقوم على معتقدات دينية لعبت دوراً حاسماً في تقدم الإنسان وبناء حضارته .

ولاربيب في أن المعتقدات الدينية إنما كان لها أثرها في حركة التاريخ — سواء كانت هذه المعتقدات سماوية أو إنسانية — وتاريخ الأديان — السماوية والإنسانية — خير شاهد على ذلك ، ولنأخذ مثالين على ذلك ، الأول بشري (وضعي) من مصر الفرعونية ، والثاني سماوي من بلاد العرب عند ظهور الإسلام ، دين الله الحنيف .

فلنأخذ في مصر الفرعونية — وعلى أيام الوثنية — فتمحدثنا نصومن الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م) أن المعبود الوثني «أمون» إنما كان — في نظر القوم — هو الذي يمنح الفرعون البأس والنصر، ويمعطيه

(٣) لطفي عبد الوهاب : مناهج الفكر التاريخي - بيروت - مكتب كريدية - ١٩٧٩ ص ٨٧ ، ٨٠ .

كل الاراضى والبلاد الاجنبية خاضعة ذليلة تحت قدميه ، وأن هناك ما يشير الى أن الفرعون انما كان يطلق تفويضا الهيا من آمون الذى كان يبعثه بقوة وحزم ليقضى على أعدائه ، وقد عبرت بعض الأدلة الاثرية على ممارسة آمون لهذا الاختصاص بتقديمه سيف خشبي للفرعون لميزبح به أعداءه ، وفي الواقع ، فإن حروب الدولة الحديثة انما كانت حروبا دينية ، بقدر ما كانت حروبا وطنية ، أو على الأقل فإن القوم وقت ذاك انما كانوا يظهرونها ، وكأنها ذات صبغة دينية ، وأنها كانت تحت لواء آمون ، أكثر من غيره من معبودات القوم ، نرى ذلك واضحا في حرب التحرير ضد الهكسوس وفي حروب فراعين الدولة الحديثة ، كما نرى القوات المصرية على أيام رمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٣٤ ق م) تنتظم في فيالق أربعة ، تحمل أسماء معبودات أربع (أمون ورع وبتاح وست) (٤) .

وهكذا اعتقد المصريون القدامى أن الفضل في انتصاراتهم ، ثم في تكوين الامبراطورية المصرية الشاسعة انما يرجع الى الاله الملك الذى قاد الجيوش ، والى الاله آمون الذى بارك تلك الجروب ، وأغار سيفه وعلمه الالهى للملك لى يقود الجيوش في طريقها الى المعركة ، ومن ثم فقد كان على تلك الجيوش أن تدفع ما عليها من دين لآمون ، بعد أن يتم لها النصر على العدو ، وأن تعطيه نصيبه العظيم من الغنيمة ، لانه قد رعاها وحماها من الخطر (٥) ، هذا فضلا عن أن القوم انما كانوا مطالبين بأن يزيّدوا من القرابين التى يقدمونها اعترافا بجميل آمون ، وقد أدى ذلك - مع مرور الايام - الى زيادة ثروة آمون وزيادة كبيرة ، ويمرور الزمن تكونت ملكية خاصة بآمون ، ذات نظام يشبه نظام

(٤) محمد بيومي مهران : مصر - الجزء الثالث - الاسكندرية - دار المعرفة الجامعية ١٩٨٨ ص ١٣٥ - ١٣٦ ، وكذا
A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 189.
J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 243 F. وكذا
H. Goedicke, JEA, 52, 1960, p. 72-80. وكذا
S. J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 185.

الحكومة ، فكان لها خزائنها ومخازنها ، وعندها مصانعها وموظفوها ، ولها اداراتها وعبيدها ، ثم سرعان ما شملت هذه الاملاك مناطق أخرى في خارج مصر ، وخاصة في النوبة التي أصبحت ذهبها وقفا على أمون ، الأمر الذى أدى الى زيادة قوة كهان أمون ، وأن يصبح لهم في البلاد نفوذ سياسى كبير ، لا ريب في أنه يفوق غيرهم من طبقات الشعب ، بل وأن يهدد هذا النفوذ بعض الفراعين في بعض الاحايين (٦) .

وفي شبه الجزيرة العربية ، وفي الثلث الاخير من القرن السادس الميلادى (٥٧١م) تهدى مكة المكرمة الى الدنيا كلها ، أشرف الخلق جميعا مولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ ، وما أن يمضى حين من الدهر وحتى يسبغ الله فضله على الدنيا فينزل الوحي بالقرآن الكريم ، وهناك ، وفي مكة المكرمة ، وفي بيت رسول الله ﷺ تبدأ الدعوة الى الاسلام ، دين التوحيد المطلق ، ومن هناك ، ومن هذه الارض الطيبة — من الحجاز الشريف — تنتشر راية الاسلام الى جميع أنحاء المعمورة ، تدعو الى التوحيد والحب والعدل والائفاء والمساواة ، وكل ما هو طيب وجميل .

وفي حياة الرسول الأعظم ﷺ تقوم في بلاد العرب — ولأول مرة في تاريخ هذه الدنيا — بفضل الله ، وبهداية رسول الله ﷺ ، تقوم قوة عظمى ، لم ينبغ لأحد مثلها من قبل في بلاد العرب ، التي كان أمرها مفرقا بين قوى متناحرة ، وعشائر بعضها لبعض عدو ، فإذا هي الآن — بهدى الاسلام ، وبنبوة محمد ﷺ — دولة موحدة ، لها زعيم واحد ، وقائد سياسى واحد ، وقائد عسكرى واحد ، لا ينازعه سلطانه أحد ، لان سلطانه فوق مستوى البشر ، فهو لسان السماء — وهو نبي الله ، وكل في دولته مأمور بطاعته ، كما يطيع الله تعالى ، يفتديه بحياته ، بل وتمون عليه حياته في سبيل ما أمر به ، تطلعا الى الجنة التي وعد الله المتقين من عبادِهِ ، وأعدّها للشهداء من المجاهدين ، وهكذا أصبحت شبه

(٦) انظر عن كهانة أمون (محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٢٧ - ١٥٤ ، ٢٢٣ - ٢٤٨) .

الجزيرة العربية دولة واحدة ، تدعى بدين واحد ، وتعبداً برب واحد ،
لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير (٧) .

ولا ريب في أن الحروب في الاسلام إنما كانت حروباً دفاعية ،
تستهدف أمرياً : صد العدوان ودفعه ، ثم حماية الدعوة حتى تصل إلى
الناس كافة (٨) .

وعلى أية حال ، فما كان بعيداً في منطق الحياة أن تغلب القلة المؤمنة
كثرة كافرة ، لكن الاسلام — بتقريره حق العقيدة ، وعدم الاكراه في
الدين ، أصلاً من أصول دعوته — استصطفى من قريش والموالي نمكة
وسابقي الانصار ، الجنود الاولين لحزب الله ، لم ينتظروا حتى يحسبوا
حساباً بالكمسب أو الخسارة ، بل استجابوا لداعي الاسلام بمحض
ارادتهم ، عن اعتقاد راسخ وضمير حر ، فما عادوا بحيث يخشون فيه
لومة لائم ، أو يبالغون الموت في سبيل ما آمنوا أنه الحق من ربهم .

ومن هنا كان قول المقداد بن عمرو لرسول الله ﷺ قبل معركة بدر ،
وهو يستشير أصحابه : يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك
والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا
أنا هنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ،
فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغمام لجالدنا معك دونه حتى
نبلغه .

ويقول سعد بن معاذ والله لكانك تريدنا (أي الانصار) يا رسول الله ،
قال : أجل ، قال : قد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق
وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض

(٧) محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم — الامكتدزية — دار
المعرفة الجامعية ١٩٨٩ ص ٢٢ — ٢٣ .

(٨) انظر عن الحرب في الاسلام (محمد بيومي مهران : السيرة
النبوية الشريفة — الجزء الثاني — بيروت — دار النهضة العربية — ١٩٩٠ م
ص ٤٥ — ٥٠) .

يا رسول الله لا أردت فتحك منك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لغفغته لك ما تغلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، أنا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله» (٩) .

وهكذا كان المسلمون يخوضون حروبهم في سبيل الله بمقيدة راسخة وإيمان قوى بأن للمحاربين في سبيل الله إحدى الصنيتين ، النصر أو الشهادة ، وقد جاء في الصحيحين : «تكفل الله لمن خرج في سبيله ، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وتصديق برسلي ، بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه ، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة» ، هذا إلى إيمان لا حدود له بقول الله تعالى «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم» (١٠) .

وهكذا كان للدين الإسلامي دوره الكبير في ذلك الامتداد الإسلامي إلى بلدان مختلفة ، وفي تلك الانتصارات التاريخية العظيمة التي حققها المسلمون الذين كانوا - قبل الإسلام - يفتقدون وسائل التقدم والنصر لكن المقيدة الإسلامية هي التي دفعت حركة التاريخ أمامهم .

غير أن ذلك لا يعني أن العامل الديني إنما يظل - دائما وأبدا - يفعل عمله في كيان الأمم ، فالعقائد الدينية لا تكون أبدا مؤثرة ودافعة ، وإنما تتغلب الأهم فترات من الضعف والتأخر بسبب ابتعادها عن تعاليم الدين ، وانشغالها بأمور الدنيا ، الأمر الذي يضعف أثر العامل الديني في حركة الشعوب ، غير أن الدين إنما يظل في أعماقها حتى تراجع

(٩) نفس المرجع السابق ص ٦٠٤ ، وانظر : ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ١٧٣/٣ - ١٧٤ (بيروت ١٩٨٥) ، الواقدي : المغازي ٤٨/١ - ٤٩ (بيروت ١٩٨٤) ، ابن هشام : سيرة النبي ١٠٧/٢ - ٤٠٨ .
(١٠) سورة التوبة : آية ١١١ .

نفسها ، أو يقوم فيها مصلح أو داعية فتعاود تمسكها بدينها ، ومن ثم يستعيد الدين أثره القوى في حركة تلك الشعوب .

وهكذا فالتفسير الدينى للتاريخ يمكن استخدامه بشكل خاص في حالة ارتباط أمة من الأمم بعقيدتها حيث تؤدي تلك العقيدة دورها في تقدم الانسان وتطوره ، أو تدفعه الى استغلال الدين لصالح قضايا دنيوية أو سياسية (١١) .

(٢) التفسير الفردى :

ويذهب أصحاب هذا التفسير الى أن عظماء الرجال هم الذين يحركون التاريخ ، وهم الذين ينهضون بأممهم ، وهم الذين يسيطرون على ما يحيط بهم من قوى سياسية واقتصادية واجتماعية ، ومن البدهى أن لعظماء الرجال دورهم في صنع التاريخ (١٢) .

غير أن معظم المؤرخين كانوا — وما يزال بعضهم حتى الان — يبالغون في أهمية الدور الذى يقوم به الافراد في صنع الاحداث التاريخية ، وهى مبالغة جعلت من هؤلاء الافراد فى أغلب الاحايين عمالقة وربما آلهة ، تدور حولهم المجتمعات بكل ما فيها من حوادث ، وبكل ما لها من تاريخ ، وبكل ما تمر به من تطور ، بحيث كدنا ننسى أن فى هذه المجتمعات أفراداً آخرين ، لهم ارادة وعقول ، وعواطف ومصالح ، وأن هناك نظروفا قد تساير كل هذه ، وقد تعارضها ، وقد تطغى عليها ، وحقيقة أن هذه المبالغة من بعض المؤرخين الذين دفعوا بها الى أبعاد غير معقولة ، انما قد تجعلنا نعيد النظر فى كتاباتهم ، بل قد نفرقنا بالتخلى كلية عن التفسير الفردى الذى مسخوا به التاريخ مسخاً ، وخرجوا عن طريقه بالمجتمعات والافراد عن حجمها الطبيعي لتبدو لنا وكأنها كائنات من عالم أسطورى .

(١١) عادل حسن غنيم وجمال محمود جبر : المرجع السابق ص ٥٧ .
(١٢) نفس المرجع السابق ص ٥٧ .

ومع ذلك ، فيجب أن نحترس من الاندفاع الى النقيض الاخر، ذلك لان الدور الذى يقوم به الافراد انما يمثل في الواقع بعدا من الابعاد التى يجب الاتجاها لها ، اذا كان للصورة التاريخية التى نرسمها أن تمثل الحقيقة ، فالتاريخ ملئ بالمواقف التى لا يمكن أن نفسرها في ضوء الظروف الطبقية أو الجماعية فحسب ، وانما لزاما علينا — لكي نفهمها على حقيقتها — أن نرد جانبها منها الى تصرفات الافراد الذين أمسكوا بزمام الامور تحت هذه الظروف ، سواء أكان هؤلاء الافراد أنبياء ، أو كانوا ساسة أو قوادا أو مصلحين أو مخترعين، أو زعماء من أى طراز — والدور الذى قام به هؤلاء الافراد في توجيه مقدرات الامور في المجتمعات التى ظهروا فيها ، دور لا يمكن أن نخرجه نهائيا من الاعتبار ، ومصدق ذلك أننا نجد في تاريخ المجتمعات مواقف كثيرة لا تؤدي فيها الظروف المتشابهة الى نتائج متشابهة لسبب واحد ، هو أن الافراد الذين وجد في أيديهم زمام الامور ، لم يوجهوا هذه الظروف أو ينتفعوا بها بطريقة واحدة أو بدرجة واحدة ، ولناخذ مثلا على ذلك من التاريخ الحديث ، مما حدث في روسيا في عام ١٩١٧م ، وفي ألمانيا في عام ١٩١٨-١٩١٩م .

لقد تعرض كل من البلدين لهزيمة حربية من الخارج ، ونشبت فيها ثورة على الوضع الطبقي القديم في الداخل ، غير أن الثورة نجحت في روسيا ، وفشلت في ألمانيا ، وكان أوضح الاسباب في ذلك هو اختلاف القادة في الثورتين ، ففي روسيا كان أول عمل قام به البلاشفة ، بعد استيلائهم على الحكم هو : تحطيم الاساس القانوني للنظام الذى أطاحوا به واقامة تنظيم جديد يرتكز على مبادئهم ، ويخضع لتوجيههم ومن ثم فقد أبعدوا عن السلطة كل من لم يؤثقا به ، بل وضمروا بيد من حديد على كل الحركات المعادية للثورة .

وأما في ألمانيا ، فقد كان الامر على النقيض ، فبعد انهيار النظام الامبراطورى في أعقاب هزيمة ١٩١٨م وقع زمام الامور في يد الحزب الاشتراكي ، غير أن «ايبيرت» وأعوانه من زعماء الحزب لم يكن لديهم من صفات القادة ما يمكنهم من توجيه الثورة في طريق النجاح ، وهكذا

وجدوا أنفسهم في حالة ارتباك تدفعهم فيها الجماهير بجذلا من أن يدفعوا هم الجماهير ، كما أبقوا على الاسس القانونية والدعائم الطبقية للنظام القديم ، فتركوا زعماء الاحتكار الصناعي في مراكز السيطرة الاقتصادية وأبقوا على القوانين المدنية والجنائية ، التي كانت تعكس سيطرة هذه الطبقة في ظل النظام الامبراطوري ، ولم يغيروا من موظفي العهد القديم الا في أضيق الحدود وحتى بعد أن دبرت بعض المؤامرات ضد حكومتهم كان موقفهم من مدبريها غاية في اللين الذي يخرج عن حدود الرحمة أو التآلف السياسي ، الى نطاق التهاون وعدم الحكمة كما حدث في مؤامرة «كاب» أو في مؤامرة «هتلر - لوتندورف» في عام ١٩٢٢م ، وهكذا فقدت جمهورية «فايمار» دعائمها منذ اليوم الاول لقيامها ، ولم تكن حركة النازيين التي أطاحت بها في عام ١٩٣٣م ، الا الضربة الاخيرة التي قصت على شكل كان قد فقد موضوعه قبل ذلك بخمسة عشر عاما (١٣) .

وعلى أية حال ، فدور الفرد في التاريخ ليس دورا مجردا ، غير متأثر بما حوله من أوضاع داخلية وخارجية ، وانما هو محصلة لتفاعل عدد من المؤثرات تجسدت في النهاية في دور هذا الزعيم أو ذاك ، وهناك شروط لا بد من توافرها لظهور الزعيم ، وحسن أدائه لدوره ، منها أن يكون عصر ظهوره يسمح بتفوق بعض الافراد على غيرهم ، ومنها أن تتجمع ظروف موضوعية مختلفة - داخلية وخارجية - تعيى الجو المناسب لبروز الزعيم ، ومنها أن يتمكن فرد بعينه من تفهم الظروف واستشعار آمال أمته وآلامها (١٤) .

ولاريب في أن التاريخ انما يسجل لنا أسماء كثير من الرجال الذين أثروا في مجتمعاتهم ، بدرجة أدت الى أن يكونوا على رأس عصور تميزت عن غيرها - مما سبقها أو لحق بها - وآخرين كانوا علامة مميزة في تاريخ أممهم .

(١٣) لطفي عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٨ - ١٠ .

(١٤) هادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص

فى التاريخ المصرى القديم : كان مينا ومنتوحتب الاول وأحمس الاول — كما تظهر صورهم فى معبد الرمسيوم فى طيبة المصرية (الاقصر) — مؤسسين للدولة القديمة والوسطى والحديثة من تاريخ مصر للمرعونية على التوالى ، فالثلاثة يبدأون تقريبا من خط الصفر ويحاولون جاهدين ، إقامة دولة متينة البنيان ، على أنقاض أمة ممزقة بين عشرات الموحداث المتناحرة ، ومن ثم ضمن العدل أن يوضع كل منهم على رأس حقبة كاملة من تاريخ مصر القديمة ، وهكذا رأينا تماثيل هؤلاء الملوك الثلاثة على أيام الرعامسة ، تتصدر تماثيل غيرهم ، باعتبارهم قادة للحضارة المصرية القديمة •

وفى التاريخ العراقى القديم ، كان سرجون الاول وحمورابى مثلا ، علامة مميزة فى تاريخ ميزوبوتاميا •

وفى التاريخ اليونانى والرومانى : كان الاسكندر الاكبر ويوليوس قيصر كذلك •

وفى التاريخ الاسلامى : كان الفاروق عمر : رضوان الله عليه ، مثلا يحتذى للحاكم العادل الحازم الكفو ، كما كان الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى الجنة ، فى غروسيته وعدالته وزهده ، وامامته فى العلم والتقى ، كما كان عمر بن عبد العزيز ، مثلا فريدا للعدالة فى دولة بنى أمية ، كما كان الرشيد مثلا لمظلمة الدولة العباسية •

وفى التاريخ المصرى الحديث : كان محمد على وسعد زغلول وجمال عبد الناصر أمثلة بارزة (١٥) •

(١٥) لاريب فى أننا حين نذكر بعض الاسماء العظيمة التى أثرت فى حركة التاريخ الانسانى ، لن نقعرض للاقتباء ، والا فاعظم هذه الاسماء — على وجه اليقين — انما هم اولو العزم من الرسل : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم ، بل أننا حين نذكر أعظم الاسماء قاطبة فى تاريخ الانسان ، فلن يكون هذا العظيم ، سوى مولانا وميدنا محمد رسول الله ﷺ ، فليس قبله ولا بعده عظيم فى تاريخ هذه الدنيا •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه ليس ضرورياً أن يكون القائد أو الزعيم متسماً بمواهب معينة لابد من توافرها ، فقد يكون لدى القائد مكونات القيادة المطلوبة ، غير أن توفر الظروف قد يتيح له أن يؤدي دوراً مميزاً ، لكنه لا يصل الى مرتبة القادة الذين يتحلون بكثير من الصفات التي تتيح لهم أن يؤديوا أدواراً حاسمة في التاريخ .

وليس ضرورياً أن تكون صفات القائد صفات ايجابية أو خلقية ، فبينما كان عدل الفاروق عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، هو أبرز صفاته ، فإن همجية «تيمورلنك» ودكتاتورية «هتلر» وروح «نشرشل» الاستعمارية ، كانت كلها عوامل أساسية في بروزهم ، لكن تلك الصفات السلبية كانت في النهاية نفس العوامل التي قضت على مطامعهم ومخططاتهم .

وهناك من الزعماء من يتحلى بكثير من الصفات التي تؤهلهم للقيادة غير أن عدم توفر الظروف الموضوعية لا يتيح لهم أداء الدور الذي يريدون ، ومن هؤلاء عفيما يرى البعض ، عمر بن عبد العزيز ، على أن هناك من الزعماء من تتوفر فيهم كثير من صفات القيادة ، فيتمكنون عند توفر تلك الظروف الموضوعية من أداء دورهم ، فإذا ما تغيرت الظروف فانهزم سرعان ما يفشلون في متابعة انجازاتهم ومن هؤلاء ، جمال عبدالناصر .

والخلاصة أن دور عظماء الرجال دور هام وواضح في حركة التاريخ غير أن هذا الدور مرتبط في النهاية بالظروف الموضوعية التي تتيح لهؤلاء العظماء أن يؤديوا دورهم ، وإلى المدى الذي تستمر فيه تلك الظروف فعالة ومؤثرة (١٦) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن التفسير الفردي للتاريخ إنما قد تعرض لحملة من الباحثين الذين ينادون بالتفسير الجماعي ،

(١٦) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر ، المرجع السابق ص ٥٨ - ٥٩ .

وخاصة أولئك الذين يربطون التاريخ بتطور الظروف المادية التى يمر بها المجتمع ممثلا فى شتى طبقاته ، ونقطة البدء فى هذا التفسير أن فردا واحدا - أو حتى مجموعة من الافراد - لا يمكن أن يكون لديهم - كأشخاص لا يمثلون إلا أنفسهم - القوة المادية التى تمكنهم من السيطرة على مجريات الامور فى مجتمع بأكمله ، الا اذا توافرت فى هذا الفرد ، أو هؤلاء الافراد ، صفات معينة تجعلهم يمثلون مصالح طبقة أو أكثر من طبقات المجتمع الذى يظهرون فيه ، بحيث تدعم هذه المصالح وتنمو بالاتفاف حولهم ، وتشجيعهم على الحصول على مراكز الرياسة أو الزعامة ، وتأييد حقهم فى القبض على زمام الامور - وهكذا يصبح تعضيد المبدأ أو النظام الذى يسيرون عليه أمرا ضروريا لهذه الطبقة أو الطبقات ، كما يصبح الابقاء عليهم فى مراكزهم هذه غاية تستحق أن يدافع عنها ، ويكافح فى سبيلها .

وانطلاقا من كل هذا ، فالافراد الذين تتكون منهم الحكومات لا يمثلون مراكزهم هذه بصفة فردية ، أو بناء على تفويض من قوى الهيبة خارجة عن مجتمعهم ، وانما هم فى حقيقة الامر ممثلون لطبقات معينة وصلت بقدرتها فى الدفاع عن حقوقها ، وبراعتها فى الانتفاع بالظروف المحيطة بها ، والفرص التى أمامها فى سوق المساومة الاجتماعية مع الطبقات الاخرى الى مركز الصدارة أو السيادة الذى يمكنها من السهر على مصالحها ورعايتها ودعمها - وهم حين يصدرون قوانينهم أو يقومون بأعمالهم الداخلية أو يمارسون سياستهم الخارجية فى اتجاه أو فى آخر ، انما تكون تصرفاتهم تعبير خارجى عن احتكاك مصالحهم كطبقة بمصالح الطبقات الاخرى التى تكون الشق الاخر من المجتمع ، ونفس الشيء يقال عن الاتجاهات التى تتخذها تصرفات الطبقة المحكومة فى شتى صور اتفاتها أو اختلافها مع حكوماتها .

وهكذا يصبح من العبث - فى ضوء هذا التفسير - أن نقتصر على الترجمة للافراد أو ذكر أعمالهم وتصرفاتهم ، سواء كانوا من صفوف

الحكام أو المحكومين ، دون النظر الى البواعث الطبقيّة التي أدت اليها ، لأن ذلك لن يعطينا سوى نتائج الاحتكاك أو الصراع الاجتماعي مجردة من مقدماتها ، وهذه لن تريد — في خير صورها — على مجموعة من الحوادث لا يربط بينها سوى التتابع الزمني •

على أن هذا التغيير رغم الاخطاء التي ينطوي عليها ، فقد أظهر لنا محركا آخر يكمن وراء التطور الاجتماعي ، هو المصالح الطبقيّة ، وما يقوم بينها من تنافر أو توافق ، وقد ألقى هذا دون شك ضوءا جديدا على مراحل كثيرة من التطور التاريخي ، بعد أن ظلت حتى وقت قريب تفهم وتعالج من ناحية واحدة ، وهكذا بدأت تتضح أمامنا عناصر كانت خافية أو غامضة من قبل ، وكانت هذه العناصر بمثابة بعد جديد أسهم في مواقف تاريخية كثيرة كان ينقصها التجسيم •

ومثالنا على ذلك : المقاومة التي لقيها داعية التوحيد « اخناتون » (١٧) (١٣٦٧ — ١٣٥٠ ق.م) من كهنة آمون ، ومن القائد « حور محب » (الملك حور محب فيما بعد ١٣٣٥ — ١٣٠٨ ق.م) الذي وقف في صفهم ، لم تعد مجرد ثورة دينية على ملك أراد احلال عبادة جديدة (١٨) محل العبادة الوطنية القديمة ، وانما ظهر لها وجه آخر ، وهو الصراع بين طبقتين هما : كهنة الدين القديم ، وأصحاب الدعوة الجديدة — وعلى رأسهم الفرعون — بما يملكون من نفوذ وأتباع ، حول امتيازات الكهانة القديمة من أرضين واسعة كانت توقف على آمون — اله الدولة الرسمي — ومن رسوم كانت تفرض على التجار الذين يبيعون سلعهم للذين يؤمنون معابده ومن هدايا ونذور للمعبود ، وكل ذلك كان يذهب في النهاية الى هؤلاء الكهنة ، وغير هذه من جوانب الكسب المادي ، وما يصحبه من تقسوية لمراكزهم الاجتماعية (١٩) •

(١٧) قدم الباحث دراسة مفصلة عن اخناتون (انظر محمد بيومي مهران : اخناتون : عصره ودعوته - القاهرة ١٩٧٩) •
(١٨) نفس المرجع السابق ص ٢٨٩ — ٤٨٤ •
(١٩) لطفي عبد الوهاب : المرجع السابق ص ١١ — ١٣ •

وما أن أغلقت معابد الآلهة في أنحاء الامبراطورية المصرية بمصادرت ممتلكاتها ، وعطلت شعائرها وضرب الحجز على خزائن الكهنوت ومحييت كلمة «الآلهة» - بدأ الكهنة يتكتلون ، وأصبح النزاع بين الفرعون والكهانة على أشده ولم يعد إختلافون يتسامح مع الآلهة وخاصة آمون - استغل ذلك كله الحاقدون من كهان آمون ، والمتنفعون من معابده ، وبقايا أبناء الارستقراطية القديمة الذين ساءهم أن يسود عليهم محدثو النعمة من أنصار الدعوة الجديدة ، وبقايا الكهنة العاديين الذين ارتبطت مصالحهم بمعابد الارياب المطيعين ، وطالت مؤامرات هؤلاء وهؤلاء ، واستمروا يهونون من شأن الدعوة الجديدة ، ويشوهون أهدافها ويوقدون نار الفتنة في البلاد ، حتى جعلوا طوائف الشعب تحمل في قلوبها كل البغض للدعوة الجديدة ولصاحبها ، حتى أثقلوا كاهله بالاحزان ، وجعلوه يحس بخيبة لا حدود لها ، وكان ذلك كله واحدا من أهم أسباب عدم انتشار الدعوة بين العامة من الناس ، ثم القضاء عليها بعد موت الداعية في عام ١٣٥٠ ق م (٢٠) .

وهكذا فما قيل عن هذا المثال : انما ينطبق دون شك على عشرات غيره ، وان اختلفت التفاصيل ، بل يكاد ينطبق على شتى مراحل التطور التاريخي ، وهي تشير ، في أغلب الاحيان ، الى أن الظروف التي تمر بها المجتمعات ممثلة في طبقة أو أكثر من طبقاتها ، وما يقوم بين هذه الطبقات من تآكل وترابط وصراع وتنافر ، هو المحرك الاول للتطور التاريخي ، والى أن التفسير الفردي للتاريخ كان في الواقع نظرا للامور من جانب واحد ، وتجاهلا لجوانب أخرى لا ينبغي تجاهلها (٢١) .

(٢٠) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٣٥٢ ، ٣٩٠ ، عبد العزيز صالح : الوجعانة في مصر القديمة ص ٢١ ، وكذا J. H. Breasted, A History of Egypt, New York, 1946, p. 280, 391. F. Daumas, Le Civilisation De L'Egypte Pharaonique, Paris, 1956, p.326. C. Aldred, A Khenaten, Pharaoh of Egypt, London, 1972, p. 62-63. Freud, Moses and Monotheism, Trans. by K. Jones, N. Y, 1939, p. 21,25.

(٢١) لطفي عبد الوهاب : المرجع السابق ص ١٤ .

(٣) التفسير النفسي :

ويعنى هذا التفسير أن تكون لشاعر الزعماء أو الجماعات أو الشعوب ردود فعلها النفسية التى تترك آثارها على حركة التاريخ ، ويضرب المؤرخون أمثلة كثيرة على أهمية التفسير النفسى للتاريخ ، ومنها : تلك المصيبة الجاهلية فيما قبل الاسلام ، والشعبية فى الاسلام ، وحملات نصارى أوروبا لتخليص قبر السيد المسيح ، عليه السلام فى فلسطين من أيدي المسلمين (الحروب الصليبية) ، والآثار الكبيرة التى تركها سقوط القسطنطينية فى عام ١٤٥٣م على الممالك الاوربية بمفغة خاصة (٣) .

وإذا عدنا الى الوراء ، الى عام ٥٣٩ ق.م ، وتذكرنا مدى الاثر النفسى الذى تركه سقوط بابل فى هذا اليوم ، على الشعوب السامية لرأينا مدى أثر المامل النفسى على تلك الشعوب ، حيث انتهت فيه سيادة العناصر السامية ، وبدأت سيادة العناصر «الهندو - أوربية» - من فرس واغريق ورومان - والتى استمرت ما يقرب من اثنى عشر قرناً ، حتى جاء الاسلام الحنيف ، فحسرت الارض والقوم من ذل الاستعمار ، فضلاً عن تحرير العقول من وثنية الماضى البغيضة ، وبدأ القوم يؤمنون بالله الواحد الاحد ، الذى لا شريك له ، له الملك والحمد ، وهو على كل شىء قدير (٣) .

والامر كذلك فى مصر ، حين استولى الفرس عليها فى عام ٥٢٥ ق.م ، ويحدثنا التاريخ أن قمبيز (٥٢٥ - ٥٢٢ ق.م) أراد أن يسخر من الفرعون «بسماتيك الثالث» (٥٢٦ - ٥٢٥ ق.م) فأجلسه على عرش رمزي ، ثم أمر أن تمر أمامه ابنته على رأس مجموعة من فتيات الاسرات العريقة يرتدين زى الاماء ، ويحملن الجرار فوق رؤسهن ، ثم ابن بسماتيك وخلفه ألفان من خيرة شباب مصر ، مربوطين فى حبال من أعناقهم ولنجم

(٢٢) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص

٦٠ - ٦١ .

(٢٣) محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة -

القاهرة - دار المعارف ١٩٧٦ ص ٣٤٤ .

في أنفواهم ، مسوقين الى مصيرهم التعس ، وشهد بمسمايتك ذلك كله ،
وكظم غيظه ، ولم يظهر جزعه ، حتى رأى أحد رجال بلاطه المترفين في
خرق بالية ، يسأل الناس ويستجديهم ، قدمنت عيناه ، وعجب قمبيز من
ذلك ، وحين سألته عن السبب ، جاءه الجواب : «أى ابن كيروش ، أن
خطبى أكبر من أن يشتتير دموعى ، ولكن أمر الرجل أثار شجونى» (٢٤) .

وعلى أية حال ، فلا ريب أن العوامل النفسية ، كالحب والكراهية
والحقد ومركبات النقص ، إنما تترك آثارها على تصرفات وسلوكيات
بعض الزعماء والقادة ، أكثر منها على تصرفات الجماعات والشعوب ،
وذلك لان تأثيرها على الشعوب إنما هو — فى الاغلب الاعم — وقتى ،
لا يشكل عاملا أساسيا فى حركة التاريخ .

هذا ويذهب كثير من المؤرخين الى أن التفسير النفسى إنما يساعد
على تفسير أهمية حادثة تاريخية لفرد ، ولكنه لا يفسر الحادثة ذاتها ،
ومن ثم فمهمة المؤرخ ليست فى البحث عن الحالة النفسية لفرد ، وإنما
فى الحالة النفسية للمجتمع ، وعلى سبيل المثال ، فإن الذى يهم المؤرخ
هو معرفة الآثار النفسية لهزيمة ١٩٦٧م على الامة العربية ، أكثر منه
على نفسية «جمال عبد الناصر» فى أعقاب تلك الهزيمة ، وبالتالى يكون
التفسير النفسى أكثر مصداقية كلما طبقناه على الجماعات ، لا الزعماء
والقادة ، وإن كان التفسير النفسى للتاريخ قيما يتصل بالزعماء والقادة
إنما يساعدنا على فهم المؤثرات المختلفة التى دفعت هذا الزعيم مثلاً ،
الى اتخاذ قرار بعينه أو تبني اتجاه بذاته ، وإن كان ذلك ليس بالضرورة
تعبيراً عن الصالة النفسية للمجتمع الذى يقوده الزعيم ، فقد يقدم
الزعيم على اتخاذ خطوة كبرى تتفق ومصلحه هو ، بدعوى أنها تخدم

(٢٤) محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث — الاسكندرية
١٩٨٨ ص ٦٦٥ .

مصلحة شعبه ، وقد تؤيد ظواهر الامور في حينه هذا الادعاء ، ثم يتضح بعد ذلك أن نتائج تلك الخطوة لم تكن أبدا في صالح الشعب (٢٥) .

(٤) التفسير الطبيعي :

ويراد به تفسير التاريخ وفقا لقوانين محددة مماثلة للقوانين في العلوم الطبيعية ، ومن ثم فقد أتجه أصحابه الى عدة اتجاهات ، منها : التفسير الجغرافي للتاريخ ، ويعتبر العوامل الجغرافية المختلفة هي التي تؤثر في نشاط الانسان وتاريخه ، ومنها : التفسير الانثروبولوجي للتاريخ : ويعتبر الاجناس المتميزة هي التي تصنع حركة التاريخ ، ومنها : تفسير الدورات التاريخية : وتذهب الى نظام دوري ثابت في حياة الانسان أو الامم ، وهو ما يعبر عنه أحيانا بأن التاريخ يعيد نفسه .

هذا ويمكن فهم تفسير الدورة التاريخية ، اذا قسمنا حياة الانسان الى ثلاثة أقسام : الحياة الداخلية وتتمثل في مشاعر الانسان وغرائزه ، وهذه الحياة لا أثر للزمن فيها ، والحياة العقلية للانسان : ويمثل تاريخها خطا بيانيا متصاعدا على الدوام ، والحياة الخارجية للانسان : وتتمثل في النشاط الانساني الخارجى - اجتماعيا كان أو اقتصاديا أو سياسيا - وتتأثر هذه الحياة الخارجية بعوامل الزمن ، وهي الحياة التي تمر بتلك الدورية التي تتراوح بين الصعود والهبوط ، وبين المد والجزر .

ولنأخذ الاستعمار العالمى كمثال : وهنا نجد الاستعمار العالمى الحديث قد بدأ في الدول الأوروبية في فترات متقاربة ، وكان الاستعمار الاسباني أسبق الجميع ، غير أنه لم يلبث أن ضعف ، ثم جاء الاستعمار الفرنسى الذى بلغ أوجه في القرن الثامن عشر الميلادى ثم كان الاستعمار البريطانى الذى بلغ أشده في أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

(٢٥) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص

٦١ - ٦٢ .

هذا وقد شهدت المرحلة التالية للصرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨م) انحصار الاستعمار العالمى رويدا رويدا ، وتحصول الدول الاستعمارية - خاصة بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م) - الى دول من الدرجة الثانية ، وهذا يعنى أن الاستعمار العالمى انما قد مر بدورية معينة ، بدأت بنشأته ثم صعوده الى قمته ، ثم انحدره بعد ذلك (٣٧) .

(٥) التفسير المادى :

وهو التفسير الذى يعنى أن حركة التاريخ تقوم على الجوانب المادية البحتة والذى تعتمد على عدة عناصر : منها قوى الانتاج ، ويقصد بها نشاط الانسان الناتج من محاولاته استخدام الطبيعة أو السيطرة عليها ، لتطوير انتاجه الاقتصادى فى مختلف جوانبه ، ومنها : علاقة الانتاج ، ويقصد به ذلك الجانب من نشاط الانسان بينه وبين الآخرين فى اطار العملية الانتاجية ، والذى يأخذ أشكالا مختلفة ، طبقا للقوى الانتاجية السائدة ، ومنها : وسائل الانتاج ، أى الوسائل التى تتم بها العملية الانتاجية ، كالالات والمعدات والمصانع والقوى المحركة والطرق ووسائل المواصلات المختلفة ، ومنها : أهداف الانتاج ، أى ما يهدف اليه الافراد من تلك العملية الانتاجية التى يقومون بها .

وعلى أية حال ، فرغم اعترافنا بأهمية العوامل المادية فى حركة التاريخ ، غير أننا لا يمكن أن نضع تلك العوامل فى المرتبة الاولى ، ذلك لان للعوامل الاخرى تأثيرها فى حركة التاريخ كذلك ، بل ان لبعضها الدور الحاسم فى حركة التاريخ فى مرحلة يعينها من تاريخ البشرية (٣٨) .

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة الى أن هناك مذاهب مادية كثيرة فى تفسير الوقائع التاريخية ، فلقد رد كل من «ابن خلدون» (١٣٣٢ -

(٢٦) عادل حسن غنيم وجصال محمود حجر : المرجع السابق ص

٥٩ - ٦٠ .

(٢٧) المرجع السابق ص ٦٢ - ٦٣ .

١٤٠٦م) و «ومنتسكيو» (١٦٨٩ - ١٧٥٥م) على سبيل المثال هذه الوقائع الى عوامل بيئية جغرافية ، كذلك أشار «باك» الى أهمية القوى الفيزيائية وأثرها على انتاج الثروة ، بل لقد شاع التفسير المادى بوجه عام - والاقتصادى بوجه خاص - لدى مفكرى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فلقد أشار «هارنجتون» الى أن أشكال الحكومات تستند الى حيازة وتوزيع الاراضى ، كما أشار «جارييه» فى فرنسا ، و «دارليمبل» فى انجلترا ، الى أثر ملكية الاراضى على السياسة ، وفى الربع الثانى من القرن التاسع عشر ، كان الاشتراكيون - من أمثال فوربيه وسان سيمون وبرودان - يؤكدون أثر الظروف الاقتصادية على السياسة فى عصرهم (٢٨) .

مع ذلك فهؤلاء لا يعدون روادا للنظرية الماركسية - كهيجل مثلا - لانهم جميعا لم يراعوا عوامل التطور فى التفسير ، ومن ثم فإن منطق «الديالكتيك» هو وحده الذى يصلح لتفسير ديناميكية التاريخ بجميع مظاهره . بل لقد عد «كارل ماركس» هذه المذاهب المادية صورا من النزعة «اليتافيزيقية» لأنها تجعل من الظواهر - طبيعية أو انسانية - أشياء منعزلة ، وتخفضها لمقولة العلية ، بصورتها وجمودها ، دون اعتبار للتشابك بين الظواهر أو التفاعل بين المملول والعللة .

وعلى أية حال ، فجميع المذاهب المادية تشترك فى عيب جوهري : أن المادية فيها آلية ، حيث أخفقت فى أن تصل الى أن العوامل المادية انما تفهم فى ضوء مقولات التاريخ ، فلا يكفى بيان أثر الملكية الخاصة على النظام السياسى ، لان الملكية الخاصة انما تتغير فى كل حقبة تاريخية فى سلسلة من العلاقات الاجتماعية المختلفة ، كما أن العوامل الجغرافية تشكل فقط الاطار العام الذى ينبثق عنه موارد الانتاج ، لان الظروف

(٢٨) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٢٢٦ ، وانظر Darilymple, As Easay Towards a General History of Feudal Property in Great Britain, 1750.
Garnier, De la Propriete dans ses rapports avec le droit Politique, 1792.

الطبيعية تمنح الامكان ، دون أن تفيد الواقع الفعلى ، فليس الامر مجرد خضوبة التربة لتفسير نشأة حضارة ما ، وانما يلزم أن تكون الموارد الطبيعية خاضعة لتحكم الانسان واستثماره ، ثم ما يلزم عن ذلك من تنوع الانتاج وتوزيع الملكية ، وهذه بدورها يتحكم فيها تقسيم العمل ، فضلا عما يستثير الانسان من احتياجات ، فليست موارد الانتاج قوانين ثابتة دائمة ، ولكنها تتغير وفقا لحياة الانسان في مجتمعه ، وعلاقته بسائر قوى الانتاج ، وليست العوامل المادية مؤثرات حتمية ولكنها أفعال الانسان ، وعلاقاته المادية مع آخرين (٢٩) .

هذا وكان «كارل ماركس» (Karl Marx) (١٨١٨ - ١٨٨٣م) من أبرز أصحاب نظرية التفسير المادى للتاريخ ، وان لم يكن هو منشؤها ، وانما أخذ ماديته من آخرين كثيرين سلكوا السبيل نفسه بوصف فلسفته في القالب الذى اقترحه دياكتيك هيجل ، فالمادة التاريخية البسيطة يمكن أن ترى كاملة النمو في بحث أعده «هولباخ» (Holbach) وطبع قبل قرن وهى أيضا مدينة بالكثير الى الفيلسوف الهولندى «باروخ سبينوزا» (B. Spinoza) (١٦٣٢ - ١٦٧٧م) ، وقد أعاد «فويرباخ» (Feuerbach) تقرير شكل مجدد منها ، على أيام «كارل ماركس» نفسه ، ويمكن أن نرى النظرة الى التاريخ الانسانى على أنه دراسة للحرب بين طبقات المجتمع عند «سانت سيمون» (Saint Simon) ، وقد اعتنقها الى حد بعيد مؤرخون فرنسيون من معاصريه، مثل «تيرى» (Thierry) و «مجنيه» (Mignet) وكذلك «جيزو» (Guizot) .

وكان «سيمفوندى» (Sismondi) أول من وضع النظرية العلمية لحتمية حدوث الازمات الاقتصادية حدوثا منتظما ، وأما النظرية العلمية لظهور الطبقة الرابعة (Fourth Estate) فقد اتخذها دون ريب أوائل الشيوعيين ، ودعا اليها في المانيا على أيام «كارل ماركس» كل من «فون

(٢٩) أحمد محمود صبحى ، المرجع السابق ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ، وانظر

E. Seligman, The Economic Interpretation of History, p. 61.

شتاين» (Von Stein) و «هيس» (Hess) ، وأما التسلسل المطلق للطبقة العاملة : (دكتاتورية البروليتاريا) فقد وضع «بابيوف» (Babeuf) خطوته الكبرى بشكل ظلال في آخر عقود القرن الثامن عشر ، ثم وضع هذه الفكرة بشكل واضح في القرن التاسع عشر ، وبأشكال مختلفة كل من «فايتلنج» Weiting و «بلانكي» (Blanqui) ، وقد زاد في إيضاح المركز الضاير والمستقبل للعمال وأهميتهم في الدولة الصناعية «لوي بلون» (L. Blanc) واشتراكيو الدولة الفرنسيون بشكل أكثر تكاملا ، مما يوافق «ماركس» على قراره .

وأما نظرية القيمة المبنية على العمل ، فتستمد من «لوك» (Locke) و «آدم سميث» (A. Smith) والاقتصاديين القدامى المحافظين (الكلاسيكيين) ، وأما «نظرية الاستغلال وقيمة الفائض» (Theory of Exploitation and Surplus Value) ومعالجتها بسيطرة الدولة سيظيرة مباشرة ، فيمكن أن ترى عند كل من «فورييه» (Fourier) وفي كتابات الاشتراكيين الأوائل مثل «بري» (Bray) و «تومبسن» (Thompson) و «هولجسكن» (Hologskin) (٢٠) .

ونستطيع أن نضيف هنا إلى أن محاولات عديدة أخرى ، قد نسقت في إطار فكري ، أو نفذت عبر تجربة عملية ، شهدها تاريخ الشرق ، قبل قرون عديدة لمعطيات هؤلاء ، نكتفي منها بالإشارة إلى حركات مزدوك ، على أيام الملك الفارسي «قباد» (٤٨٨ - ٥٣١م) ، و «بابك الخرمي» على أيام الخليفة «المعتصم» (٨٣٣ - ٨٤٢م) والقرامطة في الربع الأول من القرن العاشر الميلادي .

(٢٠) عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ - ترجمة كاظم الجوادى الكويت ص ٨٧ - ٨٨ ، فردريك انجلز : التفسير الاشتراكي للتاريخ ، ترجمة راشد البراوى - بيروت ١٩٦٨ . وانظر : عماد خليل : المرجع السابق ص ٤٠ - ٤١ وكذا

Isaih Berlin, Karl Marx and his Life Enviroment, pp. 14-15.

ولعل من الإهمية بمكان الاشارة الى أن «كارل ماركس» انما يبدأ كتابه «رأس المال» بأن يسأل : ما هو الجدا الذي يحكم كل العلاقات بين البشر ؟

ثم يجيب على ذلك ، بأنه الهدف المشترك الذي يسعى كل الناس لبلوغه ، وهو انتاج الوسائل التي يديمون بها حياتهم ، ويعد الانتاج تبادل الاشياء التي أنتجوها ، فان على الانسان أن يعيش ، ثم يستطيع أن يبدأ يفكر ، ومن ثم فالذي يقرر للتغير الاجتماعي لا يوجد في أفكار الناس عن الحقيقة الابدية والعدالة الاجتماعية ، وإنما فيما يحصل من تغير في أسلوب الانتاج والتبادل ، ومن ثم تطرح الماركسية الفروض الرئيسية التالية :

أولا : يدخل الناس ، في غمرة الانتاج الاقتصادي الاجتماعي ، في علاقات معينة ، ويضطرون الى أن يكونوا ظروفًا معينة ، تتلق مع مرحلة معينة من تطور القوى الفكرية ، وثانيا : أن ظروف الانتاج — اذا أخذت ككل — تكون الكيان الاقتصادي للمجتمع ، وهذه هي القاعدة المادية التي يقلم عليها بغير للقوانين والانظمة السياسية ، التي يرجع اليها بعض أشكال الوعي السياسي ، وثالثا : ليس وعي الانسان هو الذي يعين أشكال الوجود ، بل أن أشكال الحياة الاقتصادية والاجتماعية هي التي تعين الوعي . ورابعا : أن قوى الانتاج المادية انما تصطدم — بعد أن تبلغ مرحلة معينة من التطور — مع ظروف الانتاج الموجودة ، أي مع نظام الانتاج الذي تعمل في ظله — وخامسا : أن تاريخ المجتمع — منذ وجوده وحتى الان — انما هو تاريخ صراع طبقات ، كانت تقف موقف المعارضة للدائمة لبعضها ، وتقوم بصروب لا انقطاع لها ، تنتهي اما باعادة بناء المجتمع كليا ، أو بتدمير الطبقات المتصارعة ، ويطبق هذا الاسلوب في البحث فري أن التاريخ انما يدل على أن تطور المجتمع الانساني سار من نظام المشاعبة البدائية أو الجماعية الى نظام الطبقات متمثلا في انقسام المجتمع الى سلة وعبيد في المصور القديمة ، والى سادة واقطاعيين واقنان في العصر الاقطاعي ، ورأسماليين وعمال أجراء في العصر الحديث ، وأن هذا التطور يتجه — بفعل القوانين التي تتحكم

فيه — الى نظام جديد تزول فيه المصالح الاقتصادية المتضاربة ، أى علاقات الجماعات بقوى الانتاج (٣١) .

وفى المقدمة التى صدر بها «ماركس» كتابه «نقد للاقتصاد السياسى» نلتقى بتركيز شامل للعلاقات الاساسية بين الانتاج وبين الحركة السياسية ، وفى رسالته الى أنتكوف (ديسمبر ١٨٤٦م) يؤكد مسألة استبعاد الحرية الانسانية فى صياغة واختيار القوى الانتاجية التى هى أساس الابنية التاريخية والحضارية (٣٢) .

وعلى أية حال ، فان مفهوم المادية عند «كارل ماركس» لم يكن هو نفس المفهوم عند الفلاسفة الماديين ، مجرد اعتبار المادة الحقيقية الموضوعية الوحيدة ، ولكنها تعنى عنده (أى ماركس) من حيث علاقتها بالإنسان المتطور ، والتى يعد الانتاج أهم مظهر لهذه العلاقة ، ومن ثم تصبح المادة لديه عمليا لفظا مرادفا للاقتصاد (٣٣) ، ثم يرى أن يتحرر العقل من النظام الصراعى — بين رأس المال والعمال — الذى يعيش فيه ، ويحتكم عليه الحسب ، عليه أن يقضى على الاستعمار أولا ، ثم يفرغ لتنظيم اقتصادى جديد ، يسلم فيه مفتاح المصنع ومفتاح الدكان للدولة ، ويقضى على الحرب الصامتة بين صاحب المصنع والعمال ، ويحول المجتمع الى أسرة واحدة — أى الى مجتمع ذى طبقة واحدة ، هى طبقة العمال — والحكومة الى أب ، والعالم الى دول متآخية ، وبذلك يصبح سوق الشرف هو العمل والانتاج ، لا الكسب والاستغلال ، ويتحول الانسان مرة أخرى الى جده البدائى المسالم الذى كان يحارب الطبيعة القاسية (٣٤) .

(٣١) عماد خليل : المرجع السابق ٤٤ - ٤٥ ، عبد الحميد صديقى : المرجع السابق ص ٨٩ - ٩٠ ، فردريك أنجلز : المرجع السابق ص ١٧ - ١٨ (من مقدمة المترجم) .

(٣٢) انظر التفاصيل فى : نفس المرجع السابق ص ١١٩ - ١٢١ .

(٣٣) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٢٢٩ ، وكذا

B. Russell, History of Western Philosophy, p. 812.

(٣٤) مصطفى محمود : الله والانسان - القاهرة ١٩٥٧ ص ٩٢ ،

محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث - القاهرة ١٩٨١ ص ٣١٦ .

ثم سرعان ما يتسع مفهوم الاقتصاد عند «ماركس» ليشمل عمليات التملك والانتاج والتوزيع والاستهلاك في تفاعلها مع الانسان ، وماينتج عن ذلك من علاقات اجتماعية ، ثم ليشمل أيضا العوامل التكنولوجية والجغرافية والجنسية ، وكل هذه تفرض نفسها على صور الفكر ومظاهر الثقافة ، فالدين والفلسفة والفن في مجتمع ما ، انما كل هذا على ما عليه أساليب التكنولوجيا والاقتصاد ، وليس الجدل بين المدارس الفلسفية أو حركات الإصلاح الدينى أو الثورات السياسية الا انعكاسات لواقع النشاط البشرى ممثلا في الانتاج والعلاقات المادية ، ومن ثم فان أى تغيير في الظروف المادية لابد أن يجلب معه تفسيرات هامة في الانظمة السياسية والتشريعية والايديولوجية ، بينما هذه الانظمة ليست بقادرة من تلقاء نفسها على احداث تأثير جوهري في عملية التطور الاجتماعى .

غير أن ذلك لا يعنى أن العوامل الاخرى ليس لها أى أثر ، ذلك لان العامل الاقتصادى انما يتفاعل معها ، ومن ثم فان «ماركس» و«إنجلز» لم يقصدا تفسير التاريخ في ضوء مصطلحات الاقتصاد وحده ، ولكن الاعتبار الاجتماعى انما هو من الأسس في تقدم الانسان ، وان كان العامل الاقتصادى هو الرئيسى بينها (٣٥) .

هذا وقد بلغ ذبوع التفسير الاقتصادى (المادى) للتاريخ حدا جعل بعض المؤرخين يشيرون اليه ، باعتباره قضية مسلما بها ، ومن ثم فقد امتد هذا التفسير الاقتصادى الى مختلف المجالات في مختلف العصور ، فاليه ترجع الحروب الصليبية وقيام البروتستانتية والثورات الامريكية والفرنسية والحرب الاهلية الامريكية والحركات الاستقلالية القومية في أوربا والامريكتين ، وقد يكون في ذلك بعض الحق ، ولكن بعض المؤرخين قد تجاوزوا الحدود الى شئ من الشطط والتعسف ، فلقد أغفلت العوامل الاخرى اغفالا يكاد يكون تاما ، ليكون العامل الاقتصادى هو الوحيد في تفسير التاريخ ، رغم أن كلا من «ماركس» و«إنجلز» ، كما أشرنا

آتفا ، لم يدعي الصحة المطلقة للاعتبارات الاقتصادية الى حد استبعاد
العوامل الاخرى (٣٦) .

وعلى أية حال فهناك عدة نقاط ضعف في نظرية التفسير المادى
للتاريخ ، منها (أولاً) أن مذهب «ماركس» — شأنه في ذلك شأن غيره
من المذاهب الفلسفية — انما يستند الى بعض قضايا يعدها مسلمة
لا تحتاج الى استدلال ولا تقبل الشك ، وقد اعتبر ماركس مذهبه ذات
طبيعة تخالف سائر المذاهب الفلسفية ، ومن ثم فهو يجيبها جميعا ، وأن
مذهبه — وان كان ماديا — فهو يختلف عن سائر الفلاسفة الماديين ،
والواقع أنه — وان افترق عنهم في منحى المذهب — لا يختلف عنهم في
الاسس والمسلمات .

ومنها (ثانيا) أن نظريته يسودها منطق الحتمية القاسية التى تتعدم
فيها حرية الإرادة الإنسانية ، فالقوى الاقتصادية أقوى من سيطرة
الأفراد ، بل إرادة الطبقات ، ومع هذه الجبرية القاسية التى لا يملك
أى فرد ازاءها شيئا ، فان ماركس ادعى أنه — من الناحية العملية —
يعمل على تغيير العالم الذى وقف الفلاسفة جميعا عند حد تفسيره (٣٧) .

ومنها (ثالثا) أن ما أغرى ماركس بفكرته المادية ، ما كان للعلوم
الطبيعية من بريق خارجى ، ولما كان هو نفسه يتصور أن الانسان مجرد
آلة ، فلقد حاول أن يصوغ القوانين الاجتماعية على غرار القوانين
الطبيعية ، ولكى يبلغ غايته فلقد حرف الحقائق ، فقد كان في ذهنه هدف
واحد ، وهو أن يثبت أن أسلوب الانتاج في الحياة المادية هو الذى يعين
الطابع العام لطرف الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية ، فانسانه

(٣٦) نفس المرجع السابق ص ٢٣٨ — ٢٣٩ ، وكذا

E. Seligman, Op. Cit., pp. 62-63, 70-86, 144.

(٣٧) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٢٣٩ — ٢٤١ ، كارل
بوبر : عقم المذهب التاريخى — ترجمة الدكتور عبد الحميد ضيرة ص
٦٦ — ٦٨ .

مجرد تماما من حرية الارادة ، وهدفه الوحيد الحصول على وسائل الراحة المادية ، وأن الطريق لتحقيقها هو القاعدة الحقيقية التى عليها يرتفع صرح حياته الفردية والجماعية ، وحين تتغير هذه القاعدة يحصل تغير كامل فى البناء القائم عليها ، ولذا فان وسائل الانتاج هى الحكم الفصل الحقيقى الذى يقرر مصير البشر ، والنتيجة الطبيعية لهذا أننا سنكون ملزمين بأن نقر بأن الجماعة وحدها هى الحقيقة ، وأن الوجود المستقل للأفراد هو مجرد وهم .

ومنها (رابعا) أن الرابطة بين التغير الاجتماعى وعملية التطور الاقتصادى أقل بكثير — تأثيرا وبساطة وكفاية — مما يقره علم النفس الماركسى الذى يفتقر الى الكفاءة ، والذى ربما هو الضعف القاتل للحتمية كلها ، فلقد أكد ماركس أن الانسان يستجيب للتغيرات التى تدخل فى نظام الانتاج ، وأما كيف تدخل ؟ فهو لا يقول لنا، لانه يتكلم كما لو كان الاسلوب الفنى المتغير فى الانتاج هو نفسه يوضح نفسه، ان ماركس يتجاهل تعقيدات التعود من جهة ، والنفور من جهة أخرى ، فهو يبسط النظرات التى تتجمع حول الانظمة، فالماركسك والاخلاص بالنسبة للعائلة ، والمهنة والامة ، كلها خاضعة للطبيعة الاقتصادية ، وهكذا فالحل الذى استهدفته هذه المحاولة انما يستبعد تأثير عوامل أخرى كثيرة جدا (٣٨) .

ومنها (خامسا) أن «كول» يرفض الاعتراف بأن العامل الاقتصادى هو العامل الوحيد الذى يقرر الكيان الاجتماعى لاية أمة فيقول فى كتابه «معنى الماركسية» : من السهل أن نتبع التشابه الكبير بين الهياكل الاقتصادية التى تبني عليها أنواع المجتمعات المختلفة وتنظيمها السياسى وأجهزتها الاجتماعية، وأن نرى كيف كيفت الهياكل السياسية والاجتماعية فى الماضى وفقا لتغير الظروف الاقتصادية الاساسية ، الا أنه من الخطر

(٣٨) عبد الحميد صديقى : المرجع السابق ص ٩٢ — ٩٣، عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٥٠ — ٥١ .

أن نؤكد على هذا الى حد مفرط في البعد، وليست الحال قط أن المجتمعات التي في مستوى واحد في أسلوب انتاج ، يجب أن يكون لها حثما نفس الانظمة أو نفس الاشكال الاجتماعية للعائلة ، والعلاقات الجماعية والمنظمات السياسية والدينية ، أو الافكار الخاصة بالقيم والاخلاق ، فلقد أظهرت بحوث الانثروبولوجيا (علم الانسان) أشكالا حضارية مختلفة جدا ، لا يمكن قط أن تفسر تفسيراً اقتصادياً محضاً ، وأن أقصى ما يثبت هذا التشابه بينها انما هو مجرد الاقتناع بأن الانظمة الاجتماعية تتأثر بالظروف الاقتصادية ، ذلك لان الأساس الاقتصادي انما هو عامل واحد فقط من عوامل تصوير الشكل العام للحضارة ، حتى ولو كان أهم العوامل (٣٩) .

ومنها (سادساً) أنها نظرية واحدة في التفسير التاريخي ، اذ تجعل العوامل الروحية والفكرية تابعة للعامل الاقتصادي ، وهي بذلك تغفل الصفة الفردية للواقعة التاريخية ، وفي الواقع ليست أحادية التفسير هي التي تصلح للانسان ، وانما منهج تكامل العوامل الذي يثبت تكافؤ العوامل ، ثم تفاعلها ، ثم بروز أهمية احداها في عصر دون آخر ، وفي مجتمع دون آخر ، أما اخضاع المجتمعات العشائرية أو حركات الإصلاح الديني لتصورات عصر النظام الرأسمالي ، ففيه تعسف في التفسير .

ومنها (سابعاً) أن ماركس - وكذا انجلز - قد عرض المادة التاريخية ، باعتبارها تفسيراً لواقع التاريخ ، وتحليلاً علمياً له ، ومع ذلك تخلط نظريته بين عالم الواقع وعالم القيم ، فبالرغم من أنه ينتقد الرأسمالية على ما تتضمنه من متناقضات ، وليس على ما يصيب العمال من ظلم ، فإنه ييثر بالشيوعية باعتبار مجتمعه هو الذي تتحقق السعادة فيه للإنسانية ، فهو مجتمع يمنح العمال أمل تحقيق الفردوس على الأرض بهذه نبوءة أخلاقية تزرع لها بأسس ادعى انها علمية موضوعية

(٣٩) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٥٥ ، عبد الحميد صديقي : المرجع السابق ص ١٠٣ - ١٠٤ ، وكذا

P.G.D.H. Cole, The Meaning of Marxism, p. 57.

وبالتالى فبنظرية ماركس نظرية فى التطور ، وليس فى التقدم ، فهو لا يصف الواقع ، وانما يتنبأ بأفضلية المجتمع اللاتبقى ، حيث نهاية الالم البشر، وذلك حكم تقييمى يتعارض مع النزعة العلمية الواقعية^(٤٠) .

ومنها (ثامنا) اذا كان أسلوب الانتاج هو العامل الحاسم فى حياة الفرد أو المجتمع ، وجب أن يتصرف الاشخاص أو المجتمعات التى تواجه نفس النوع من المشاكل الاجتماعية ، وفق نفس الاسلوب ، لكن الذى يحدث فى كثير من الاحايين ، انما هو العكس ، فمثلا كانت الولايات الاغريقية ، فيما بين عامى ٧٣٣ ، ٣٢٥ قبل الميلاد ، تواجه مشكلة زيادة السكان ، فقامت بحلها بطرق مختلفة ، فبعضها مثل «كورنثوس» و «خاليسيس» لجأ الى حلها باغتصاب ارضين زراعية فى الخارج — فى صقلية وجنوب ايطاليا — بينما لجأت ولايات أخرى الى التغيير فى طريقة حياتها ، كما فعلت اسبرطة حين هاجمت اقرب جيرانها من الاغريق واحتلت اراضيهم ، غير أن نتيجة ذلك انما كانت حروباً لا تنتهى مع شعوب مجاورة ، الامر الذى أدى الى أن تعيش اسبرطة حياة عسكرية من رأسها الى قدمها ، ولجأت أثينا الى وقف تصدير انتاجها الزراعى ، ثم طورت أنظمتها السياسية بحيث تعطى حصة عادلة من القوة السياسية للطبقات الجديدة التى أوجدتها هذا التجديد الاقتصادى ، وبتعبير آخر ، فقد تفادى رجال الحكم فى أثينا من ثورة اجتماعية ، بأن قاموا بثورة اقتصادية وسياسية ، وهكذا يمكننا أن نقدم الكثير من الامثلة التاريخية على تنوع «ردود الاعمال» ازاء تحديات الازعاج المادية^(٤١) .

ومنها (تاسعا) أن النظرة المادية للتاريخ التى جاء بها «ماركس» انما تذهب الى أن اتجاهات وأفكار عصر ما، انما هى نتاج مرحلة التطور الاقتصادى التى تم بها الوصول اليها ، ومن ثم فليس هناك قانون

(٤٠) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٤١) عبد الحميد صديقى : المرجع السابق ص ٩٦ - ٩٨ ، عماد الدين

خليل : المرجع السابق ص ٥٢ - ٥٣ ، وكذا

Arnold Toynbee, A Study of History, London, 1948, p. 4.

مطلق أو أخلاق مطلقة في هذا العالم ، وإنما هي انعكاسات لاسلوب الانتاج ، وهذا يؤدي بدوره الى تناقض خطير في هذه النظرية ، فهو من ناحية لا يرى شيئاً أبداً ، ومن ناحية أخرى ، فهو يعبر عن فكرته عن التاريخ على أنها مطلقة ، الامر الذي لم يستطع أحد من تلاميذ ماركس أن يزيله ، وهكذا ، فإذا كانت فلسفة عصر ما ناتجة عن البيئة المادية له ، فبالقوى فان فلسفة ماركس لا يمكن أن تكون صحيحة ومنطبقة على كل الأزمنة ، لأنها هي أيضاً انعكاس لعصره ، وكل ما جاء به ربما كان ملائماً لزمه ، وليس للعصور التالية له ، فمع تغير الزمن لا بد لفلسفته أن تتغير ، غير أن الماركسيين لا يقبلون ذلك ، اعتقاداً منهم أن نظراته صحيحة في كل الأزمان ، أى أنها قيم دائمة للمجتمع الانساني ، لا تتغير بتغير الزمن (٤٢) .

ومنها (عاشراً) أن ماركس يخضع حركة التاريخ — بدولها وحضاراتها وتجاربها — لاحتية تبادل وسائل الانتاج وانعكاسه على الظروف ، وأن كل وضع تاريخي مآله الزوال بمجرد هذا التبدل الديناميكي الدائم ، ثم ما يلبث ماركس أن يقع في تناقض أساسي مع نظريته عندما يقرر «الدوام» و «الثبات» لمرحلة حكم الطبقة العاملة (البرولييتاريا) حيث لا زوال بعدها ، وهذا يشبه — في إحدى جوانبه — الديالكتيك الهيجلي ، الذي يؤول بحركة العالم الى السكون وعدم التغير ، بمجرد بلوغها مرحلة تجلي المتوحد (٤٣) .

ومنها (حادى عشر) أننا اذا افترضنا — طبقاً للتفسير المادى — أن الاخلاق في عصر معين هي مجرد انعكاس لاسلوب الانتاج الذى يعيش فيه جماعة الناس ، نتج عن ذلك أن الاخلاق في كل حقبة تاريخية تالية ، لا بد أن تكون — حتماً — أسهى من أخلاق العصر الذى سبقتها ، طبقاً لما يراه ماركس من أن النظام الاقتصادى الذى يوجد في حقبة معينة من

(٤٢) عبد الحميد صديقى : المرجع السابق ص ١٢٢ ، عماد الدين

خليل : المرجع السابق .

(٤٣) نفس المرجع السابق ص ٢٥٥ .

التاريخ يحل محله دائما نظام أرفع ، لان قوى الانتاج الجديدة المتولدة فيه قد نجحت في هدمه ، وبما أن النظام الاقتصادي الجديد الناشئ من القديم ، هو بصورة عامة تقدمي ، ويصور درجة أرفع من العدالة الاجتماعية ، فمن الواضح أنه يجب أن يأتي معه بأخلاق أسمى ، لو كان التاريخ سجيلا لتقدم مستمر من جميع نواحيه ، ولكنه بنفس المقدار متجشعا لمفساد وانحطاط ، ورغم الخطوات الهائلة التي خطاها الانسان في تسخير قوى الطبيعة لخدمة حاجاته المادية ، ورغم التقدم الذي يحرزه العلم في كل يوم ، في شكل اختراعات لا تخطر في الخيال ، فان الانسان ليس بخير أبدا من ناحية الاخلاق ، ومن ثم ، فمن أجل هذا الخطأ في مسألة التقدم المبشري ، يجب أن نفرق بين تقدم الفن الآلى والتقدم الاخلاقي ، وبين المدنية والحضارة (٤٤) .

(٦) التفسير الحضارى :

يخلف «أرنولد توينبى» (Arnold Toynbee) نهج المؤرخين الذين يعتبرون الامم المستقلة أو الدول القومية مجالات للدراسة التاريخية ، ويرى : أن المجتمعات الاعظم اتساعا في الزمان والمكان من الدول القومية أو دول المدن المستقلة ، أو أية جماعات سياسية أخرى ، هي المجالات المعقولة للدراسة التاريخية ، وبمعنى آخر ، أن المجتمعات الاعظم اتساعا في الزمان والمكان من الدول القومية أو دول المدن المستقلة أو أية جماعات سياسية أخرى ، هي المجالات المعقولة للدراسة التاريخية وبمعنى آخر ، أن المجتمعات — وليس الدول — هو الوحدات الاجتماعية التي يجب أن يعنى بها دارسو التاريخ .

ثم يدرس «توينبى» بعد ذلك ما إنطوى عليه التاريخ الحضارى من المجتمعات دراسة مقارنة ، فيقرر وجود عدد محدود من الوحدات

(٤٤) نفس المرجع السابق ص ٥٩ ، عبد الحميد صديقى : المرجع السابق ص ١١٥ - ١٢٠ ، وانظر Joel, A Guide to the Modern Wickedness, pp. 262-263.

الاجتماعية التي تميزها خصائص معينة ، وتجمعها أطوار حضارية متشابهة وتصلح وحدها للدراسة التاريخية ، وهو يفرق بين المجتمعات البدائية والحضارية ، في أن عدد الحضارات المعروفة أقل بكثير من عدد المجتمعات البدائية التي وجدت واندثرت منذ فجر التاريخ البشرى ، وأن الجماعة التي يتكون منها المجتمع البدائي ، والرقعة الجغرافية التي تسكنها ، ومدى عمرها ، كل ذلك أصغر وأقل بكثير مما تبينه المؤرخ في كيان الحضارات المعروفة ، والتي من أهمها : الحضارة المصرية والسومرية والبابلية والحيثية والميتوئية والهلمنية والايرائية والمربية الاسلامية والهندية والصينية والانديانية والمانيانية والارثوذكسية المسيحية - البيزنطية والروسية - والحضارة الغربية ، وان كان أكثر هذه الحضارات قد اندثرت .

ثم يتناول «توينبى» - يحذر شديد - افتراض علم النفس الاجتماعى بوجود صلة وثيقة بين قيمة الخصائص النفسية وطبيعة المزايا الفيزيولوجية المتفاوتة في الاجناس البشرية المختلفة ، ويذهب الى أن علم النفس الاجتماعى لم يتجاوز بعد مرحلة الطفولة ، وبالتالي لا يصح الوثوق المطلق بنتيجة أبحاثه ، ثم يستعرض بعد تحفظه هذا عددا من النظريات العرقية ، ويبين - على ضوء ما قدمته الاجناس المختلفة من مشاركة في انتاج الحضارات المتعددة - اخفاق تلك النظريات الاثنولوجية في تفسير عملية النشوء الحضارى ، ومن ثم فالقول بتفوق الجنس الابيض بفروعه الثلاثة - النوردى والالبينى والاييرى - والادعاء بأن أبناء هذا الجنس هم الذين أنشأوا الحضارات وأمدوها بالمعجزات في شتى مناحى الابداع ، والقول بامتياز العنصر الجرمانى على غيره من العناصر ، كل هذه الأحوال وغيرها تنهافت عند الوقوف على نتائج الدراسة الحضارية المقارنة التي تبين أن جميع الاجناس : الابيض - بفروعه الثلاثة - والبولينزى - الكورى واليابانى - والاسمر والاصفر والاحمر - ماعدا الاسود - قد أسهمت في العمران الحضارى .

هذا ويرى «توينبى» أيضا أن نظرية البيئة للجغرافية لا يمكن الاخذ

بها كذلك ، إلا إذا قامت حضارة مستقلة في بيئات متماثلة جغرافيا ،
 صحيح أن حضارتين أو ثلاثة على الأكثر - المصرية والسومرية
 والسندية - من مجموع إحدى وعشرين حضارة نشأت بصورة مستقلة
 في بيئات متماثلة جغرافيا ، ولكنه صحيح كذلك أن نشوءها على هذا
 الشكل لا يصح اتخاذه قاعدة وإنما حالة شاذة لا يصح اتخاذه قاعدة
 ومن ثم فإن البيئة الجغرافية وحدها ليست عاملا أساسيا في نشوء
 الحضارات الأولى ، فهناك مثلاً أحواض أنهار تشبه وديان النيل ودجلة
 والفرات جغرافياً ، لم تنشأ فيها حضارة مستقلة مطلقاً ، ولكن عندما
 استوطنتها جماعات - كالأوربيين المحدثين - وعرفت كيف تستجيب
 استجابة ناجحة لتحدي البيئة الطبيعية هناك - نشأت فيها حضارات ،
 لم يتمكن السكان القدامى من انشائها بدافع البيئة الجغرافية وحدها .

ويذهب «توينبى» الى أن الحضارات قد نشأت في بيئات مختلفة ،
 فقد تكون البيئة الطبيعية التي تساعد على قيام الحضارات بيئة رسوبية
 - كما في مصر والسند والعراق - وقد تكون هضبة - كما في موطن
 الحضارة الحثية والمكسيكية - أو قد تكون أرخبيلية - كما في حضارتى
 الإغريق واليابان - وهذا يدل على أن أى نوع من المناخ والطوبوغرافية
 يمكن أن يكون بيئة طبيعية مساعدة للنشوء الحضارى ، عندما يتوفر
 الحافز الأساسى ، ومن ثم فإن السبب في نشأة الحضارات متعددة كما
 أنه ليس وحدة مستقلة ، ولكنه علاقة مشتركة .

ثم يعرض «توينبى» لعمليات «التحدى والاستجابة» وأثرها في نشوء
 الحضارات ، حيث يبين أن أصول هذه العلاقة تتجلى في التراث الدينى
 - الميثولوجى ، حيث تتعدد الشواهد على ماكان للتحديات من أثر فعال في
 شتى مناحى الإبداع والتكامل ، كما في قصة الجية ، وهناك نوع من
 الحضارات ينشأ نتيجة تحدٍ بشرى يتمثل في تجدى الفئة المسيطرة في
 المدنية المتناهية للبروليتاريا الداخلية المتخيلة عن تلك الفئة بسبب فشلها ،
 والبروليتاريا الخارجية التي تقبع على حدود المواطن الحضارية ، والتي
 تتحضر لتقويض سيطرتها المتداعية ، وهو تحدٍ قرينه الاستجابة الظاهرة

المؤدية الى نشأة حضارة جديدة عن الحضارة الزائلة ، وهناك حضارات عليها أن تتغلب — الى جانب التحدى البشرى — على عقبات في المواطن الجغرافية الجديدة التي تستوطنها ، والتي لم تكن من قبل موطناً للحضارة الزائلة ، وهناك حضارات كان عليها أن تتحدى البيئة الطبيعية — كما في حوض النهر الاصفر — ومن هذا النوع الحضارة المصرية ، حيث استجابت جماعات — بعد انتهاء عصر الجليد — لتحدى البيئة الطبيعية برحيلها الى وادى النيل ، حيث النهر العظيم والدلتا الخصبة والمناخ الملائم ، وتغلبت عليها وسخرتها لاغراضها ، وأنشأت الحضارة المصرية العظيمة ، والامر كذلك الى جد قريب ، فيما يتصل بنشأة الحضارة السومرية .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن لهذه التحديات — البشرية والطبيعية — مدى معين لا يتعداه ، حتى تكون الاستجابة الخلاقة ممكنة . فهى ليست مما يعجز البشر عنه ، ولا مما ينقاد له بسهولة ، ولكنها مما يثير أقصى طاقته على الكفاح ، وأن يفيد من هذا الكفاح ، فالرخاء المفرط في البيئة عند الحضارات اللحدود ، ولذا ظلت الشراذم البشرية في «نياز الاند» مثلاً ، بدائية في حياتها ، كثيرها من المناطق الاستوائية الدافئة بالخيرات الطبيعية ، وفي نفس الوقت كان قسوة العوائق في البيئة قسوة خارقة انما تشل كذلك النشاط الانساني ، وتسقط الاجنة الحضارية قبل تكاملها في بطون الارضين العاقرة التي تحملها مدة ثم تلفظها عاجزة ضعيفة ، ومن ثم فقد ظل سكان بعض المناطق القطبية — كالاسكيمو — والصخراوية — كالبدو — عاجزين عن اللحاق بأدنى المستويات الحضارية وهكذا يبدو واضحاً أن الدافع الحيوى في عمليات النشوء الحضارى ، هو الاستجابة الظاهرة لتحدى البيئة المناسبة^(٤٥) .

وعلى أية حال ، فدور النمو في الحضارات ليس امتداداً طبيعياً

(٤٥) منح خورى : التاريخ الحضارى عند توينبى - بيروت - دار العلم للملايين ١٩٦٠ ص ١١ - ٤٦ ، عميد خليل : المرجع السابق ص ٧٠-٧٧ .

ملازما لدور النشوء ، ومن ثم فهناك عدد من المجتمعات نشأت فيها حضارات، بولكتها توقفت عن النمو لمعجز الاقلية فيها عن مغالبة التحديات القاهرة في بيئاتها الطبيعية الصارمة — كمناطق الاسكيمو والبدو — أو البشرية — كالحيط البشري للمجتمعين العثماني والاسبارطى — كذلك لا يكفى أن تكون الاستجابات ناجحة بذاتها ، وانما يجب أن تستثير تحديات جديدة ، تتبعها استجابات جديدة ناجحة ، وهكذا يتكامل النمو .

ثم يتناول «توينبى» النظريات الشائعة التى تفسر النمو الحضارى، ويقيسه بمقياس ما تحققه الامة المتحضرة من انتصارات على البيئة الخارجية ، وهى انتصارات فى ميادين الفتوحات الجغرافية والصناعات والعلوم التقنية ، ويرى أن هذه النظريات تخطئ بين الاغراض والجواهر وتعتبر التقدم «الكمى» سببا للازدهار ، وهو فى أكثر الاحايين ، ظاهرة سقوط وانحلال ، فالتوسع الجغرافى مثلا ، يحدث عادة فى زمن الفهضات العسكرية فى تاريخ الحضارات ، وهو زمن «الدولة الجسامعة» التى تؤسسها الاقلية المسيطرة للمتمييز عن الانتصارات البناءة^(٤٦) .

وأما عن سقوط الحضارات وانحلالها ، فان «توينبى» يخفض أهم الآراء التى ترد السقوط الحضارى الى أسباب حتمية خارجة عن قدرة الانسان و ارادته ، ومن ثم فهو ينفى السقوط على الاسس التالية :

١ — المبدأ القائل بصيرورة الكون الى الشيخوخة ، وانتهائه الى العدم المحتوم ، ويرى — مع الطبيعيين — أن هذا لن يحدث الا فى الابد السحيق ، ومن ثم فهو يستبعد تأثيره الفعلى على سقوط الحضارات .

٢ — الخضوع للمؤثرات البيولوجية ، ولناموس الكائنات الحية فى

(٤٦) نفس المرجع السابق ص ٧٧ - ٧٨ ، أرنولد توينبى : دراسة فى التاريخ ١١٩/٣ ، وانظر الاصل

A. Toynbee, A Study of History, London, Oxford Univ. Press, 1948.

الولادة والموت ، مروراً بأدوار العصر المختلفة ، والرأى عند توينبى أن المجتمعات ليست كائنات عضوية ، ومن ثم فهي لا تخضع لنواميسها .

٣ - التقييد بقانون التشابه ، أو مبدأ الحركة الدورية في التاريخ، ويرى «توينبى» أن التشابه أو التكرار ظاهرة تتجلى في مجرى الحوادث التاريخية ، ولكن الدولاب الذي يحمل عربة التاريخ ، ويدور على نفسه دورة رتيبة ، لا يستبقى العربة في إطاره الثابت المحدود ، بل يدفعها نحو غايتها الكبرى في حركة تقدمية مستمرة .

٤ - فقدان السيطرة على المحيط الانساني ، والعجز عن صد الاعتداءات الخارجية على كيان الحضارات ، ويرى «توينبى» أن هذه الظاهرة ليست في الواقع سبباً للسقوط ، ولكنها نتيجة انهيار سابق كان قد حدث في قلب الحضارات نفسها ، ويجد الدليل القاطع على هذا الانتحار الحضارى في تاريخ سقوط الامبراطورية الرومانية .

٥ - النقص في الميادين العلمية والتقنية ، ويرى «توينبى» أن سقوط الحضارات هو العلة ، وأن التأخر في الميادين التقنية هو النتيجة .

على أن الرأى عند «توينبى» أن سقوط الحضارات انما يرجع الى أمور ثلاثة ، أولها : ضعف القوة الخلاقة في الاقلية الموجهة ، وانقلابها الى سلطة تعسفية ، وثانيها : تخطى الاكثرية عن موالاة الاقلية الجديدة المسيطرة ، وكفها عن محاكاتها ، وثالثاً : الانشقاق وضياع الوحدة في كيان المجتمع كله (٤٦) .

ومن المبدى أن نظرية «أرنولد توينبى» في تفسير التاريخ لم تسلم من نقد كثير من الباحثين ، وأشهرهم «بترم سوروكين» و«بيتر جيل» (٤٨) .

(٤٧) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٨١ - ٨٣ ، منح خورى : المرجع السابق ٤٠/٤ .

(٤٨) انظر :

P. Geyl, Toynbee and Sorokin, The Pattern of The Past, (Beacon Press) 1949, P. 107-126.

وكذا : منح خورى : التاريخ الحضارى عند توينبى ص ١٠٧ - ١١٢ .

فأما «سوروكن» فالرأى عنده أن النظرية متهافئة في مبدأين أساسيين، أولهما : اعتبار الحضارة وحدة معقولة للدراسة التاريخية ، وثانيهما : اعتبار الأدوار الحضارية من النشوء إلى النمو ثم السقوط ثم الانحلال أساسا لفلسفته التاريخية *

ويذهب «سوروكن» إلى أن «توينبى» لا يعنى بالحضارة مجرد مجال للدراسة التاريخية ، وإنما يعنى نظاما موحدا أو كيانا كليا مرتبطة أجزاؤه بعضها ببعض الآخر ، ارتباطا سببيا بحيث تستتبع التغير في الجزء الواحد تغيرا في الكل ، وبالعكس ، فإن الحضارات — كما يقول توينبى — هي كيانات كلية بجميع أجزائها ملتزمة بعضها ببعض الآخر ، وجميعها مؤثرة بعضها في البعض الآخر ، ومن خصائص هذه الحضارات في دور النشوء أن تكون جميع نشاطات حياتها الاجتماعية ، ومظاهرها المختلفة منسقة في كيان اجتماعي واحد ، كيان تنسجم فيه العناصر الاقتصادية والسياسية والثقافية بعضها مع البعض الآخر في حياة الجسم الاجتماعي النامي ^(٤٩) *

ويرى «سوروكن» أنه لو صح افتراض «توينبى» أن الحضارات كيانات حقيقية، لا يستلزم التغير في أحد مقوماتها تغيرا في مجموع المقومات الأخرى ، ومن ثم فإن حضارات «توينبى» ليست كيانات حقيقية ببدليل ما يذكره هو نفسه ، من أن الظواهر الاقتصادية والتقنية كثيرا ما تتغير في الحضارة الواحدة وتبقى الظواهر الأخرى ثابتة ، أو أن العكس هو الذي يحدث أحيانا ، أو أن الظواهر الاقتصادية في حالات أخرى تتغير في اتجاه ، بينما تتغير العناصر الباقية في اتجاه مقابل ، بل إن توينبى إنما يذهب إلى أن العنصر الديني أو الفني أو السياسي كثيرا ما يبدو مستقلا عن غيره من العناصر في ذلك الكل الحضاري ، ومن ثم فإن «توينبى» — فيما يرى سوروكن — إنما يقوض بنفسه أساس نظريته

(٤٩) أرنولد توينبى : دراسة في التاريخ ٣/ ٣٨٠

القبائل : بأن الحضارات وحيدة حقيقية ملتزمة الأجزاء بعضها مع البعض الآخر .

ثم يذهب «سوروكن» الى عدم وجود الوحدة الحضارية ، حتى في ذلك الانسان الواحد ، فضلا عن وجودها في مجالات ثقافية ، كالحضارة الهلينية أو الصينية ، وأن ما يسميه «توينبى» وحدة حضارية ، انما هو مجال ثقافى توجد فيه معا عناصر عديدة من الانظمة والتكتلات «الاجتماعية - الثقافية» ، الكبيرة والصغيرة ، منسجمة في جانب منها ، ومتجاورة أو متباينة في الجانب الآخر .

ومن ثم فان مبدأ الادوار الحضارية في التفسير التوينبى انما يصبح فاسدا من أساسه ، فيما ليس في أصله بنية حية كاملة ، لا يمكن أن يولد وينمو ويموت ، وبالتالي لا يصح اعتبار التفسير التوينبى نظرية في التطور الحضارى ، بقدر ما هى نظرات تقييمية لاعراض المتقدم أو المتأخر الحضارى .

ثم ينتهى «سوروكن» الى أن هناك أخطاء أخرى في مبدأ توينبى (الوحدة الحضارية - الادوار الحضارية) منها (أولا) أن تقسيم توينبى الحضارات الى دنيا وعليا ، والى مجهضة ومتوقفة ومتحجرة ، تقسيم اعتباطى لا يعتد به ومنها (ثانيا) تفاوت مدد الادوار المختلفة التى تمر بها الحضارات يصبح هو الآخر تفاوتاً مصطنعاً لا تقره حقيقة الظواهر التاريخية ، ولقد ظلت عملية الحياة الحضارية نفسها : متى وكيف نشأت سرا مغلقا ، كان على «توينبى» أن يعنى به قبل أن يعنى بدراسة أعراض المرض والانحلال والموت ، ومنها (ثالثا) أن اعتبار «توينبى» دور النشوء الحضارى فترة سلام دائم ، لا يؤيده واقع الاحداث التاريخية ، وهو مردود بأكثر من شاهد ، فضلا عن أن أدوار الانحلال في عدد من الحضارات ، كانت في أحوال كثيرة ، أعمر بالسلام من أدوار النشوء والازدهار . ومنها (رابعا) أن ما يستند «توينبى» الى الحضارات - بتأثير فلسفة «اشبلنجر» على تفسيره للتاريخ - من الخصائص

الغالبية المميزة (جمالية عند الاغريق ، دينية عند اليهود ، آلية تقنية عند الغربيين) يدحضه كذلك الواقع التاريخي ، فقد كانت الحضارة الغربية متميزة بطابع ديني ، ولم تكن آلية تقنية على الاطلاق ، وكانت الحضارة الاسلامية — من القرن الثامن الى الثالث عشر الميلادي — متميزة بطابع علمي ، لا تدانيها فيه الحضارة الغربية ، ومن ثم فبان ما يسميه «توينبي» خصائص مميزة لطابع الحضارات ، ليس في الواقع سوى أحوال حضارية متبدلة تتناوبها الحضارات المختلفة ، وليست وقفا على واحدة منها دون الأخرى ، ومنها (خامسا) ينتزع «توينبي» أغلب شواهد من تاريخ الدول القومية ، مع أنه لا يعترف بها كوحدات للدراسة التاريخية ، وكان عليه أن ينتزعها من تاريخ الحضارات ، لو صح وجودها كوحدات مستقلة ، ففي عمله هذا أذن تناقض صريح (٥٠).

بقيت الإشارة الى أن «أرنولد توينبي» — رغم كل هذا — فانه يقترب بنا خطوات واسعة صوب الرؤية الصحيحة ، والنظرة الأكثر انفتاحا ، عندما يضع على ساحة الصراع والحركة ، طرفي المسألة،وهما: البيئة والانسان والجماعة ، ويعطى للجانب الآخر اختياره وحرية في تقرير المصير .

وأما «جورج غلهم فردريك هيغل» (G. W. F. Hegel) (١٧٧٠ — ١٨٣١م) فيقتصر الصراع على نطاق الافكار ، ويرده الى مشيئة العقل الكلي الذي يعمل من خلال العالم نفسه ، لا من واقع فوقى ، كما قد يتوهم البعض ، فيقربه خطأ من التصور الديني ، وهو بهذا يجرّد الانسان والجماعة البشرية من اختيارها الحر ، ودورها الارادي في حركة التاريخ ، والماديون يفعلون الشيء نفسه ، ولكن على مستوى المادة التي يجد الانسان والجماعة البشرية أنفسهم حيالها غير قادرين

(٥٠) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٨٩ — ٩٢ ، أرنولد توينبي : المرجع السابق ص ٣٨٠ .

على تغيير منطقها الجدلي الصارم الذي يمضي لغايته دونما اختيار أو تدخل بشري في علاقته الديالكتيكية^(٥١) .

غير أن أيا من رواد المذاهب التفسيرية الثلاثة للتاريخ (المادية والمادية والحضارية) لم يأتوا بجديد في أهم معيقاتهم على الإطلاق ، وهو التأكيد على أن محور المفاعلية الحضارية ، وأس الاسيس في الحركة التاريخية ، هو الصراع أو الجدول (الديالكتيك) أو تبلور التناقض المتقابلة .

وأما الموقف الاسلامي — مستمداً من كتاب الله — فبمجرد أن نرجع الى واقعة خلق آدم ، سنلتقى بقوله تعالى «واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين ، وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فآزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كنا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين»^(٥٢) ، فالصراع اذن من أول لحظة ، لان ذلك هو جوهر الحياة البشرية وتميزها عن سائر الحيوان الأدنى أو الارقي^(٥٣) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك تفسيرين للتاريخ يرتبطان — الى حد كبير — بالقرآن الكريم ، هما : التفسير الأخلاقي والتفسير الاسلامي ، وأن كان للثاني أشد ارتباطاً بالقرآن من الاول .

(٧) التفسير الاخلاقي :

لعل من الجدير بالاشارة هنا أن اصطلاح «حكم التاريخ» ، هو لفظ كثير التداول على اللسان ، خاصة عندما تختل الموازين ، ويكثر الجدول

(٥١) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٥٢) سورة البقرة : آية ٣٤ - ٣٦ .

(٥٣) انظر عن أنواع الصراع ، كما جاء في القرآن الكريم : الانبياء :

آية ٣٥ طه : آية ١٢٣ - ١٢٤ ، العنكبوت : آية ٢٤ - ٢٥ ، ص : آية ٢٤ ، البروج :

آية ١٠ ، وانظر : عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٢٣٣ - ٢٥١ .

حول تقويم شخصية تاريخية ، فان لم ينل فرد جليل القدر ، عظيم الشأن قدره بين الناس ، بل ربما انقلبوا عليه ، وطاردوه ، مع صواب آرائه ، حتى مات شريدا طريدا ، وربما قتيلا شهيدا ، فان عزاء الناس بعد موته ، حين تتبين حكمته ، وسداد آرائه ، قيل : ان التاريخ قد حكم له ، والعكس صحيح ، فاذا ما أحاطت بالشخص بطولية زائفة ، اصطنمها لنفسه ، وروجتها له حاشية من الاتباع ، وجماهير من الغوغاء حتى تأسف القلة الراشدة من اضطراب الاحكام ، وانقلاب الموازين ، فان العزاء أيضا في «حكم التاريخ» الذي سيحكم عليه بما هو أهل له . على أن هناك تناقضا في مقولة «حكم التاريخ» هذه ، ذلك أن مفهوم التاريخ انما له دلالة الى الماضي ، بينما ينطوي القول بحكم التاريخ على المستقبل ، فحكم التاريخ فينا ، أى حكم الاجيال القادمة علينا ، فكيف هو يتعلق بالماضى ، بينما تتعلق أحكامه بالمستقبل ؟ وهنا قد يقال ، ولكن التاريخ لا يحكم علينا ، الا بعد أن نصبح جزءا من الماضى ، ومن ثم ندخل في مجال موضوعه ، ولكن هل يصدر التاريخ أحكاما على من اصطلح على تسميتهم : أنهم دخلوا التاريخ ، وهنا يذهب الباحثون الى مذهبين مختلفين .

الاول : يعارض أصحابه ادانة الشخصيات التاريخية ، مادام صاحبها قد مات وهو على كرسى الحكم - وهذا هو الاغلب - فانه لم يحاكم في حياته ، فان كان طاغية فان أحدا من المؤرخين من مواطنيه ، لا يجروا على نقد أفعاله ، وقد جرب «كروتشه» صاحب هذا الاتجاه ذلك على أيام «موسولينى» (١٨٨٣ - ١٩٤٥م) (٥٤) .

والثانى : أن الحكم على من أصبحوا في ذمة التاريخ ، لاسيما اذا ما مر على وفاتهم زمن طويل ، أكثر موضوعية من الحكم عليهم في حياتهم والعكس صحيح ان قرب العهد بوفاتهم ، اذ أن مرسل الأحداث مازال

(٥٤) احمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٩٠ - ٩١ ، وكذا

R. Croce, History of Liberty, p. 47.

يغلى ، فلا تتضح الرؤية السياسية ، فضلا عن أن ضحاياها مايزالون على قيد الحياة ، وبالتالي فهم يؤثرون عاطفيا على حكم المؤرخ ، بخلاف من أصبح هو وضحاياها في ذمة التاريخ ، مثل شيرمان أو نابليون^(٥٥) .

وعلى أية حال ، فإن حكم التاريخ لا يتعلق بالسير الذاتية الشخصية ، مادامت لا تتعلق بأعمال الشخصية التاريخية العامة ، وعلى العكس فإن كثيرا من مؤسسى الدول — كما لاحظ ابن خلدون بحق — تكون حياتهم الشخصية على درجة كبيرة من الاستقامة لأن شدة الصراع لا تدفعهم في حالة من الدعة ، حتى ينغمسوا في الترف والملذات ، مع أن حياتهم العامة انما تتطوى على شيء كثير من الظلم وسفك الدماء ، حتى يقرس المهابة في قلوب الرعية ، على نحو ما ادعى مؤسس الدولة العثمانية السفاح (١٣٢ — ١٣٦هـ) والمنصور^(٥٦) (١٣٦ — ١٤٥هـ = ٧٥٤ — ٧٧٥م) .

ولعل سائلا يتساءل : لماذا يحجم المؤرخون عن إصدار أحكام أخلاقية ، ولماذا اتهم «كروشه» من يفعل ذلك منهم بأنه تجرد من الحاسة التاريخية ؟

ولعل الاجابة تكمن في نقاط ، منها (أولا) أن كثيرا من المؤرخين انما يذهبون الى أن التقويم الاخلاقي خروج عن الموضوعية، لان مهمة المؤرخ — فيما يرى رائكه — تصوير الواقع ، كما كان صورة مطابقة بقدر الامكان ، فالوصف التاريخي صورة تقريرية ، بينما الاحكام التاريخية تقديرية ، ومن ثم فاذا كان التاريخ علما ، فان من خصائص العلم التجرد عن الاهواء الذاتية ، وأن انتماء الذات والموضوع الى مقولة واحدة (هى الانسان) في التاريخ ، لا يعنى التهاون في الموضوعية بمعناها (ثانيا) أن الانسان يميل الى تشخيص ما هو عام به ومن ثم فاذا ما اعتبرنا الزعيم أو الحاكم حصيلة مجتمعه ، وكانت الكوارث نتيجة خطأ شعب بأكمله ، فان المؤرخ لن يجد سوى شخص الحاكم أو الزعيم يحمل له

55. E. Carr, What is History, Penguin, 1961, p. 78.

(٥٦) - أحمد محمود صبحي : المرجع السابق ص ٩٦ - ٩٧ .

مسئولية هذه الشرور ، وعلى سبيل المثال ، فشرور الحرب العالمية الثانية ، والكوارث التي حاقّت بألمانيا ، قد أقيمت تبعيتها على «أدولف هتلر» (١٨٨٩ - ١٩٤٥م) ، بينما قد شارك في خلق العسكرية الألمانية والنزعة العنصرية كثير من العلماء والمفكرين والفلاسفة الألمان .

ومنها (ثالثا) أن الأحكام التاريخية قد تتعوق المؤرخ عن أن يتعمق في فهم الشخصيات - موضوع دراسته - فضلا عن أن في ذلك إضفاء تصورات الحاضر وتقييماته على الماضي ، ذلك لأن التقويم إنما ينطوي على معايير نسبية ، تختلف من عصر إلى آخر ، بل من مجتمع إلى آخر ، ومن ثم يتعذر حكم التاريخ موضوعيا أو محايدا ، الأمر الذي دفع كثيرا من المؤرخين أن ينصبوا أنفسهم قضاة لمحاكمة الشخصيات التاريخية ، بدعوى الحياد من جهة ، واستقلال التاريخ عن الأخلاق من جهة أخرى وقد ذهب «هيجل» إلى أن معنى الدولة خارج عن نطاق التقييم الأخلاقي العادي للأفراد ، وهذا ينطوي على اعتبار شخصيات التاريخ السياسية والعسكرية فوق مستوى القيم الأخلاقية .

على أن هذه الاعتبارات - مع وجاهتها إلى حد ما - لا تعنى أبداً أن تصبح الحراسة التاريخية لا طعم لها ، أو أن يصبح المؤرخ بليد الجسد ، والأفلا قيمة للدراسات التاريخية ، وإنما أريد لهذه الاعتبارات أن تضع على حكم المؤرخ قيوداً تكون بمثابة قانون أو تشريع يلتزم به القاضي ، فليس من حقه أن يجحد عنه بومعنى آخر ، أن يتساءل المؤرخ قبل أن يصدر حكمه : هل لزم عن هذه الشرور انجازات حضارية أفادت الإنسانية عامة ، ووطن الزعيم خاصة ؟ وهل لم يجد هذا الزعيم بديلا عن الطرق التي سلكها حتى يجنب وطنه ما وقع بسببه من ويلات الحروب والمظالم والاعتقال والتعذيب ؟ وهل أسرف في سفك الدماء والتخريب والهدم دون مبرر ، وفي ضوء مثل هذه التساؤلات ، لا يجد المؤرخ حرجا في أن يدين أمثال نيرون (٣٧ - ٦٨م) وجنكيز خان (١١٦٧ - ١٢٢٧م) من البساسة والقواد الذين لم تنطو أعمالهم على أية قيمة حضارية ، بل على العكس هدم لكل حضارة ، بل ليس من حرج على

المؤرخ أن يحاكم أولئك الذين تسببت رغواتهم في كوارث لأوطانهم ،
ما كانت هذه لتقع لولا مجرد شهوة التسلط والحكم ، وما أكثرهم في
عصور التاريخ المختلفة •

على أن هناك وجها آخر للنظر ، يذهب أصحابه الى أن المؤرخين
حين يتجاهلون التقويم الاخلاقي انما يفرضون هذا الحياد على الدراسات
التاريخية ، بينما لم يفترضه الاشخاص - موضوع الدراسة - ليس
لان أعمالهم منافية للاخلاق فحسب ، بل لانهم أيضا انما يتلمسون
مبررات أخلاقية لتبرير شروهم ، والواقع أن قليلا أو كثيرا من كتب
التاريخ ، انما كتبت تمجيذا للفرد - سواء أكان ذلك عن رغبة أو رهبة -
كما أن تطويع الماضي لمقتضيات الحاضر - أى النزعة المثالية التى تريد
أن تجعل التاريخ عصريا - أفليس من واجب المؤرخ أن يعيد الحق الى
نصابه ، باعادة تقويم الشخصيات التاريخية ، ومن ثم اصدار الاحكام
الاخلاقية ، حتى يظل لفظ «حكم التاريخ» ، كما تتصوره الاذهان ، سلطة
مهابة تتجاوز حدود الزمان والمكان هى سر هيبة التاريخ ، وقد استه (٥٧) •

وهنا لعل من الاهمية بمكان الإشارة الى أن هناك نوعين من حكم
التاريخ ، الواحد : أخلاقى ، والثانى : غير أخلاقى •

وأما الاخلاقى فيمثلته العرض التاريخى لقصص القرآن الكريم ،
والذى يهدف الى أمرين : الحق والموعظة كما تحددهما الآية الكريمة
«وجاءك في هذا الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين» (٥٨) ، بل ربما تكاد
الموعظة أن تكون فى المحل الاول من الاعتبار ، «لقد كان فى قصصهم
عبرة لأولئى الالجب ما كان حديثا يفترى» (٥٩) ، وهكذا استبدل القرآن
مقولاتى الزمان والمكان فى قصص التوراة (العهد القديم) مقولة الموعظة
أو الذكرى أو الهدى ، وكان لابد أن يتخذ القرآن طابعا أخلاقيا حتى

(٥٧) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٩٢ - ٩٥ •

(٥٨) سورة هود : آية ١٢٠ •

(٥٩) سورة يوسف : آية ١١٢ •

نتبين فيه الموعظة ونحن ثم فقد نفع شخص للتوراة من كثير مما جاء فيها من كتابات منسوبة الى الانبياء ، وأبرزهم في صورة تليق بهم ، لانهم الاسوة الحسنة للناس جميعا .

والواقع أن من يقرأ ما كتب عن الانبياء في توراة يهود المتداولة اليوم ، ليصاب بالغبان ، والا فكيف يتصور عاقل ما ترويه التوراة من أن ابراهيم عليه السلام قد هاجر بزوجه «سارة» الى مصر ، يطلب فيها الشبع والرئ من بلاد كنعان التي ضربها القحط والجفاف ، وعندما أشرف على تخوم مصر ، اتفق معها أن تقول : أنها أخته ، وليست زوجته لان المصريين ان علموا أنها زوجته قتلوه ، وأما ان كانت أخته ، فمن أجلها أكرموه (٦٠) .

وسرعان ما يحدث ما توقعه أبو الانبياء ، عليه السلام ، فبرت سارة بوعدها ، وأخذت الى بيت الملك ونال ابراهيم خيرا بسببها ، اذ أسبغ عليه فرعون بسبب سارة وأقر نعمه من غنم وبقر واثن وحمير وجمال وإماء ، غير أن المصائب مرعان ما توالى على ملك مصر وقومه ، مما اضطره الى أن يستدعى ابراهيم ويؤنبه على فعلته هذه ، ثم أمر بطرده هو وزوجه ، وان سمح له بأن يأخذ ما كان قد أعطاه من قبل (٦١) .

وهكذا كان ابراهيم المجاهد بنفسه وولده وماله ، والذي حطم الأصنام ، وتجدى المجابرة الطغاة ، وألقى به في النار ، فأنجاه الله في كنج طويل ، وجهاد موصول ، كان للناس اماما ، وعلى مدارجه أو من نسبه درج الانبياء (٦٢) ، ابراهيم العظيم هذا لم تراه توراقيهود — وليست توراة موسى — الا رجلا لا هم له سوى الغنم والبقر والاثن والجمال

(٦٠) التوراة : سفر التكوين ١٢/١٠ - ١٣ .

(٦١) تكوين ١٢/١٤ - ٢٠ .

(٦٢) انظر : سورة التوبة : آية ١١٤ ، النحل : آية ١٢٠ - ١٢٢ ، مريم :

آية ٤١ - ٤٨ ، الانبياء : آية ٥١ - ٧٣ ، العنكبوت : آية ١٦ - ٢٧ ، الصافات :

آية ٨٣ - ٩٩ ، الممتحنة : آية ٤ .

والاماء والعبيد ، متخذاً من الوسائل أحطها ، ومن الطرق أحقرها ، فحاشا
 ابراهيم العظيم أن يكون سفيها ، وحاشا لسارة أن تكون بغيا (٦٣) .

ومن ثم فإن القرآن الكريم انما يحرص على أن يقدم لنا ابراهيم
 عليه السلام ، على أنه كان وحده أمة من الامم ، جامعا لكل الفضائل
 النبيلة ، يقول تعالى «ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من
 المشركين ، شاكرا لانعمه ، اجتباها وهداه الى صراط مستقيم ، وأكثناه
 في الدنيا حسنة ، وأنه في الآخرة لمن الصالحين» (٦٤) ، ومن هنا كان
 ابراهيم في القرآن الاسوة الحسنة للمؤمنين جميعا «لقد كان لكم أسوة
 حسنة في ابراهيم والذين معه» (٦٥) .

وينظر القرآن الى ابراهيم — عليه الصلاة والسلام — على أنه أبو
 الانبياء ، فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الانبياء — بعد ابراهيم —
 فمن ذريته وشيعته (٦٦) ، وهذه مرتبة لابراهيم لا يعلو عليها أية رتبة ،
 ذلك أن الله تعالى انما أخرج من صلبه أنبياء بررة ، حملوا الراية ،
 وتوارثوا المشعل ، فكان منهم : اسماعيل واسحاق ويعقوب ، وكان يحيى
 والميسع وزكريا والياس ، وكان داود وسليمان ويوسف وهارون ، وكان
 موسى وعيسى ومحمد — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين (٦٧) ، بل
 ان القرآن انما يقول لسيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ «ثم أوحينا
 اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا» (٦٨) ، ويقول «ومن يرغب عن ملة
 ابراهيم الا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدنيا ، وأنه في الآخرة
 لمن الصالحين» (٦٩) ، وابراهيم — في نظر القرآن — أحد أولى المعزّم

(٦٣) انظر : محمد بيومي مهران : اميرائيل — الجزء الثالث —
 الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٦٧ — ١٨٢ .

(٦٤) سورة النحل : آية ١٢٠ — ١٢٢ .

(٦٥) سورة الممتحنة : آية ٤ .

(٦٦) ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ١/١٦٧ (بيروت ١٩٦٥) .

(٦٧) سورة الانعام : آية ٨٣ — ٨٧ .

(٦٨) سورة النحل : آية ١٢٣ .

(٦٩) سورة البقرة : آية ١٣٠ .

الخصه : محمد و ابراهيم ونوح وموسى وعيسى (٤٧) - وهو - في نظر المسلمين - أفضل الانبياء والمرسلين - بعد سيدنا محمد - وليس أدل على هذه الافضلية من أن المسلمين يصلون على ابراهيم وآله ويباركونهم ، كما يصلون على نبيهم محمد وآله ويباركونهم ، كما علمهم نبيهم ﷺ (٤٨) .

ويدهى أن ما يقال عن ابراهيم في القرآن ، يقلل عن غيره من الانبياء والمرسلين ، تلك الصفوة المختارة من عباد ، بصفوا بهم ربهم . هداية الرشدين ، واختارهم - سبحانه وتعالى - مبشرين ومنذرين لواصلطافهم من خلقه ، وصدق الله العظيم حيث يقول «الله أعلم حيث يجعل رسالته» (٧٣) ، ومن ثم فقد أوجب لهم العصمة الكاملة ، لتصح بهم القدوة ، ويقوم بهم الحجة ، فلا يكون من أجدهم عمل ينال من كرامته ، أو يقدح في عدلته ، أو يحط من منزلته العلية بين ذوى المروءة والعقول الواجعة ، وذلك بعكس ما جاء عنهم في الفتوة (٧٣) .

هذا وقد حدد الثعالبي الحكمة من قصص القرآن ، وما ذكره عن أخبار الأنبياء والامم السالفة ، فقال : قالت الحكماء ان الله تعالى قص على المصطفى ﷺ أخبار الماضين من الانبياء والامم الخالية لخمسة أمور ، أى حكم ، الحكمة الاولى : أنه اظهر لنبوته ﷺ ودلالة على رسالته ، والثانية ليكون له أسوة وقدوة بمكارم أخلاق الرسل والانبياء المتقدمين ، والثالثة : تثبيتاً واعلاماً بشرفه وشرف أمته وعلو أقدارهم ، والرابعة : تأديباً وتهذيباً لامته ، والخامسة : احياء لذكرى الانبياء

(٧٠) سورة الاحزاب : اية ٧ ، الشورى : اية ١٣ .

(٧١) صحيح مسلم بشرح النووي ٤٧/٢ - ٥٠ .

(٧٢) سورة الانعام : اية ١٢٤ .

(٧٣) انظر عن لوط (تكوين ٣٠/١٦٧ - ٣٨) واصحاب (تكوين ١٣/

١ - ١١) ويعقوب (تكوين ٣٠/٢٧ - ٣٦) وموسى (تثنية ٢٥/٤ - ٢٨ ،

٢٨/٣٢ - ٥٢) ، عديم (١/٢١ - ١٨) وهارون (خروج ٢/٢ - ٦) ، عبد

(١/١٢ - ١٥) وداود (صموئيل ثان ٢/١١ - ٢٧ ، ٢/٢٢ - ٤٥) وسليمان

(ملوك اول ٤٢/٥٣ - ٥٣ ، ٥/٢ - ٤٦) ، وانظر : محمد بيومى مهران :

امرائيل ١٦٢/٣ - ٢١٨) .

والمصالحين وآثارهم ، ليكون المصنف منهم في إبقاء فكره ، مثبتاً له
تسجيل جزاءه في الدنيا ، حتى يبقى ذكره وآثاره المصنفة الى قيام
الساعة (٧٤) .

ولا ريب في أن المؤرخين المسلمين إنما قد تأثروا في كتابتهم بالهدف
الاساسي الذي حدده القرآن - أي العبرة والموعظة - وهكذا فما من
مؤرخ إلا وقدم لكتابه بتحديد هدف التاريخ ، وهو العبرة ، يقول
السعودي (ت ١٣٤٥/٩٥٩م) : انه علم يستمتع به الجاهل والعالم ،
ومكارم الاخلاق ومعالها منه تهتيس ، وآداب سياسة الملوك وغيرها
منه تلذذ (٧٥) ، ويقول ابن خلدون : اعلم أن فن التاريخ فن عزيز
المذهب ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الامة في
آخلاقهم ، والانبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياساتهم ، حتى
تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا (٧٦) ، ويقول
المقريزي (٧٦٦ - ٨٤٥) في كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط
والاثر» : ومنفعته (أي التاريخ) أن يشرف المرء في وقت قصير على
ما كان ... من الحوادث والتغييرات في الازمنة المتطاولة والاعوام
الكثيرة ، فتتهذب بتدبير ذلك نفسه ، وترتاض أخلاقه ، فيحب الخير
وينفح ، ويكره الشر ويجتنبه (٧٧) .

وهكذا تحدد مفهوم التاريخ عند المؤرخين المسلمين في أمرين ، الواحد
أن أحداث التاريخ - بصرف النظر عن الارتباط بينها - إنما تكشف عن
معنى أو مغزى ، أنها للمظة والاعتبار ، والثاني : أن يكون للتاريخ هدف
آخر ، خارج عن نطاق هذا العالم - أي هدف أخروي - ولما كان من

-
- (٧٤) الثعالبي : قصص الانبياء - المسمى عرائس المجالس - القاهرة
ط : الحلبي ١٩٧٦ ص ٢ - ٣ .
(٧٥) علي بن الحسين السعدي : مروج الذهب ومعادن الجوهر
- الجزء الاول - بيروت ١٩٧٣ .
(٧٦) عبد الرحمن بن خلدون : مفجمة ابن خلدون - بيروت - دار
القلم - ١٩٨١ ص ٩ .
(٧٧) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

المتعذر أن يستخلص الهدف الأخلاقي من سير معظم الملوك والحكام ، كان لابد أن يتسع مفهوم التاريخ ، ليشمل أصحاب السيرة الحسنة من الانبياء والعلماء والحكماء ، ومن ثم فقد كانت «كتب الطبقات» ، ومن ثم فقد كان هؤلاء أيضا محور لتاريخ ، وليس أشخاص الحكام والقواد أو أخبار السياسة والحرب ، لمصير (٧٨) .

على أن المؤرخين المسلمين لم ينفردوا بهذا المضمون الخلقى للتاريخ ومن ثم فقد رأينا «مارتن لوثي» (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) - زعيم الإصلاح البروتستانتي - يقول عن التاريخ : انه يرينا أنفسنا على حقيقتها ، وكأننا ننظر في مرآة تتعكس عليها خطباتنا ، وأنه لابد من الاستفادة به في سلوكنا ، واتخاذ ميعارا نحكم به على أعمال الافراد على اختلاقم ، حتى يكون حكمنا عليهم أقرب الى العدالة ، ويقول أيضا : ان دراسة التاريخ ترينا كيف تحسن خاتمة المتمسكين بالفضيلة والتقوى ، وكيف يسوء مصير من يسلمون أنفسهم للشيطان ، ويبدو أن رأيه هذا ، انما كان انعكاسا لايمانه الديني ، ومن ثم فهو يقول : ان المادة التاريخية قادرة على أن تهدينا الى آيات الله البينات ، وتبصرنا بكل ما يهربنا من أعمال هذا الكون الفسيع (٧٩) ، وفي العصر الحديث يذهب «لورود اکتون» في رسالته الى «كريتون» الى نفس المعنى ، حيث يقول : ان القانون الخلقى هو سر سلطة التاريخ وهيته وفائدته ، وأن التاريخ يجب أن يكون حكما بين المتخاصمين ، ودليلا للحاشرين (٨٠) .

وأما الاتجاه الثاني غير الأخلاقي - فهو الاتجاه «المكيافيلي» والذي ينادي بأن الغاية تبرر الوسيلة ، وهو مبدأ نادى به «نيقولا مكيافيلي» (N. Machiavelli) (١٤٦٧ - ١٥٢٧م) في كتابه «الامير» ، وخلاصته : طلاق تام لا رجعة فيه بين السياسة والاخلاق ، بعد أن كان «أرسطو»

(٧٨) أحمد محمود صبحي : المرجع السابق ص ١٠٥ - (٧٩) حكمت أبو زيد : التاريخ وتعليمه وتعلمه حتى نهاية القرن التاسع عشر - القاهرة - مكتبة الأنجلو - ١٩٦١ ص ١٧ - (٨٠) E. H. Carr, What is History, (Penguin, 1961), p. 77.

(٣٨٤ - ٣٧٢ ق.م) قد عقد زواجا بينهما ، ولازال الطلاق قائما بين السياسة والاخلاق لسوء حظ الانسانية ، ولما كان التاريخ - تاريخ أفراد - يتبع السياسة كظلهما ، فقد انعكس ذلك على اتجاه خطير في التاريخ لا يتخذ موقف الحياد الاخلاقي فحسب ، بل يتبنى موقفا لا أخلاقيا ، اذ يمجّد كل عمل لا أخلاقي مادامت الغاية تبرر الوسيلة ، ومن ثم فان منطق الدولة (Raison d'Etat) يقتضى المحافظة عليها بأى ثمن ، وأية وسيلة ، ان تأسس دولة من القانون والنظام انما يكون بوسائل غير قانونية ، وإن الحاكم من أجل الاحتفاظ بالسلطة في الدولة مضطر أن يتصرف بدون رحمة ، وبغير اخلاص ، وأن يتجرد من الانسانية بل حتى من تعاليم الدين ، فكل شيء مشروع بالنسبة لأخلاق الدولة ، لأن كسب السلطة أو الاحتفاظ به هو الهدف ، كما أن الطلاق قائم بين الاخلاق والسياسة ، لان فلاسفة الاخلاق يخلقون في دنيا الاحلام ، بينما السياسة تستند الى قوى الواقع والحقائق الملموسة .

هذا وقد عبر «ماينكه» - أشهر مؤرخى الالمان المعاصرين - بعبارة «القوة للدولة كالغذاء للانسان» ، كما تهكم من المؤرخين الذين يريدون تقويم التاريخ وفقا لقيم اخلاقية ، انهم كرهبان العصور الوسطى يتحدثون عن الوقائع السياسية بلغة منبرية ، وان مظهرهم ليبدو كمن يسير في الطريق في عصرنا مرتديا زيا من العصور القديمة ، انه نشاز من الماضي يعيش في الحاضر ، ثم يقول : لا توجد مداقات دائمة وانما هناك مصالح دائمة ، أنا مع وطنى دائما ، على الصق كان أم على الباطل (٨١) .

على أن «ميكافيللى» لا يعد وحده مسئولا عن الاتجاه اللا أخلاقي للدولة ، وانما قد مكن لهذا الاتجاه أن هناك - سواء في السياسة أو الحرب - فلاسفة ألمان على رأسهم «جورج فلهلم فردريك هيجل»

(٨١) أجمعت محمود صبحى : المرجع السابق ص ٩٩ - ١٠٠ ، وكذا Friedrich Meisner, Machiavellism, in Politics and History, Transl. by Douglas Scott, 1975.

(١٧٧٠ - ١٨٣١م) ، الذى فصل بين أخلاق الدولة وأخلاق الفرد ، ثم أوجد لأخلاق الدولة مبرراتها من فلسفته للتاريخ .

ثم جاء مواطنه «فردريك فلهلم نيتشه» (١٨٤٤ - ١٩٠٠م) فمزق تلك العلاقة الرقيقة من القيم الخلقية التى كان أبطال التاريخ مايزالون متقنعين خلفها ، ومع أن «نيتشه» انما يعنى فى فلسفته بالفرد ، وليس بالدولة ، فإن الإنسان الأعلى ، كما رسم صورته ، لابد أن يكون مستنذا الى منطق القوة ، فليس فى الحياة شئ ذو قيمة الا بالقوة ، ثم أعلن صراحة ادانته لما أسماه «أخلاق العبيد» لأنها تهدف الى سيطرة المنحطين من البشر وقيمهم ، ولا غرض الا إخضاع السادة لهم بما يعلنونه من مبادئ الشفقة والاحسان والمساواة والحرية ، وليست هذه سوى أكاذيب كبرى فى وجه طبيعة الاشياء التى تقتضى سيادة القوة .

ثم يمجّد «نيتشه» ذلك الإنسان الأعلى ، والذى تصدر جميع أفعاله عن ارادة القوة ، فلا يرى فى الحياة الا ارادة الاستيلاء على الاخرين وهضم حقوقهم ، واغتصاب أملاكهم . ان الحياة لديه عنصر انقضاء وهدم وايداء ، وأن هذا الإنسان الأعلى انما يلخص حيوية عصره وقوته ، ولو كان ذلك على حساب الآخرين من الاغلبية الساحقة كما لخص «نابليون» تاريخ أوروبا فى الفترة (١٧٨٩ - ١٨١٥م) فتجسدت آمال عصره فى شخصه ، وكان بذلك أمثلجا من اللانسان والانسان الأعلى .

هذا وبقدر صراحة «نيتشه» هذه وجراته فى هدم القيم الخلقية السائدة ، كان جريئا فى التعبير عن مآل الدولة التى تصل الى هذا الحال من هدم القيم وعدم الاكتراث بيؤس الجماهير ، وازدياد أخلاقهم ، وتمجيد الحرب ، وتقديس البطل الذى تجرد من الاخلاق (٨٣) .

(٨٢) عبد الرحمن بدوى : نيتشه - ط الثالثة ١٩٥٦ ص ١٦٤ ، ١١٩ ، أحمد محمود صبحى : الترجيح السابق ص ١٠٠ - ١٠١ ، وكذلك B. Russel, Op. Cit., p. 790-800.

(٨) التفسير الاسلامي :

ان القرآن الكريم لا يقدم قصصه وصوره ومشاهداته لمجرد ترف ذهني ، أو إشباع حاجة المؤمن الى القصص والصور والمجاهدات ، ولا لتزجية «أكاديمية» فيه تسمى الى تتبع ما جفت فعلا بتأخير قدير من الامانة ، ووجوه اكتراث للمعلولات الكبرى لهذا الذي حدث وإشاراته الاخلاقية ، فلما يجيء القرآن بمعطياته التاريخية تلك من أجل أن يحرك الانسلن صوب الاهداف التي رسمها الاسلام^(٨٢) ، ويبيده - في الوقت ذاته ، فردا وجماعة - عن الزايق والمنحوجلت التي أودت بمئات من الامم والشعوب ، هذا فضلا عن ابراز للفروق الحادة بين المجتمعات الوضعية والاسلامية (بمعوم معنى الاسلام) ، فالحركة - لا مجرد الاستقصاء الاكاديمي ، أو السرد اللغوي ، الذي هو مجرد أسلوب أو وعاء لغوي - أبدا هدف العروض التاريخية للقرآن الكريم ، كما أنها - في الوقت نفسه - هدف «الايدولوجيات» المعاصرة التي سبغت - بدرجة أو أخرى - أغوار التاريخ البشري ، وقدمت برامجها ومخططاتها وفق التعاليم التي تمخضت عن تلك الرحلات الطويلة في ميادين التاريخ^(٨٣) ، قلل تعالى «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى

(٨٢) الاسلام في لغة القرآن ، ليس اسما لدن خاص ، وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الانبياء ، أو انتسب اليه كل اتباع الانبياء ، ومن ثم فهو دين الاولين والآخرين ، وهو الطلعة والامثال لله تعالى ، ويقول ابن تيمية : الاسلام : هو أن يستسلم الانسان لله لا لغيره ، فيعبد الله ولا يشرك به شيئا ، ويتوكل عليه وحده ، ويرجوه ويخافه وحده ، ويحب الله المحبة التامة ، ولا يحب مخلوقا كحبه الله ، ويوالى الله ، ويبغض الله ، فمن استكبر عن عبادته الله لم يكن مسلما ومن يعبد مع الله غيره لم يكن مسلما (ابن تيمية : كتاب النبوات ص ٨٧ ، محمد الراوي : الدعوى الاسلامية دعوة عالمية ص ٥١ ، محمد بيومي مهران : امرائيل ١٢٩/٣ - ١٨٠) .

(٨٤) عمل الدين خليل : للتفسير الاسلامي للتاريخ - بيروت ، دار العلم للملايين - ١٩٨٣ ص ٨ .

وموعظة للمتقين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاغلبون ان كنتم مؤمنين» (٨٥) .

وهكذا نستطيع أن نعرف من قصة قوم «مدين» (٨٦) أن مجتمع مدين — (٨٧) زيادة على ماكانت تسوده من وثنية — كان مجتمعاً جشعاً يستغل المال على حساب قوت الناس ومعيشتهم بتتقيص الكيل والميزان عند البيع ويخس الناس أشياءهم عند الشراء، كما كانوا مفسدين في الارض يقطعون الطريق على الناس ، ويفتقون بالمؤمنين في دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله ، فقد روى عن ابن عباس — حبر الامة وترجمان القرآن — أنهم كانوا يجلسون في الطريق ، فيقولون عن نبيهم : ان شميما كذاب فلا يفتكم عن دينكم ، ورغم تكرار النصح لهم من نبيهم ، فقد تمادوا في الشرك والظلم والفساد ، فكانت عاقبتهم ذلك الزلزال الذي دمرهم ، ودمر كل ما جمعوا وشيئوا .

وهكذا لكل قصة (٨٨) في القرآن الكريم أبعاد ، ففي قصة مدين يعرف الناس كيف تتمثل المعاملات بالعقيدة ، وكيف يتدخل الدين في الاقتصاد ، فيربط بين الايمان بالله ، والسلوك الشخصي في الحياة ، والمعاملات المادية في الاسواق ، وكيف تمر الاشياء بمراحل تحول نتيجة لظروف معينة ، ولكن ما يترتب عليها من نتائج الخير أو الشر ، لا يتغير باختلاف الازمان والاشكال ، فلئن وقع بالأمس ظلم للانسان باستعباده وجعله سلعة تباع وتشترى في أسواق النخاسة ، فانه يقع اليوم

(٨٥) سورة آل عمران : آية ١٢٧ - ١٣٩ .

(٨٦) سورة هود : آية ٨٣ - ٩٥ .

(٨٧) انظر : عن قصة مدين ، وبنبيهم شعيب عليه السلام (محمّد

بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الرياض - جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية - ١٩٨٠ ص ٢٨٩ - ٣٠٧ .

(٨٨) ان اشتراك كلمة التاريخ وكلمة القصة في أصل واحد في اللغة

الانجليزية History - Story يدل على أن القصة هي غصب التاريخ

(١) ل. ل. راوس : التاريخ - ترجمة مجيد الدين حقنى ناصف - للقاهرة

١٩٦٨ ص ٤٤ - ٤٥ .

باضطهاده وحرمانه من حرياته الفردية والاجتماعية (٨٩) .

ومن ثم فمن هذه الاحداث تتفاعل وتتشابه فيها الظروف والاسباب والنتائج ، نستخلص سنن الله في اليم ، وهي التي تقودنا الى معرفة قواعد العمران ، وأصول الاجتماع ، على أساس أن نفس الاسباب إنما تؤدي الى نفس النتائج ، اذا تحققت نفس الظروف ، يقبل «رينيه ديكارت» (١٧٧٩ - ١٨٢٠م) : أن فكرة المسيحية فكرة فطرها الله في نفوسنا ، فمحال أن تكون خاطئة ، وإن فطريتها دليل على صدقها (٩٠) .

وفي هذا ، وفي أكثر من موضوع ، يؤكد لنا القرآن الكريم أن سنن الله في التاريخ ثابتة ماضية ازاء الجماعات البشرية التي تتكبد عن الطريق - بغض النظر عن حجم هذه الجماعة ، وعن مدى دورها الحضارى ومقدار منجزاتها المادية والادبية في مقاييس اليم ، ومعايير المساحة والاحجام - فدائما يكمن وراء هذه المعايير والمساحات ، المقياس الحقيقى ، والمؤثر النهائى اللذان نستطيع بالتمعن فيهما ، أن نحكم على مسيرة الجماعة وعلى مصيرها السعيد أو المفجع ، ذلك لان وراء العطاء والتعامل الحضارى شيئا أكبر وأخطر وأشد تأثيرا على المصير ، أنه نفسية الامة - أفرادا وجماعات - وأخلاقيتها ونظرتها الشاملة الى الحياة ، وطبيعة علاقاتها الانسانية ، والمواقف التي تتخذها بمواجهة الله تعالى والعالم (٩١) .

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة الى أن احدى الملامح الرئيسية التي تميز التفسير الاسلامى للتاريخ عن سائر التفاسير أنه يفرد للبعد الغيبى - ماضيا وحاضرا ومستقبلا - مساحات واسعة ، ويجعله أحد الشروط

(٨٩) التهامى نقرة : ميكولوجية القصة في القرآن - تونس ١٩٧٤ ص ١٨٤ - ١٨٩ ، محمد البهى : الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم بيروت ١٩٧١ ص ١١ .
(٩٠) نفس المرجع السابق ص ١٨٩ ، محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٨١ - ٨٢ .
(٩١) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١١٤ .

الاساسية للإيمان — بل أهمها على الإطلاق — اذ يدونه لن تتحقق أية تجربة ايمانية ، ايمان بالله الذى لا تدركه الابصار ، وبعملية خلقه الدائمة التى تمتد عن احاطة الايمان — ذى المناهضة الحسية للحفوة ، والقدرات العقلية النسبية — وبوحية الذى ينقل للبشرية تعاليم السماء عن طريق أنبياء الله ورسله ، ومعطيات هذا اللوحى البغوية ، من ايمان بالبعث والمصائب والجزاء ، ومن ثم كان أى تردد ازاء اليقينيات الغيبية التى يطرحها المركان ، أو التى تتبعق من أعماق البدايات الفطرية ، انما هو رفض للقاعدة التى لا يقوم بدونها ايمان (٩٢) .

ومن ثم فإنا نلتقى فى أول سورة البقرة بهذه البديهية ، والتى تتوالى بعد ذلك فيما يزيد على الخمسين موضعا ، يقول الله تعالى «الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ، وبالأخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون» (٩٣) .

ومن ثم ، فان لنا — على مستوى الحركة التاريخية — أن نتصور مدى المساحة التى يشغلها الغيب فى صياغة الاحداث وتوجيهها ، ابتداء من خلق الاشياء والاحداث بقوة الكلمة «كن» والتى لا ندري بمقاييسنا النسبية المحدودة كنهها وأبعادها ، وانتهاء بمصائرنا اليومية — الفردية والجماعية — والتى يختم عليها الموت الذى يجيء على حين غفلة . متخطيا أى تحديد مسبق ، متجديا أية قدرة طبيعية على منه عن أداء مهمته ، وبين هذا وذلك كل أحداث التاريخ ووقائعه التى أخذت هذا الاتجاه أو ذلك ، واكتسبت هذه النشأة أو تلك ، والتى لم يكن للانسان أو الطبيعة فيها سوى استمرار — حر أو مقدر — لما يدور فى ساحة الغيب ، وفق مقاييس الحق والمعدل الأبديين (٩٤) .

(٩٢) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٢٢

(٩٣) سورة البقرة : آية ١ - ٥

(٩٤) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٣٢ - ٢٧٣ .

هذا وليست الاحداث التاريخية في القصص القرآني متمسكة بالحلقات في السرد ، ذلك لان التاريخ فيه لم يقصص لثقافته ، وإنما لاستخلاص العبرة منه ، والتفكير في العلاقات السلبية بين مقدمات الاحداث ونتائجها وفق السنن الالهية التي يصلها بالانسان ما الى كيانه من توازن الخير والشر ، ومن ثم فقد أخضع القرآن في قصصه وقائع التاريخ الى حقائق دينية ، ووضع الدين في سجل الاحداث الكونية ، الى جانب قوانينها الطبيعية أو الاجتماعية ، فليس في مجرى هذه الاحداث ما يحدث بمحض الصدفة ، أو بتأثير الظروف المادية وحدها ، وعلى المتأمل أن يبحث ليصل الى معرفة بعض السنن التي تسير الارادة الالهية في الثواب والعقاب ، والبقاء والفناء بما الظروف المادية الا وسائل تنفيذ ، وما الصدفة الا محض افتراض ، فهناك ظواهر تخضع لقوانين تصدق دائما بحيث يمكن التنبؤ بحدوثها ، متى تحققت شروط وجودها (٩٥) .

ويكاد العلماء يجمعون على أن فكرة الاستثناء أو المصدفة وليدة الجهل بالقوانين ، فلا يلجأ المرء الى تفسير وقسوع بعض الاحداث بالصدفة ، الا عندما يتبين له جهله وعجزه عن تفسير ما يجري (٩٦) .

وهكذا فان القرآن الكريم لم يربط بين الدين واحداث التاريخ في الافراد والمجتمعات ، لا لقتير أن تلك الاحداث — وان ارتبطت بقوانين أخرى غير دينية — انما ترجع كلها الى السبب الاول ، أو العلة الاولى للوجود ، وهو الله سبحانه وتعالى ، ذلك لان ادخال قدرته وحشيته في تصريفها وتديرها ، لا يعنى الغاء البحث عن العلل والاسباب التي يعنى بها علم الطبيعة أو علم الاجتماع ، بل ان القرآن انما يدعو الى الاستقراء في البحث ، لمعرفة الظواهر المختلفة التي تنقضى الى نتائج

(٩٥) التهامي نقرة : المرجع السابق ص ١٧٦ .
(٩٦) محمود قاسم : المنطق التحليلي ومناهج البحث — القاهرة ١٩٦٨ ص ٦١٠ .

معينة تفسر سنن الله تعالى في الخلق والتدبير ، وليس القرآن بحاجة الى مبادئ تخالف القوانين التجريبية .

ومن ثم ، فلا تعارض اذن بين الفكر العلمى والفكر الدينى ، كما يزعم «أوجست كونت» (١٧٩٨ - ١٨٥٧م) ، الذى يرى استحالة التوفيق بين الطريقة الوضعية (Methode Positive) وهو التى يبحث فيها عن طبيعة الظاهرة وسببها المباشر ، وما تخضع له من قوانين اكتشفتها العلوم الرياضية والطبيعية ، وبين الطريقة الميتافيزيقية (Methode Metaphisique) ، وهى التى تفهم بها الظاهرة على أنها من تأثير قوة مريدة ، بصرف النظر عن طبيعتها وسببها المباشر ، وما تخضع له من قوانين (٩٧) .

واذا كان «كونت» يرى فى المجمع بين الطريقتين تناقضا ، فذلك لان الروح اللاهوتية عند النصارى هى التى كانت تسيطر على التاريخ،وعلى مجرى الاحداث ، فتطبع جميع الاراء بطابع علم اللاهوت ، ومن ذلك مثلا ، أن ملك فرنسا «لويس الحادى عشر» (١٤٢٣ - ١٤٨٣م) انما كان ينفق جل ماله لينال حماية العذراء ، وأبرار الفردوس ، مقتنعا بما يرويه له أجد المؤرخين : أنهم يتدخلون فى أعمال الانسان دائما ، وهم القادرون على ضمان الانتصارات (٩٨) .

وأما فى القرآن الكريم ، فانا نجد فيما ثرويه قصصه من أحداث التاريخ ، ما يفيد بأن سنن الحياة مخلوقة لله ، «سنة الله فى الذين خلو من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا» (٩٩) ، «وخلق كل شىء فقدره تقديرًا» (١٠٠) ، فلا منافاة اذن بين البحث عن هذه السنن أو القوانين ،

-
- (٩٧) على عبد الواحد وافي : ابن حلفون مفتىء علم الاجتماع ص ١٣٤ - ١٣١ .
(٩٨) جوستاف لوبون : فلسفة التاريخ - ترجمة عادل زعيتر ص ٥٧ - ٥١ .
(٩٩) سورة الاحزاب : آية ٣٨ .
(١٠٠) سورة الفرقان : آية ٢ .

وبين الاعتقاد بخالقها ، ولا بين الاعتقاد باقتران المقدمات بالنتائج ، أو ترتيبها عليها ، والايمان بالله ، باعتباره خالقا للمقدمة السابقة والنتيجة اللاحقة ، وما بينهما من ارتباط ، ومن ثم فلم يحدث أي تناقض في الفكر الاسلامي بين مبدأ السببية أو القانون العلمي من جهة ، والايمان بأن الله هو المصرف للأمور ، طبقا لما نعلمه من سنن ، أو ما لا نعلمه من جهة أخرى ، وموقع المعجزة من التفكير السليم أنها شيء لا يخالف العقول ولكنه يخالف المألوف والمتواتر والمحسوس ، فتمذيب بعض الاقوام السابقين بالصاعقة أو الزلزال أو الريح ، لا يمنع أن يكون كل نوع من أنواع هذا العذاب الذي صبه الله عليهم ، قد حصل بتوافر أسبابه الطبيعية المألوفة ، كارسال السحب التي تنزل منها الصواعق القاتلة بسبب احتكاك طبقاتها ، غير أن ذلك لم يكن نتيجة نهائية لما يتولد عن التفاعل القسري للمادة التي لا تبصر ولا تعى ، لأن السبب أو الناموس لا يملك وحده قدرة الانطلاق والتوافق التي يقع بها ألف حادث على نسق واحد ، بل لابد له من القدرة التي يتابع بها هذا التسبب مرة مرة وحادثا حادثا (١٠١) ، قال تعالى «ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء» (١٠٢) .

وهكذا ، فهذه السفن جزء من المخطط الالهي ، فهي مخلوقة له ، وليست بعبلا عنه ، خلافا لما زعم القائلين بأن اكتشاف القوانين العلمية قد أغنى من الايمان بالله تعالى ، ولما يزعم «ماركس» وغيره من الماديين من أن المادة هي أصل الوجود ، وكل ما عداها انعكس لها ، ومن ثم ، فتفسير التاريخ - في نظر الماركسية - إنما يقوم أساسا على هذا العالم المحسوس ، وعلى الايمان بحتمية التاريخ ، وهي : أن كل خطوة تؤدي حتما الى الخطوة الموالية بطريقة حتمية ، وبالتالي فإن المجتمع يتبع عجلة التاريخ ، ولكن لا يوجهها .

هذا وقد أنكر العالم الالماني «هيزنبرج» (Heisenberg) فكرة الحتمية

(١٠١) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية ص ١٧ - ١٨ .

(١٠٢) سورة الرعد : آية ١٣ .

فأثّر الشكوك القوية من حولها ، مقررًا : أن التجارب الطبيعية لا تشابه على الإطلاق ، ولا تأتي تجربة منها وفقا للآخرى تمام الموافقة ، حتى وإن اتحدت الآلات والظروف ، يسمى مذهبه هذا باسم «اللاحتمية» (١٠٣) .

وأما تفسير التاريخ من خلال القصص القرآني ، فينبىء على أن الحاضر إنما نتيجة الماضي ، وأن المستقبل متوقف على الحاضر ، يقول تعالى «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال» (١٠٤) ، ويضرب هذا المبدأ شعور فردي وجماعي بملكوته الله في الأرض ، وإيمان بأن الله قد سن نظاما يساغ واقع البشر في إطاره .

ولعل من الأهمية بمكان أن هذا النظام الإلهي لا يتمتع مبدأ الحرية والاختيار ، ولا يخلق الباب على الإيمان بما وراء الحسن ، فهو يناقض «الحتمية» (Determinism) التي يقول بها الماركسيون ، كما يناقض «الجبورية» (Fatalism) التي يقول بها الجبريون ، ذلك لأن القائلين بالحتمية إنما يؤمنون بالنظم الآلية وحدها ، ولا يؤمنون بإرادة الالهية . قد يتعرض لنظرك النظم بالتبديل والتحويل عند الاقتضاء ، والمقائلون بالجبورية يفسرون أحداث التاريخ وحركات الوجود بالإرادة الإلهية وحدها ، وينكرون إرادة الإنسان المثبت لشخصه ، المؤمن بوجوده إيمانه بوجود خالقه ، فكل أعماله وتمرفاته هي لله ، وليست له ، وإن نسبت إليه ظاهرا ، وقد يكون هذا الاعتقاد سبيلا إلى التواكل ، وخرمعة للمعاصي .

والحقيقة أن الله تعالى ، وإن أوجع الإنسان جرا ، قادرا فريدا ، فإنه يريد أن ينميه إلى أنه ما يزال في حضرة وجوده ، ومرتبطا به ،

(١٠٣) عباس محمود العقاد : المرجع السابق ص ١٢٨ - ١٣٢ ،
التهامي نقرة : المرجع السابق ص ١٧٦ - ١٨٠ .
(١٠٤) سورة الرعد : آية ١١ .

وداخلا في نطاق الملك الالهي ، رغم حريته وقدرته وإرادته (١٠٥) .

وهكذا فالتفسير التاريخي في القرآن إنما ينبثق عن رؤية الله سبحانه وتعالى ، وهي تختلف عن الرؤية الوضعية في أنها تحيط علما بوقائع التاريخ ، بأبعادها الزمنية الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل ، وينبثقها الرابع الذي يخيّب كثيرا عن ذهن الانسان ، مهما كان علي درجة من اللامحية والبصيرة والذكاء ، البعد الذي يغور في أعماق النفس البشرية ، فيلامس فطرة الانسان وتركيبه الذاتي ، والحركة الدائمة في كيانه الباطني ، وينسرب بعيدا صوب اهتزازاته المعنوية والعاطفية والوجدانية ، وإرادته المسبقة ، وما تؤول اليه هذه جميعا من معطيات تمنح حركة أبعادها الحقيقية ، ويمتد كذلك لكن يشترك في العلاقات الشاملة للمصير ، ذلك أنهما رؤية الذات الالهية التي وسعت كل شيء علما ، والتي صنعت الواقعة التاريخية ووضعتها في مكانها المرسوم من خارطة التاريخ البشري والكوني ، سواء بسواء .

ومن ثم فإن التفسير القرآني للتاريخ ليس أبدا مجرد مسلمات يعمده تسعي الى تقوّل حوادث التاريخ القبلية في إطارها المعتسف ، وإنما هي مذهب ينبثق وفق أسلوب موضوعي «عما حدث فعلا» ، وليس «عما يجب أن يكون» ، وعن طبيعة التصميم التاريخي للبشرية ، فهو إذن تبلور للخطوط الأساسية لحركة التاريخ ، يصوغها القرآن الكريم في مبادئ عامة يسميها «سننا» ، ويعتمدها المسلمون الاسلاميون مطلقا — لا لتزييف التاريخ — وإنما لتفسيره وفهمه وإدراك عناصر حركته ومضائ وقائعه ، ومسالكها المعقدة المتشعبة ، ومن ثم فهو إذن : تفسير شامل محيط ، يعطي أصدق صورة للسنن التي تسير هذا التاريخ ، وبما أن هذه السنن من صنعه تعالى — إرادة وعلم ومصير — فإن هذا الموقف القرآني من حركة التاريخ وتفسيره يأخذ صفة الكمال (١٠٦) .

(١٠٥) التهامي نفرة : المرجع السابق ص ١٨٠ - ١٨١ ، وانظر :
دى بوار : تاريخ الفلسفة في الاسلام - ترجمة أبو ريدة - القاهرة ١٩٥٧
ص ٢٨ ، محمد متولى الشعراوى - القضاء والقدر - القاهرة ١٩٨٩ .
(١٠٦) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٣ .

ومن هنا ، فعلى دارس قصص القرآن ، ألا يقتصر على معرفة الوقائع ، وإنما عليه أن يعرف أسبابها ونتائجها ، وسننها ، ليتعمق في فهم الحكمة التي يسير بها هذا الوجود وفق نواميس هي من صنع الله ، وهي على أكمل نظام ، وأتقن ترتيب ، ذلك لأن القرآن الكريم لم يقتصر على عرض لوحات مجردة لماضى الانسانية في صراع قوى الخير والشر ، وإنما كان يهدف الى بعث المثال من التاريخ ، لاثارة الانفعالات الموحية بالهداية والايمان ، واستغلال الاحداث التاريخية في التربية ومعالجة النزعات النفسية في الانسان ، وأمراض المجتمع الذي يعيش فيه بما لتلك الاحداث من قوة مفروضة على النفس ، تحدث فيها انصهارا ووعيا ويقظة احساس ، ومن هنا كان القصص التاريخي أشد تأثيرا وأسمى طموحا من التاريخ ، لأنه يمد الانسان بسلاح الايمان والثبات ويعرفه بما لله من نواميس قارة في نظام المخلوق والابداع ، ومن سنن مطردة في نظام الاقوام والامم ، سنن خاضعة لارادة الله ، وليست مقيدة لها ، تتصل فيها الاسباب بالمسيبات ، فلا تتغير أو تتحول محابة لأحد من الناس ، لانها محور عدل الله وحكمته في تدبير الامور (١٠٧) ، وضدق الله العظيم ، حيث يقول : «لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الالهاب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» (١٠٨) .

ومن أجل هذا يغدو التاريخ في القرآن الكريم وحدة زمنية تتهاوى الجدران التي تفصل بين الماضى والحاضر والمستقبل ، وتتعانق هذه الازمنة الثلاثة علقا مصيريا ، ثم أن هذا الانتقال السريع بين هذه الازمنة المختلفة ، انما يوضح حرص القرآن على ازالة الحدود التي تفصل بين الزمن باعتباره وحدة حيوية متصلة ، فتغدو حركة التاريخ ، التي يتسع لها الكون ، حركة واحدة تبدأ يوم خلق الله السماوات والأرض وتنتج نحو يوم الحساب (١٠٩) .

(١٠٧) انظر: نقرة المرجع السابق ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(١٠٨) سورة يوسف : آية ١١١ .

(١٠٩) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٤ .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن عناية القرآن بالتاريخ نائما هي أكثر من مجرد عرضه للأحداث الماضية ، فلقد وضع لنا قواعد النقد التاريخي في رواية ما يكون مادة للتاريخ بوهي التي تقر أن ثقة الراوي عامل هام في الحكم على الاخبار المنقولة وعلى الرويات ، قال تعالى : «يا أيها الذين آمنوا ان جئكم فاسق بنبا فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» (١١٠) .

ولاريب في أن تطبيق هذا الاصل على رواية الاحاديث النبوية الشريفة خاصة ، انما كان عنصرا هاما في تطور النقد التاريخي ، وكان من عمل المسلمين به أن ألفوا الكتب في تراجم الرواة لتعرف سيرتهم ، ويتبين الصادق والكاذب منهم ، وتعرف الرواية المتصلة والمنقطعة ، وبحثوا في الكتب المؤلفة متى يوثق بنسبتها الى مؤلفيها ؟ وبينوا حقيقة التواتر الذي يفيد اليقين ، والفرق بينهم وبين ما اشتهر من روايات الآحاد ، ولم يقتصر ذلك على علوم الدين ، وانما امتد الى كتب التاريخ والادب ، فلم يضع شيء من العلوم والفنون ، ولا من حوادث التاريخ ووقائعه التي جرت في العالم بعد الاسلام ، وما اختلفت الرواة والمصنفون في جزئيات من تاريخ الاسلام وغيره تسهل تصنيفه ، وأخذ المصنف منه لأجل الاعتبار به ، ومعرفة سنن الاجتماع عنه ، جريا على هدى القرآن فيه (١١١) .

ومن هنا فان الثقافة الاسلامية قد أبدعت في تقويم الرجال فنانا قائما بذاته ، هو «الجرح والتعديل» فقد كان المسلمون يأخذون الاخبار من أفواه الرجال ، ومما قيده في نسخهم ، ناظرين دائما الى هيئة الرجل وصلاحه ، فهم لم يكونوا يفصلون بين علم الفرد وسلوكه ، فالفرد — في نظرهم الصائب — وحدة متكاملة ، يؤثر فيها سلوكه على علمه ، أو العكس ، ولا مناص من بحث حاله بحثا متقنيا ، يتناول أدق

(١١٠) سورة الحجرات : آية ٦ .
(١١١) تفسير المنار ٢/ ٤٦٥ - ٤٦٦ .

تفاصيله حيلته الذهنية والسلوكية ليتمكن قبول نقله أو رفضه ، وما نطن
أن ثقافة في الأرض قامت على مثل هذا الأساس الفئدي المنهجي التزيه
فذلك شيء تفرد به المسلمون (١١٢) .

.. ولعل من الأهمية بكان بالإشارة إلى أنه يجب أن ينظر إلى القصص
القرآني على أنه منهج تربية ، وأسلوب تعليم وتربية ، وفضاء للفكر
والروح ، ومن كان منظورا إليه ، من خلال الانسان باعتبار أن ماتضمنه
من دعوة التي الدين الخفيف ، كان دعوة انشائية شاملة ، لا تعرف حدود
الوطن ، ولا تقسم الناس طوائف وألوانا وعناصر ، وإنما تنفذ إلى
قلوبهم مباشرة ، حيث يكسبون الانسان الجوهر الذي تتكون منه
الانسانية (١١٣) ، ومن ثم فإن المدارس للقصص القرآنية إنما يحرك الدور
الحظيم الذي قامت به في تربية العقيدة وتجهدها وتنميتها ، ذلك لأن
الغاية من التربية ليست سوى تكوين الفواطف الصالحة ، غير أن هذه
الفواطف لا تصبح أساسا للخلق الكريم ، إلا إذا تحولت إلى اتجاهات
يكون يتبعها الدائم هو العقيدة ، مصدر الايمان والأمان والخير ، ومن
هنا كان جل القصص القرآني إنما يهدف إلى غرس عقيدة التوحيد
ويدعو إلى التصديق بالرسالة الحمدي ، ورسالات الانبياء قبلها ، حتى

(١١٢) عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن - القاهرة ١٩٦٦ ص
٨٢ - ٨٣ ، وانظر عن : الجرح والتعديل : أحمد أمين : فجر الاسلام ص
٣١٦ - ٣٢٨ محمود أبو زية : أضواء على السنة المحمديّة - القاهرة
١٩٦٠ ص ٣٢١ - ٣٤١ ، محمد الصباح : الحديث النبوي ص ١٤٣ - ١٤٦ ،
مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث (بيروت ١٩٧٨) ، النيسابوري : كتاب
معركة علوم الحديث ص ٥٢ - ٥٨ ، الذهبي : ميزان الاعتدال في نقد
الرجال ص تحقيق علي البجاوي - القاهرة - ط الجاني - ١٩٦٣ ، عثمان
موافي : منهج النقد التاريخي الاسلامي - الاسكندرية - دار المعرفة الجامعية
١٩٨٤ ص ٩٩ - ١٤٩ ، فرانتز روزنكخال : مناهج العلماء المسلمين في
البحث العلمي - ترجمة أنيس فريحة - بيروت ١٩٦١ ، صاحب الدين
الخطيب وآخرون : دفاع عن الحديث النبوي - القاهرة ١٩٥٨ ، جمال الدين
قاسم : قواعد الحديث - دمشق ١٩٢٥ ، الحافظ العراقي - خيل ميزان
الاعتدال - جامعة أم القرى - مكة المكرمة ١٤٠٦ هـ .
(١١٣) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ص ١٤ - ١٥ .

يعتبر المسلمون بالحق وحده ، ويصبروا على الاذى في سبيل اعلاء كلمته (١١٤) .

على أن القرآن الكريم انما يعتمد في عرض الواقعة التاريخية على أكثر من أسلوب ، ومن ثم فقد قدم لنا القرآن الكريم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية ، فحدثنا عن الماضي في جل مساحاته ، لكن ما يلبث أن يخرج بنا الى تبين الحكمة من وراء هذه العروض ، وإلى بلورة عدد من المبادئ الأساسية في حركة التاريخ البشرى مستمدة من صميم التكوين الحديث لهذه العروض ، تلك المبادئ التي سميناها «سنا» ، ودعانا أكثر من مرة الى تأملها واعتماد مدلولاتها في أفعالنا الراهنة ، ونزوعنا المستقبلي ، ومن ثم يتأكد لنا مرة أخرى أن هذه العروض ما جاءت لكي تلقى المتعة في نفوس المؤمنين — كما هو الحال في أى نشاط فنى — قيل أن تبرز الاتجاهات التعليمية الحديثة ، في ميادين الفنون — وإنما جاءت لكي تعلمهم من خلال تجاربهم الماضية ، وتحسروهم عن الاضواء التي أشعلتها لهم هذه التجارب في طريق الحياة المزمح الطويل (١١٥) .

بل ان بعض آيات القرآن انما تتجاوز الماضي والحاضر ، لكي تمهد رؤيتها الى المستقبل القريب أو البعيد في تنبؤات تاريخية ، يحيطها علم الله تعالى المطلق بالصدق الكامل والضمانة النهائية ، وقد نفذت بعض هذه التنبؤات في عهد الرسول ﷺ ، وظل بعضها الآخر ينتظر التنفيذ — إذ لم يحدد له زمن بالذات — من الفروع الأولى انتصار الروم على الفرس كما حدثت عنه سورة الروم (١١٦) ، وقد شهد العصر المكي نفسه تنفيذ هذه النبوءة ، بعد سنوات قليلة من نزولها ، ومن النوع الثانى مساد بنى اسرائيل في الارض مرتين (١١٧) .

(١١٤) التهامي نقرة : المرجع السابق ص ٥٤٩ - ٥٥٠ .

(١١٥) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٩٧ - ٩٨ .

(١١٦) سورة الروم : آية ١ - ٧ .

(١١٧) سورة الاسراء : آية ٤ - ٨ .

على إن القرآن الكريم — المنبثق عن علم الله الكامل ، ورؤيته المحيطة بمجريات الزمان كله ، ماضيا وحاضرا ومستقبلا — لم يسرف في نبوءاته التاريخية ، واكتفى منها بما يعد على أصابع اليدين ، لانه لم يجيء ليكون كتاب تنبوءات ، هذا بينما أشرف عدد من الوضعيين — مثل هيجل وشبنجلر وماركس — في تفسيرهم للتاريخ ، اسرافا خياليا بل ان بعضهم أطلق على نبوءاته سمة العلمية ، الامر الذي يتعارض أساسا والمنهج التجريبي الذي يرفض الحدس والتخمين ، وتجاوز الوقائع الى ما وراءها .

هذا وقد أشار القرآن — في الآية ٧٨ من سورة غافر — تعقيبا على موقفه من العروض والاحداث التاريخية ، أنه ما جاء ليكون «بحثا تاريخيا» يستقصى كلغة نشاطات الانبياء ، ويحضنهم عددا وأن ما قدمه كان لادراك الخطوط العريضة لمسيرة التاريخ البشري (١١٨) ، يقول تعالى «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك» (١١٩) .

(١١٨) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٠٢ - ١٠٦ .

(١١٩) سورة غافر : آية ٧٨ .

الفصل الثالث

تاريخ الكتابة التاريخية

(١) فكرة التاريخ :

يقول الأستاذ «شغول» أنه إلى وقت قريب إنما كان يقتصر التاريخ المؤرخين ، فقد كتب تاريخ لكل ما تحت الشمس ، للأدب والفلسفة والفنون والعلوم ، ولذا استغنى مؤلفات غنية ، فإن قصة التاريخ لم تكن قد كتبت بعد (١) .

ولا ريب في أن فكرة التاريخ في يومها الحالي — جديدة ، فالعلماء الحديثون إنما يمتدحون أن التاريخ كفكرة ، أنها يدور حول محور أربعة هي :

الاول : أنه علم كسائر العلوم يجب على أسئلة معينة .

الثاني : أنه يتصل بمجهود الانسان في الماضي .

الثالث : أن طريقته هي تفصيل الوثائق التاريخية .

الرابع : أنه يهدف إلى تعريف الإنسان بذاته .

وهذه الفكرة — بأركانها الأربعة — لم تكن هي فكرة الثامن من التاريخ في كل العصور ، فقديمها ، وبالضبط للتومرين (٢) — على تبديل المثال — كانت كتابة للتاريخ إنما تتمثل في النقوش «الرسمة» وشبه الرسمية ، التي يقصدها إحياء ذكرى ملك أو أمير ، أو تمجيد مبعود ، أو الانتصار في الحروب ، وفي العصور الوسطى — وفي حكومة الكنيسة — اصطلاح النليس على أن كل شيء مردد ليعمل «القدر» .

(١) انظر :

I. J. Shatwell, Introduction to the History of History.

(٢) انظر عن «السومرين» (محمد بيومي مهران : مصر والشرق

الابن القديم — الجزء العاشر — تاريخ العراق القديم — الاسكندرية ١٩٩٠ ص ٨٣ — ١١٤) .

ومن البدهى أن هذه الصور من الكتابة التاريخية لا تعطينا تاريخاً حقيقياً ، وإن كانت تقدم لنا صوراً تتصل بالتاريخ في بعض النواحي ، هي في حقيقتها تعبير عن بعض ألوان الفكر ، لا نستطيع أن نسميه «تاريخاً» لأنه يفتقد الطابع العلمي ، فهو لا يجيب على سؤال محدد ، لا يعرفه الكاتب أصلاً ، وإنما هو تسجيل لأمور يعرف الكاتب أنها حقيقة ، ثم إن هذه الأمور ليست في الغالب من عمل الإنسان ، فهي لا تتصل بمجهوده ، وإنما هي من عمل الآلهة (الوثنية) ، والإنسان فيها مجرد أداة ، وتبعا لذلك فإنها تكون تاريخية بالنسبة إلى طريقتها ، لأنها لا تعتمد على وثائق ، فضلا عن أنها كذلك ليست تاريخية من حيث قيمتها ، لأنها لا تستهدف معرفة الإنسان لذاته ، وإنما تهدف معرفة الإنسان بمعبوداته (٣) .

(١) في الشرق الأدنى القديم :

لاريب في أن كتابة التاريخ بمعناها المعروفة اليوم ، إنما كانت عند سكان الشرق الأدنى القديم نادرة ، وإن كان اكتشاف الكتابة وبداية قياس الزمن ، جعلاً من الممكن الاحتفاظ بوثائق في المعابد ، وهي تحوى حوليات تاريخية ، ومع ذلك سرورغم تقدم الحضارة في مصر والعراق القديم — فإنها لم تخرج مـر يـستحق أن نسميه تاريخاً ، بالمعنى الحديث المتعارف عليه اليوم ، والملاحظات المسيرة عن حروب الفراعنة والقوائم الحاوية لأسماء الملوك التي حفظت لنا كان باعثها جميعاً الرغبة في إكبار شأن الفرعون الحاكم ، وذكر أحداث حياته ، الأمر الذي سوف نناقشه بالتفصيل عند الحديث عن مصادر التاريخ المصري القديم .

وفي بابل ، أخذت الكتابة التاريخية صورة الرسوم المنقوشة على المعادن ، كما ظهرت عند الآشوريين وثائق وحوليات ملكية في تسلسل

(٣) محمد عواد حسين : المرجع السابق ص ١٢١ .

حول منامرات الحكام في الحروب والصيد والقيام بهناء بعض القصور، وان لم يظهر أثر للحاسة التاريخية الناقدة في هذا التسجيل البدائي للتاريخ، وكان الهدف من هذه النقوش تمجيد الحاكم وإعلاء شأنه في نظر الأجيال التالية، وكانت الحقائق التي تترى به وتشوه ذكره، تحذف جميعها ولا يشار إليها، وتغلب على تلك الوثائق المبالغة والتهوين والروح الدينية، ونسبة المبادئ المشيدة للالهة^(٤).

ولعل أقدم الوثائق التاريخية في العراق القديم إنما تلك التي كتبها الكتّاب السومريون، فهى قائمة الملوك السومرية — والتي تتحدث عن حدوث طوفان، إنما كتبت بالخط المسماري بعد عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد^(٥)، أو في فترة لا تتأخر كثيراً عن منتصف عهد أسرة أور الثالثة (٢١١٣ — ٢٠٠٦ ق.م)، وربما قبيل عهد «أوتوحيجال» من أسرة الوركاء الخامسة (٢١٢٠ — ٢١١٣ ق.م)^(٦)، وإن كان يبدو أنها نسخت عن قوائم قديمة، ربما ترجع إلى أخريات العهد الأكدي (٢٣٧٠ — ٢٢٣٠ ق.م)، وعلى أية حال، فإنها تتضمن معلومات تاريخية ترجع إلى بداية العصر التاريخي في العراق القديم، وربما ترجع إلى أقدم من ذلك^(٧).

هذا وتبدأ قائمة الملوك السومرية بقولها: «عندما أنزلت الملكية من السماء أصبحت أريدو مقراً للملكية ثم تذكر خمسة مدن بوشمانية ملوك حكموا قبل الطوفان والمدن هي: أريدو، وبادتيميرا (تل المدائن) ولارك (الوركاء) وسييار وشوروباك، وأن هؤلاء الملوك قد حكموا ٢٤٢٠٠ سنة، وأن آخرهم كان «وبار — توتو» الذي حكم شوروباك لمدة ١٨٦٠٠ سنة،

(٤) على أنهم: تاريخ التاريخ — القاهرة — دار المعارف ١٩٧٤ ص ١١ — ١٢.

5. S. L. Woolley, Excavations at Ur, London, 1963, p. 14.

6. CAH, I, Part, 2, p. 998, (Chronological Table of The Sumerian Period),

7. J. Finegan, Light from The Ancient Past ..., Princeton, 1969, p.29. S. L. Woolley, Op. Cit, p. 14.

وكذا

ثم جاء من بعدهم الطوفان الذي أغرق الارض ، وبعد زوال الطوفان هبطت الملكية من السماء ثانية ، وأصبحت «كيش» عهراً للملكية ، ثم تعود القائمة مرة أخرى التي فكر أسماء المدن التي حكمت العراق القديم بعد ذلك ، مثل أور ، ولجب ، وكشاك ، ومارى .

هذا ورغم الارقال الاسطورية التي تقدمها قائمة الملوك السومرية كفترة لحكم ملوكها ، حتى بات من الصعب علينا أن نعرف منها : متى انتهى العصر الاسطوري ، ومتى بدأ العصر التاريخي ؟ رغم ذلك ، فالوثيقة ، دونما ريب ، إنما تحصل بين طياتها كثيرًا من المعلومات التاريخية الصحيحة ، كما أنها تتحدث بوضوح عن طوفان يفصل بين فترتي حكم ، الواحدة متباعدة ، والآخرى تالية له ، تبدأ بنزول الملكية مرة ثانية من السماء التي «كيش» ثم الوركاء ثم أور ، ومن ثم فهي تعتبر حادث الطوفان الخطير بمثابة كسر في عملية استمرار تاريخ العراق القديم ، ومن ثم فهو حد فاصل بين عصور ما قبل التاريخ والعصر التاريخي (٨) .

وأما البابليون ، فهناك ما يشير الى أنهم قد جمعوا قوائم كثيرة بأسماء الملوك ، وان كانت وثائق البابليين - وكذا الاشوريين - التاريخية ، لم تتجاوز في الغالب أنساب الملوك ، وتسجيل الحملات الحربية ، والاماديح الموجهة الى العواقل ، والملايكة التاريخية والاجتماعية التي مهدت لظهور هذا اللون من ألوان التاريخ المل غير الشائق ، لم تسمح بازدهار لون آخر من ألوان التاريخ أرقى مستوى

(٨) انظر : محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٦٥ - ٦٦ ،

J. Finegan, Op. Cit., p. 29-30.

وكذا A. L. Oppenheim, ANET, P. 265-267.

S. N. Kramer, The Sumerians, 1970, p. 328-9.

T. Jacobsen, The Sumerian King List, in Assyrian Studies, 11: 1939.

S. L. Woolley, Op. Cit., p. 249-253.

G. A. Barton, The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad London, 1929, pp. 346 F.

وأكثر أصالة ، ولزدهار فن كتابة التاريخ كان يستلزم جواراً من الضرورية تنمو فيه اللغات ، وتنقيح المواهب ، ولا يقتصر فيه التوزيع على ألقاب قلة من الملوك وأعيان الدولة وتدوين بعض الإحداث العامة ، وحفظها عن الأسجاف التي مهدت لموقعها ، ولا اكتشافها بأخبار طبقة خاصة قليلة العدد ، مرسوبة السلطة ، وقد كان الملوك — في نظر أنفسهم ، وفي نظر عيالهم — آلهة تمشي على الأرض (٩) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه كان هناك في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد ، وأبان حكم السلوقين ، وعلى أيام الملك «أنتيوخس الأول» (٢٨٠ — ٢٦١ ق م) على وجه التحديد، أحد كهنة المعبود «مردوك» البابلي يدعى «بيروسوس» (Berossos) قد كتب تاريخ العراق القديم منذ أول الخليقة والطوفان ، وحتى عهد الإسكندر المقدوني (٣٥٦ — ٣٢٣ ق م) باللغة اليونانية في ثلاثة أجزاء ، ومن أسف أن كتابات «بيروسوس» — شأنها في ذلك شأن كتابات المؤرخ المصري «مانيتو» (٣٢٣ — ٢٤٥ ق م) — والتي تقدم وجهة النظر القومية عن تاريخ العراق القديم ، لم تصل إلينا كاملة ، وكل ما وصلنا منها مقتطفات حفظها لنا المؤرخون المتأخرون من الاغارقة (١٠) .

(٢) كتابة التاريخ عند اليهود :

يقول «بارنز» : إن شرف أخراج أول يهود تاريخي حق متسع المجال ويحظى بنسبة عالية من الدقة إنما يعزى إلى يهود فلسطين القديمة (١١) ويعكس «بارنز» ذلك بأن الرخاء العظيم الذي استمتع به اليهود ، فضلاً عن المكانة التي ظفروا بها على أيام «طالوت» (شاول ١٠٢٠ — ١٠٠٠ ق م) وداود عليه السلام (١٠٠٠ — ٩٦٠ ق م) وسليمان عليه السلام (٩٦٠ — ٩٢٣ ق م) — أي على أيام المملكة المتحدة — من البواعث

(٩) على ندهم : المرجع السابق ص ١٣ — ١٤ .
(١٠) المنعم بيومي مهران : تاريخ العراق القديم — الاسكندرية ١٩٩٠

نص ٧٦ — ٧٧ .
11. H. E. Barnes, A History of Historical Writing, p. 19.

الحافزة على كتابة التاريخ ، وأقدم محاولاتهم للكتابة التاريخية عهداً ، إنما هي المحاولة التي قام بها كتاب مجهولون بكتابة أصول الإسفار الخمسة الأولى من التوراة (التكوين والخروج والعدد والتثنية واللاويون) ، فضلاً عن أسفار : يشوع وشموئيل الأول والثاني والملوك الأول والثاني (١٣) ، وطبقاً لرواية «جيمس هنري برستد» (١٨٦٥ - ١٩٣٥م) فإن هذه الأسفار إنما هي أقدم ما نملك من الكتابات التاريخية عند أى قوم من الاقوام ، ومؤلفها المجهول هو أقدم مؤرخ وجدناه في العالم القديم (١٣) .

ومن البدهى أن هذه الكتابات إنما هي جزء من توراة يهود ، والتوراة - على أية حال - كلمة عبرية تعنى الهداية والارشاد ، ويقصد بها الأسفار الخمسة الأولى ، والتي تنسب الى موسى عليه السلام ، وهي جزء من العهد القديم ، والتي يطلق عليها تجاوزاً اسم «التوراة» (Torah) من باب اطلاق الجزء على الكل ، أو لاهمية التوراة ، ونسبتها الى موسى عليه السلام .

والتوراة - أو العهد القديم ، تميزاً لها عن العهد الجديد ، كتاب المسيحيين المقدس - هو كتاب اليهود الذي يضم ، الى جانب تاريخهم عقائدهم وشرائعهم ، ويقسمه أحرار اليهود في فلسطين الى أقسام ثلاثة (١٤) : ١ - الناموس (التوراة أو الشريعة) ويشمل الأسفار الخمسة الأولى ، والتي اعتبرت أسفار قانونية منذ حوالي عام ٤٤٠ ق.م ، وقد أطلق عليها منذ القرن الثاني الميلادى لفظ «المبنتوتوك» (Pentateuch) (١٥) .

(١٢) انظر عن كتابة أسفار التوراة (محمد بيومى مهران - إسرائيل - الجزء الثالث - الحضارة - الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٨ - ١٣٤) .

13. H. E. Barnes, Op. Cit., p. 22.

(١٤) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣ - ٤ . وكذا

M. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 1109.

J. Epstein, Judaism, (Penguin Books), 1970, p. 23.

15. M. E. Unger, Op. Cit., p. 841.

J. E. Steinmuller, Comparison to Scripture Studies, II, 1942.

٢ - الانبياء : (نبيم Nebim) ، وتشمل الانبياء المتقدمون والمتأخرون والصغار .

٣ - الكتابات (كتوبيم Kathubim) ، وهي الزامير والامثال ونشيد الانشاد وراعيوت والجامعة وأستير ودانيال وعزرا ونحميا وأخبار الأيام الاول والثاني (١٦) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أنه منذ أن عاد اليهود من السبي البابلي في عام ٥٣٨ ق م ، وإعادة العبادة في هيكل اورشليم بعد إعادة بنائه في مارس ٥١٥ ق م ، في أيام «زربابل» و «نحميا» و«عزرا» ، بدأ اليهود يعتبرون الاسفار الخمسة الاولى (الپنتاتوك) — وهي التوراة التي يسمونها «توراة» — وكأنها هي من عمل موسى عليه السلام ، غير أن هذا لا يعني أكثر من قولنا : ان «نابليون» (١٧٦٩ - ١٨٢١ م) هو واضع أسس القانون الفرنسي ، ذلك لأن «عزرا» قد عرف بين بني اسرائيل بأنه جامع الكتابات والتراث (الموسوى بعد خراب مملكة يهوذا) (١٧) .

ثم جاءت المسيحية — بعد ذلك بأربعة قرون — ونظرت الى التوراة نظرة تقديس (١٨) ، ولم يكن أمر الاسفار الخمسة وأصولها ذا خطر خلال القرون الاولى للمسيحية ، فمثلا «سان جيروم» (٣٤٥ - ٤٢٠ م) يشير الى أنها من عمل موسى عليه السلام ، وأن عزرا نظمها ، وقد شادت فكرة كتابتها بيد المشرع الأكبر للعبرانيين زمنا طويلا ، ولم يكن ذلك ثمرة بحث تاريخي ، وإنما نتيجة عقيدة عامة لا أساس لها . وقد ثبت في الاذهان أن الاسفار التي تحمل أسماء أصحابها — من بعد

(١٦) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٣ - ٤ ، حبيب سعيد : المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٧٩ - ١٨٠ ، محمد بحر : الكنز في قواعد اللغة العبرية - القاهرة ١٨٢٦ ص ١٢٨ - ١٣١ .
(١٧) نجيب ميخائيل : سورة من ٢٢٤ ، عزرا ١٠/٩ - ١١ .
(١٨) (١٨) : متى ١٧/٥ - ١٨ ، لوقا ٢١/٥ .

الاسفار الخمسة — هي من عملهم ، فسفر يشوع من عمل يشوع مثلاً ، وسفر عزرا من عمل عزرا ٥٥٥ وهكذا (١٧) .

ومع ذلك فقد بدأت المحاولات النقدية الاولى للتوراة ، ربما بسبب ترجمتها الى اليونانية (الترجمة السبعينية = Septuaginta) (٢٠) وكان القديس «أوريجين» — الفيلسوف المصرى المسيحى — (٢٥٠ - ٣٥٤ م) من رواد هذا الميدان ، كما يبدو ذلك واضحاً في ال «هكسبلا» (Hexapla) حيث تناول نص التوراة — نقداً ودرسا — ولما تجنب نقد العقيدة ، واكتفى بحواصة النص ، لادراك المعنى الحقيقى للكلمة الالهية الحقيقية فالنقد هنا انما يتصرف غالباً على الاسفار ، والمحكم عليها من حيث مكانتها (٢١) ، وعلى أية حال ، فلما نقد «أوريجين» لم يتمدد تطبيق المبادئ اللغوية التى كانت معروفة وقت ذاك في مدرسة الإسكندرية ، ووضع لأول مرة ، التوراة في ستة عواميد ، لمقارنة النص العبرى بالنصوص اليونانية المختلفة كما وضع عدة شروح لتأويل النصوص (٢٢)

وأما المبادرة الحقيقية ، فقد وضعها العالم اليهودى «أبراهام بن عزرا» (١٠٩٣ — ١١٦٧ م) ، الذى عاش في المجتمع الاندلسى المفتوح ، وفي كتاباته يكاد المرء ، لو أراد ، أن يلمس الشكوك فيما بين المنطوق ، ولكن صاحبها أحكم لها بمدارة ومداورة ، فلا يثير غضب المتعصبين عن صحة نسبة أسفار الشريعة الى موسى عليه السلام (٢٣) .

ويمثل علينا عصر الإصلاح بآرائه الجعيدة ، فنلتقى بـ «كارلشبات»

(١٩) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٢٥ .
(٢٠) أنظر عن الترجمة السبعينية (محمد بيومى مهران : إسرائيل ١٠٧/٣ - ١١٢) .

(٢١) فؤاد حنين : التوراة الهيروغليفية — القاهرة ١٩٦٨ ص ٥٣ .
(٢٢) بلروخ ميبنوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة — ترجمة حسن حنفى — القاهرة ١٩٧١ ص ٢٩ وكذا

J. Steinmann, la Critique devant la Bible, Paris, 1956.

23. A. P. Davies, The Ten Commandment, N. Y., 1956, p. 30.

الذي يبدأ في المناقشة بأن موسى عليه السلام ليس هو كاتب الاسفار الخمسة ، وبعد قرابة قرن نرى «توماس هوبز» (١٥٨٨ - ١٦٧٩م) يقول : ان الاسفار الخمسة كتبت عن موسى ، ولم يكتبها هو ، وعند هذه المرحلة بدأت مرحلة جدية لتمحيص هذه الأفكار الجديدة ومناقشتها على ضوء مناقشة عميقة للتوراة ، ثم البحث عن مصادرها (٢٤) .

وفي القرن السابع عشر الميلادي بدأ النقد التاريخي ، وكان «جان استروك» و «ريشار سيمون» و «باروخ سبينوزا» من أوائل من عرضوا لهذه الدراسة - بعد نشر الكتب المقدسة بلغات عدة على عواميد متقابلة - حتى يمكن مقارنة النصوص المختلفة - كما فعل موران ولويس شابل - من أجل البحث عن النص الاصلي ، ولكن أعمال «ريشار سيمون» النقدية ، انما تعد فاتحة على النقد الحديث (٢٥) ، وهكذا يصدر «ريشار سيمون» في عام ١٦٧٨م ، كتابه الشهير «التاريخ النقدي للعهد القديم» (٢٦) ينفي فيه نفيا قاطعا نسبة الاسفار الخمسة الى موسى عليه السلام ، فانها هي مجموعة من مدونات مختلفة الاصول كل منها تعود الى جيل بعينه ، من الاجيال المتعاقبة لانبياء اليهود ، يستخلصون النبوات من واقع تفسيرات متميزة لاحداث الماضي فكانهم أيضا مؤرخون ، عكف كل منهم باجتهد وهوى على اعادة تقييم مادونه الاسلاف - تحويرا وحذفا وازافة - حتى يتوفر عليها آخر الامر «عزرا» ومريدوه ، فتجمع اسفار الكتاب المقدس على الوجه الذي تطالبنا به اليوم (٢٧) .

(٢٤) باروخ سبينوزا : المرجع السابق ص ١٩ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٢٥ .

(٢٥) باروخ سبينوزا : المرجع السابق ص ١٩ .

26. Richard Simon, Histoire Critique de Vieux Testament, Paris, 1678.

(٢٧) حسين ذو الفقار صبري : «توراة اليهود» - المجلة عدد يناير ١٩٤٧ ص ٧ ، وكذا

G. H. Box, Hebrew Studies in The Reformation, in The Legacy of Israel, Oxford, 1953, p. 363-364.

ثم يأتي «سبينوزا» وينادى باستعمال قواعد اللغة لتفسير الكتاب المقدس ، ثم يبين استحالة ذلك ، وهذا يعني أنه يهدف في النهاية الى استعمال العقل والنور الفطري ، ثم يتجاسر أخيرا ، فيعرض لنصوص التوراة ذاتها ، ويصدر كتابه «رسالة في اللاهوت والسياسة» ، والذي يعتبر بحق الزائد للدراسات النقدية لاسفار التوراة في العصر الحديث (٢٨) .

ويستمر النقد في القرن الثامن عشر عند «فرانسوا هولتين» (١٦٩٤ - ١٧٧٨م) وشك في نشيد الانشاد والجامعة ، غير أن القرن التاسع عشر انما يعتبر عصر النقاد البروتستانت تحت تأثير المدرسة الهيجلية (نسبة الى هيجل) والتي روج لها «ارنست رينان» (١٨٢٣ - ١٨٩٣م) ، ثم سرعان ما بلغ النقد ذروته في القرن العشرين ، ومازالت المعركة قائمة بين أنصار النقد وخصومه ، أو بين التيارين الأبديين في الفكر الديني ، وهما : التيار التقدمي الذي يسمح بالنقد التاريخي ، والتيار المحافظ الذي يقف ضده (٢٩) .

ولعل هذا كله ، انما يبين أن الكتاب الغربيين كانوا أول من تعرض لنقد التوراة المتداولة اليوم ، غير أن الحق أن القرآن الكريم انما كان أول من تبعه - في القرن السابع الميلادي - الى تحريف التوراة ، والى مناقضتها بعضها للبعض الآخر (٣٠) ، وفي القرن الحادي عشر الميلادي ، أصدر العلامة «ابن حزم» (٦٧٤ - ٥٤٥٦ = ٩٩٤ - ١٠٦٤م) كتابه

(٢٨) باروخ سبينوزا : المرجع السابق ص ٣٩ ، وكذا :
G. H. Box, Op. Cit., p. 367-368.
A. L. Sachar, A History of The Jews, N. Y., 1945, p. 246-248.
L. Roth, Thought of The Modern World, in The Legacy of Israel, p. 449-457.

(٢٩) باروخ سبينوزا : المرجع السابق ص ١٩ .
(٣٠) انظر : سورة البقرة : آية ٧٩ ، ١٥٩ ، سورة النساء : آية ١٣ ، ١٥ ، سورة الانعام : آية ٩١ ، سورة الكهف : آية ٥ .

«الفصل في الملل والاهواء والنحل» ، فناقش فيه أسفار التوراة واثبت تحريف اليهود لها (٣١) .

بقيت الإشارة الى أن اليهود هم الامة الوحيدة التي كتبت تاريخها بيدها وبحسب هواها ، ثم زعمت أن هذا التاريخ قد أنزل من السماء ، وأنه فوق الجدل والنقاش ، مصير من لا يصدق أو يناقشه علميا عقاب الله في الدنيا والاخرة ، بل وقد نجحوا نجاحا لا يبارى في ايها مئات الملايين من البشر على مدى الاحقاب والعصور بذلك ، وهم عندما كتبوا تاريخهم هذا ، انما قد أغاروا على المأثورات الشعبية للامم القديمة التي عرفوها ، وأضافوا اليها من بقايا الفلكلور الذي حفظته ذاكرتهم الاولى منذ بداوتهم الاولى ، فنسجوا من ذلك كله أسطورة اختلطت فيها حكمة الحكماء وشرائع الانبياء ، بحكايات الابطال الخرافيين ، وترجمات تكاذ تكون حرفية للمحرم من أمم أقدم منها (٣٢) .

(٣) التاريخ عند اليونان والرومان :

ينقسم تاريخ اليونان الى مرحلتين أساسيتين ، الاولى ، حضارة موكني وكريت ، ولم تصلنا منها كتابات أدبية ، وكل ما وصلنا من تلك الفترة ، والتي تقع كلها في الالف الثاني قبل الميلاد ، مجموعة كبيرة من اللوحات الكتابية ، تتضمن احصاءات وبيانات أكثرها ذو طابع اقتصادي وهكذا انقرضت تلك الفترة دون أن تعرف الكتابات التاريخية ، حسب ما لدينا من معلومات حتى الان .

وفي نهاية تلك الفترة خلال القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، تعرضت بلاد اليونان لغزوات الدورين المتبربرين وقد استمرت تلك الفترة أكثر

(٣١) ابن حزم : الفصل في الملل والاهواء والنحل - الجزء الاول - القاهرة ١٩٦٤ ص ١٢٠ - ١٦٩ ، الجزء الثانى ص ٣ - ١٩ ، وانظر نقد نسبة الاسفار الخمسة الى موسى (محمد بيومى مهران : اسرائيل ١٤٥/٣ - ١٦١) .

(٣٢) حسن ظاظا : الصهيونية العالمية واسرائيل - القاهرة ١٩٧١ ص ١٣ .

من قرونهم ، تعرضت فيها اليونان لكثير من الاضطرابات والفوضى عمت على مراكز الحضارة القديمة ، واختفت الكتابة وبالقلى فقد مرت اليونان بفترة من الامية ، فيما بين القرنين ، الحادى عشر والثانى عشر قبل الميلاد ، ومن ثم فقد اعتمدت خلالها على الرواية الشفوية في حفظ أخبارها وتراثها ، وضع ذلك فيرجع الى تلك الفترة أهدم الآثار الادبية التي بقيت لنا من التراث اليونانى القديم ، وهما ملحمتا : الاللياذة والاولديسية^(٢٣) ، اللتان تنسبان الى الشاعر «هوميروس»^(٢٤) ، ورغم ما يحيط بشخصية هذا الشاعر من غموض ، فهناك اعتقاد أن هاتين الملحمتين ظهرتتا فيما بين القرن التاسع والثامن قبل الميلاد ، على الساحل الانعوى لاسيا الصغرى ، وتم نقلهما بعد ذلك بالرواية الشفوية نحواً من قرنين من الزمان الى أن سجلتا في القرن السادس قبل الميلاد ونظرا لانهما يرجعان الى فترة لم تصلنا عنها معلومات تاريخية أخرى ، فالمؤرخون المحدثون انما يهتمون بهما كثيراً ، كمصدر تاريخى ، ومما زاد في قيمتهما التاريخية ما تتصفان به من نضج عقلى وفنى ، فضلاً عن غلبة الطابع التاريخى على «الاللياذة» بالذات ، فهي تتحدث عن الحرب بين الاغريق وطروادة ، ورغم الاطار الاسطورى الذى وضعت فيه الملحمة ، فهي تحتفظ في ثناياها بكثير من الاخبار والتقاليد التاريخية المتوارثة^(٢٥) .

(٢٣) اعتقد اليونان في فترة مبكرة من تاريخهم أنهم جمعوا قواتهم واهجروا من بلادهم تحت قيادة «أجاممنون» أكبر ملوكهم ، ليشنوا حرباً انتقامية ضد «طروادة» - عند مدخل البحر الاسود في القسم الشمالى الغربى لاسيا الصغرى - وأن شاعرهم «هوميروس» قد خلد هذه الحرب في الاللياذة (نسبة الى اليوس أو اليون عاصمة منطقة طروادة) ، وينقع مسرحهما ضمن فطشق الحرب ذاتها حول اسوار المدينة وفي داخلها ، والاولديسية : وتتخذ موضوعها من مخاطرات أولديسيوس أحد الملوك والقادة اليونان ، وهو في طريق عودته الى «أثاكه» مقر ملكه ، على الساحل الغربى لشبه جزيرة البلقان (لطفى عبد الوهاب : مناهج الفكر التاريخى - بيروت ١٩٧٩ ص ٣٦) .

(٢٤) - انظر عن : هوميروس (لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣١ - ٤٤) .

(٢٥) مصطفى العبادى : محاضرات في مناهج الفكر التاريخى - بيروت ١٩٨٤ ص ٢٥ - ٢٦ .

وهكذا يبدو واضحا أن الرأي القائل أن أول كلمة تلويضية ذات شأن إنما قد ظهرت عند اليونان في الأشعار المغموية التي «هوميريوس» نه أساس من الواقع ، وعلى أية حال ، غلبت على «هوميريوس» (من الفرق ٩ ق.م) أشد العناية بتمجيد البطولة والابطل وروح التضامن التي ترتفع بصاحبها إلى قمة الشخصية ، وتجعل منه بطلا منوارا ، وعنه أخذ المؤرخون هذا كنهه٣٤ .

وفي القرن الثامن قبل الميلاد عادت الكتابة إلى اليونان من جديد ، بأسلوب جديد سهل ، وهو اتخاذهم حروف الهجاء عن الفينيقيين ، وسرعان ما انتشرت الكتابة (حوالي عام ٧٥٠ ق.م) في عدة مدن يونانية ، من بينها «أثينا» و «طيبة» و «كورنث» و «ثيرا» و «ميلوس» و «رودس» و «كريت» ، وفي القرن السابع قبل الميلاد ، كانت التجربة السياسية اليونانية قد تقدمت خطوات هامة ، فأصبح لاسبرطة دستور معقد ، كما أصبح لأثينا نظام سياسي واضح المعالم ، يقوم على انتخاب الحكام سنويا ، وأصبح نمط الحياة السياسية اليونانية يقوم على أساس «دولة المدينة» ، وأصبحت بعض الأعمال الأدبية الأولى في عصر دولة المدينة القديمة بالصيغة السياسية أو الاجتماعية ، كما يبدو في أعمال «هسيود» و «سولون» (٣٧) .

غير أن ميلاد الكتابة التاريخية على نمط «كتابة التاريخ» انما كان يستلزم خلفية تاريخية لم يتغير ظهورها عند اليونان إلا في القرون السادس قبل الميلاد ، وهذه الخلفية هي ظهور الكتابة المنثوية ، والظفرة الناقدة إلى الأساطير الشائعة ، وبواعث الاهتمام بالبحث عن أصول المجتمع ، ونشأة الحظم والقوانين ولعادات والتقاليد .

وفي النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد ، بدأ زحف الفرس

٣٤ (٣٦) على الرغم من المرجع السابق من ٤٢ . محمد هويدا حسين : المرجع السابق من ١٢٣ . مصطفى العبادي : المرجع السابق من ٢٦ ، لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق من ٥٢ .

على آسيا الصغرى ، واقتراهم أولا ، ثم استيلائهم على المدن اليونانية في غربي آسيا الصغرى ، وكانت في هذا العصر أيضا حركة الانتشار اليوناني على سواحل البحرين الأسود والأبيض قد بلغت أوجها ، ومن ثم فقد ازداد اهتمام الإغريق عامة بأخبار العالم الخارجي — وخاصة المفرس — وكان ذلك كله من وراء اهتمام اليونان بكتابة التاريخ والذي يقترن باسم «هيكاتايوس الميليطي» ، ومن ثم فقد بدأ الاهتمام بالتاريخ من مدخل الجغرافيا ، عن طريق الاهتمام بوصف البلاد والشعوب .

ومن المعروف أن «هيكاتايوس» إنما كان جغرافيا قبل أن يكون مؤرخا وقد عاش في النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد بوقام برحلات كثيرة في بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، وعلى سواحل البحر الأسود ، كما أوغل في أقاليم الامبراطورية الفارسية ومصر ، وربما وصلت أسفاره الى جنوب أسبانيا ، ثم ألف كتابا أسماه «خريطة العالم» بمعنى وصف العالم وهو يتضمن معلومات تتعدى حدود الجغرافيا الطبيعية والبشرية ووراء حدود التاريخ ، ومن ثم فهو يكاد يضم كل أبواب المعرفة التي كانت تستثير اهتمام القدماء ، هذا فضلا عن نظراته العالمية ، وخاصة فيما يتصل بتقديم العالم الشرقي الى العقل اليوناني ، وأما من الناحية التاريخية فقد قام بتسجيل أول محاولة لتعاقب الملوك في آشور وميديا وفارس ، كما ضمن كتابه أخبار التاريخ المعاصر لوطنه ايونيا ، وله كتاب آخر في تاريخ اليونان القديم يعتبر نوعا من تجميع الانساب التي كان يحتفل بها الإغريق كثيرا ، وقد اعتمدت أساسا على انساب أبطال الشعر الملحمي ، ورغم أن عنوانه هو «كتاب الانساب» ، غير أنه إنما يكشف عن ظاهرتين ، الواحدة : قوة تأثير الشعر الملحمي على نشأة الحضارة التاريخية ، والاخرى : اتخاذ موقف نقديا منها .

وأما تجربته في مصر وما علمه من أخبار المصريين فقد أكدت ، بل وزادت من حدة ملكة النقد والشك عنده ، فقد علم من المصريين أنه في الوقت الذي اعتقد فيه اليونان أن الالهة في بلادهم تعيش على الارض كانت تقوم في مصر مجتمعات بشرية عادية ، وبالتالي فقد أدرك ، لأول

مرة ، أن حياة الانسان على الارض أقدم مما تصور الروايات المتواترة عند الاغريق ، أضف الى ذلك أن «هيكاتايوس» انما كتب كتاباته مولوداً مرة بالنثر ، ومن قبله كان الشعر هو الوسيلة الآثمة للأعمال الفكرية والادبية ، ومن ثم فهو يعتبر فترة خامسة في تاريخ المعرفة لانه أطلقها من قيود الشعر وأساليبه .

وكان القوم يطلقون على كتابات النثر لفظ «اخباري» (Logoraphos) وفي الواقع فقد كانت كتابة التاريخ بالنثر شرطاً أساسياً لمظهر التاريخ وبالتالي يمكن اعتبار «هيكاتايوس» مؤسس الكتابة التاريخية عند الاغريق ، إذ ألغزهم من جاء بعده بكتابة التاريخ بالنثر .

بقيت الإشارة الى أن الكلمة التي كانت تطلق على كتاب النثر وعوالمهم «هيكاتايوس» ، حتى ذلك العصر ، هي كلمة «الأخباريون» وعلى كتاباتهم «تسجيل الاخبار» Logographos . ولم تكن كلمة دراسة التاريخ (Historia) قد ظهرت بعد ، لان معناها كان بعيداً عن مجال الاعمال الفكرية ، ويرجع أصلها الى كلمة (Histor) بمعنى «المحقق القضائي» ولم تستخدم كلمة (Historia) الا في مرحلة جديدة من رقي الكتابة التاريخية ، ممثلة في شخص «هيرودوت» (٤٨٤ - ٤٣٠ ق.م) الذي يبدأ بحث التاريخ (٢٨) ، وأما أهم المؤرخين اليونان والرومان ، فسوف نتحدث عنهم عند حديثنا عن مصادر التاريخ المصري القديم .

(٤) كتابة التاريخ في أوائل العصر الميحي :

كان لانتصار المسيحية على الوثنية تأثير بعيد المدى في كتابة التاريخ وفي الافكار التي كان يسترشدها المؤرخون في كتاباتهم ، فليقم نبذة الثقافة الوثنية باعتبارها من عمل الشيطان ، واعتبرت الكتابة التاريخية التي أنتجها العصر الوثني أقل مستوى من الكتابة التاريخية المقدسة في «التوراة» ، وحامت الشكوك حول التفكير العقلي الذي كانت له المكانة

(٢٨) مصطفى العبادي : المرجع السابق ص ٢٨ - ٣٠ .

الطيا عند الوثنيين اليونان ، وأصبح للإيمان الدينى المحل الأعلى والركن
الإلهى ، وسار الاعتقاد بها فوق الطبيعة مطلقاً الفضائل ، وأخذت كتب
اليهود المقدسة مكانة الأدب القديم ، وأعرض القوم عن أعمال مؤرخى
العصر الوثنى وكتابه وشعرائه ، وقد أخرج ذلك بكتابة التاريخ وعساق
تقدمها .

ومع ذلك ، فلم يكن فى الإمكان التغلب على تأثير الثقافة الوثنية ،
هذا فضلاً عن أن كثيراً من رجال الدين الأوائل إنما كانوا يستعملون
اللغة الوثنية ، وقد تلقوا ثقافة وثنية من قبل دخولهم فى النصرانية ،
ومن ثم فقد تأثرت مثلهم العليا السياسية ، وممارستهم للشئون العملية
بالعناصر الوثنية ، وكان أخذهم بمفكرة تفوق العواطف والحدس على
التفكير العقلى ، وشدة التمسك بهذا الاتجاه فى المسائل الدينية والقضايا
المقدسة ، مصدره الأفلاطونية الجديدة ، فقد أسبغت على التفكير الدينى
هالة فلفهية غامضة ، وقد كلل لها تأثير واضح فى تفكير القديس
«أوغسطين» (٣٥٤ - ٤٣٠ م) ، وكان هذا الاتجاه يمنع للوقوف موقف
النظر أمام مصادر المعرفة التاريخية ، ويعوق توجيه النقد إليها وتسليط
الأنواء عليها .

هذا وقد ذهب المؤرخون الأوائل من النصارى إلى أن الحبركة
التاريخية جزء من الحركة الكونية التى يشترك فيها الله تعالى ، فضلاً
عن الإنسان ، وقد تجلّى التعبير عن هذا الاتجاه فى أوج صورة فى كتاب
«مدينة الله» الذى كتبه القديس «أوغسطين» وكانت الفلسفة التاريخية
التي ضمنها هذا الكتاب مستمدة من أصول فارسية وهيلينية وعبرية ،
فالحبركة التاريخية صراع بين قوى الخير والشر ، وهى فى معناها
التاريخى : الأرض صراع بين مدينة الله - وهى نخبة المؤمنين بالله
اليهود والنصارى - ومدينة الشيطان - وهو الاسم الذى أطلق على
أشباع الوثنية المعاصرين والسابقين ، وسيفسر هذا الصراع عن انتصار

المدينة الأولى وعدم المدينة الثانية (٣٩) .

(٥) كتابة التاريخ في العصور الوسطى :

تعتبر كتلية التاريخ في العصور الوسطى — في جانب من جوانبها — رجوعا إلى الأسلوب الذي درج عليه المؤرخون بعد الإسكندر الأكبر ، وعلى أيام الرومان ، فقد اعتمد مؤرخو هذه العصور على المصادر التقليدية يستنبطون منها الحقائق ، غير أنهم لم يتعرضوا لنقد هذه المصادر أو تحليلها تحليلًا علميًا دقيقًا ، وإذا كان بعض مؤرخي العصر قد قاموا بمحاولة للنقد ، فإن هذه المحاولة إنما كانت تستند إلى النقد الشخصي لكل منهم ، دون استناد إلى منهج علمي ، ومن ثم فقد كانوا يصدقون كل ما جاء في مصادرهم (٤٠) .

وعلى أية حال ، فلقد كان ممثلو الكتابة التاريخية في العصور الوسطى من رجال الدين ، ومن ثم فقد غلبت وجهة النظر الدينية على كتاباتهم التاريخية ، وكان الكثيرون من كتلة التاريخ في ذلك العصر تنقصهم سعة الاطلاع الكلاسيكي أو اللاهوتي التي كانت طابع المؤرخين في العصر المسيحي المتقدم وكانوا يعولون إلى سرعة الاعتقاد والتصديق أكثر من التحري والتحقق في قبول الأخبار ورواية الأحداث ، ولم يكن هناك تفريق بين الواقعي والمثالي ، أو الحق التاريخي والحق الشعري ، وكانت الملاحم الشعرية تعد مراجع تاريخية ، ولم يكن هناك ما يحول دون تزيف الأخبار ، وتزوير الوثائق والاسناد ، ولم تكن هناك عناية بكشف الحقائق ، وإزهاق الأباطيل ، مادامت الوثائق والأخبار المزيفة تخدم قضية من قضايا العصر ، وتؤيد معتقدا من المعتقدات الشائعة (٤١) .

وأما المهمة الكبرى التي ارتبطت بمؤرخي العصور الوسطى ، فكانت الكشف عن الخطة الإلهية وتفصيلها ، ومن ثم فقد انتقل تيار الفكر

(٣٩) علي ادنهم : المرجع السابق ص ٤٠ .
(٤٠) محمد عواد حسين : المرجع السابق ص ١٢٨ .
(٤١) علي ادنهم : المرجع السابق ص ٤٦ - ٤٣ .

التاريخى من دراسة اجتماعية الى دراية مجسدة محدودة تنبثق من سلطان الكنيسة ، فلقد اعترفوا بالدور الذى تؤديه المقادير في الاحداث التاريخية ، لكنهم حددوه بصورة يتقنى منها وجود أى مجال لنشاط الانسان ، وكانت النتيجة عجز المؤرخين عن التنبؤ باحداث المستقبل ، لانهم يجهلون ما يخفيه القدر ، وانصرفوا الى البحث عن جوهر التاريخ خارج نطاق نفسه ، لان كل بحثهم انما كان يهدف الى الكشف عن سياق الاحداث ، انطلاقا من عقيدة راسخة في أن التدهور الذى وجه هذه الاحداث بعيدا عن ارادة الانسان .

ومن هنا اتسمت كتابة التاريخ في العصور الوسطى باهمال الدور البشرى فيه ، وبالتالي فلم يكن ثمة مجال لنقد أو تحليل ، لقد كانت مصادرهم بين أيديهم ، ولكنهم فرضوا على أنفسهم قيودا شديدا ، وجعلوا مهمهم الاول هو دراسة خصائص الذات العملية المقدمة^(٤٢) ، ومن ثم فقد كانت هذه الكتابات دينية أكثر منها تاريخية ، ومن هنا عقد غلبت عليها الصبغة النصرانية^(٤٣) .

ولعل من أشهر هذه المؤلفات كتابات «يوسبيوس»^(٤٤) (٢٦٤ - ٣٤٩م) - والذي كان واحدا من آباء الكنيسة في عصره ، وأول مؤرخ كنسى يعتقد به ، حتى لقب «أبو التاريخ الكنسى» و «هيودوت النصرانى»^(٤٥) ، وقد ولد في فلسطين ، وربما في قيصرية التى كان أسقفا لها ، وقد ساعدته صلاته بالامبراطور «قسطنطين» (٣٠٦ - ٣٣٧م) ورؤساء الكنيسة وكبار رجال الدولة الى أن يعرف الكثير من الاسرار والى أن يطلع على المخطوطات والوثائق الثمينة ، ومن ثم فقد أفاد منها

(٤٢) محمد عواد جسين : المرجع السابق ص ١٢٨ .

(٤٣) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام - الجزء الاول - بيروت ١٩٦٨ ص ٦١ .

(٤٤) يوسبيوس القيصرى : تاريخ الكنيسة بترجمة مرقص داود - القاهرة ١٩٦٠ ص ٢٤ .

45. W. Smith, A Dictionary of The Bible, II, p. 107.

• فائدة كبرى في كتاباته التاريخية (٤٧) •

وهناك كذلك «بروكيوس» (المتوفى عام ٥٠٦٣م) ، والذي يعد المؤرخ الكنسى لمصر «جستيان» (٥٢٧ - ٥٦٥م) الملىء بالاحداث ، ومما يجعل لتاريخه أهمية أن مادته التاريخية موضع ثقة ، ذلك لان بعضها مستقى من الروايات الشفوية ، وأغلبها نتيجة معلوماته الشخصية ، فلقد عين في عام ٢٦٧م سكرتيرا خاصا ، ومستشارا قنونيا للقائد الرومانى «بلساريوس» ، وصحبه في حملاته في آسيا وأفريقيا وإيطاليا ، كما عين عضوا في مجلس الشيوخ الرومانى (٤٧) •

(٦) الكتابة التاريخية عند المسلمين :

لعل من الاهمية بمكان - وقبل أن نتحدث عن الكتابة التاريخية عن المؤرخين المسلمين - أن نتحدث ، بادىء ذي بدء ، عن «التاريخ الهجرى» •

لا ريب في أن أهمية الهجرة النبوية الشريفة انما كانت نسبية في أن يختارها الفاروق عمر بن الخطاب بداية للتاريخ الاسلامى تقديرا لجلال الحدث الذى كان منطلق تحول حاسم وخطير في تاريخ الاسلام •

وأما مبدأ التاريخ ، فلقد روى الطبرى بسنده عن سعيد بن المسيب قال : جمع عمر بن الخطاب الناس ، فسألهم فقال : من أى يوم نكتب؟ فقال على عليه السلام : من يوم هاجر رسول الله ﷺ وترك أرض الشرك ، ففعله عمر ، رضى الله عنه (٤٨) ، وروى السخاوى : أن سعد

(٤٦) فيلب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق - الجزء الاول - بيروت ١٩٥٨ ص ٣٩٧ •

(٤٧) نفس المرجع السابق ص ٣٩٧ - ٣٩٨ ، عبد المتعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية - الجزء الاول - القاهرة ١٩٦٧ ص ٣٨ •

(٤٨) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى : تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - الجزء الرابع - القاهرة - دار المعارف ١٩٧٧ ص ٣٨ - ٣٩ •

ابن أبي وقاص قال لعمر : أرخ بوفاة النبي ﷺ ، فقال علي : بلد أوخ
 بهجرة النبي ﷺ فانها فرقت بين الحق والباطل ، وأظهرت الاسلام ،
 فاجتمع رأي المسلمين على الابتداء بسنة الهجرة (١٨) .

هذا وقد اقترح آخرون يوم المبعث أو المولد الشريف ، غير أن ميماد
 المولد والمبعث فيهما خلاف ، كما أن يوم الوفاة إنما يذكر الناس بطلاسي
 والحزن على فقيد مولانا ومسيدنا رسول الله ﷺ ، وهكذا استقر رأي
 الصحابة — رضوان الله عليهم — على ابتداء التاريخ بسنة الهجرة ،
 وكان ذلك في عهد الفاروق عمر ، روى عن ابن المسيب أنه قال : أوله من
 كتب التاريخ عمر ، لسنتين ونصف من خلافته ، فكتب لست عشرة من
 الهجرة ، بمشورة علي بن أبي طالب .

ثم قام جدل آخر حول الشهر الذي يكون مطلقاً للتاريخ ، فقال
 عبد الرحمن بن عوف : أرخ برجب ، فانه أول الأشهر الحرم ، فقال
 علي بن أبي طالب : بالحرم ، وانتهى الامر باعتماد الحرم فجرا للسنة
 الهجرية ، على اعتبار أن الحرم شهر الله عز وجل ، وهو رأس السنة
 فيه يكسى البيت ، ويؤرخ التاريخ ، ويضرب فيه ألورق ، وفيه يوم كان
 تاب فيه قوم قتال الله عليهم ، هذا فضلا عن أن الحرم كان ابتداء
 العزم على الهجرة ، وذلك لان البيعة وقعت في ذي الحجة ، وهي مقدمة
 الهجرة ، فكان أول هلال استهل بعد البيعة (بيعة العقبة) والعزم على
 الهجرة هلال الحرم ، ثم ان الحرم منصرف الناس من حجه ، هذا
 فضلا عن أن ابن عباس — حبر الأمة وترجمان القرآن — كان يقول في
 قول الله تعالى «والفجر وليال عشر» أن الفجر هو الحرم .

وهكذا كان المسلمين — مع اقرارهم التاريخ من الهجرة — لقد رأوا
 الابتداء قبل مقدم النبي ﷺ إلى المدينة في ١٢ ربيع الأول (٢٤ سبتمبر
 عام ٦٢٢م) بشهرين ، وأيلم هي اثنا عشر طيقوا ذلك مع أول الحرم

فلم يؤرخ الناس من وقت قدوم النبي ﷺ الى المدينة ، بل بأول تلك السنة ، وهكذا كانت السنة الهجرية سنة اعلامية ، مرتبطة بهجرة النبي ﷺ الى المدينة ، فضلا عن أنها سنة تقوم خصائصها على ما نص عليه الكتاب العزيز ، واليهما ترتكز مواعيت صوم المسلمين وأقطارهم وحجهم ومناسكهم وعدة نسائهم ، وحل ديونهم .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى عيدة أمور ، منها أن السنة الهجرية تعادل ٣٥٤ يوما ، ٨ ساعات ، ٤٨ دقيقة ، وأما السنة الميلادية فتعادل ٣٦٥ يوما ، ٥ ساعات ، ٤٨ دقيقة ، ٤٦ ثانية ، والاولى قمرية ، والثانية شمسية ، ومنها أن بداية التاريخ الهجري في أول المحرم من العام الاول الهجري ، إنما يوافق ١٦ يوليو ٦٢٢م : في أرجح الآراء ، ومنها ما جاء في فتح الباري من أن جماعة من السلف كانوا يمتنون التاريخ من المحرم الذي وقع بعد الهجرة ، ويلغون الأشهر التي قبل ذلك الى ربيع الاول ، وعلى ذلك جرى يعقوب بن سفيان والقسوى ، فذكروا غزوة بدر في السنة الاولى ، وأحد في الثانية ، والخندق في الرابعة ، وهذا صحيح على ذلك البناء ، ولكنه يضالف ما اتفق عليه الجمهور ، وقبلة المسلمون (٥٠) .

بقيت الاشارة الى أن التاريخ الميلادى إنما يبدأ بمولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، والذي كان على أيام أول قياصرة روما «أغسطس» (٢٧ ق م - ١٤ م) ، ويذهب البعض الى أن مولده كان فيما بين عامى ٦ ، ٣ ق م ، بينما يذهب آخرون الى أن مولد المسيح إنما

(٥٠) انظر : محمد بيومى مهران : في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين - الجزء الاول - السيرة النبوية الشريفة - المجلد الاول - بيروت - دار النهضة العربية ١٩٩٠ ص ٣٤٧ - ٣٥٠ ، السخاوى : المرجع السابق ص ٧٨ - ٨٢ ، تاريخ الطبرى ٣٨٧/٤ - ٣٩ ، ابن حجر العسقلانى فتح البارى شرح صحيح البخارى ٣٩٢/٧ (القاهرة ١٩٥٩م) ، ابراهيم بن ابراهيم قريبي : مرويَات غزوة بنى المصطلق - المدينة المنورة ص ٩١-٩٢ .

كان عام ٤م ، ولنه رُفِعَ الى السماء عام ٣٧م ، على أيام القيصر «تيطيوس» (١٤ - ٤٧م) ، وربما في ٢٣ مارس عام ٢٩م (٥١) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن كلمة «تاريخ» بدأت تعنى في صدر الاسلام التقويم والتوقيت ثم أصبحت تعنى تسجيل الاحداث على أساس الزمن ، وتحمل اسم الاخبار ، ثم بدأت كلمة تاريخ تعل تباعا في الكتابة التدوينية العربية ، لاسيما في أواخر القرن الثاني وثلاث القرن الثالث الهجري ، وكان العرب قبل الاسلام قد اهتموا بالتاريخ للاحداث الهامة كعمام الفيل ، وبناء الكعبة ، كما كانت الاحداث الهامة تحفظ في النقوش أو عن طريق الرواية الشفوية .

هذا وقد أشار المسعودي الى أن العرب قبل الاسلام انما كانوا يؤرخون بتاريخ كثيرة ، فلما «حمير» و «كهلان» أبناء سبأ ، فكانوا يؤرخون بملوكهم ، أو بما يقع لهم من أحداث جسيمة ، فيما يظنون ، كنار حوان التي كانت تظهر في بعض الحرار بأقاصي اليمن ، وكالحروب التي كانت تنشب بين القبائل والامم فضلا عن التاريخ بأيامهم المشهورة وكذا بوفاة ابراهيم واسماعيل ، عليهما السلام ، كما كانت قریش عند مبعث المصطفى ﷺ تؤرخ بوفاة هشام بن المغيرة ، وبعام الفيل (٥٢) ، على أن الطبري انما يذهب الى أن العرب لم تكن تؤرخ بشيء محدد قبل الاسلام ، غير أن قریشا انما كانت تؤرخ بعام الفيل ، بينما كان سائر العرب يؤرخون بأيامهم المشهورة ، كيوم جيلة والكلاب الاول والثاني (٥٣) .

ولعل أقدم وثيقة مكتوبة باللغة العربية انما هو «نقش النمارة» (٥٤)

(٥١) هـ . ج . ويلز : موجز تاريخ العالم - ترجمة عبد العزيز جاويز للقااهرة ١٩٦٧ ص ١٧٢ ، ٤١٦ ؛ فيليب حتى : المرجع السابق ص ٣١١ - ٣١٢ ، ٣٦٢ .

(٥٢) المسعودي : التنبيه والاشراف - القاهرة ١٩٢٨ ص ١٧٢-١٨١ .

(٥٣) تاريخ الطبري ١/١٩٣ .

(٥٤) انظر عن نقش النمارة (محمد بيومي-مهران : تاريخ العرب

والذى يسجل وفاة ملك الحيرة «امرؤ القيس الاول» (٢٨٨ - ٣٢٨ م) وقد كتب عام ٣٢٨ م (عام ٢٢٣ من تقويم بصرى) ^(٥٥) وبلغه عربية شمالية ، وبالخط النبطى ، وليس باللغة الحميرية أو بحرف المسند ^(٥٦) ، وهو بهذا يمثل مرحلة انتقال من الحروف النبطية الى الحروف العربية الشمالية ، والتي ماتزال مستعملة حتى الان ^(٥٧) ، ذلك لان الخط العربى الشائع بيننا الان منحول عن الخط النبطى الذى كان شائعا في مملكة الانباط ^(٥٨) .

على أن هناك كتابات عربية أقدم من نقش النمارة ، فتلقد عشر في مصر على كتابات معينة في الجيزة وعند قصر البنات في الصحراء الشرقية ، وفي منطقة ادفو ^(٥٩) ، وترجع بعض هذه الكتابات الى أيام الملك الفارسى «قمبيز» (٥٢٥ - ٥٢٢ ق.م) ، وبعضها الآخر الى أيام البطالمة ^(٦٠) ، وان كان أهمها كتابة مدونة بخط المسند في الجيزة ، وترجع الى العام الثانى والعشرين من حكم بطليموس بن بطليموس ، والذى

القديم - الرياض ١٩٨٠ ص ٣٤٩ - ٣٥٠ ، ٥٨١ - ٥٨٢ ، حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم - الاسكندرية ١٩٧٠ ص ١٦٥ - ١٧٣ ،
Le Museon, 1964, 3-4, pp. 456 F.

R. Dussaud, Nabateo-Arabes D'an Nemara, Rev. Arch, II, p. 409-421.

R. Dussaud, Arabes en Syria avant L'Islam, Paris, 1907, p. 34-42.

(٥٥) انظر : محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٥٨٢ ، وكذا Syria, IV, 1923, p. 154.

(٥٦) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٧٣ .

P. K. Hitti, History of The Arabs, London, 1960, p. 82.

(٥٨) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ٩٤/٣ ، وكذا

P. K. Hitti, Op. Cit., p. 82.

59. H. Winckler, Rock-drawings of Southern upper Egypt, I, London, 1938, p. 1.

A. E. P. Weigall, Travels in The Upper Egyptian Desert, London, 1909, p. IV, fig. 31-41.

(٦٠) مظهر الاريانى : في تاريخ اليمن - القاهرة ١٩٧٣ ص ١٥ .

يرى فيه البعض «بطلليموس الثانى» (٢٨٤ - ٢٤٩ ق.م) ، ومن ثم فقد ذهب «أدولف جرومان» الى أنها ترجع الى علم ٢٦٤/٢٦٣ ق.م^(٦١) وربما ليس بعد عام ٢٦١ ق.م ، على الاقل^(٦٢) ، وان حسد الدكتور فؤاد حسنين عام ١٥٩ ق.م ، تاريخها للكتابة التى يرى أنها كانت فى عهد بطلليموس السادس^(٦٣) ، وأما صاحب الوثيقة فيدعى «زيد ايل بن زيد ايل» ، وكان كاهنا فى معبد مصرى^(٦٤) ، وأما الكتابة التاريخية فى العصور الإسلامية ، فكما يقول «روبرت فلنت» فلم تكن خالية من المزايا الواضحة ، ولكنها لم تصل قط الى المرحلة العالمية أو الفلسفية ، وأكثر الذين عالجوا كتابة التاريخ لم يتجاوزوا مرحلة الموصف والسرد الحولى^(٦٥) .

وعلى أية حال ، فان علم التاريخ عند العرب ، انما قام على أسس من الرواية الشفوية ، ذلك لان انتشار الامية قبيل الاسلام ، وفى بداية العصر الإسلامى ، من ناحية ، وطبيعة المجتمع القبلى فى بلاد العرب ، وما كان ينسود هذا المجتمع من مفاخرة الافراد والقبائل بحسبها ونسبها من ناحية أخرى ، انما جعل كثيرا من العرب يحرصون على رواية مفاخرهم ومفاخر قبائلهم ، ومثالب خصومهم ، وكانت الرواية الشفوية تنتقل الاحاديث فى هذا المجال من جيل الى جيل^(٦٦) ، وهو أمر لا يمكن الاطمئنان اليه ، ذلك أن رواة الاخبار، حتى ان كانوا بعيدين عن الميوز والاهواء ، وحتى ان كانوا من أصحاب الملكات التى تستطيع التمييز بين الثبوت والسمين ، فان للذاكرة آماذ لا تستطيع تجاوزها^(٦٧) .

61. A. Grohmann, Arabien, Munchen, 1963, p. 26.

62. BASOR, 73, 1939, p. 7.

(٦٣) فؤاد حسنين : التاريخ العربى القديم - القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٦٩

(٦٤) محمد بيومى مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة - الرياض ١٩٧٦ ص ٣٢٤ - ٣٢٦ .

65. Robert Flint, History of The Philosophy of History, Edinburg, 1893 p. 86.

(٦٦) سيدة اسماعيل الكاشف : مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج

البحث فيه - القاهرة ١٩٧٦ ص ١٢ .

(٦٧) محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٣ .

وعلى أية حال ، قلل أهم ما جاء في هذه الروايات عن القبائل الشمالية ما عرف باسم «أيام العرب»^(٦٨) والتي تقص أحاديث الحروب بين القبائل المختلفة ، وعلى الرغم مما في بعض هذه الأخبار من خيال وغموض وعدم التقيد بالدقة ، فقد كان لها تأثير كبير في نشأة علم التاريخ ، ذلك لأن الإسلام يقض عليها ، بل إن المؤرخين المسلمين في فجر الإسلام استمدوا منها كثيرا مما دونوه عن بلاد العرب الشمالية قبيل الإسلام وفي القرن الاول الهجري ، فضلا عن أنها حفظت أنساب العرب الى حد كبير^(٦٩) .

وأخيرا فإن أيام العرب هذه إنما تظهر لنا مميزات الروح العربية في الجاهلية من عصبية وحمية ، نهضت بعقلية البدوى الى الفضيلة تارة وهبطت به الى الرذيلة تارة أخرى، وانكشفت فيها بواطن الخلق العربي، فإذا بصاحبه مطبوع على الشعور الفردي ، غنيد صعب المزاج، يتسوغ له أنفته وكبرياؤه القتال دفاعا عن قبيلته ، سواء أكانت ظالمة أو مظلومة باغية أم مبغى عليها ، ولهذا فهو يعتمد الى مناوأة القبائل ، الا أنه يأبى الانقياد الى النظام ، ولا يمثل للأوامر العسكرية ، وإنما يفضل تلك الحروب التي تعتمد على المناوشات والغارات الفجائية ، على مجابهة العدو في معارك فاصلة^(٧٠) .

على أن قيمة مادة أيام العرب التاريخية إنما تضعف كثيرا ، بسبب عدم تنسيقها وتبويبها ، طبقا لترتيب الوقائع وتسلسلها التاريخي ، كما أنه من الصعوبة بمكان استخراج مستند منها يمكن الاعتماد عليه في تصنيف هذه الأيام ، وتتنظيها على أساس تاريخي — مع أنها مادة

(٦٨) انظر عن أيام العرب (ابن الاثير : الكامل في التاريخ ٥٠٢/١ - ٦٨٧ (بيروت ١٩٦٥) ، محمد أحمد جاد المولى وآخرون : أيام العرب في الجاهلية - القاهرة ١٩٤٢ ، محمد بيومي مهران : الحضارة العربية القديمة - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ١٦٣ - ١٦٦) .

(٦٩) سيده الكاشف : المرجع السابق ص ١٢ .

(٧٠) محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ص ١٦٣ - ١٦٥ ، وكذا

P. K. Hitti, History of The Arabs, London, 1960, p. 90.

المؤرخ في التاريخ لجزيرة العرب قبل الاسلام، ودراسة التطور السياسي والاجتماعي فيها - وذلك لقلة معارفنا ، في أغلب الاحيان ، عن أحوال من أسهم فيها ، وأجج نارها يوم نال فيها شهرا ، هذا الى أن الاهواء الشخصية إنما كان لها دور في تسجيل هذه الايام ، فهناك الكثير ممن سجلوا هذه الايام ، كانوا بعيدين عن الحيدة التاريخية ، ومن هنا فقد كان الواحد منهم يشايح قومه ، فينسب اليهم الغلبة والفتوق، وفي نفس الوقت إنما يعمل جامدا على الغض من قدر خصومهم ، ثم يحاول أن يثبت ذلك كله بكلام منشور ، وآخر منظوم ، ليثبت صحة ما يقول، ومن ثم فقد وجب علينا ألا نصدق كل ما نقرأه عن أيام العرب ، حتى وان نسب الى خيرة من نثق بعلمهم من الرواة (٧١) .

وعلى أية حال ، فلقد كان مؤرخو العرب يعتمدون في تأريخهم للمعشور السابقة على الاسلام على الادب العربي ، وعلى بعض آثار اليمن ، حيث كان هناك من يزعم - صدقا أو كذبا - أنه بمستطيع أن يقرأ خط «السند» ، هذا الى جانب اعتمادهم على بعض كتابات النصاري التي وجدت في الاديرة والكنائس في العراق والشام ، وعلى ما تلقفوه من أفواه اليهود في اليمن والحجاز وغيرهما (٧٢) ، ومن هذه الكتابات على سبيل المثال ، كتاب أخبار اليمن لعبيد بن شربة الجرمي ، وقد كتب في أخريات أيام معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٥٦١) وكتاب التيجان في ملوك حمير ، لوهب بن منبه (ت ١١٠/٧٢٨) ، وكتاب الاصنام لابن الكلبي (ت ٢٠٤/٨١٩) ، وكتاب الاكليل ، وكتاب صفة جزيرة العرب للهمداني (ت ٣٤٠/٩٥١) وكتاب سنى ملوك الارض والانبياء لجمزة الاصفهانى وكتاب ملوك حمير وأقبال اليمن لنشوان بن سعيد الحميري (ت ٥٧٣هـ) (٧٣) .

-
- (٧١) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ١٦٤ ، جواد علي : المرجع السابق ٢٤١/٥ - ٣٤٢ ، صبح الاعشى ٣٩٢/١ ، ابن التديم : الفهرست ص ٨٥ ، ابن رشيق : العجدة ٢٠٠/٢ - ٢٠١ .
 (٧٢) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١٥ ، محمد مبروك تافع : عصر ما قبل الاسلام - القاهرة ١٩٥٢ ص ٥ .
 (٧٣) محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٤ .

ومن هنا فإن المتصفح لما كتبه المؤرخون المسلمون الكبار ، ليعجب للدقة والتحرى الصحيح الذى عالجوا به تاريخ الاسلام فى معظم الحالات ، بقدر ما يأسف على الاهمال والخلط الذى صاحب كتاباتهم عن عصور ما قبل الاسلام^(٧٤) لعل عثرهم فى ذلك أن عصر الاكتشافات الحديثة الذى نعيشه الآن لم يكن قد بدأ بعد وأن الاعتماد فى التاريخ لبلاد العرب قبل الاسلام ، إنما كان على ما جاء فى التوراة وعلى الأدب العربى القديم ، كما أن الاخبار كانت — كما أشرنا من قبل — تتناقل على الاسنة بدون تدوين أو ضبط ، وأن الخط العربى كان فى أول الامر غير منقوط ، وكذا كانت الكتابة النبطية التى يرجح أن الخط العربى مشتق منها ، ومتطور عنها ، لا تعرف النقط والاعجام^(٧٥) .

وجاء الاسلام ، ونزل القرآن على سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ مشجعا للمسلمين على الاهتمام بالتاريخ ، فقد ورد فيه الكثير من الاحداث تسجيلا لتاريخ المجتمعات السابقة على الاسلام ، فمثلا هناك سورة كاملة تحمل اسم مملكة فى جنوب بلاد العرب قبل الاسلام — سورة سبأ — هذا فضلا عن أن القرآن الكريم إنما قد انفرد — دون غيره من الكتب السماوية — بذكر أقوام عربية بادت ، كقوم عاد وثمود ، الى جانب قصة أصحاب الكهف وسيل المعرم ، وقصة أصحاب الاخدود ، وأصحاب الفيل ، وهجرة الخليل ولده اسماعيل عليهما السلام ، الى الارض الطيبة فى الحجاز ، ثم اقامة اسماعيل هناك ، وغير ذلك من قصص الانبياء وسيرهم مع أقوامهم^(٧٦) .

(٧٤) ابن خلكان : وفیات الاعيان ٤٥/١ - ٤٦ ، ٤١٦ - ٤١٢ ، ٤٩٤ - ٤٩٥ ، ٦٥١ ، ٦٨٩ - ٨٩٠ ، ابن النديم : الفهرست ص ٩٨ - ٨٨ ، محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٥ - ٦ ، وكذا

J. Sauvaget, *Historiens Arabes*, Paris, 1946.

D. S. Margoliouth, *Lectures on Arabic Historians*, Calcutta, 1930.

(٧٥) خليل يحيى نامى : أصل الخط العربى وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام - القاهرة ١٩٣٥ ص ٨٧ ، فيلب حتى : تاريخ العرب ١٠٨/١ - ١٠٩ ، عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن - القاهرة ١٩٦٦ ص ٦١ - ٧٣ ، جرجى زيدان : المرجع السابق ص ٨١ .

(٧٦) قدم الباحثة دراسة مفصلة فى أربعة أجزاء عن القهض التاريخى

غير أن ذلك لا يعنى - بجال من الاجوال - أن القرآن الكريم ككتاب تاريخ ، يتحدث عن أخبار الأمم ، كما يتحدث عنها المؤرخون ، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد للتي هي أقسوم (٧٧) ، أنزله الله سبحانه وتعالى ليكون دستوراً للمسلمين في حياتهم ، يدعوهم الى التوحيد (٧٨) ، والى تهذيب النفوس ، والى وضع مبادئ للأخلاق (٧٩) ، وميزان للعدالة (٨٠) ، واستنباط لبعض الاحكام (٨١) ، فإذا ما عرض لحادثة تاريخية ، فانما للعبارة والعظة (٨٢) .

ومع ذلك ، فيجب ألا يغيب عن بالنا - دائماً وأبداً - أن القصص القرآني ، ان هو الا الحق الصراح ، قال تعالى «ان هذا لهو القصص الحق» (٨٣) وقال تعالى «نحن نقص عليك نبأهم بالحق» (٨٤) وقال تعالى «والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق» (٨٥) ، وقال تعالى «تلك آيات

في القرآن (محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الاول : في بلاد العرب ٢ - الجزء الثاني : في مصر ٣ - الجزء الثالث : في بلاد الشام ٤ - الجزء الرابع : في العراق) .

(٧٧) سورة الاسراء : آية ٩ .

(٧٨) انظر : سورة نوح : آية ١ - ٢ ، سورة يوسف : آية ٣٧ - ٤٠ ، سورة النساء : آية ١٧١ - ١٧٢ ، سورة آل عمران : آية ٥٩ ، سورة المائدة : آية ٧١ ، ٧٦ .

(٧٩) انظر : سورة البقرة : آية ٤٤ ، سورة الاعراف : آية ٨٥ - ٨٨ ، سورة هود : آية ٨٤ - ٨٨ .

(٨٠) انظر مثلاً : قصة داود (سورة ص : آية ٢١ - ٢٦ ، محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الثالث : في بلاد الشام ص ٣٣ - ٩٠ (بيروت ١٩٨٨) .

(٨١) انظر : سورة المائدة : آية ١٧ - ٢٢ ، سورة البقرة : آية ١٧٨ - ١٧٩ .

(٨٢) انظر عن أهداف القرآن ومقاصده : تفسير المنار ٢٠٦/١ - ٢٩٣ .

(٨٣) سورة آل عمران : آية ٦٢ .

(٨٤) سورة الكهف : آية ١٣ .

(٨٥) سورة فاطر : آية ٣١ .

نلتوها عليكم بالحق ، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون» (٨٧) .

وفي الواقع فإن ثمة حقيقة تاريخية تبرز واضحة في القرآن الكريم تلك هي أن مسطرة كبيرة في سورة وآياته قد خصصت للمسألة التاريخية التي تأخذ أبعادا واتجاهات مختلفة ، وتتدرج بين العرض المباشر ، والسرد الواقعي لتجارب عدد من الجماعات البشرية ، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنة التاريخية التي تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان ، مروراً بمواقف الانسان المتغيرة من الطبيعة والعالم ، وبالتصنيف الحضارية التي لا حصر لها ، والتي تتأرجح بين البساطة وبين النضج والتركيب ، وتبلغ هذه المسألة حداً من الثقل والاتساع في القرآن الكريم بحيث أن جل سورة لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية أو إشارة سريعة لحدث ما ، أو تأكيد على قانون أو سنة تشكل بموجبها حركة التاريخ .

ولاريب في أن هذا أمراً منطقياً ينسجم بالكلية مع اعجاز القرآن وتوزيعه المفد لمساحات آياته وسوره لتغطية كافة المسائل الاساسية في حياة البشرية ، وقد أخذت تزداد ايضاحاً يوماً بعد يوم أهمية الدراسة التاريخية ، أو ضرورتها بالآخرى ، لمسيرة كل جماعة بشرية تسعى الى أن تقتبس الاضواء التي أشعلتها الوقائع الماضية ، لكي تتبر لها الطريق الطويل التي يجب عليها أن تقطعها ، متجاوزة أكبر قدر ممكن من العقبات وملترمة بأكبر قدر ممكن من الاساليب والنظم التي توصلها الى أهدافها والتي هي في نفس الوقت (أي النظم والأساليب) كانت حركة التاريخ حقلاً لتجاربها ، وميداناً لاثبات عناصر القوة والضعف فيها ، إذ أن بدء التجربة دائماً من نقطة الصفر ، دون التفات الى مردوداتها التاريخية،

(٨٦) سورة الجاثية : آية ٦- ، وانظر عن القرآن كمصدر تاريخي :
(محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الاول
بلاد العرب ، بيروت ١٩٨٨ ص ٢٧ - ٩٨ ، مصر : الجزء الثاني -
الاسكندرية ١٩٨٨ ص ١٠٧ - ١٤١ . تاريخ العرب القديم ص ٣٧ - ٤١) .

يضيع على الجماعة ما كان لها أن تضيفه من الجهد والوقت ، لو التفتت إلى الماضي تستمد منه المواقف والاشارات .

وإذا ما أضفنا إلى المباحة التاريخية الواسعة في القرآن ، مسألة أخرى ترتبط بالتاريخ ارتباطا عضويا لأنها علامة وتعقيب وتعليق وإعادة صياغة وتوجيه لحشد من الوقائع التاريخية تلك الايات والمواقف القرآنية التي يحدثنا عنها المفسرون في موضوع «أسباب التنزيل» ، والتي جاءت في أعقاب عدد كبير من أحداث السيرة ، لكى تعلق وتنفذ وتلامس وتبنى وتوجه وتصوغ ، انطلاقا من هذه الاحداث التى لم تبرد دماؤها بعد ، سواء على مسرح الارض ، أم فى حس الجماعة والانسان المسلم ، اذا ما أضفنا هذه الايات المنبثة فى ثنايا القرآن ،والتي تختص بها أحيانا مقاطع طويلة ، وسور كاملة ، استطعنا أن نبين أكثر فأكثر أبعاد المساحات الشاملة التى منحها القرآن الكريم للمسألة التاريخية^(٨٧) .

وأما الحديث الشريف — وهو ما ورد عن سيدنا رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير —^(٨٨) فهو المصدر الثانى للشرعية الاسلامية ، ثم هو أصدق المصادر التاريخية — بعد القرآن الكريم — لمعرفة التاريخ العربى القديم بالذات ، فضلا عن عصر النبوة ، وعلى أية حال ،فالحديث الشريف انما يتصل اتصالا وثيقا بنشأة التاريخ عند العرب ، ذلك لان علم الحديث انما يهدف الى دراسة أقوال النبى ﷺ ، وأفعاله ، وكان الاعتماد فيه أولا على الرواية الشفوية ، كذلك كان علم التاريخ عند المسلمين يهدف فى البداية الى دراسة سيرة النبى ﷺ وأعمال الصحابة والجماعة الاسلامية الناشئة ، وأخبار المغزوات والجهاد ، وكان الاعتماد فيه أيضا على الراية الشفوية قبل كل شيء ، وهكذا نرى أن طبيعة علم التاريخ لم تكن تختلف ، فى بادىء الامر ، عن طبيعة علم الحديث ، اللهم

(٨٧) . عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٥ - ٢ .

(٨٨) إظهار تعريفات لخصى للحديث الشريف : (مصطفى السباعي : السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى - القاهرة ١٩٦١ ص ٥٩ - ٦١ ، مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث - بيروت ١٩٧٨) .

إلا في هتفت كل منهما ، ونوع الروايات التي يعنى بها ، فالمحدثون يعنون بالروايات التي تقرر مبادئ فقهية أو خلقية ، بينما يعنى المؤرخون بالروايات التي تتجه الى سرد الحوادث ، فالحديث دراية ورواية ، والتاريخ - عند العرب - دراية ورواية ، وجسبنا دليلا على اشتراك العلماء في المصادر والمنهج أن كل جيل كان يأخذ الروايات عن الجيل الذى سبقه ، وأن المتن في كل رواية كان مسبوqa بالسند أو الاسناد ، الامر الذى اهتم به المحدثون كثيرا ، حتى أنهم ما كانوا يثقون بالحديث الا اذا كان اسناده سلسلة مقصلة من الرواة الموثوق بهم ، وقد أدى ذلك الى أمرين : الواحد ، ظهور كتب الطبقات ، كطبقات ابن سعد وطبقات الحفاظ للذهبي ، والثانى : ظهور علم نقد الرواة ، وهو المعروف فى مصطلح الحديث باسم «الجرح والتعديل»^(٨٩) .

هذا وقد جمع لنا الامام الشافعى (٢٠٥ - ٢٠٤هـ) شروط القوم لصحة التحمل والإداء ، والتي تدور حول شيئين الراوى والمروى ، فيقول : ولا تقوم الحجة بغير الخافية حتى يجمع أمور منها : أن يكون من حدث به ثقة فى دينه ، ومعروفا بالصدق فى حديثه ، عاقلا بما يحدث ، عالما بما يحيل معانى الحديث من اللفظ ، أو أن يكون ممن يؤدى الحديث بحروفه كما سمعه ، لا يحدث به على المعنى ، وهو غير عالم بما يحيل معناه ، لم يدر لعله يحيل الحلال الى الحرام ، واذا أداه بحروفه لم يبق وجه يخاف فيه إحالته للحديث ، حافظا أن حدث من حفظه ، حافظا

(٨٩) مبيدة الكاشف : المرجع السابق ص ٢٥ ، وانظر عن الجرح والتعديل : مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث بيروت ١٩٧٨ ص ٤٩-٦٠ ، الغزالى : المستصفى فى علم الاصول (جزءان) القاهرة ١٩٣٧ ، الذهبى : ميزان الاعتدال فى نقد الرجال - تحقيق على البجاوى - ط النجلى - القاهرة ١٩٦٣ ، الخطيب البغدادى : الكفاية فى علم الرواية - حيدر اباد ١٣٥٧هـ ، ابن حجر العسقلانى : نخبة الفكر فى مصطلح أهل الاثر - ط مصر ١٣٠٨هـ ، أسد رستم : مصطلح التاريخ بيروت ١٩٣٩ ص ١٠٠ - ١٢٣ ، عثمان موائى : منهج النقد التاريخى الإسلامى - الاسكندرية ١٩٨٤ ص ٩٩ - ١٣٩ ، الحافظ العراقى : ذيل ميزان الاعتدال - القاهرة ١٤٠٦هـ الامام أحمد : العلل ومعرفة الرجال - أنقرة ١٩٦٣م ، أبو حاتم الرازى : علل الحديث - بغداد ، ابن المدينى : العلل - بيروت ١٩٨٠م ، وانظر هذه الدراسة ص ١٧٤ .

الكتاب ان حدث من كتابه ، اذا أشرك أهل الحفظ في الحديث ، وافق حديثهم ، بريئاً من أن يكون مدلساً ، يحدث عن لقي ما لم يسمع منه ، ويحدث عن النبي ﷺ بما يحدث الثقات خلافة (٩٠) .

وأما أقدم الكتب التاريخية التي تجمع بين الحديث والتاريخ فهي كتب السيرة والمغازي ، ذلك لان كثيراً من رواة السيرة النبوية الشريفة كانوا من المحدثين كمروة بن الزبير ، وابان بن عثمان بن عفان ، وشرحبيل بن سعد ، ومن البدهي أن تكون نشأة الكتابة في السيرة والمغازي في المدينة المنورة فهي دار السنة التي عاش فيها الصحابة ، وشاهدوا سيدنا رسول الله ﷺ وسمعوا أحاديثه ورووها للتابعين ، وعلى أية حال ، فالكتابة في المغازي انما كانت هي الاساس الذي نقلنا الى الكتابة التاريخية الصحيحة ، عند العرب برغم ضعف بعض الروايات التي جاءت في هذه الكتابات التاريخية (٩١) .

وهكذا يبدو واضحاً أن علم التاريخ عند المسلمين انما صدر عن مصدرين ، الواحد : مصدر غير اسلامي ، وهو امتداد للعصر الجاهلي ، ويتمثل في أيام العرب وأخبارها ، والاخر : مصدر اسلامي ، ويتمثل في السيرة والمغازي ، ثم سرعان ما ظهرت كتب الطبقات ، الامر الذي مهد لكتابات المؤرخين في العصر العباسي ، عندما بدأ المؤرخون يكتبون في التاريخ العام .

ولا ريب في أن القرآن الكريم والحديث الشريف انما كانا أهم العوامل التي ساعدت على نمو وتطور التاريخ عند المسلمين ، فضلاً عن عوامل أخرى من أهمها : ظهور الاسلام والتحولات السياسية والاجتماعية التي أوجدتها في المجتمع العربي ، ومدى تأثيره على الدول المجاورة ، هذا الى جانب الممارك الكبرى التي خاضها المسلمون ، والحاجة الى تدوينها ، فضلاً عن حاجة المسلمين الى معرفة الانظمة السياسية

(٩٠) الامام الشافعي : الرسالة - ط: مصطفى محمد - القاهرة ١٩٤٠

ص ٩٩ .

(٩١) سيدة الكاشف : المرجع السابق ص ٢٦ .

والاقتصادية والاجتماعية السابقة ، كما أن وضع التقويم الهجرى إنما كلن عاملا مساعدا على فكرة التاريخ عند المسلمين ، أضف الى ذلك كله تشجيع الخلفاء والحكام - الامويين والعباسيين والفاطميين وغيرهم - على التدوين التاريخى ، وكثيرا ما طلب الحكام أنفسهم من المؤرخين أن يؤرخوا لعصر خليفة أو حكم أو عصر من العصور (٩٢) .

ولنتحدث الآن عن بعض مشاهير المؤرخين المسلمين بإيجاز .

(١) الطبرى :

ولد شيخ المؤرخين والمفسرين الإمام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبرى فى أخريات عام ٥٢٢٤ هـ ، أو فى مطلع عام ٥٢٢٥ هـ (٨٨٣٩) فى مدينة «آمل» عاصمة إقليم طبرستان ، على الشاطئ الجنوبى لبحر قزوين ، وهى مدينة خرجت كثيرا من العلماء ، لكنهم ينتسبون الى طبرستان ، فيقال لكل منهم الطبرى ، وقد توفى أبو جعفر فى بغداد يوم ٢٨ من شوال سنة ٥٣١٠ هـ (٩٢٣ م) ، وان ذهب البعض الى أنه مات فى عام ٥٣١١ هـ ، أو حتى عام ٥٣١٦ هـ ، ومن ثم فقد عاصر الطبرى من الخلفاء العباسيين أحد عشر خليفة (٩٣) .

هذا وقد بدأ الطبرى دراسته صغيرا ، ومع ذلك فسرعان ما تفتح عقله ، وبدأ عليه مخايل الذكاء وهو ما يزال بعد حدثاوطبقا لرواياته هو ، فقد حفظ القرآن الكريم وهو فى السابعة من عمره ، وكتب الحديث الشريف وهو فى التاسعة ، قال الطبرى عن نفسه : حفظت القرآن ولى

-
- (٩٢) حسان حلاق : مقدمة فى منهج البحث التاريخى - بيروت - دار النهضة العربية ١٩٨٦ ص ٥٠ - ٥١ .
- (٩٣) عاصر الطبرى الخلفاء العباسيين : المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٢٢ - ٨٤٢ م) والوائى (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ - ٨٤٧ م) والمتوكل (٢٣٢ - ٢٣٧ هـ / ٨٤٧ - ٨٤٩ م) والمعتز (٢٤٧ - ٢٥٢ هـ / ٨٦١ - ٨٦٦ م) والمستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦ م) والمعتز (٢٥٢ - ٢٥٦ هـ / ٨٦٦ - ٨٦٩ م) والمعتز (٢٥٦ - ٢٥٧ هـ / ٨٦٩ - ٨٧٠ م) والمعتز (٢٥٧ - ٢٥٨ هـ / ٨٦٩ - ٨٧٠ م) والمعتز (٢٥٨ - ٢٥٩ هـ / ٨٧٠ - ٨٧١ م) والمعتز (٢٥٩ - ٢٦٠ هـ / ٨٧١ - ٨٧٢ م) والمعتز (٢٦٠ - ٢٦١ هـ / ٨٧٢ - ٨٧٣ م) والمعتز (٢٦١ - ٢٦٢ هـ / ٨٧٣ - ٨٧٤ م) والمعتز (٢٦٢ - ٢٦٣ هـ / ٨٧٤ - ٨٧٥ م) والمعتز (٢٦٣ - ٢٦٤ هـ / ٨٧٥ - ٨٧٦ م) والمعتز (٢٦٤ - ٢٦٥ هـ / ٨٧٦ - ٨٧٧ م) والمعتز (٢٦٥ - ٢٦٦ هـ / ٨٧٧ - ٨٧٨ م) والمعتز (٢٦٦ - ٢٦٧ هـ / ٨٧٨ - ٨٧٩ م) والمعتز (٢٦٧ - ٢٦٨ هـ / ٨٧٩ - ٨٨٠ م) والمعتز (٢٦٨ - ٢٦٩ هـ / ٨٨٠ - ٨٨١ م) والمعتز (٢٦٩ - ٢٧٠ هـ / ٨٨١ - ٨٨٢ م) والمعتز (٢٧٠ - ٢٧١ هـ / ٨٨٢ - ٨٨٣ م) والمعتز (٢٧١ - ٢٧٢ هـ / ٨٨٣ - ٨٨٤ م) والمعتز (٢٧٢ - ٢٧٣ هـ / ٨٨٤ - ٨٨٥ م) والمعتز (٢٧٣ - ٢٧٤ هـ / ٨٨٥ - ٨٨٦ م) والمعتز (٢٧٤ - ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ - ٨٨٧ م) والمعتز (٢٧٥ - ٢٧٦ هـ / ٨٨٧ - ٨٨٨ م) والمعتز (٢٧٦ - ٢٧٧ هـ / ٨٨٨ - ٨٨٩ م) والمعتز (٢٧٧ - ٢٧٨ هـ / ٨٨٩ - ٨٩٠ م) والمعتز (٢٧٨ - ٢٧٩ هـ / ٨٩٠ - ٨٩١ م) والمعتز (٢٧٩ - ٢٨٠ هـ / ٨٩١ - ٨٩٢ م) والمعتز (٢٨٠ - ٢٨١ هـ / ٨٩٢ - ٨٩٣ م) والمعتز (٢٨١ - ٢٨٢ هـ / ٨٩٣ - ٨٩٤ م) والمعتز (٢٨٢ - ٢٨٣ هـ / ٨٩٤ - ٨٩٥ م) والمعتز (٢٨٣ - ٢٨٤ هـ / ٨٩٥ - ٨٩٦ م) والمعتز (٢٨٤ - ٢٨٥ هـ / ٨٩٦ - ٨٩٧ م) والمعتز (٢٨٥ - ٢٨٦ هـ / ٨٩٧ - ٨٩٨ م) والمعتز (٢٨٦ - ٢٨٧ هـ / ٨٩٨ - ٨٩٩ م) والمعتز (٢٨٧ - ٢٨٨ هـ / ٨٩٩ - ٩٠٠ م) والمعتز (٢٨٨ - ٢٨٩ هـ / ٩٠٠ - ٩٠١ م) والمعتز (٢٨٩ - ٢٩٠ هـ / ٩٠١ - ٩٠٢ م) والمعتز (٢٩٠ - ٢٩١ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٣ م) والمعتز (٢٩١ - ٢٩٢ هـ / ٩٠٣ - ٩٠٤ م) والمعتز (٢٩٢ - ٢٩٣ هـ / ٩٠٤ - ٩٠٥ م) والمعتز (٢٩٣ - ٢٩٤ هـ / ٩٠٥ - ٩٠٦ م) والمعتز (٢٩٤ - ٢٩٥ هـ / ٩٠٦ - ٩٠٧ م) والمعتز (٢٩٥ - ٢٩٦ هـ / ٩٠٧ - ٩٠٨ م) والمعتز (٢٩٦ - ٢٩٧ هـ / ٩٠٨ - ٩٠٩ م) والمعتز (٢٩٧ - ٢٩٨ هـ / ٩٠٩ - ٩١٠ م) والمعتز (٢٩٨ - ٢٩٩ هـ / ٩١٠ - ٩١١ م) والمعتز (٢٩٩ - ٣٠٠ هـ / ٩١١ - ٩١٢ م) والمعتز (٣٠٠ - ٣٠١ هـ / ٩١٢ - ٩١٣ م) والمعتز (٣٠١ - ٣٠٢ هـ / ٩١٣ - ٩١٤ م) والمعتز (٣٠٢ - ٣٠٣ هـ / ٩١٤ - ٩١٥ م) والمعتز (٣٠٣ - ٣٠٤ هـ / ٩١٥ - ٩١٦ م) والمعتز (٣٠٤ - ٣٠٥ هـ / ٩١٦ - ٩١٧ م) والمعتز (٣٠٥ - ٣٠٦ هـ / ٩١٧ - ٩١٨ م) والمعتز (٣٠٦ - ٣٠٧ هـ / ٩١٨ - ٩١٩ م) والمعتز (٣٠٧ - ٣٠٨ هـ / ٩١٩ - ٩٢٠ م) والمعتز (٣٠٨ - ٣٠٩ هـ / ٩٢٠ - ٩٢١ م) والمعتز (٣٠٩ - ٣١٠ هـ / ٩٢١ - ٩٢٢ م) والمعتز (٣١٠ - ٣١١ هـ / ٩٢٢ - ٩٢٣ م) والمعتز (٣١١ - ٣١٢ هـ / ٩٢٣ - ٩٢٤ م) والمعتز (٣١٢ - ٣١٣ هـ / ٩٢٤ - ٩٢٥ م) والمعتز (٣١٣ - ٣١٤ هـ / ٩٢٥ - ٩٢٦ م) والمعتز (٣١٤ - ٣١٥ هـ / ٩٢٦ - ٩٢٧ م) والمعتز (٣١٥ - ٣١٦ هـ / ٩٢٧ - ٩٢٨ م) والمعتز (٣١٦ - ٣١٧ هـ / ٩٢٨ - ٩٢٩ م) والمعتز (٣١٧ - ٣١٨ هـ / ٩٢٩ - ٩٣٠ م) والمعتز (٣١٨ - ٣١٩ هـ / ٩٣٠ - ٩٣١ م) والمعتز (٣١٩ - ٣٢٠ هـ / ٩٣١ - ٩٣٢ م) والمعتز (٣٢٠ - ٣٢١ هـ / ٩٣٢ - ٩٣٣ م) والمعتز (٣٢١ - ٣٢٢ هـ / ٩٣٣ - ٩٣٤ م) والمعتز (٣٢٢ - ٣٢٣ هـ / ٩٣٤ - ٩٣٥ م) والمعتز (٣٢٣ - ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ - ٩٣٦ م) والمعتز (٣٢٤ - ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ - ٩٣٧ م) والمعتز (٣٢٥ - ٣٢٦ هـ / ٩٣٧ - ٩٣٨ م) والمعتز (٣٢٦ - ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ - ٩٣٩ م) والمعتز (٣٢٧ - ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ - ٩٤٠ م) والمعتز (٣٢٨ - ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ - ٩٤١ م) والمعتز (٣٢٩ - ٣٣٠ هـ / ٩٤١ - ٩٤٢ م) والمعتز (٣٣٠ - ٣٣١ هـ / ٩٤٢ - ٩٤٣ م) والمعتز (٣٣١ - ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ - ٩٤٤ م) والمعتز (٣٣٢ - ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ - ٩٤٥ م) والمعتز (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ - ٩٤٦ م) والمعتز (٣٣٤ - ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ - ٩٤٧ م) والمعتز (٣٣٥ - ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ - ٩٤٨ م) والمعتز (٣٣٦ - ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ - ٩٤٩ م) والمعتز (٣٣٧ - ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ - ٩٥٠ م) والمعتز (٣٣٨ - ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ - ٩٥١ م) والمعتز (٣٣٩ - ٣٤٠ هـ / ٩٥١ - ٩٥٢ م) والمعتز (٣٤٠ - ٣٤١ هـ / ٩٥٢ - ٩٥٣ م) والمعتز (٣٤١ - ٣٤٢ هـ / ٩٥٣ - ٩٥٤ م) والمعتز (٣٤٢ - ٣٤٣ هـ / ٩٥٤ - ٩٥٥ م) والمعتز (٣٤٣ - ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ - ٩٥٦ م) والمعتز (٣٤٤ - ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ - ٩٥٧ م) والمعتز (٣٤٥ - ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ - ٩٥٨ م) والمعتز (٣٤٦ - ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ - ٩٥٩ م) والمعتز (٣٤٧ - ٣٤٨ هـ / ٩٥٩ - ٩٦٠ م) والمعتز (٣٤٨ - ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ - ٩٦١ م) والمعتز (٣٤٩ - ٣٥٠ هـ / ٩٦١ - ٩٦٢ م) والمعتز (٣٥٠ - ٣٥١ هـ / ٩٦٢ - ٩٦٣ م) والمعتز (٣٥١ - ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ - ٩٦٤ م) والمعتز (٣٥٢ - ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ - ٩٦٥ م) والمعتز (٣٥٣ - ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ - ٩٦٦ م) والمعتز (٣٥٤ - ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ - ٩٦٧ م) والمعتز (٣٥٥ - ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ - ٩٦٨ م) والمعتز (٣٥٦ - ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ - ٩٦٩ م) والمعتز (٣٥٧ - ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ - ٩٧٠ م) والمعتز (٣٥٨ - ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ - ٩٧١ م) والمعتز (٣٥٩ - ٣٦٠ هـ / ٩٧١ - ٩٧٢ م) والمعتز (٣٦٠ - ٣٦١ هـ / ٩٧٢ - ٩٧٣ م) والمعتز (٣٦١ - ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ - ٩٧٤ م) والمعتز (٣٦٢ - ٣٦٣ هـ / ٩٧٤ - ٩٧٥ م) والمعتز (٣٦٣ - ٣٦٤ هـ / ٩٧٥ - ٩٧٦ م) والمعتز (٣٦٤ - ٣٦٥ هـ / ٩٧٦ - ٩٧٧ م) والمعتز (٣٦٥ - ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ - ٩٧٨ م) والمعتز (٣٦٦ - ٣٦٧ هـ / ٩٧٨ - ٩٧٩ م) والمعتز (٣٦٧ - ٣٦٨ هـ / ٩٧٩ - ٩٨٠ م) والمعتز (٣٦٨ - ٣٦٩ هـ / ٩٨٠ - ٩٨١ م) والمعتز (٣٦٩ - ٣٧٠ هـ / ٩٨١ - ٩٨٢ م) والمعتز (٣٧٠ - ٣٧١ هـ / ٩٨٢ - ٩٨٣ م) والمعتز (٣٧١ - ٣٧٢ هـ / ٩٨٣ - ٩٨٤ م) والمعتز (٣٧٢ - ٣٧٣ هـ / ٩٨٤ - ٩٨٥ م) والمعتز (٣٧٣ - ٣٧٤ هـ / ٩٨٥ - ٩٨٦ م) والمعتز (٣٧٤ - ٣٧٥ هـ / ٩٨٦ - ٩٨٧ م) والمعتز (٣٧٥ - ٣٧٦ هـ / ٩٨٧ - ٩٨٨ م) والمعتز (٣٧٦ - ٣٧٧ هـ / ٩٨٨ - ٩٨٩ م) والمعتز (٣٧٧ - ٣٧٨ هـ / ٩٨٩ - ٩٩٠ م) والمعتز (٣٧٨ - ٣٧٩ هـ / ٩٩٠ - ٩٩١ م) والمعتز (٣٧٩ - ٣٨٠ هـ / ٩٩١ - ٩٩٢ م) والمعتز (٣٨٠ - ٣٨١ هـ / ٩٩٢ - ٩٩٣ م) والمعتز (٣٨١ - ٣٨٢ هـ / ٩٩٣ - ٩٩٤ م) والمعتز (٣٨٢ - ٣٨٣ هـ / ٩٩٤ - ٩٩٥ م) والمعتز (٣٨٣ - ٣٨٤ هـ / ٩٩٥ - ٩٩٦ م) والمعتز (٣٨٤ - ٣٨٥ هـ / ٩٩٦ - ٩٩٧ م) والمعتز (٣٨٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٩٧ - ٩٩٨ م) والمعتز (٣٨٦ - ٣٨٧ هـ / ٩٩٨ - ٩٩٩ م) والمعتز (٣٨٧ - ٣٨٨ هـ / ٩٩٩ - ١٠٠٠ م) والمعتز (٣٨٨ - ٣٨٩ هـ / ١٠٠٠ - ١٠٠١ م) والمعتز (٣٨٩ - ٣٩٠ هـ / ١٠٠١ - ١٠٠٢ م) والمعتز (٣٩٠ - ٣٩١ هـ / ١٠٠٢ - ١٠٠٣ م) والمعتز (٣٩١ - ٣٩٢ هـ / ١٠٠٣ - ١٠٠٤ م) والمعتز (٣٩٢ - ٣٩٣ هـ / ١٠٠٤ - ١٠٠٥ م) والمعتز (٣٩٣ - ٣٩٤ هـ / ١٠٠٥ - ١٠٠٦ م) والمعتز (٣٩٤ - ٣٩٥ هـ / ١٠٠٦ - ١٠٠٧ م) والمعتز (٣٩٥ - ٣٩٦ هـ / ١٠٠٧ - ١٠٠٨ م) والمعتز (٣٩٦ - ٣٩٧ هـ / ١٠٠٨ - ١٠٠٩ م) والمعتز (٣٩٧ - ٣٩٨ هـ / ١٠٠٩ - ١٠١٠ م) والمعتز (٣٩٨ - ٣٩٩ هـ / ١٠١٠ - ١٠١١ م) والمعتز (٣٩٩ - ٤٠٠ هـ / ١٠١١ - ١٠١٢ م) والمعتز (٤٠٠ - ٤٠١ هـ / ١٠١٢ - ١٠١٣ م) والمعتز (٤٠١ - ٤٠٢ هـ / ١٠١٣ - ١٠١٤ م) والمعتز (٤٠٢ - ٤٠٣ هـ / ١٠١٤ - ١٠١٥ م) والمعتز (٤٠٣ - ٤٠٤ هـ / ١٠١٥ - ١٠١٦ م) والمعتز (٤٠٤ - ٤٠٥ هـ / ١٠١٦ - ١٠١٧ م) والمعتز (٤٠٥ - ٤٠٦ هـ / ١٠١٧ - ١٠١٨ م) والمعتز (٤٠٦ - ٤٠٧ هـ / ١٠١٨ - ١٠١٩ م) والمعتز (٤٠٧ - ٤٠٨ هـ / ١٠١٩ - ١٠٢٠ م) والمعتز (٤٠٨ - ٤٠٩ هـ / ١٠٢٠ - ١٠٢١ م) والمعتز (٤٠٩ - ٤١٠ هـ / ١٠٢١ - ١٠٢٢ م) والمعتز (٤١٠ - ٤١١ هـ / ١٠٢٢ - ١٠٢٣ م) والمعتز (٤١١ - ٤١٢ هـ / ١٠٢٣ - ١٠٢٤ م) والمعتز (٤١٢ - ٤١٣ هـ / ١٠٢٤ - ١٠٢٥ م) والمعتز (٤١٣ - ٤١٤ هـ / ١٠٢٥ - ١٠٢٦ م) والمعتز (٤١٤ - ٤١٥ هـ / ١٠٢٦ - ١٠٢٧ م) والمعتز (٤١٥ - ٤١٦ هـ / ١٠٢٧ - ١٠٢٨ م) والمعتز (٤١٦ - ٤١٧ هـ / ١٠٢٨ - ١٠٢٩ م) والمعتز (٤١٧ - ٤١٨ هـ / ١٠٢٩ - ١٠٣٠ م) والمعتز (٤١٨ - ٤١٩ هـ / ١٠٣٠ - ١٠٣١ م) والمعتز (٤١٩ - ٤٢٠ هـ / ١٠٣١ - ١٠٣٢ م) والمعتز (٤٢٠ - ٤٢١ هـ / ١٠٣٢ - ١٠٣٣ م) والمعتز (٤٢١ - ٤٢٢ هـ / ١٠٣٣ - ١٠٣٤ م) والمعتز (٤٢٢ - ٤٢٣ هـ / ١٠٣٤ - ١٠٣٥ م) والمعتز (٤٢٣ - ٤٢٤ هـ / ١٠٣٥ - ١٠٣٦ م) والمعتز (٤٢٤ - ٤٢٥ هـ / ١٠٣٦ - ١٠٣٧ م) والمعتز (٤٢٥ - ٤٢٦ هـ / ١٠٣٧ - ١٠٣٨ م) والمعتز (٤٢٦ - ٤٢٧ هـ / ١٠٣٨ - ١٠٣٩ م) والمعتز (٤٢٧ - ٤٢٨ هـ / ١٠٣٩ - ١٠٤٠ م) والمعتز (٤٢٨ - ٤٢٩ هـ / ١٠٤٠ - ١٠٤١ م) والمعتز (٤٢٩ - ٤٣٠ هـ / ١٠٤١ - ١٠٤٢ م) والمعتز (٤٣٠ - ٤٣١ هـ / ١٠٤٢ - ١٠٤٣ م) والمعتز (٤٣١ - ٤٣٢ هـ / ١٠٤٣ - ١٠٤٤ م) والمعتز (٤٣٢ - ٤٣٣ هـ / ١٠٤٤ - ١٠٤٥ م) والمعتز (٤٣٣ - ٤٣٤ هـ / ١٠٤٥ - ١٠٤٦ م) والمعتز (٤٣٤ - ٤٣٥ هـ / ١٠٤٦ - ١٠٤٧ م) والمعتز (٤٣٥ - ٤٣٦ هـ / ١٠٤٧ - ١٠٤٨ م) والمعتز (٤٣٦ - ٤٣٧ هـ / ١٠٤٨ - ١٠٤٩ م) والمعتز (٤٣٧ - ٤٣٨ هـ / ١٠٤٩ - ١٠٥٠ م) والمعتز (٤٣٨ - ٤٣٩ هـ / ١٠٥٠ - ١٠٥١ م) والمعتز (٤٣٩ - ٤٤٠ هـ / ١٠٥١ - ١٠٥٢ م) والمعتز (٤٤٠ - ٤٤١ هـ / ١٠٥٢ - ١٠٥٣ م) والمعتز (٤٤١ - ٤٤٢ هـ / ١٠٥٣ - ١٠٥٤ م) والمعتز (٤٤٢ - ٤٤٣ هـ / ١٠٥٤ - ١٠٥٥ م) والمعتز (٤٤٣ - ٤٤٤ هـ / ١٠٥٥ - ١٠٥٦ م) والمعتز (٤٤٤ - ٤٤٥ هـ / ١٠٥٦ - ١٠٥٧ م) والمعتز (٤٤٥ - ٤٤٦ هـ / ١٠٥٧ - ١٠٥٨ م) والمعتز (٤٤٦ - ٤٤٧ هـ / ١٠٥٨ - ١٠٥٩ م) والمعتز (٤٤٧ - ٤٤٨ هـ / ١٠٥٩ - ١٠٦٠ م) والمعتز (٤٤٨ - ٤٤٩ هـ / ١٠٦٠ - ١٠٦١ م) والمعتز (٤٤٩ - ٤٥٠ هـ / ١٠٦١ - ١٠٦٢ م) والمعتز (٤٥٠ - ٤٥١ هـ / ١٠٦٢ - ١٠٦٣ م) والمعتز (٤٥١ - ٤٥٢ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٦٤ م) والمعتز (٤٥٢ - ٤٥٣ هـ / ١٠٦٤ - ١٠٦٥ م) والمعتز (٤٥٣ - ٤٥٤ هـ / ١٠٦٥ - ١٠٦٦ م) والمعتز (٤٥٤ - ٤٥٥ هـ / ١٠٦٦ - ١٠٦٧ م) والمعتز (٤٥٥ - ٤٥٦ هـ / ١٠٦٧ - ١٠٦٨ م) والمعتز (٤٥٦ - ٤٥٧ هـ / ١٠٦٨ - ١٠٦٩ م) والمعتز (٤٥٧ - ٤٥٨ هـ / ١٠٦٩ - ١٠٧٠ م) والمعتز (٤٥٨ - ٤٥٩ هـ / ١٠٧٠ - ١٠٧١ م) والمعتز (٤٥٩ - ٤٦٠ هـ / ١٠٧١ - ١٠٧٢ م) والمعتز (٤٦٠ - ٤٦١ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٧٣ م) والمعتز (٤٦١ - ٤٦٢ هـ / ١٠٧٣ - ١٠٧٤ م) والمعتز (٤٦٢ - ٤٦٣ هـ / ١٠٧٤ - ١٠٧٥ م) والمعتز (٤٦٣ - ٤٦٤ هـ / ١٠٧٥ - ١٠٧٦ م) والمعتز (٤٦٤ - ٤٦٥ هـ / ١٠٧٦ - ١٠٧٧ م) والمعتز (٤٦٥ - ٤٦٦ هـ / ١٠٧٧ - ١٠٧٨ م) والمعتز (٤٦٦ - ٤٦٧ هـ / ١٠٧٨ - ١٠٧٩ م) والمعتز (٤٦٧ - ٤٦٨ هـ / ١٠٧٩ - ١٠٨٠ م) والمعتز (٤٦٨ - ٤٦٩ هـ / ١٠٨٠ - ١٠٨١ م) والمعتز (٤٦٩ - ٤٧٠ هـ / ١٠٨١ - ١٠٨٢ م) والمعتز (٤٧٠ - ٤٧١ هـ / ١٠٨٢ - ١٠٨٣ م) والمعتز (٤٧١ - ٤٧٢ هـ / ١٠٨٣ - ١٠٨٤ م) والمعتز (٤٧٢ - ٤٧٣ هـ / ١٠٨٤ - ١٠٨٥ م) والمعتز (٤٧٣ - ٤٧٤ هـ / ١٠٨٥ - ١٠٨٦ م) والمعتز (٤٧٤ - ٤٧٥ هـ / ١٠٨٦ - ١٠٨٧ م) والمعتز (٤٧٥ - ٤٧٦ هـ / ١٠٨٧ - ١٠٨٨ م) والمعتز (٤٧٦ - ٤٧٧ هـ / ١٠٨٨ - ١٠٨٩ م) والمعتز (٤٧٧ - ٤٧٨ هـ / ١٠٨٩ - ١٠٩٠ م) والمعتز (٤٧٨ - ٤٧٩ هـ / ١٠٩٠ - ١٠٩١ م) والمعتز (٤٧٩ - ٤٨٠ هـ / ١٠٩١ - ١٠٩٢ م) والمعتز (٤٨٠ - ٤٨١ هـ / ١٠٩٢ - ١٠٩٣ م) والمعتز (٤٨١ - ٤٨٢ هـ / ١٠٩٣ - ١٠٩٤ م) والمعتز (٤٨٢ - ٤٨٣ هـ / ١٠٩٤ - ١٠٩٥ م) والمعتز (٤٨٣ - ٤٨٤ هـ / ١٠٩٥ - ١٠٩٦ م) والمعتز (٤٨٤ - ٤٨٥ هـ / ١٠٩٦ - ١٠٩٧ م) والمعتز (٤٨٥ - ٤٨٦ هـ / ١٠٩٧ - ١٠٩٨ م) والمعتز (٤٨٦ - ٤٨٧ هـ / ١٠٩٨ - ١٠٩٩ م) والمعتز (٤٨٧ - ٤٨٨ هـ / ١٠٩٩ - ١١٠٠ م) والمعتز (٤٨٨ - ٤٨٩ هـ / ١١٠٠ - ١١٠١ م) والمعتز (٤٨٩ - ٤٩٠ هـ / ١١٠١ - ١١٠٢ م) والمعتز (٤٩٠ - ٤٩١ هـ / ١١٠٢ - ١١٠٣ م) والمعتز (٤٩١ - ٤٩٢ هـ / ١١٠٣ - ١١٠٤ م) والمعتز (٤٩٢ - ٤٩٣ هـ / ١١٠٤ - ١١٠٥ م) والمعتز (٤٩٣ - ٤٩٤ هـ / ١١٠٥ - ١١٠٦ م) والمعتز (٤٩٤ - ٤٩٥ هـ / ١١٠٦ - ١١٠٧ م) والمعتز (٤٩٥ - ٤٩٦ هـ / ١١٠٧ - ١١٠٨ م) والمعتز (٤٩٦ - ٤٩٧ هـ / ١١٠٨ - ١١٠٩ م) والمعتز (٤٩٧ - ٤٩٨ هـ / ١١٠٩ - ١١١٠ م) والمعتز (٤٩٨ - ٤٩٩ هـ / ١١١٠ - ١١١١ م) والمعتز (٤٩٩ - ٥٠٠ هـ / ١١١١ - ١١١٢ م) والمعتز (٥٠٠ - ٥٠١ هـ / ١١١٢ - ١١١٣ م) والمعتز (٥٠١ - ٥٠٢ هـ / ١١١٣ - ١١١٤ م) والمعتز (٥٠٢ - ٥٠٣ هـ / ١١١٤ - ١١١٥ م) والمعتز (٥٠٣ - ٥٠٤ هـ / ١١١٥ - ١١١٦ م) والمعتز (٥٠٤ - ٥٠٥ هـ / ١١١٦ - ١١١٧ م) والمعتز (٥٠٥ - ٥٠٦ هـ / ١١١٧ - ١١١٨ م) والمعتز (٥٠٦ - ٥٠٧ هـ / ١١١٨ - ١١١٩ م) والمعتز (٥٠٧ - ٥٠٨ هـ / ١١١٩ - ١١٢٠ م) والمعتز (٥٠٨ - ٥٠٩ هـ / ١١٢٠ - ١١٢١ م) والمعتز (٥٠٩ - ٥١٠ هـ / ١١٢١ - ١١٢٢ م) والمعتز (٥١٠ - ٥١١ هـ / ١١٢٢ - ١١٢٣ م) والمعتز (٥١١ - ٥١٢ هـ / ١١٢٣ - ١١٢٤ م) والمعتز (٥١٢ - ٥١٣ هـ / ١١٢٤ - ١١٢٥ م) والمعتز (٥١٣ - ٥١٤ هـ / ١١٢٥ - ١١٢٦ م) والمعتز (٥١٤ - ٥١٥ هـ / ١١٢٦ - ١١٢٧ م) والمعتز (٥١٥ - ٥١٦ هـ / ١١٢٧ - ١١٢٨ م) والمعتز (٥١٦ - ٥١٧ هـ / ١١٢٨ - ١١٢٩ م) والمعتز (٥١٧ - ٥١٨ هـ / ١١٢٩ - ١١٣٠ م) والمعتز (٥١٨ - ٥١٩ هـ / ١١٣٠ - ١١٣١ م) والمعتز (٥١٩ - ٥٢٠ هـ / ١١٣١ - ١١٣٢ م) والمعتز (٥٢٠ - ٥٢١ هـ / ١١٣٢ - ١١٣٣ م) والمعتز (٥٢١ - ٥٢٢ هـ / ١١٣٣ - ١١٣٤ م) والمعتز (٥٢٢ - ٥٢٣ هـ / ١١٣٤ - ١١٣٥ م) والمعتز (٥٢٣ - ٥٢٤ هـ / ١١٣٥ - ١١٣٦ م) والمعتز (٥٢٤ - ٥٢٥ هـ / ١١٣٦ - ١١٣٧ م) والمعتز (٥٢٥ - ٥٢٦ هـ / ١١٣٧ - ١١٣٨ م) والمعتز (٥٢٦ - ٥٢٧ هـ / ١١٣٨ - ١١٣٩ م) والمعتز (٥٢٧ - ٥٢٨ هـ / ١١٣٩ - ١١٤٠ م) والمعتز (٥٢٨ - ٥٢٩ هـ / ١١٤٠ - ١١٤١ م) والمعتز (٥٢٩ - ٥٣٠ هـ / ١١٤١ - ١١٤٢ م) والمعتز (٥٣٠ - ٥٣١ هـ / ١١٤٢ - ١١٤٣ م) والمعتز (٥٣١ - ٥٣٢ هـ / ١١٤٣ - ١١٤٤ م) والمعتز (٥٣٢ - ٥٣٣ هـ / ١١٤٤ - ١١٤٥ م) والمعتز (٥٣٣ - ٥٣٤ هـ / ١١٤٥ - ١١٤٦ م) والمعتز (٥٣٤ - ٥٣٥ هـ / ١١٤٦ - ١١٤٧ م) والمعتز (٥٣٥ - ٥٣٦ هـ / ١١٤٧ - ١١٤٨ م) والمعتز (٥٣٦ - ٥٣٧ هـ / ١١٤٨ - ١١٤٩ م) والمعتز (٥٣٧ - ٥٣٨ هـ / ١١٤٩ - ١١٥٠ م) والمعتز (٥٣٨ - ٥٣٩ هـ / ١١٥٠ - ١١٥١ م) والمعتز (٥٣٩ - ٥٤٠ هـ / ١١٥١ - ١١٥٢ م) والمعتز (٥٤٠ - ٥٤١ هـ / ١١٥٢ - ١١٥٣ م) والمعتز (٥٤١ - ٥٤٢ ه

سبع سنين ، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين ، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع ، وقل : ورأى لى أبى فى النوم أنى بين يدى رسول الله ﷺ وكانت معى مخللة مملوءة حجارة ، وأنا أرمى بين يديه ، فقال له المعبر : أنه ان كبير نصيح فى دينه ، وذب عن شريعته ، فحرص أبى على معونتى فى طلب العلم ، وأنا حينئذ صبى صغير ، واستمر فى دراسته متقللاً بين مدن طبرستان وغيرها من بلاد الفرس ، فiaخذ الحديث والتفسير عن «محمد بن حميد الرازى» ، والتاريخ عن «ابن حماد الدولابى» ، والفقه عن «أبى مقاتل» ، ثم يشخص الى بغداد لىسمع من عالمها الأكبر الامام أحمد بن حنبل (١٤٦ - ٢٤١هـ) ، غير أن الامام ابن حنبل انما ينتقل الى جوار ربه ، قبل أن يصل الطبرى الى بغداد ، فيذهب الى البصرة والكوفة ويسمع عن علمائهما ، ثم يتجه بعد ذلك الى بغداد فالتشام ثم يتدفع الى مصر ، فيصلها فى عام ٢٥٣هـ (٨٦٧م) فى أوائل عهد «أحمد ابن طولون» (٢٥٤ - ٢٧٠هـ = ٨٦٨ - ٨٨٤م) ، حيث يدرس فى أرض الكتانة فقه الشافعية ، ثم يعود الى طبرستان فبغداد التى يبقى فيها حتى يلقى وجه ربه الكريم يوم السبت ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة ، ودفن يوم الأحد بالغداة فى داره ، قال الخطيب البغدادي : واجتمع على جنازته من لا يحصى عددهم الا الله ، وصلى على قبره عدة شهور ليلا ونهارا ، ورثاه خلق كثير من أهل الدين والادب (٩٤) .

وهناك ما يشير الى أن والد الامام الطبرى انما كان ميسرا له فى الرزق ، يملك احدى ضياع طبرستان ، الامر الذى ساعده على أن يتكفل بمؤنة ولده أثناء تجواله فى العراق والشام ومصر طلبا للعلم ، وقد أدى ذلك الى أن يأبى الامام الطبرى أن يكتب التاريخ بناء على رغبة الخلفاء

(٩٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٣/٣٣٢ ، ياقوت الحموى : معجم الادباء ١٩/١٨ ، ٤٠ ، ٤٨ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٢/١٦٦ (القاهرة ١٩٣١) ، ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان ١٠٠/٥ (ط. الهند ١٣٣١هـ) ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ١٣٨/٢ (القاهرة ١٣٢٤هـ) القفطى : انباء الرواة ٣/٩٠ ، أحمد محمد الخوفى : الطبرى - القاهرة ١٩٦٢ ص ٣٠ - ٣٢ ، تاريخ الطبرى ١/٥ - ١٠ ، (مقدمة المحقق) .

والأمراء ، كما رفض أن يشغل منصب القضاء ، لئلا يخضع لابتزاز الخلفاء أو لشهوة المنصب والسلطان ، يقول ابن عساکر في تاريخه : لما تقلد الخاقاني الوزارة وجه الى أبي جعفر (الطبري) بمال كثير فامتنع عن قبوله ، وعرض عليه القضاء فأبى ، وعرض عليه المظالم فامتنع ، فعاتبه أصحابه وقالوا له : « لك في هذا ثواب » وتحبب سنة قد درست ، وطمحوه في قبوله المظالم وبأكروه ليركب مهم لقبول ذلك فانتهرهم وقال : قد كنت أظن لو رغبت ذلك لنهيتموني عنه ، ثم لامهم (٩٥) .

وعلى أية حال ، فلقد كان الامام الطبري مؤرخا ، كما كان مفسرا وفقهيا ، ومن ثم فإن الصلة الوثيقة بين علمي الحديث والتاريخ انما تظهر بوضوح في تاريخه ، بل ان تاريخ الطبري مكمل في كثير من النواحي لكتابه الكبير في تفسير القرآن الكريم .

هذا وقد اشتهر الطبري بمنابرته على العمل ، حتى زعموا أنه قضى أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين صفحة ، وعلى أية حال ، فلقد كتب الطبري ٢٨ كتابا (٩٦) ، لأريب في أن أشهرها كتابه في التفسير «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» ، والمشهور «بتفسير الطبري» ، وكتابه في التاريخ (تاريخ الرسل والملوك) والمعروف بتاريخ الطبري ، وهو أول كتب التاريخ الشاملة في اللغة العربية ، وقد بدأ بالخلقة ، وانتهى عند عام ٣٠٢ هـ ، وقد قيل ان كتابيه في التاريخ والتفسير كان كل منهما ٣٠ ألف ورقة ، ثم أشار عليه أحد تلاميذه أن يختصره الى الحجم الحالي ، وهو نحو عشر ذلك ، فلقد روى أنه قال لأصحابه : «أنتشطون لتاريخ العلم من آدم الى وقتنا الحاضر ؟ قالوا كم قدره ؟ قال : ثلاثون ألف ورقة ، فقاتلوا : ان هذا مما يفنى الأعمار قبل تملامه ، فقال : انا لله ، ماتت المهم» ، ثم اختصره (٩٧) .

-
- (٩٥) حسن حلاق : المرجع السابق ص ٢٩٦ ، تاريخ ابن عساکر ٣٥٦/١٨ ، تاريخ الطبري ١٠/١ .
 (٩٦) أنظر : المرجع السابق ص ١٥ - ٣٢ .
 (٩٧) حنان حلاق : المرجع السابق ص ٢٩٢ .

وليس هناك من ريب في أن هناك علوما ثلاثة ، لا يذكر الامام الطبرى الا مقرونا بها كلها ، وهي التفسير والتاريخ والفقه ، لانه تفوق فيها ، ولانه خلف في كل منها كتابا أو كتابا عظيمة القيمة ، وليس من شك في أن كتابيه في التاريخ والتفسير كانا عماد من أتوا بعده .

والذى يهمنا هنا انما هو «الطبرى المؤرخ» ، وقد امتاز كتابه «تاريخ الرسل والملوك» بالتعويل على الروايات الى حد كبير والحرص على السند ، وترتيب الحوادث ترتيبا زمنيا علما بعد عام ، منذ الهجرة النبوية الشريفة الى عام ٨٣٠٢ ، وان عرض أحداث ما قبل الاسلام بدون ترتيب ، وأما الأخبار العامة التى لا ترتبط بزمان معين ، فقد كان يختم بها الحديث عند كل خليفة ، كما اهتم الطبرى بتسجيل النصوص الادبية في تاريخه .

هذا وقد حاول الطبرى أن يجمع مواد كتابه من قراءاته ، ومن المتخصصين في العلوم المتنوعة ، ومن خلال رحلاته ، كما نجح في أن يسخر الادب واللغة والشعر لخدمة التاريخ ، فأفاد في كتابه «تاريخ الرسل والملوك» من كتب الحديث والتفسير والادب المغازى والشعر والخطب ونصوص اليهود ، وكتب التوراة والانجيل ، والقرآن الكريم الذى أفاد منه كثيرا عند كتابته عن الانبياء والرسل ، على أن الباحثين انما يأخذون على الطبرى أشياء ، منها الاكتفاء بالتسجيل دون النقد .

وهنا لعل من الجدير بالاشارة أن منهج أسلافنا في نقد الخبر انما يقوم أساسا على أصليين : السند والمتن ، أو الشكل والمضمون ، كما أن نقدهم للسند انما يقوم على أصول وخطوات ، منها البحث عن مصدر الخبر ، ثم التحقيق من نسبة الخبر الى نقله ، ثم نقد الراوى ، وأما منهج القوم في نقد المتن ، فيقوم على تصحيح المتن لغويا (اصلاح المتن باستبعاد ما فيه من أغلاط) ، ثم التفسير ، فمعرفة الصحيح فيه من الزائف ، وقد وصلوا بعد تصحيح المتن وتفسيره الى معرفة أصله — أى صحيحه من زائفه — لا عن طريق التخمين — كما فعل الاوربيون ، وكما يصنعون — ولكن بوضع قواعد كلية لمعرفة الصحيح من الزائف ،

هذا فضلا عن نقد السند أو المصدر ، إنما قد ساعدتهم على حل هذه المشكلة ، والوصول الى الناقل الحقيقي للخبر أو شاهد العيان ، وهذا يفسر لنا ظهور نقد السند قبل المتن ، لأن نقد السند هو الأساس الذي عن طريقه يمكننا معرفة أصل المتن ، وحقيقة ومدى نسبته الى قائله أو ناقله (٩٨) .

هذا وقد التزم الطبري بهذا المنهج ، ودقته في تطبيقه واضحة تماما في كتابه بولس من ظاهر هذه الدقة في التطبيق تحريره وثبته من الرواية ، وتمسكه بالاسناد ، ذلك لأن نظرتة الى التاريخ انما هي متأثرة الى حد كبير ، بكونه «محدثا وفقهيا» ، وقد رمى في تاريخه الى الكمال تفسيره ، ومن ثم فقد جاءت روايته للتاريخ متأثرة الى أبعد الحدود بهذا المنهج الاسلامي في الرواية قلبا وقالباً ، فأساس صحة الرواية — كما يتطلب هذا المنهج — الثقة بالرواية ، من حيث العدالة والضبط وصحة الاسناد ، وهذا ما التزمه الطبري ، وطبقه في كتابه بأمانة ودقة ، اضطرت الى الوقوف أمام كثير من رواياته موثقاً سلبياً ، فلم يحاول نقضه بعض مضامينها التي قد تخالف العقل أو المنطق ، مادامت أساسياتها صحيحة ، خاصة تلك الاخبار التي تتصل بالانبياء والرسل ، والتي يتحدث بعضها عن غيبات لا دخل للعقل فيها ، لأنها فوق العقل والنقد ، ومن ثم وجب قبولها على علاقتها مادامت صحيحة الاسانيد (٩٩) ، ، ولقد اتخذ للطبري من هذا المنهج تكاً اتكاً عليها في الاعتذار عن منهجه هذا ، كما جاء في مقدمة كتابه (١٠٠) .

وهكذا يرى الطبري حسب المؤرخ صدق النقل وأمانته ، والصدق يرجع الى المصدر ، وليس المضمون ، وهذا أصل من أصول المنهج

(٩٨) عثمان موائى : المرجع السابق ص ١٧٥ - ١٧٦ ، وانظر : بولس ماس : نقد النص - من كتاب النقد التاريخي - ترجمة عبد الرحمن بدوي القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٦٣ ص ٣٥٥ .
(٩٩) عثمان موائى : المرجع السابق ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .
(١٠٠) الطبري : تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري) - القاهرة دار المعارف - ١٩٦٠ - ٧/١ - ٨ .

الاسلامى فى الرواية الذى غلب على المؤرخين المسلمين فى كتاباتهم ، وطبقوه متأثرين بروحه وفلسفته ، ومن هنا وجبه كثير من الباحثين المعاصرين من المستشرقين سهام نقدهم الى الطبرى خاصة ، والى المؤرخين المسلمين عامة ، لغلطه روح هذا المنهج الروائى عليهم ، والذى اضطرهم أن يكونوا رواة لا نقادا ، وهكذا يتهم «فلهوزن» رواة الطبرى بأنهم : لا يفرقون بين الاخضر واليابس ، وهم يذكرون ألقه الاشياء فلا يدعون شيئا مجهولا ، والى مثل هذا ذهب «نيكلسون» (١٠١) .

على أن هناك من يرى أن المؤلف الذى يقوم عمله على نقل الاخبار دونما تفسير أو نقد ، فانه انما يقدم لنا من ضمان الاخلاص والعدل ، أكثر مما يقدم لنا الكاتب الذى يعرض علينا الوثائق ممحصة أو مشوهة وحق ما يعتقده عن حسن نية أو عن غرض ، عن صدق أو كذب (١٠٢) .

ومع ذلك ، فان منهج النقل ، دون النقد ، لم يكن مقصورا على المؤرخين المسلمين ، وانما كان هذا المنهج يطبق فى المعرفة التاريخية بصفة عامة فى العصور الوسطى ، وليس فى المعرفة التاريخية الاسلامية فحسب (١٠٣) ، وفى أكبر الظن أن هذا يرجع الى اتصال المعرفة التاريخية بالمعرفة الدينية منذ نشأتها فى البيئة الاسلامية بصفة خاصة وبفلسفة الاديان فى العصور الوسطى بصفة عامة (١٠٤) .

وأيا ما كان الامر ، فالمعرفة الدينية معرفة نقلية تثبت بالنقل والسماع ، وتتطلب القبول والتسليم ، ومن ثم فهى ليست فى حاجة الى

(١٠١) عثمان موائى : المرجع السابق ص ٢٢٨ ، فلهوزن : الدولة العربية وسقوطها - ترجمة يوسف العشى ص ٢ ، وكذا

A. R. Nicholson, A Literary History of The Arabs, Cambridge, 1962.

(١٠٢) حيدر يامات : مجال الاسلام - ترجمة عادل زعيتير - ١٩٥٦ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(١٠٣) جوستاف لوبون : فلسفة التاريخ - ترجمة عادل زعيتير - دار المعارف - القاهرة ص ٥٣ - ٥٥ .

(١٠٤) روجر كولنجوود : فكرة التاريخ - ترجمة محمد بكر خليل القاهرة ١٩٦٨ ص ٣٥ .

نقد ، لأنها فوق النقد ، وعلى أية حال ، فهذه الانتقادات ، إنما تدل على احتضان الخبر التاريخي لهذا المنهج وعلى تشرب كثير من المؤرخين بروحه ، وفلسفته ، وتطبيقاتهم لكثير من قواعده وأصنوه ، وأن اختلفت درجة دقتهم في التطبيق ، تبعا لاختلاف نوع الخبر وأهميته وفقرته الزمنية ، ومن ثم فقد كان كتاب المسيرة النبوية الشريفة أدق تطبيقاتا لهذا المنهج ، وأشمل ممن أتوا بعدهم ، وتناولوا التاريخ في مصادره المتعددة الإسلامية وغير الإسلامية ، غير أن دقتهم في التطبيق لا ترقى إلى دقة أصحاب هذا المنهج في مجال النظر ، وإن قاربتهم في مجال التطبيق (١٠٥) .

هذا وقد أخذ الباحثون على الطبري أيضا ذكره للعلماء والرواة ، دون ذكر مؤلفاتهم ، فضلا عن تداخل الروايات ، والعناية بالتاريخ السياسي وحده ، هذا فضلا عن تقطيع الحوادث على السنين ، وأخيرا ذكره لبعض خرافات وأساطير — خاصة عن عصور ما قبل الإسلام — دون أن ينتقدها حتى ، والواقع أن الامام الطبري نفسه قد أشار إلى أنه روى في تاريخه أخبارا لا يقبلها العقل ، ولا تستريح إليها النفس ، معتبرا للقارئ عن ذلك ، ومشيئا إلى أن الامانة العلمية إنما تنجم عليه أن يروى ما سمع ويؤديه على حاله ، دون زيادة أو نقصان ، أو حتى فحص أو تحري له ، ملقيا مسئولية ذلك على شهاد العيان ، الذي سمع ذلك من مصدره المباشر أو شاهده بنفسه (١٠٦) .

غير أن هذا كله لا يقلل من قدر الامام الطبري المؤرخ ، وكتابه في التاريخ العام ، والذي أكمل به أبو جعفر ما ابتدأه سابقوه من التاريخ للأحداث أو الأقاليم أو طوائف الرجال ، كابن اسحاق وابن سعد والواقدي والبلاذري والدينوري واليعقوبي ، وقد ضاع أكثر ما دون سابقوه ، وبقي هو مسجلا لما ضاع ، فحفظ ثرائنا نفيسا ، جديرا بأن

(١٠٥) عثمان موافي : المرجع السابق ص ٢٣٠ .
(١٠٦) نفس المرجع السابق ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، الطبري : المرجع السابق ص ٧ - ٨ .

يبقى على مر الزمان وهو - كما وصفه الصخاوى - التاريخ الجليل المعول عليه في معناه لكل من بعده ، الامام أبى جعفر الطبرى ، أحد أئمة الاجتهاد ، الجامع من العلم لما لم يشاركه فيه أحد من معاصريه الامجاد ، وهو جامع الطرق والروايات وأخبار العالم ، لكنه مقصور على ما وضعه لإجله من علم التاريخ والحروب والفتوحات (١٠٧) .

والأريب في أن الامام الطبرى تمهيد لمن جاءوا بعده ومصدر أصيل من مصادرهم ، وهكذا فقد نقل عنه المسعودى وابن الأثير وابن مسكويه (ت ٣٠٠هـ) والمذاهبى وأبو الفداء وابن خلدون ، ونقل ابن عذارى منه ما يخص تاريخ أفريقيا والاندلس في كتابه المغرب ، وما زال مصدرا إلى اليوم ، ذلك لأنه جمع كثيرا من أخبار العرب في الجاهلية ودونها فحفظها من الضياع ، ومن ثم فقد كان المؤرخون الذين جاءوا بعده يعملون على ما ذكر ، ولولاه لفقد الباحثون معارف كثيرة عن العرب وأحوالهم في جاهليتهم .

هذا وقد سجل الطبرى كثيرا من الحقائق التاريخية عن العصور الإسلامية ، موثقا الاسناد إلى أصحابها ، لولاه لعدت عليها عوامل الأعمال والنسيان ، فحرم التاريخ هذه الآراء ، ذلك لأنه دون روايات نقلها عن كتب لم يبق الا أقلها ، وروايات سمعها من أشخاص ، لو لم يدونها لتوارت في موجات الزمان ، وقد أورد الطبرى في تاريخه كثيرا من الحقائق عن الفرس ، لا يجدها عند غيره من يريد أن يدرس تليخهم حتى لقد اعتمد عليه العالم الألماني الشهير «تيوردور نولدكه» (١٨٣٦ - ١٩٣٠) في معرفة تاريخ الفرس والعرب على أيام الساسانيين ، ومن ثم فقد ترجم كتابه في التاريخ إلى الفارسية ثم التركية ، هذا فضلا عن أن ما كتبه الطبرى عن تاريخ الروم ، إنما هو دقيق إلى حد كبير ، لأنه نقل عن نصارى الشام ، وسمع عنهم ، وكانوا هم قد نقلوا من وثائق صحيحة وأدوا اليه بأمانة (١٠٨) .

(١٠٧) الصخاوى : المرجع السابق ص ١٤٤ .

(١٠٨) أحمد محمد الحوفى : المرجع السابق ص ٢٢٦ - ٢٢٨ .

بقيت الإشارة الى أن هناك كثير من التكميلات والمختصرات والترجمات لكتاب الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) (١٠٧) أو (تاريخ الامم والملوك) (١١٠) ، ولعل أول من ذيل عليه هو الطبرى نفسه ، وإن لم يصل إلينا شيء من ذلك ، قال السخاوى : وله على تاريخه المذكور ذيل ، بل ذيل على الذيل أيضا (١١١) ، وطبقا لرواية «ياقوت الجموى» (١١٧٨ - ١٢٢٨) فقد عمل «عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغانى» صلة له (١١٢) ، وقال ابن النديم : وقد ألحق به جماعة من حيث قطع الى زماننا هذا ، لا يقول على العاقبة ، لأنه ليس ممن يختص بالقبولة ولا بالتعلم (١١٣) ، وفى المكتبة الاهلية بباريس نسخة مخطوطة من الجزء الاول من كتاب «محمد بن عبد الملك الهمذانى» (ت ٥٢١هـ) الذى جملة تكملة له ، يبدأ من أيام المقتدر (٢٩٥ - ٥٣٠/٩٠٨ - ٥٣٢هـ) الذى بدء خلافة «المستظهر» (٤٨٧ - ٥١٤هـ) ، أما بقية الكتاب فتنتهى بأخبار عضد الدولة أبى شجاع فى أول سنة ستين وثلاثمائة .

وقد اختصره كثيرون منهم : محمد بن سليمان الهاشمى وأبو الحسن الشمشاطى والسليل بن أحمد ، كما اختصره وزاد عليه عريب بن سعد القرطبى ، وأما أخبار العراق فيما بين عامى ٢٩١ ، ٥٣٠هـ ، فطُبعت ملحقة بالتاريخ باسم «صلة تاريخ الطبرى» (١١٤) .

وكان «محمد بن عبد الله العلقمى» أول من ترجم تاريخ الطبرى الى الفارسية ، فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وكانت هذه الترجمة مقصورة على الأخبار والاسانيد ، مع بعض التصرف ، ثم نقلت الترجمة الفارسية الى التركية ، ثم أعيدت مرة أخرى فيما بين عامى

-
- (١٠٩) . ياقوت : معجم الادباء ٦٨/١٨ .
 (١١٠) . تاريخ بغداد ١٦٣/٢ ، حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ص ٢٩٧ .
 (١١١) . السخاوى : المرجع السابق ص ١٤٤ .
 (١١٢) . ياقوت : معجم الادباء ٤٤/١٨ .
 (١١٣) . ابن النديم : الفهرست ص ٢٣٥ .
 (١١٤) . تاريخ الطبرى ٢٦/١ (مقدمة المحقق) .

٩٢٨ ، ٨٩٣٨ ، وطبعت في الاستانة عام ١٢٦٠ هـ ، كما ترجم وطبع بالفرنسية عام ١٨٧٤م ، ثم الى بعض اللغات اللاتينية ١٨٦٣م ثم نشر بعض المستشرقين الكتاب كاملا ، فيما بين عامي ١٨٧٩ ، ١٨٩٨م ، ثم مرة ثانية عام ١٩٠١م (١١٥) .

(٢) ابن الاثير :

هو علي بن محمد الشيباني ، كنيته أبو الحسن ، ولقبه عز الدين ، ويعرف بابن الاثير الجزري ، نسبته الى جزيرة ابن عمر - فوق الموصل وتحيط بها دجلة الا من ناحية واحدة - حيث ولد عز الدين في ربيع جمادى الاولى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠م) في بيت بؤجاجة وثرأ ، ثم انتقل عز الدين مع أبيه وأخويه (١١٤) الى الموصل ، وهناك سمع من أبي الفضل عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسي ومن في طبiquته .

ثم بعد ذلك أخذ ينتقل بين الموصل وبنغداد ودمشق والقدس وحلب ، يتلقى في كل بلد نزله للعلم والحديث ، عن علمائه وقرائه وفقهائه ومحدثيه ونجائه ، فحصلت له بذلك ثقافة شاملة في العلوم الاسلامية وفي التاريخ والنحو ، ثم توفّر بعد ذلك على النظر في العلم والتصنيف حتى توفاه الله تعالى في شعبان سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢م) وهو في الخامسة والسبعين ، فدفن في الموصل ، ولا يزال قبره معروفا .

(١١٥) تاريخ الطبري ٢٧/١ - ٢٨ ، لويس أميل سديو : تاريخ العرب العام - ترجمة عادل زعير - القاهرة ١٩٤٨ ص ٤٧٦ ، كشف الظنون من ٢٩٨ ، جمان حلاق : المرجع السابق ص ٢٩٢ .

(١١٦) كان لابن الاثير أخوان : مجد الدين أبو السعادات الميارك (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ) وهو محدث ، وله كتابان (جامع الاصول في أحاديث الرسول) - حققه عبد القادر الارناؤوط - دمشق ١٩٧٤م ، و (النهاية في غريب الحديث والأثر) - حققه محمود محمد الطناحي - ط الحلبي - القاهرة ١٩٦٣ ، وكتاب ثالث (منال الطالب في شرح طوال الغرائب) - حققه محمود محمد الطناحي - نشر جامعة أم القرى ١٩٨٣ - والاخ الاصغر هو الاديّب ضياء الدين أبو الفتح نصر الله (٥٥٨ - ٦٣٧ هـ) ومن كتبه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) و (الموشى المرقوم في حلى المنظوم) .

وأما أهم مؤلفاته فهي : ١ - كتاب اللبيب في تهذيب الأنساب ، وهو مختصر لكتاب الانساب للسمعاني ٢ - تاريخ الدولة الاتابكية ٣ - أسد الغابة في معرفة الصحابة - وقد نشرته دار الشعب بالقاهرة في سبع مجلدات عام ١٩٧٠م ، بتحقيق الدكتور محمد البنا والدكتور محمد عاشور *

وأما أشهر كتبه ، وعليه تقوم شهرته ومنزلته العلمية ، فهو كتابه «الكامل في التاريخ» ، وهو كتاب جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما ، بدأه منذ أول الزمان ، الى آخر سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠م) أي قبل وفاته بسنتين ، وهو كسائر التواريخ القديمة سرد للحوادث والأخبار بحسب تواريخها ، ويعترف صاحبه بأنه نقل عن الطبري ، اذ هو المول عليه ، وان لم يتبع خطاه ، فقد كان الطبري يذكر في أكثر الحوادث روايات عديدة ، فقصده ابن الاثير الى أتمها فنقله وأضاف إليه ، على أن هذا لم يمنع ابن الاثير من أن يستمد من مصادر أخرى ، كابن الكلبي والبرد والبلاذري والمسعودي ، فيما ترك الطبري عن قصد أو غير قصد ، وذلك مثل أيام العرب قبل الاسلام ، والوقائع بين قيس وتغلب في القرن الاول الهجري ، وغزو العرب السند وغيرها (١١٧) *

وعلى أية حال ، وكما يقول - روبرت فلنت - فان أكثر الذين عالجوا التاريخ من العرب لم يتجاوزوا مرحلة الوصف والسرد الحولي ، فمن المرجح أن «ابن الاثير» يمكن أن يستثنى من ذلك ، وهو أقرب ما يكون الى تلك المرحلة ، فهو لم يكتف بسرد الاحداث في نظام حدوثها ، وانما حاول كذلك أن يكشف سوابقها الطبيعية ونتائجها ويظهرها بولكنه لا يذهب الى أبعد من ذلك فهو لم يحاول أن ينفذ بصره الى تطور الافكار العامة التي تفسر التاريخ ، ويعترف أثر أسباب التغيرات الاجتماعية

(١١٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ - بيروت - دار صادر ١٩٦٥ ص ٩ - ١٤ (المقدمة) *

الاعمق ، التي تظهر الاسباب المباشرة والظاهرة نتيجة له ، أو تحدث بسببه (١١٨) .

ومع ذلك فان ابن الاثير لم ينقل الحوادث التاريخية على علاتها ، انما كان يختار منها ما يراه موافقا لمقولته ، ويؤلفه تأليفا جديدا بما يضيف اليه ، وهو — وان لم يكن سار على أسلوب فلسفة التاريخ في نقده للحوادث وربطه بين الاسباب والمسببات ، وهو أسلوب لم يعرف الا مع ابن خلدون — فانه كان ينفذ ما ينقله ، ولم يكن ينقل الا كل ما رآه صوابا ، وكان يعرض عن نقل ما يراه غير موافق للعقل ، فعله بما رواه الطبري عن خلق الشمس والقمر وسيرهما (١١٩) .

ومهما يكن من أمر ، فان ابن الاثير مؤرخ يمتاز بشدة التثبت فيما ينقل ، بل قد ينمو أحيانا الى نقد المصادر التي يستمد منها ، وله استدلالات وجيهة على الطبري والشهرستاني — مصنف كتاب الملل والنحل — وغيرهما من العلماء والمؤرخين ، كما أن كتابه «الكامل في التاريخ» ، تاريخ جامع ، جزيل الفائدة ، لاسيما فيما يتعلق بالحوادث التي هزت في عصر المؤرخ ، الامر الذي جعله موردا سائغا يزده من أتى بعد صاحبه من المؤرخين (١٢٠) .

والحق أن ابن الاثير انما كان محل تقدير وثناء من عرفه من معاصريه ومن جاء بعده وأفاد من مؤلفاته ، فمن معاصريه — مثلا — «ابن خلكان» (١٢١١ - ١٢٨١م) الذي وصفه بأنه «كان اماما في حفظ الحديث وعرفه وما يتعلق به ، وحافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة ، وخبيراً بالنسب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم ، ثم يقول : وكان بيته مجمع الفضل لاهل الموصل والواردين عليها» (١٢١) ، ويصفه سبط بن

118. Robert Flint, History of The Philosophy of The History, Edinburgh, 1893, p. 86.

(١١٩) ابن الاثير : المرجع السابق ص ١٢ .

(١٢٠) ابن الاثير : المرجع السابق ص ١٤ - ١٥ .

(١٢١) ابن خلكان : وفيات الاعيان — تحقيق احسان عباس — بيروت دار صادر ١٩٧٨ — الجزء الثاني ص ٤٣٨ .

الجوزى ، بالاستاذ ، فيقول ، حين ينقل عنه خبر وفاة نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكى : وذكر الاستاذ الجزرى فى تاريخه (١٣٣) .

ويعصفه الحافظ ابن كثير (٧٠١ - ٨٧٧هـ) بأنه «الامام العلامة» ، وأنه أقام بالموصل فى آخر عمره : موقرا معظما الى أن مات (١٣٣) ويقول عنه الحافظ الذهبى (١٢٧٤ - ١٣٤٨م) أنه كان صدرا معظما كثير الفضائل (١٣٤) ، ويقول عنه ابن العماد الحنبلى أنه كان اماما ، نسابة مؤرخا ، اخباريا ، أدبيا ، نبيلاً محتشماً (١٣٥) .

وعلى أية حال ، فلقد أثبت ابن الاثير فى كتابه «الكامل فى التاريخ» أنه مؤرخ مفكر واع ولعل هذا لانه يربط الاحداث المتقاربة أو المتشابهة بعضها ببعض ، ويعلل أسبابها ونتائجها ، مثل ربطه بين غارات النصارى على المسلمين فى الغرب ، والغزو الصليبي على الشام ، وأيضا بين استيلاء المتطولين على الحكم ، وبين حرمان أعقابهم منه ، وكذلك ربطه بين تصرفات الخزازمية السيئة وبين هزائمهم المتتالية من التتر ، وغيرها من الاحداث وهى كثيرة (١٣٦) .

هذا ولعل من أهم خصائص ابن الاثير ، كمؤرخ ممتاز ، اختياره المصادر الاصلية ، والموثوق بها للاعتماد عليها فى تأليف كتبه ، هذا فضلا عن أن ابن الاثير - رغم ثقته بمؤلفى مصادره - فانه لم يعفهم من النقد اللاذع ، حين يعثر لهم على خطأ ، غير أنه يستبين فى لهجته فى النقد عزة العلماء واستعلاؤهم - كما فعل الطبرى كثيرا - كما كان ابن الاثير يلجأ كثيرا الى تلخيص الخبر المطول الذى ينقله من مصدره ،

-
- (١٢٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ٨/ ٣٢٠ .
(١٣٣) ابن كثير : البداية والنهاية - الجزء الثالث عشر - بيروت ١٩٦٦ ص ١٣٩ .
(١٢٤) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى اخبار من ذهب - القاهرة ١٣٥٥ هـ - الجزء الخامس ص ١٢٧ .
(١٢٥) نفس المرجع السابق ص ١٣٧ .
(١٢٦) عبد القادر احمد ظليمات : ابن الاثير الجزرى المؤرخ - القاهرة ص ٣٩ .

فيحذف منه المعلومات التي يرى أنها غير ضرورية ، ويكتفى بالمعلومات الأساسية التي يبنى عليها الخبر ، وقد وفق الى حد كبير في تلخيص كثير من الاخبار ، ولكنه - في الوقت نفسه - لم يوفق في تلخيص بعضها أيضا (١٣٧) .

(٣) ابن خلدون :

هو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون ، من أسرة عربية ، حيث ينتهي نسبه ، فيما يرى البعض ، الى وائل بن حجر ، أحد أقبال عرب حضرموت ، وقد هاجرت أسرة ابن خلدون الى الاندلس في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، حيث نزل جده الأكبر «خلدون» قرمونة في جماعة من قومه ، ثم هاجروا منها - بعد حين من الدهر - الى اشبيلية ، ولما سقطت دولة الموحدين (١١٣٠ - ١٢٦٩م) في الاندلس ، وأخذ النصارى يعضون في غزو البلاد ، هاجرت الأسرة الى «سبتة» وأخيرا استقر محمد بن خلدون في تونس ، حيث ولي الوزارة لأبى حفص ثم لابنته المستنصر ، كما ولي محمد ، والد ابن خلدون ، بعض المناصب العسكرية والادارية ، غير أنه سرعان ما انتصر الى الدرس والتعبد ، ثم توفي بالطاعون في عام ٨٧٥٠ (١٣٤٩م) .

هذا وقد ولد عبد الرحمن بن خلدون في أول رمضان عام ٨٧٣٣ (٢٧ مايو ١٣٣٣م) ، وتوفي بالقاهرة في الخامس والعشرين من رمضان عام ٨٠٨ هـ (١٩ مارس ١٤٠٦م) ، وبعد أن حفظ القرآن الكريم قرأ على والده وعلى أكابر علماء تونس ، ودرس في شغف النحو واللغة والفقه والحديث والشعر ، ثم ما لبث أن تلقى مبادئ المنطق والفلسفة ، ولما احتل أبو الحسن المرينى تونس في عام ٨٧٤٨ (١٣٤٧م) حضر عبد الرحمن على العلماء المغاربة الذين حضروا معه ، فأتهم دروسه في المنطق والفلسفة والتوحيد والشريعة وغير ذلك من العلوم العربية بموقد ساعدته دراسته هذه ، فضلا عن اتصاله ببعض ساسة عصره ، والرجال

المبرزين في البلاط المريني في فاس ، على شغل بعض المناصب الهامة في دولة بني مرين ، وفي بعض الدويلات المغربية التي قلمت على أنقاض دولة الموحدين .

وهكذا ، وفي عام ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) التحق ابن خلدون في وظيفة في قصر الحسن المريني سلطان مراكش ، ثم عينه السلطان «أبو اسحاق الثاني الحفصي محمد بن تافراكين» سلطان تونس (٧٥٢هـ / ١٣٥١م) «كتبا للعلامة» (كاتب ديوان الرسائل) ، وقد شرح ابن خلدون مهمة وظيفته هذه ، بأنه كان يوقع المراسيم والكتب السلطانية بشارة السلطان (الحمد لله والشكر لله) يكتبها بين البسطة وبقية النص ، ثم تقلب ابن خلدون في مناصب عدة عند بني مرين في فاس ، وبني عبد الواد في تلمسان ، وعند بني الأحمر في غرناطة ، وعند بني العريف في شرق تلمسان ، على مدى حوالي ربع القرن ، تعرض فيه للسجن والاضطهاد كما شارك في بعض الاحداث السياسية التي عرضته للنقد ، فضلا عن الاضطهاد ، كما حدث له في فاس ، حيث زج به في السجن مرتين ، فيما بين عامي ٧٥٥ ، ٧٥٩هـ (١٣٥٦ - ١٣٥٨م) .

وعلى أية حال ، ففي عام ٧٨٤هـ (١٣٨٢م) خرج للحج ، ولكنه توقف في رحلته عند الاسكندرية والقاهرة ، حيث ألقى دروسا في الجامع الأزهر ، ثم في المدرسة القمحية (بجوار جامع عمرو) ، وفي عام ٧٨٦هـ (١٣٨٤م) عينه السلطان الظاهر بريقوق قاضيا لقضاة المالكية ، ولما غرقت أسرته وأمواله مال إلى الزهد ، وخرج إلى بيت الله حاجا في عام ٧٨٩هـ (١٣٨٧م) ، ثم ولي ثانية في عام ٨٠١هـ (١٣٩٩م) منصب قاضي قضاة القاهرة ، وتخلّى عنه مدة قصيرة ، ثم استعاده ، وفي عام ٨٠٣هـ (١٤٠١م) سحب السلطان الناصر إلى دمشق مع بقية القضاة في حملته على «تيمور لنگ» ، ولما عاد شغل منصب قاضي القضاة مرة أخرى بوظائفه فيه إلى أن توفي في ٢٥ رمضان ٨٠٨هـ (١٤٠٦م) (١٢٨) .

(١٢٨) دائرة المعارف الاسلامية - المجلد الاول - ط كتاب الشعب -

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أنه من ناحية علم التاريخ أو فلسفة التاريخ ، فإن ابن خلدون — إذا عدناه مجرد مؤرخ ، فلا ريب أن هناك من بين مؤلفي التاريخ عند العرب من يفوقه — ولكنه ، بوصفه صاحب نظرية في التاريخ ، فليس له نظير في أى عصر ، حتى ظهور «فيكو» — بعد أكثر من ثلاثة قرون — وأن أفلاطون وأرسطو وأوغسطين ليسوا نظراء له ، وجميع الآخرين ليسوا جديرين بذكر أسمائهم مع اسمه ، وهو جدير بالاعجاب ، لاصالته وفطنته وعمقه وسعة احاطته في فلسفة التاريخ ، كما كان «دانتي» (١٢٦٥ - ١٣٢١م) و «روجر بيكون» (١٢١٤ - ١٢٩٤) بين العلماء ، وحقيقة أن مؤرخى العرب جمعوا المادة التي أفاد منها ، ولكنه وحده هو الذى عرف كيف ينتفع بها (١٣٩) .

ومن ثم فقد أدعش ابن خلدون علماء أوروبا المعاصرين ، يقبول «كارادفو» (Carrade Vaux) أنجبت أفريقيا الإسلامية اجتماعيا من الطبقة الاولى في شخص ابن خلدون ، الذى لم يعرف من قبله عالم أوتى تصورا في فلسفة التاريخ أصح ولا أجلى من تصوره ، فإن أحوال الأمم الروحية ، والاسباب المظارئة عليها ، القاضية بتغيرها ، وكيفية تأسيس الدول ، وما تدخل فيه من الاطوار ، وتقوم المدينيات ، وعوامس نموها أو تقلصها ، كل هذه الجناح التي خاض فيها ، الى أقصى مايمكن الفوض فيه ، وذلك في مقدمته المشهورة ، ولم تجد في أوروبا حتى القرن الثامن عشر أناسا حاولوا أن يستخرجوا أسرار التاريخ استخراجه بعد أن كانت أهملته مستحقة تغفر فتحها (١٤٠) ويقول نيكلسون : «لم يسبقه

القباهرة ١٩٣٩ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٤ ، على عبد الواحد والى : عبد الرحمن ابن خلدون ص ١٨ - ٢٠ ، التعريف بابن خلدون - تحقيق محمد بن ثاويت الطنجي ص ١ - ٢٢ ، عثمان موالى : المرجع السابق ص ٢٦٦ - ٢٦٩ .

(١٢٩) على أدهم : المرجع السابق ص ٥٨ - ٥٩ ، وكذا R. Flit, Op. Cit., p. 86.

(١٣٠) عثمان موالى : المرجع السابق ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

أحد إلى اكتشاف الأسباب الخفية للوقائع أو إلى عرض الأسباب المخلقية والروحية التي تكمن خلف سطح الوقائع أو إلى اكتشاف قوانين التقدم والتدهور^(١٣١) ، ويقول عنه «جورج سارتون» لم يكن أعظم مؤرخي العصور الوسطى شامخاً كعلاق بين قبيلة من الأتزام فحسب ، وإنما كان من أوائل فلاسفة التاريخ ، سابقاً مكيا فيلي وبودان وميكو وكونت وكورنوا^(١٣٢) .

ولعل ذلك كله ، إنما يرجع إلى مفهوم التاريخ عند ابن خلدون ، فهو يرى : أن التاريخ في ظاهره ، لا يزيد عن أخبار الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى ، وفي باطنه : نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفية الوقائع وأسبابها عميق^(١٣٣) ، ومن ثم فإن للتاريخ — عند ابن خلدون — معنيين : معنى سطحي ظاهر مؤداه : أن التاريخ رواية وحسب ، لأحداث الماضي وأخباره ، ومعنى خفي مؤداه : أن التاريخ نقد وتفسير وتعليل ، الماضي وأخباره .

ويبدو أن من سبقه من المؤرخين لم يفهموا التاريخ إلا على أنه مجرد رواية لأحداث الماضي وأخباره ، ومن ثم فهموا يأخذ عليهم أنهم كانوا رواية للثغ والسمين ، ولم يفرقوا في رواياتهم بين الصحيح والزائف ، وهكذا كان هجومه على المؤرخين أول قاعدة اتكأ عليها في بناء نظريته في «التقد التاريخي» ، والذي عبر عنه في قوله : «أن فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها ، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها ، وغلطها المتطفلون بدسائس من الباطل ، وهموا فيها وابتدعوها ، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها ، واقتفى تلك الآثار الكبيرة ممن بعدهم واتبعوها ، وأدوها إلينا كما ستمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ، ولا رفضوا قراءات الحديث ولا دفعوها ، فالتحقيق قليل ، وطرف التنقيح في الغالب قليل ،

131. A. R. Nickolson, Op. Cit., P. 435.

132. G. Sarton, Introduction to The History of Science, IV, p. 115

• (١٣٣) ساطع الحمري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٤ .

والغلط والوهم نسيب للاخبار وخليط ، والتقليد غريق في الادميين
وسليل» (١٣٤) .

ويذهب ابن خلدون الى أن اعتماد المؤرخين على الرواية ، دون
النقد لما يروى ، فضلا عن تفسيره وتعليقه ، انما قد أدى الى الوقوع
في أخطاء كثيرة ، فيما يروى من أخبار ، والى التورط في رواية كثير من
الاخبار الواهية من ذلك «ما نقله المسعودي وكثير من المؤرخين في
جيوش بنى اسرائيل ، بأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه ، بعد
أن أجاز من يطيق حمل السلاح ، خاصة من ابن عشرين فما فوقها ،
فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون» (١٣٥) .

ويشك ابن خلدون في صحة هذا الرقم (٦٠٠ ألف) ، ويرى أنه
مبالغ فيه لأسباب ، منها أنه من الصعوبة بمكان أن يقع قتال بين هذه
الجيوش الكثيرة العدد ، وبين جيوش أعدائهم ، لضيق مساحة الأرض
التي ستكون ميدان القتال ، ومنها أن ملك الفرس كان أعظم من ملك
بنى اسرائيل بكثير ، بدليل انتصار «بختنصر» (نبوخذ نصر الثاني)
الفارسي عليهم ، ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس هذا الرقم ، ولا قريبا
منه ، وأقصى حد وصل اليه عدد جيوشهم ، كان مائة وعشرين ألفا ، وكان
ذلك في معركة القادسية ، ومنها لو وصل عدد جيوش بنى اسرائيل الى
هذا الرقم ، لانتسح نطاق دولتهم ، واحتلوا الشام كله ومصر ، وغيرها
من الدول المجاورة لدولتهم القديمة ، ومنها أن عدد بنى اسرائيل الذين
دخلوا مصر مع يعقوب عليه السلام ، لم يزد على سبعين نفسا ، وقد
ظفوا بمصر مائتين وعشرين سنة تقريبا ، ولا يعقل أن يصل عدد جيشهم
في هذه المدة الى هذا الرقم (١٣٦) .

(١٣٤) مقدمة ابن خلدون - بيروت - دار العلم - ١٩٨١ ص ٤-٣ .

(١٣٥) نفس المرجع السابق ص ١٠ .

(١٣٦) نفس المرجع السابق ص ١٠ - ١١ ، عثمان مواتي : المرجع

السابق ص ٢٧١ - ٢٧٢ مع العلم بأن «بختنصر» كلداني عراقي ، وليس
فارسي .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أن هذا الرقم (٦٠٠ ألف) الذي أثار ابن خلدون ضد المؤرخين المسلمين ، إنما نقلوه ، كغيرهم من المؤرخين في تلك العصور ، من التوراة — كما جاء في سفر الخروج ١٢/ ٣٧ — ولا ريب في أن النص التوراتي إنما قد أوغل كثيرا في المبالغة ، وأغرق في التعصب ، ذلك أن التوراة نفسها إنما تجدثنا أن بنى إسرائيل عندما قدموا الى مصر — للمرة الاولى — إنما كان «جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت الى مصر سبعون» (١٢٧) وهانحن على أيام الخروج من مصر ، وقد انضمت ٢١٥ سنة — فيما ثرى الترجمة السبعينية للتوراة (١٢٨) — أو ضعف هذا العدد (٤٣٠ سنة) — فيما ترى التوراة العبرية (١٢٩) — حتى يصبح بنو إسرائيل «شعبا أعظم وأكثر من المصريين» — أصحاب أعظم وأقوى دولة في العالم كله وقت ذاك — ويصبح عدد بيت يعقوب قد ناهز المليونين ، وربما الثلاثة ، فلما طردوا من ممركان من بينهم ست مئة ألف ماش من الرجال عدا الاولاد» (١٤٠).

ويعلق بعض الباحثين على هذه الأرقام، بأننا لو قسمنا عدد الجماعة على الابتكار ، لخلصنا الى أن المرأة الاسرائيلية من اليهود الابقين، إنما كانت تلد زهاء (٦٥ وليدا) ، وهو أمر لا يستقيم مع المنطق ، فضلا عما تعرضوا له من ذلة وعسف تحت رؤساء التسخير من المصريين ، ولا مع ما روى من عبورهم البحر في سويحات قصار ، ومن ثم فإن علماء اللاهوت والمؤرخين ، سواء بسواء ، أصبحوا الآن لا يعلقون على هذه

(١٢٧) تكوين ٢٧/٤٦ .

(١٢٨) انظر عن الترجمة السبعينية للتوراة (محمد بيومي مهران : إسرائيل الحضارة — الكتاب الثالث — الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٠٧ — ١١٢) (١٢٩) خروج ١٢/٤٠ — ٤١ .

(١٤٠) خروج ٣٧/١٢ ، ثم قارن : عدد ١/١ — ٥٤ ، حيث يجعلهم (٤٥/١ — ٥٠) (٦٣٥٥ شخصا) ، بدون اضافة اعداد سبط اللاويين ، الذين أمر الرب ألا يحسبوا من بنى إسرائيل ، ليكونوا على مسكن الشهادة

الأرقام التي ذكرتها التسوداة أية أهمية ، ويعتبرونها محض خيصال
إسرائيلي (١٤١) .

ومن ثم فقد ذهب «بترى» الى القول بأن الالف تعني الأسرة أو
الجماعة أو العشيرة أو الخيمة ، وعلى ذلك فإن الرقم (٥٤٤٠٠) مثلا
لا يعنى أن هناك ٥٤٤٠٠ شخصا ، وإنما يعنى ٥٤ عشيرة ، عتقها ٤٠٠
فردا ، ثم يقترح بعد ذلك أن المجموع الكلى للخارجين من مصر ، انما
كان ٥٥٥٠ شخصا ، وبذا يستطيع موسى عليه السلام ، أن يحكم في
الخصومات التي يمكن أن تنشأ بين حوالي ٦٠٠ خيمة أو مجموعة ، ولكن
ذلك محال بين ٦٠٠ ألف رجل (١٤٢) .

وهناك أيضا من الأخبار الموضوعية ، تلك الأكاذوبة الدنيئة التي
فندها ابن خلدون وبين زيفها ، وأعنى بها أكاذوبة زواج العباصة أخت
هارون المرشيد (١٧٠ - ١٩٣ م / ٨٧٦ - ٨٠٩ م) من «جعفر البرمكى»
بعقد بلاخلوة (١٤٣) .

وعلى أية حال ، فإن نقد ابن خلدون للمؤرخين المسلمين على بيان
ما هموا من روايات ضعيفة وإهية ، ثم تعدى ذلك الى ذكر العوامل
والاسباب التي تدفع بالكثيرين منهم ، فضلا عن الكثيرين من الرواة ،
الى الكذب في رواياتهم ، والتي منها التشيع للراء ، والثقة بالناقلين ،
والذهول عن المقاصد ، وتوهم الصدق ، والجهل بتطبيق الاحوال على
الوقائع ، وتقرب الناس لاصحاب التجسلة والمراتب بالثناء والمدح ،
وتصين الاحوال ، واشاعة الذكر بذلك ، ثم يروى نماذج كثيرة لآخبار
مستحيلة الوقوع - كبناء الاسكندرية طبقا لرواية المسعودى - ومع

(١٤١) عصام الدين حنفى ناصف : محنة التوراة على أيدي اليهود
القاهرة ١٩٦٥ ص ٣٥ ، وكذا

S. A. Cook, The Rise of Israel, in CAH, II, 1931, p. 358.

142. W. M. F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, pp. 41-46.

(١٤٣) مقحمة ابن خلدون ص ١٥ - ١٦ (بيروت ١٩٨١) ؛ وانظر :
جسق إبراهيم : تاريخ الاسلام ١٧٠/١ - ١٧٣ (القاهرة ١٩٦٤) .

هذا فقد تورط كثير من المؤرخين في روايتها ، ولو حكموا المعتبر في نقد مضامينها ، لرفضوا الكثير منها ، جملة وتفصيلا (١٤٤) .

هذا وليس هناك من ريب في أن ابن خلدون إنما كتب له نجما بعيد المدى في أن يرمي التاريخ بعلم الاجتماع ، كما ربط التاريخ بالجغرافيا والسياسة والاقتصاد والصناعة والزراعة والطب والفقه والنحو واللغة والقرآن الكريم ، كما أرخ لبعض الفنون ، ومنها الغناء والموشحات والأزجال ، وبعض العلوم كالهندسة والرياضيات والكيمياء ، وكان ابن خلدون إنما أراد في كتاباته - ولاسيما المقدمة - أن يكون مؤرخا للعلوم والفنون ، كما هو مؤرخ للأحداث السياسية ، كما حرص في مؤلفه الضخم أن يكون له مقدمة للمقدمة ، تبحث أولا في علم للتاريخ أو في فن علم التاريخ (١٤٥) .

وقد حاول ابن خلدون في مقدمته المشهورة أن يضع أمام المؤرخ قاعدة هامة في نقد الاخبار التاريخية وتمييز صحتها من زائفها ، وأن يبنى مما سبق أن هدمه من نقده للتاريخ ، ومن ثم يصبح نقده للتاريخ بناءا جديدا مرتكزا على دعائم ثابتة قوية ، بعد أن كان نقده لانقراض صحيفة بالية ، وان شئت فقل : إن نقده للتاريخ بدأ بالهدم ، ثم انتهى بالبناء .

ويتمثل هدمه في هجومه على المؤرخين السابقين عليه ، وازهار ما وقعوا فيه من أخطاء ، وذكره العوائل والأمساب التي أدت إلى ذلك ، وأما البناء فيتمثل في وضعه بعض الاسس الاجتماعية والقواعد العقلية ، التي يجب أن يعتمد عليها المؤرخ في نقده لمرويياته ، وفي المفهوم الذي أعطاه للتاريخ (١٤٦) ، وقد عبر عن ذلك بقوله : أعلم أنه لما كانت حقيقة

-
- (١٤٤) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥ - ٣٨ ، عثمان موالى : المرجع السابق ص ٢٧٧ - ٢٧٩ .
(١٤٥) حسان حلاق : المرجع السابق ص ٣١٠ .
(١٤٦) عثمان موالى : المرجع السابق ص ٢٨٠ .

التاريخ أنه خبر الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال ، مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصناعات ، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعة الاحوال (١٤٧) .

ومن ثم فهو ينصح المؤلف بأن يفهم المجتمع الذي يكتب عن أحداثه فهما حقيقيا وواقعيًا ، ويلم ببعض العلوم والمعارف التي تعينه على ذلك ، يقول : «يحتاج صاحب هذا الفن الى العلوم بقواعد السياسة ، وطبائع الموجودات ، واختلاف الامم والبقاع والأعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف ، وتحليل المتفق منها أو المختلف ، والقيام على أصول الدول والملل ، ومبادئ ظهورها ، وأسباب حدوثها ، ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم ، حتى يكون مستوعبا لأسباب كل خبرة ، وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا ، والا زيفه واستغنى عنه ، وما استكبر القدماء علم التاريخ الا لذلك ، حتى انتحلطه الطبرى والبخارى ، وابن اسحاق قبلهما ، وأمثالهم من علماء الامة» (١٤٨) .

وعلى أية حال ، فهذه هي الاصول العامة لنظرية ابن خلدون في النقد التاريخي ، بما فيها من هدم وبناء ، فضلا عن جانبها الايجابي والسلبى ، ولا ريب في أنه سبق بها كثيرا من فلاسفة التاريخ ونقادهم في أوروبا .

غير أن هناك من اتخذ بعبرة وردت في مقدمة ابن خلدون ، أشار

(١٤٧) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥ .

(١٤٨) نفس المرجع السابق ص ٢٨ .

فيها الى أنه أول من تكلم في مسائل العمران البشرى أو ما يسمى في عصرنا الحديث «علم الاجتماع» ، ونصها : «ونحن ألهمنا الله الى ذلك الهاما ، وأعثرنا على علم جعلنا بين نكرة وجهينة خبره ، فان كنت قد استوفيت مسأله ، وتميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنجاه ، فتوفيق من الله وهداية ، وان فانتى شئ في احصائه ، واشتبهت بغيره ، فللناظر المحقق اصلاحه ، ولى الفضل لاني نهجت له السبيل ، وأوضحت له الطريق ، والله يهدي بنوره من يشاء» (١٤٩) .

وهكذا ظن البعض أن كل ما كتبه ابن خلدون في نقده للتاريخ وفلسفته ، إنما كان بوحى من الهاما ، مستندا في ذلك الى بعض نظريات علم النفس ، في الابتكار والخلق العلمى والفنى ، وهكذا ذهب البعض الى أن آراء ابن خلدون إنما هي آراء الهامية ، تصدر عن قدرة خارجة عن نفسه ، كأنها تلقى اليه اللقاء ، ولاريب في أن في هذا الاتجاه مغالاة وتعميما ، ياباه المنهج العلمى السديد ، صحيح أن ابن خلدون قد تكون له بعض الملاحظات الحاصية في نقده للتاريخ ، بل وقد يكون أول من اكتشف علم الاجتماع ، الذى أسماه علم العمران البشرى ، ولكنه صحيح كذلك أن هذا لا يدعونا أبدا الى القول بأنه قد ألهم كل ماذهب اليه من قواعد في نقد التاريخ وفلسفته الهاما ، ذلك لان أصول نظريته في النقد التاريخى ، إنما تضرب بجذورها البعيدة في الفكر العربى الاسلامى ، فلقد وضع علماء نقد الحديث قواعد صارمة في نقد الاخبار ، تتعلق بالراوى — من حيث عدالته وضبطه — كما تتعلق بالمروى كذلك (١٥٠) .

وفي الواقع أننا لو قارنا ما ذكره ابن خلدون في الاسباب التى تؤدى بالرواة الى الكذب بما ذكره هؤلاء العلماء النقاد في العوامل التى تمس عدالة الراوى وضبطه وتؤدى بذلك الى جرحه ورفض روايته ، لوضح

(١٤٩) نفس المرجع السابق ص ٤٠ .
(١٥٠) عثمان موالى : المرجع السابق ص ١٢٣ - ١٢٩ ، ٢٨١ - ٢٨٢ .

لنا أن ابن خلدون لم يخرج كثيرا عما ذكره هؤلاء العلماء في هذا الأمر ، ولو قارنا كذلك ما وضعه من مقاييس عقلية في نقد المضمون ، بما وضعه العلماء المسلمون ، أصحاب المنهج العقلي والنقلي ، من قواعد ومقاييس لنقد المتن والمضمون ، لرأيناه لم يخرج كثيرا عن مقاييسهم في ذلك ، اللهم إلا في ذلك المقياس الاجتماعي الذي أشار إليه ونصح المؤرخ بالاستعانة به ، في نقده لمرويات المجتمع الذي يروى بعض أحداثه التاريخية ، وأيا ما كان الأمر ، فإن كثيرا من المسائل والقضايا التي أشار إليها ابن خلدون في نقده للمعرفة التاريخية ، قد بحثها علماء الأصول — في الحديث والفقه — وقد اعترف الرجل في الترجمة التي كتبها لنفسه : أنه قرأ كثيرا من كتب الأصوليين ، وأن أساتذته يشهدون له بالتبريز في الأصول والمنطق كما اعترف بأن بعض المؤرخين السابقين عليه إنما قد تكلموا في بعض المسائل التي ناقشها في فلسفته عن التاريخ التي ضمنها في مقدمته المشهورة كالمسعودي في التنبية والاشراف والقاضي أبو بكر الطرطوشي في كتابه «سراج الملوك» ، كما أشار «أرسطو» الى شيء منها في كتابه «السياسة» ، وابن المقفع في بعض رسائله ، وإن لم يستوف هؤلاء هذه المسائل ، استيفاء لها (١٥١) .

هذا فضلا عن أن بعض المؤرخين الذين سبقوا ابن خلدون في كتابة التاريخ العام ، إنما قد أبدوا شكا في صحة كثير من الأخبار والمرويات ، وخاصة تلك التي يغلب عليها الطابع الاسطوري بمثل الجغرافيا والمؤرخ العربي «أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي» (ت ٢٥٩/٨٩٧م) — والذي يعد تاريخه من أقدم الكتابات التاريخية التي تناولت التاريخ بمعناه العام ، أي منذ بدء الخليقة وحتى عصر المؤلف — إنما شك في المرويات التي تروى عن بعض الأمم القديمة ، كفارس ، بل ووصفها بأن الطليح الخرافي إنما يغلب على كثير منها (١٥٢) ، كما رأينا من قبل

(١٥١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩ - ٤٠ ، التعريف بابن خلدون ص

٢٢ ، عثمان موالى : المرجع السابق ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(١٥٢) تاريخ اليعقوبي : ٢/٢ (ط النجف) .

الامام الطبرى يشير الى أنه روى أخبارا لا يقيها ، ولكن الامانة العلمية تحتم عليه أن يروى ما سمع ، ويؤديه على حاله ، يقول الطبرى : «فما يكن فى كتابنا هذا من خبر فكرناه عن بعض الماضين ، مما يستكره قارئه أو يستشنع ، من أجل أنه لم يعرف له وجها فى الصحة ، ولا معنى فى الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا ، وانما أتى من قبل بعض ناقله الينا ، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى الينا (١٥٣) » .

ومع هذا كله ، فالعلامة ابن خلدون يفضل هؤلاء جميعا بقدرته على التعليل ، وبأنه استطاع أن يبنى من هذه المسائل والموضوعات نظرية فى النقد التاريخى ، متناسقة الاجزاء والفصول ، متسمة بالصرامة والدقة فى وضع القواعد والاصول ، وان لم يتمسك بها عند التطبيق ، فلقد روى أخبارا واهية عن سابقيه ، ثم أخذها على أنها مسلمات صحيحة لا تقبل الجدل ، كذكره مثلا أن أصل البشرية انما هم أولاد نوح عليه السلام ، نقلا عن التوراة (١٥٤) أو عن مؤرخين اشتهروا بالنقل عن التوراة ، وغاب عنه — وهو العالم الفقيه — أن سفينة نوح كان بها كل من آمن بنوح (١٥٥) ، هذا فضلا عن روايته كثيرا من الاخبار عن الجن والشیاطين والسحر لا تتفق والحقيقة .

ولعل الذى أوقع ابن خلدون فى مثل هذه الاخطاء عند التطبيق — فيما يرى الدكتور عثمان موافى — أن استقراءه لاحداث التاريخ وروايته كان استقراء ناقصا ، فلقد وضع قواعد من نقد التاريخ قبل أن يستقصى كل رواياته ، وكان عليه ألا يضع مثل هذه القواعد ، الا بعد

(١٥٣) تاريخ الطبرى ٨/١ (القاهرة ١٩٦٠) .

(١٥٤) تكوين ١٨/٩ — ١٩ .

(١٥٥) سورة هود : آية ٤٠ ، ٤٨ ، وانظر محمد بيومى مهران : قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة — الرياض ١٩٧٥ ص ٣٨٣ — ٤٥١ .

استقراء دقيق لكل روايات التاريخ ونقد فاحص لها ، فان لم يتيسر له ذلك ، فلا بأس أن يروى هذه الروايات مسندة الى مصادرها المباشرة ، مبينا ما فيها من أخطاء وأوهام ، لا تتفق والمقاييس العقلية والنقلية ، وعلى أية حال ، فان نقده للتاريخ انما تغلب عليه النزعة العقلية المنطقية (١٥٦) .

الفصل الرابع

التاريخ القديم ومناهج البحث فيه

(١) عصور التاريخ القديم :

التاريخ القديم : هو تاريخ الانسان منذ أقدم مراحل استقراره ، ويتضمن كافة جوانب إنتاجه في المجالات الحضارية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية - السلمية والحربية - وينبغي على المؤرخ في دراسة هذا التاريخ ، ملاحظة الظروف البيئية والحضارية المعاصرة لذلك الانسان ، ومن ثم فلا ينبغي اتباع أسلوب حديث أو متبع في العصور الوسطى بالنسبة الى التاريخ القديم ، ذلك لان تفسير التاريخ تفسيراً سليماً يستوجب التعرف على الاحداث في ظروف فكرية ومادية معينة ، ومن هنا تأتي صعوبة فهم التاريخ القديم ، فهو يتطلب قدرة عقلية معينة على تصور الظروف المحيطة بتلك الاحداث ، فضلاً عن التعرف على طريقة تعبير الانسان ، سواء أكان ذلك في اللغة أو الكتابة أو الرسم أو الفن بوجه علم ، حتى يمكن تفهم تراث الانسان - المادى والفكرى - في تلك الفترة من التاريخ .

هذا ويمثل التاريخ القديم أطول مرحلة في تاريخ البشرية ، فهو يبدأ منذ العصر الحجري القديم ، والذي ينتهى حوالى ١٠٠٠٠ سنة ، ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وان كان استقرار الانسان انما يبدأ منذ العصر الحجري الحديث ، في الالف السادسة قبل الميلاد^(١) ، ويستمر حتى أخريات القرن الرابع قبل الميلاد ، بالنسبة لتاريخ مصر والشرق الادنى القديم - أى حتى دخول الاسكندر الاكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق م) مصر في عام ٣٣٢ ق م - ليبدأ جانب آخر من التاريخ القديم ، هو التاريخ اليونانى الرومانى ، والذي ينتهى بالفتح الاسلامى للمنطقة في القرن السابع الميلادى .

(١) انظر الاراء المختلفة حول بداية العصر الحجري الحديث في مصر (محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الاول - عصور ما قبل التاريخ - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢١٥ - ٢١٦) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن مؤرخى الحضارة قد اصطالحوا على تقسيم التاريخ القديم الى مرحلتين رئيسيتين: الواحدة : تسبق معرفة الكتابة ، وقد أطلقوا عليها اسم «ما قبل الكتابة» أو «ما قبل التاريخ» أو «عصور ما قبل التاريخ» ، والآخرى : وهى المرحلة اللاحقة لمعرفة الكتابة ، وقد أطلقوا عليها اسم «العصر التاريخى» ، وتعتمد المعلومات عن عصر ما قبل التاريخ على الآثار وحدها ، وأما العصر التاريخى فنستمد معلوماته من آثار الانسان ، فضلا عن تلك المعلومات التى دونها هذا الانسان عن تاريخه وحضارته على الاوراق واللوحات وجدران المعابد والمقابر وغيرها (٢) .

هذا ويبدأ العصر التاريخى فى مصر بظهور الكتابة ، وقيام الاسرة الاولى ، حوالى عام ٣٣٠٠ ق.م (٣) ، ولقد اعتبرت المصادر المصرية الملك «نعممر» - الذى دعتة مينا - على رأس الاسرة الاولى ، التى يبدأ بها العصر التاريخى ، ذلك لان مصر انما كانت قد عرفت الكتابة ، وأخذت تسجل حوادثها المختلفة على آثارها ، ومن ثم فقد أصبح اعتمادها الاكبر على ما خلفه المصريون القدامى أنفسهم مسطرا على آثارهم (٤) .

وأما فى العراق القديم ، فان حادث الطوفان المشهور ، انما يعتبر بمثابة البداية للعصر التاريخى ، وقد حدثتنا قائمة الملوك السومرية عن طوفان يفصل بين فترتى حكم ، الواحدة سابقة له ، والاخرى تالية له ، تبدأ بنزول الملكية مرة ثانية من السماء الى كيش فالوركاء ثم أور وولعل فى هذا دليلا واضحا على أن قائمة الملوك السومرية انما تعتبر حادث الطوفان الخطير بمثابة كسر فى عملية استمرار تاريخ العراق القديم ،

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٣) انظر الاراء التى دارت حول بداية الاسرة الاولى ومؤسسها (محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثانى - الاسكندرية ١٩٩٠ ص ٢٨ - ٩) .

(٤) محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الاول ص ٣٣٣ .

ومن ثم فهو حد فاصل بين عصور ما قبل التاريخ والعصر التاريخي^(٥) وعلى أية حال ، فهناك من يذهب الى أن «مى - براج - نى» - أقدم حاكم سومرى معروف لنا - انما كان يعيش حوالى ٣٧٠٠ ق م ، ومن ثم فيمكن اعتبار ذلك التاريخ بداية للعصر التاريخي فى العراق القديم^(٦) .

وأما تاريخ العرب القديم ، فهو يبدأ منذ عصور ما قبل التاريخ^(٧) ، وحتى بداية القرن السابع الميلادى ، حيث يبدأ التاريخ الاسلامى بحوم أهدت مكة المكرمة الى الدنيا كلها أشرف الخلق جميعا ، سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله ﷺ (فى عام ٥٧١ م) ، وما أن يمضى حين من الدهر - هو على الأرجح أربعون عاما - (٦١٠ م) حتى يسبغ الله فضله على الدنيا كلها ، فيقتزل الوحي من السماء ، ليأمر سيد الانبياء والمرسلين ببداية الدعوة الى الاسلام - دين الله الخفيف - .

وأما سبب اختيارنا لنهاية التاريخ العربى القديم ببداية ظهور الاسلام ، وعدم مروره بعصور اليونان والرومان ، فذلك لان شبه الجزيرة العربية لم تتأثر بالتغيرات السياسية والحضارية التى حدثت فى منطقة الشرق الادنى القديم ، بعد ظهور الاسكندر الاكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق م) ، ذلك لان الاسكندر المقدونى - وكذا خلفاؤه من الاغارقة ، فضلا عن الرومان من بعدهم - لم يكتب لهم نجحا بعييد المدى أو قضيرة فى السيطرة على بلاد العرب ، ومن ثم فقد بقى هذا الجزء العزيز من العالم العربى القديم ، بعيدا عن قبضة اليونان والرومان ، رغم المحاولات المتكررة التى بذلها هؤلاء وأولئك لانضواء الجزيرة

(٥) محمد بيومى مهران : مصر والشرق الادنى القديم - الجزء العاشر - تاريخ العراق القديم - الاسكندرية ١٩٩٠م ص ٦٥ - ٦٦ .

(٦) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٦٩ - ٧٠ ، وكذا

G. Roux, Ancient Iraq, 1980, p. 119-120.

S. L. Woolley, Excavations At Ur, London, 1963, p. 14.

(٧) انظر عن عصور ما قبل التاريخ فى بلاد العرب (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم - الرياض ١٩٨٠ ص ١٩٥ - ٢١٢) .

العربية تحت لواء مقدونيا أو روما أو بيزنطة ، هذا فضلا عن أن الحضارة اليونانية — والرومانية من بعدها — وإن كتب لها بعض النجح في أطراف الجزيرة العربية ، فقد فشلت تماما في أن تنتشر بين ربوعها ، هذا إلى أن العرب إقداما انما قد لحقظوا بلغتهم العربية — اللغة السامية الام — بعيدا عن سيطرة اللغات «الهندو — أوربية» حتى جاء الاسلام الحنيف ، فكانت لغة القرآن ، ورسول الحضارة الاسلامية الى البشرية جمعا .

ومن ثم فيمكننا القول أن شبه الجزيرة العربية لم تمر في تاريخها القديم بالفترة التي نطلق عليها فترة العصور اليونانية الرومانية (العصر الهلينستي) في الشرق الادنى القديم ، وبالتالي فقد استمر تاريخها القديم حتى ظهور الاسلام ، أي أن التاريخ العربي القديم انما يبدأ منذ عصور ما قبل التاريخ ، وينتهي في بداية القرن السابع الميلادي ، حيث بدأ التاريخ الاسلامي ^(٨) .

(٢) نشأة علم المصريات :

يكاد يجمع العالم المتحضر كله على أهمية دراسة الحضارة المصرية القديمة ، وعلى حد تعبير مؤرخ أوربي كبير ، ولا نقول مصري : لا تكاد اليوم توجد جامعة في العالم تحترم نفسها ، ليس فيها كرسى للدراسات المصرية القديمة — أو كما يسمونه «علم المصريات» (Egyptology) — بل انهم هناك في أوروبا وأمريكا أنشأوا الاقسام والمعاهد المستقلة لدراسة «علم المصريات» ، وإن كان الامر في مصر والعالم العربي يختلف عن ذلك كثيرا ، حتى أصبح عدم العناية بتاريخنا العربي في عصوره القديمة أمرا تكاد تنفرد به جامعاتنا ، وإن زاد الاهتمام في السنوات الاخيرة بتاريخنا وآثارنا المصرية — بعد انشاء كلية الآثار — بجامعة القاهرة — ومن ثم فقد انتشرت أقسام الآثار المصرية في جامعات : الاسكندرية

(٨) نفس المرجع السابق ص ٢٢ .

وطنطا والمثيا وسوهاج وقنا ، كما أُنشئ منذ عامين في جامعة الزقازيق
المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم •

هذا وتعتمد الدراسات المصرية القديمة في العصر الحديث على :
١ - الدراسات اللغوية ٢ - الكشف عن الآثار •

١- الأبحاث اللغوية :

ظهرت الكتابة عند المصريين القدامى منذ الألف الرابعة قبل الميلاد
- وقبل قيام الملكية المصرية حوالي عام ٣٣٠٠ ق م - وقد استعمل
المصريون أربعة أنواع من الكتابة (واحدة منها بعد ظهور المسيحية) ،
وكانت «الهيروغليفية» (أى المقدسة) التى استخدمت فى النقوش على
جدران المعابد والمقابر ، وخاصة فى تسجيل النقوش الدينية ، وهى من غير
شك النوع الاصيل فى الكتابة المصرية التى تطورت منه كل الانواع
الآخري ، وهى تقرأ أحيانا من أعلى الى أسفل ، وأحيانا أخرى من
اليمين الى اليسار ، وإن قرئت فى أحيان قليلة من اليسار الى اليمين ،
وعندئذ تتجه العلامات ناحية اليمين ، وقد بلغت عدة حروفها عند
اكتمالها أربعة وعشرين حرفا •

وأما النوع الثانى من الكتابة فهو «الهيراطيقية» ، والتى ظهرت
بسبب تعذر استخدام الخط الهيروغلى فى الشئون العامة ، ومن ثم
فقد اختزله القوم منذ أوائل عصرهم التاريخى الى نوع مبسط من الخط
عرف بالخط الهيراطى (الهيراطيقى) أى (الكهنوتى) لانه أسلوب الكتابة
الذى كان يمارسه الكتّاب من الكهنة فى كتاباتهم الدينية •

وعلى أى حال ، فلقد استخدمت «الهيراطيقية» فى الكتابة على
أوراق البردى ، وقطع الخزف والخشب ، ودونت بها أغلب آداب
المصريين القدامى ، كما أدى تبسيط الكتابة بهذه الطريقة الى انتشار
تعلمها بدرجة لا بأس بها ، ومن ثم فقد أصبحت فى متناول عدد كبير
من الناس ، هذا ويطلب على الكتابة الهيراطيقية «التشبيك» أى أن

العلامات مربوطة مع بعضها ببعض ، وهى فى أغلب الامر ممدودة جداً ،
اللهم الا فى العلامات الاولى ، التى تتجزأ الى خطوط تقريبا .

وكان ثالث أنواع الكتابة المصرية ما سمي «أنكويريال» (وطنى) ، أو
كما يسميه «كليمنت السكندرى» «أبيستولوجرافى» (كتابة الخطابات) ،
وأما العلماء المحدثون فيفضلون تسمية «هيودوت» له «ديموطيقى»
(شعبى) ، وقد تطورت هذه الكتابة من الهيراطيقية حوالى عام ٧٠٠
قبل الميلاد ، على أيام الاسرة الخامسة والعشرين ، وقد كانت فى العصر
البطلمى والرومانى الكتابة المعتادة للحياة اليومية ، وأما مرتبتها فى
الاستخدام فقير ما توصف به أنها غير دينية .

ولما دخلت المسيحية مصر، أراد أنصارها التخلص من الكتابة الوثنية
(كما فعله السوريون عندما أطلقوا على لغتهم الارامية السريانية) أو
أنهم كانوا فى حاجة الى وسيط أكثر لسهولة ترجمة الكتاب المقدس، مما
كان سبباً فى ظهور «القبطية» كآخر مظهر للغة المصرية ، وكانت تكتب
بحروف يونانية ، مع اضافة سبعة أحرف من الديموطيقية ، للتعبير عن
حروف لا توجد فى اليونانية، أما الادب القبطى فملىء بالكلمات اليونانية،
والواقع أن مجمل التركيبات يجعلها شيئاً أقرب الى «الرطانة» ، منها
الى وريث طبيعى للغة المصرية القديمة .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن آخر مثال موجود للمهيروغليفية
المصرية ، إنما هو كتابة وجدت فى جزيرة فيلة ، جنوبى أسوان ، ترجع
الى عام ٣٩٤م ، كما وجدت كذلك فى نفس الوقت كتابة ديموطيقية ،
ترجع الى عام ٤٧٠م .

أما القبطية فلا تزال مستعملة فى الكنائس المصرية حتى اليوم ، ولو
أن كتابتها والتحدث بها إنما قد انقطع منذ قرون^(٩) ، فلقد حلت اللغة

(٩) محمد جمال الدين مختار : الموسوعة المصرية ١/ ٣٤٠ - ٣٤٤ ،
وكذا A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1961, p. 19-22.

العربية محل القبطية رسميا منذ عام ٨٨٧ (٧٠٦م) ، على أيام الخليفة الاموى «الوليد بن عبد الملك» (٨٦ - ٨٩٦ = ٧٠٥ - ٧١٥م) (١٠) ، وان كان «أدولف جروهمان» (١١) قد عثر على وثيقة ترجع الى عام ٨٢٢ (٦٤٢م) ، وقد كتبت باليونانية والعربية ، على أن انتشار اللغة العربية بين المصريين - غير المسلمين - انما كان بعد الفتح الاسلامى بقرن وان ذهبت آراء الى أن اللغة العربية لم تصبح لغة التخاطب العامة لكل المصريين ، مسلمين ونصارى ، الا فى القرن الخامس الهجرى (العاشر الميلادى) لكى يفهمهم سامعهم (١٢) .

وهكذا نرى الناس الكتابات المصرية القديمة، حتى أصبحت معلوماتنا عن الحضارة المصرية القديمة ، وحتى قرنين مضيا، انما تعتمد فى الدرجة الاولى ، على ما جاء فى التوراة وعلى ماكتبه القدامى من كتاب الاغارقة والرومان ، فضلا عما نقله البعض - ان صدقا أو كذبا - من كتابات المؤرخ المصرى «مانيتو» .

وهكذا كانت الحضارة المصرية القديمة بدأت تغيب عن الأذهان شيئا فشيئا ، وخاصة بعد أن تكاثفت عوامل كثيرة على انتقال مركز الثقل السياسى من مصر الى ما سواها من دول العالم القديم، وبعد أن أنشأ الحكم الرومانى على مصر بكلكلة ، وبعد أن اعتنقت مصر النصرانية ، وأصبحت المعابد والامرام والمقابر دليل الكفر والسفرة ، وانزوت حضارة الفراعين قرونا وقرونا ، وطوى الماضى المزهى السحيق، ليحل محله أحاديث وقصص تقوم على الخرافات والاراجيف ، وتعتمد على الخيال ، حتى أصبح الناس لا يذكرون آثار مصر وحضارتها ، الا

(١٠) المقرئى : الخطط ٩٨/١ ، الكندى : الولاة والقضاة - بيروت

١٩٧٨ ص ٥٨ - ٥٩ .

11. Adolf Grohmann, From The World of Arabic Papyri. Cairo, 1952.

(١٢) أحمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية فى مصر - القاهرة ١٩٧٠

ص ١ - ٥٥ .

مقرونة بالأساطير والسحر ، وإن زاد ذلك عند المؤرخين المسلمين زيادة كبيرة (١٣) .

وظل الأمر كذلك حتى القرن السابع عشر الميلادي فعبدوا بعض الرحالة والسياح في زيارة مصر على فترات متباعدة ، حيث شاهدوا أهرامها وبعض معابدها ومقابرها ، وتخيلوا عنها وعن أسرارها ، ما شاء لهم خيالهم ، وربما كان من أهم هؤلاء الأب اليسوعي «سيكار» (١٦٧٧ - ١٧٢٦م) ، وهو أول من وصل إلى أسوان من أولئك الذين سعوا وراء البحث والتحرى من المحدثين نسبيا ، وقد أعاد الكشف عن موقع طيبة ، وهو يزعم أنه زار أربعة وعشرين معبدا ، وأكثر من خمسين مقبرة صخرية ملونة أو منقوشة ، ولعل أهم ما أسهم به هو الخريطة التي استخدمها بعد ذلك «دانفيل» أسسنا لخريطته عن مصر ، التي ظهرت في عام ١٧٦٦م .

ولعل أهم ما يمكن الإشارة إليه من الكتب السياسية عن مصر ، كتاب «نوردن الدنيمراكي» (١٧٠٨ - ١٧٤٢م) و «ريتشارد بوكوك» الانجليزي (١٧٠٤ - ١٧٦٥م) و «جيمس بروس» (١٧٣٠ - ١٧٩٤) ، وإن كان قد نشر قبل عصرهم بزم طويل مقال عن الاهرام ، وهو «البيramidوجرافيا» (Pyramidographia) للفلكي الانجليزي «جون جريفر» (١٦٤٦) (١٤) .

غير أن هؤلاء وأولئك لم يقدموا لتاريخ الحضارة المصرية القديمة شيئا ذا قيمة يعتمد به في مجال البحث العلمي الصحيح ، حتى رأينا الأب اليسوعي «أثناسيوس كيرشر» ، والذي يعد صاحب نقطة البدء الحقيقية لدراسة القبطية^(١٥) ، وإن لم يستطع أن يمنع نفسه من التردى

(١٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٤ .

14. A. H. Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, Oxford, 1964, p. 19-12.

(١٥) انظر :

Athanasius Kircher, *Lingua Aegyptiaca Restituta*, 1643.

Chronique d'Egypte, 35, p. 240 F.

A. H. Gardiner, *Op. Cit.*, p. 11.

في تفسيرات خيالية بالغة الغرابة للمهرغليفيّة ، ومن أمثلة ذلك اسم الفرعون «ابريس» (٥٨٩ - ٥٧٠ ق.م) الذي كتب على مسلة مصرية، انما يعنى عنده «ان مزايا أوزير المقدس يمكن ادراكها بواسطة احتفالات مقدسة ، وعن طريق سلسلة من الجن حتى يمكن الحصول على مزايا! النيل»^(١٦) وفي نفس الوقت ، فلقد رأينا «أثناسيوس كيرش» - وكذا «يابلونسكى» (١٦٩٣ - ١٧٥٧م) و «زويجا» في نهاية القرن الثامن عشر - يجمع كل منهم ما قاله أسلافه أو فكروا فيه بالنسبة الى مصر (١٧) .

وظل الامر كذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، حين بدأ العلماء في البحث والكشف عن الآثار المصرية ودراستها دراسة علمية حديثة ، قوصلوا الى الكثير من أسرار أصحابها ، والمدى الذى بلغوه في سلم المدنية والتقدم ، وما قاموا به من أعمال ، مما أتاح الفرصة لاعادة كتابة التاريخ المصرى القديم ، وكشف النقاب عن أصول الحضارة المصرية القديمة .

وجاءت الخطوة الاولى مع حملة «نابليون بونابرت» (١٧٦٩ - ١٨٢١م) على مصر في أخريات القرن التاسع عشر (١٧٩٨ ع - ١٨٠١م) اذ أخضر معه طائفة من العلماء درسوا مصر دراسة علمية شاملة ، وكان من بين هذه الدراسة آثار مصر ومعالمها التاريخية ، والتي نشرت نتائجها في كتاب علمى ضخّم من أربعة وعشرين جزءاً هو كتاب «وصف مصر» (Description de l'Egypte) الذى نشر في بلويس فيما بين عامي ١٨٠٩ ، ١٨١٣م ، وكان بداية الاعمال التى تهدف الى دراسة تاريخ مصر القديمة دراسة وافية .

وقد صادف هذه الخطوة ، خطوة أخرى طيبة ، اذ عثر أحد رجال الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١م) في عام ١٨٩٩ على الاثر المعروف

16. Obelisci Aegyptiaci onder Pretatio, Rome, 1666, p. 53.

17. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 11.

باسم «حجر رشيد» (Rosetta Stone) ، وهو حجر من البازلت الاسود
عثر عليه الضابط الفرنسى «بيير فرانسوا - اكسافيه بوشاده»
(١٧٧٣ - ١٨٣٣م) فى أغسطس ١٧٩٩م ، أثناء أعمال نقل التربة فى
قلعة «جوليان» فى حائط قديم بهذه القلعة على مقربة من رشيد ، ثم
أرسل الحجر بعد ذلك الى المجمع العلمى المصرى بالقاهرة ، حيث اهتم
به العلماء ، كما أمر نابليون بطبع عدة صور من النقش المسجل على
الآثر ، لترسل الى العلماء فى مختلف بقاع أوروبا ، ثم نقل بعد ذلك الى
منزل الجنرال «مينو» بمدينة الاسكندرية .

وقد حاول الفرنسيون بعد ذلك الخروج بحجر رشيد من مصر ، غير
أن هزيمتهم فى «أبو قير» فى أغسطس ١٧٩٨م ، أدت الى انتقال كل
الآثار التى معهم ، ومنها حجر رشيد ، الى أيدي الانجليز ، بمقتضى
المادة السادسة من معاهدة العريش التى عقدت فى يناير ١٨٠٠م ، ومن
ثم فقد نقل الانجليز حجر رشيد فى فبراير ١٨٠٢م الى انجلترا ، حيث
أودع الجمعية الاثرية بلندن ، ثم نقل الى المتحف البريطانى بعد ذلك .

هذا وقد نقش على حجر رشيد هذا ، قرار مكتوب بلغتين (المصرية
واليونانية) وبكتابات ثلاث (الهروغليفية والديموطيقية واليونانية) ،
وقد أصدره مجمع الكهنة المصريين فى منف فى ٢٧ مارس عام ١٩٦ ق.م ،
تمجيذا للملك «بطليموس الخامس» ابيفانس (٢٠٥ - ١٨٠ ق.م) ،
وشكرا له على اعفاء معابدهم من تكاليف فرضها أسلافه عليه ، ومنحهم
الهبات والهدايا ، كما رمم وبنى بعض المعابد ومقاصير الالهة ، وقدم
الهدايا الى أبيس ومنفيس وكل الحيوانات المقدسة فى مصر (١٨) .

وأما النصان الديموطيقى واليونانى فيكادان أن يكونا كاملين ، وأما
النص المهرغلىفى فلم يكن كذلك ، وسرعان ما ثبت أن هذه الوثيقة

18. E. R. Bevan, *A History of Egypt under The Ptolemaic Dynasty*,
London, 1927, p. 264-8.

الثمينة تتيج فرصة لطل الرموز ، أكثر مما أتاح أى شىء آخر قبلها ،
هذا وقد اهتم العالم الفرنسى «البارون سلفتر دى ساسى» بذلك •

غير أن أول خطوة جادة كلفت تلك التى قىام بها الدبلوماسى
السويدى «أكر بلاد» حيث ركز جهوده على الكتابة المختزلة المشوشة
تحت «الهيروغليفية» مباشرة ، مدركا أنها «الديموطيقية» التى أشار
إليها هيرودوت ، وبعد أن وثق — عن طريق المقارنة باليونانية — من
مكان أسماء الاعلام ، استطاع أن يميز حوالى نصف حروف الهجاء وأن
يستوثق من أن اللغة المستعملة هى التى عاشت بعد ذلك تحت اسم
«القبطية» ، ثم نشر مقالا بذلك عام ١٨٠٢م •

وفى عام ١٨١٤م توصل العالم الانجليزى «توماس يونج» الى صلة
القربة الشديدة بين طرائق الديموطيقية والهيروغليفية ولاحظ أن القسم
اليونانى من حجر رشيد كان مليئا بكلمات تتكرر • وقد نجح فى تقسيم
الديموطيقية الى ست وثمانين مجموعة من الكلمات معظمها صحيح •

وأما بالنسبة الى الهيروغليفية فقد كانت نقطة البدء عنده أن
الخرائيش أو الحلقات الملكية تحوى أسماء الملوك والملكات ، ومن ثم
فقد استطاع أن يتوصل الى خرطوش «برنيس» ، فضلا عن خرطوش
بطليموس المعروف ، ثم اقترح خرطوشا آخر نسبته الى «تصوتمس»
كما استطاع كذلك أن يميز فى الهيروغليفية حرفى «ف» و «ت» وكذا
المخصص الذى يستخدم فى النصوص المتأخرة لنهاية الكلمات المؤنثة ،
كما تعرف عن طريق المتنوعات فى البرديات الى أن الحروف المختلفة
تستطيع أن تكون لها نفس القوة ، وبالاختصار توصل الى مبادئ
«الجناس» ، وكان كل هذا مختلطا بكثير من البدايات الزائفة ، ولكن
الطريقة التى اتبعها أدت من غير شك الى حل نهائى للرموز (١٩) •

19. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 12-13.

وجاء «جان فرانسوا شامبليون» (١٨٩٠ - ١٨٣٢م) (٢٠) ، حيث كتب له نجحاً بعيد المدى في مهمته ، بعد أن ظل حل المشكلة ميّو غ من زماناً طويلاً ، بل أنه ظل متردداً مدى سنة بعد اكتشافه العظيم في الجزم بأن الهيروغليفية ليست كتابة رمزية خالصة ، ورغم تردد شامبليون ، فإنه قد أثبت عن طريق مقارنة العلامات الديموطيقية بنظائرها من البراطيش أن الهيروغليفية تستطيع كذلك - ولو في بعض المقاسبات - أن تصبح هجائية (٢١) .

هذا وقد توصل «شامبليون» الى الدليل الحاسم عن طريق مسلة مصرية نقلت الى انجلترا في عام ١٨١٩م ، ونشرت نقوشها الهيروغليفية ونقوش أخرى يونانية سجلت على قاعدتها عام ١٨٢١م ، وتضمنت هي الأخرى اسم «بطليموس» و «كليوبترا» وبالمقارنة بين الحروف المشتركة بين الاسمين ، وضح ثلاثة عشر حرفاً ، ذات اثني عشر صوتاً ، وكان هذا السلاح الجديد دافعا على أن يقدم على تمييز الكتابة الهيروغليفية عن الكتابات التي تحمل أسماء ، الكسند وبرنيس وتيريوس ودومسيان وتراجان ، الى جانب الألقاب الرفيعة مثل «أوتو كراتور» وقيصر وسباسخوس ، وهكذا أمكن الوصول الى حل فيما يتصل ببراطيش العصر اليوناني الروماني (٢٢) .

(٢٠) ولد جان فرانسوا شامبليون في ١٢/٢٢/١٧٩٠م ببلده «فيجاك» بمقاطعة اللوت ، وفي عام ١٨٠٤م التحق بمدرسة ليسيه جرينويل حيث درس اليونانية واللاتينية ، ثم عكف على دراسة العربية والعبرية والكلدانية والسريانية والقيبطية والفارسية والاثيوبية ، وفي عام ١٨٠٧ كتب بحثه «مصر تحت حكم الفراعنة» ، وفي نفس العام التحق بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ، وفي عام ١٨١٥م عين مدرسا بكلية الآداب في جرينويل ، ولكنه طرد منها عام ١٨١٥م ، فعاد الى فيجاك ، ومنها الى باريس حيث تم له اكتشاف اللغة المصرية القديمة عام ١٨٢١م ، ثم زار مصر في الفترة (١٨٢٨ - ١٨٣٠) ، وفي مارس عام ١٨٣١م عين أستاذا في الكوليج دي فرانس ، حيث بقي في باريس حتى موته عام ١٨٣٢م (شامبليون : نشرة المتحف المصري عام ١٩٧٢) .

21. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 13.

JEA, 44, 1958, p. 123.

(٢٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٦ ، وكذا =

ثم سرعان ما استطاع أن يحل الرموز الهيروغليفية بعد ذلك ، وأن ينشر جانبا كبيرا من أبحاثه في «خطاب إلى هسيو داسيه عن أبجدية الهيروغليفية الصوتية»^(٣٣) في عام ١٨٢٢ م ، و «موجز للنظام الهيروغليفي»^(٣٤) في عام ١٨٢٤ م ، وأن ينجح قبل موته — وهو في الأربعين من عمره — في أن يكشف عن المعنى العام لمعظم النصوص التاريخية .

وتابع العلماء بعد ذلك الدراسات اللغوية على الآثار وصفحات البردي ، جيلا بعد جيل ، مما أدى الى تقدم الدراسات اللغوية حتى أصبحت اللغة المصرية القديمة تعرف اليوم بما لم تعرف به لغة قديمة أخرى من الصحة والوضوح^(٣٥) ، هذا وقد استطاع «كارل ريتشارد لبيسيوس» (١٨١٠ — ١٨٨٤م) في مقال نشر عام ١٨٣٧م ، أن يسكت نهائيا أصوات أولئك الذين كانوا لا يزالون يرتابون في صحة حل الرموز ، وكان من أوائل الباحثين في هذا المضمار «صموئيل برش» (١٨١٣ — ١٨٨٥م) و «ادوارد هنكس» (١٧٩٢ — ١٨٦٦م) ، ثم ظهر بعد ذلك بقليل «ك. و. جودوين» في إنجلترا ، ثم «دي روجيه» و «شابات» و «ديفيريا» في فرنسا ثم أعظمهم جميعا «هينرش بروجش» (١٨٢٧ — ١٨٩٤م) في ألمانيا .

ثم هناك كذلك «يوهان بيتر أدولف أرمان» (١٨٥٤ — ١٩٣٧م) الذي استطاع مع تلاميذه ، بخاصة «كورت هينرس زيته» (١٨٦٩ — ١٩٣٤) أن يضع حدودا مميزة بين المظاهر المختلفة للغة ، وأن يضع أسس قواعد علمية لكل منها ، وما قام به «فرنسيس للون جريفث» (١٨٦٣ — ١٩٣٤م) الذي برزت عبقريته الممتازة كعالم في الكتابات

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs 1964, p. 13. =

Egyptian Grammar, 1966, p. 12-15.

23. Lettre M. Dacier Relative L'Alphabet des Hieroglyphes Ophonetiques, 1822.

24. Precis du Systeme Hieroglyphique, 1824.

(٢٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٦ .

القديمة ، مكتته من قراءة مختلف الخطوط الهيروغليفية والديوطيقية بصورة يذبحها كل من سبقوه (٣٦) .

٢ - الكشف عن الآثار :

وأما عن البحث عن الآثار ، فمن المؤسف حقا ، أن صاحب هذه الفترة (أى منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر) فترة تعتبر من أظلم وأبشع الفترات التى مرت على آثار مصر - بل وأمم الشرق الأدنى القديم - اذ كانت فترة نهب وتخريب ، فقد كان الحفار يبحث فقط عن التحف الغالية ، غير عابىء بالطريقة التى يعثر بها عليها ، ولا بدراسة ، حتى وان كانت سطحية ، عن ظروف المكان الذى يعمل فيه ، ولا بالمحافظة على الآثار المنقولة العادية ، مثل الفخار الذى يساعد على التأريخ ، ويحدد مراحل التطور فى الحضارة (٣٧) .

وهكذا ظهرت طائفة من الاجانب من أديعاء البحث الاثرى ، كان أغلبهم أفاقيين نهاين ، اجتذبتهم الشهرة التى عمت العالم عن كنوز مصر وقنونها وعجائبها ، والرغبة فى تحصيل الثراء عن أقرب طريق ، وشجعهم على ذلك استعداد المتاحف الاجنبية وكبار الاثرياء على شراء كل ما يعرضونه عليهم منها ، ويسر لهم ذلك فتح أبواب مصر فجأة أمام الاجانب ، منذ أيام الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١م) وأيام محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٩) ، بعد أن كانت موصدة أمامهم فى عهد سيطرة العثمانيين ، ثم معاونة القناصل لهم ، واستخدامهم اياهم لصالحهم فى فترات الضعف من عهد محمد على ، وعن طريق هؤلاء جميعا وعلى رأسهم (جيوفانى بلزوني) الايطالى و «فردريك كايو» الفرنسى

26. F. L. Griffith, The Decipherment of The Hieroglyphs. JEA, 37, 1951, p. 38 F.

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 16.

27. G. É Daniel, A Hundred year of Archaeology, London, 1949.

W. R. Dawson, Who Was in Egyptology, London, 1951.

S. R. K. Glinville, The Growth and Nature of Egyptology, London, 1947.

(١٧٨٧ - ١٨٦٨م) انتقلت كنوز مصرية كثيرة الى المتاحف الاوربية ،
والى مجموعات الاثرياء ، ولم تقتصر شرورها على تسرب آثار مصر
الى الخارج ، وانما امتدت شرورها الى تحطيم الهش من هذه
الآثار ، وتحطيم المئات من الجثث مما لم يكن الافاقون يقدرّون له
أهمية مادية كبيرة (٢٨) .

ومن عجب أن تنتقل حتى المسلات، فهناك - غير تلك التى تقوم الان
فى ميدان اللاثيران بروما منذ عام ١٥٨٨م - مسلتان للفرعون العظيم
«تحتومس الثالث» ، الواحدة نقلت الى لندن، حيث أقيمت على شاطئ
النيل عام ١٨٧٧م ، بعد أن كان محمد على قد أهداها للانجليز عام
١٨٣١ ، والاخرى نقلت الى نيويورك، حيث أقيمت فى «سنترال بارك» ،
ومن عجب ، بل قل من الجهل الفاضح ، أن المسلتين انما تسميان باسم
واحد ، هو «مسلة كليوباترا» .

على أن هذا كله ، لا يمنع من القول بأن هناك من كانوا على غير
ما ذكرنا آنفاً ، كما أن هناك بعثات أجنبية منظمة ، جاءت للكشف عن
الآثار المصرية ، فضلاً عن أولئك الذين قاموا بجهود فردية ، ومنهم
«سير جون جاردنر ويلكنسون» الانجليزى ، والذى قام بزيارة موقع
«العمارنة» (أخيتاتون) عام ١٨٢٠م ، حيث كشف هناك عن عدة
مقابر (٢٩) ، هذا فضلاً عن رحلة «شامبليون» بصحبة «روسيليني»
الايطالى عام ١٨٢٨ ، التى قدمت مجموعة ضخمة من الرسوم نشرت
فى مجلدات من الحجم الكبير (٣٠) ، ثم تلت ذلك بعثة بروسية برئاسة
المالم الكبير «كارل رتشارد لمبسيوس» بزت الجهود السابقة بالمجلدات

(٢٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

29. J. G. Wilkinson, Manners and Customs of Ancient Egyptian,
London, 1837.

30. Ippolito Rosellini, I monumenti deli Egitte e delia Nubia, Diseg-
nati della Spedizioni Scientifico Litteraria Toscana in Egitti, Rome,
1832-1844.

ولم تكن بريطانيا متوانية في هذه المرحلة ، فسرعان ما ظهر فيها «روبرت هاى» و «جيمس برتون» وقد انتجا — بالتعاون مع جون ويلكنسون — مجموعات لا نظير لها من جزازات النقوش واللوحات الملونة ، والكتابات التى لا تزال لها قيمتها الكبيرة حتى اليوم، لأن أصول كثيرة منها بليت ، أو نالها الكثير من التلف (٣٧) •

وأخيرا تنبعت الحكومة المصرية الى أهمية الاثار المصرية ، ومن ثم فقد بدأ الاتجاه الى انشاء متحف مصرى منظم للآثار ، وان اكتفت في هذه المرحلة بانشاء ادارة للاثار ، وبتخزين المكتشف منها في دار بالازبكية مدة ، وفي دار بالقلعة مدة أخرى ، حتى جاء العالم الفرنسى «أوجست فرديناند فرانسوا مارييت» (١٨٣١ — ١٨٨١م) ، وكان من المقربين الى الخديوى سعيد باشا (١٨٥٤ — ١٨٦٣) ، ومن ثم فقد نجح في تأسيس متحف بولاق عام ١٨٥٩م ، والذي نقل الى سراى الجيزة في عام ١٨٩١م ، وأما المتحف المصرى الحالى ، الموجود الان بميدان التحرير بالقاهرة فقد أنشئ في عام ١٩٠٢ •

ونشط التنقيب عن الاثار في هذه الفترة بمولفة الدولة ، وترأسه «ملوييت» — وكان قد عين مديرا لمصلحة الاثار عام ١٨٥٨ — وقد قدر لهذا الرجل أن ينقب في أرض مصر هراة ثلاثين عاما ، أظهر فيها نشاطا كبيرا وبخاصة في منطقة منقارة •

وجاء العالم الفرنسى «جاستون ماسبرو» (١٨٤٦ — ١٩١٦) مديرا لمصلحة الاثار بعد مارييت ، وكان أول من أباح للبعثات العلمية حق

31. K. R. Lepsius Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien. Berlin, 1849.

32. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 15.

التتقيب العلمى فى مصر ، فتألفت على أثر ذلك جمعيتان ، الاولى «جمعية الكشوف الاثرية المصرية» فى لندن (Egypt Exploration Society) والثانية جمعية فرنسية فى القاهرة (La Mission Archeologique Franise au Caire) فبدأت بذلك عصر البحوث العلمية المنظمة ، وأخذ علم الآثار يركز على دعامات قوية ، ويتطور على أيدي علماء مبرزين .

وقد دخلت أمريكا الميدان متأخرة بوان استطاعت أن تعوض ما فاتها من زمن ، حتى لتشهد النشر الرائع لقابر طيبة الذى قام به «متحف متروبوليتان للفن فى نيويورك» (Metropolitan museum of Arts in New York) لذى يرجع الفضل فيه الى العاملة الانجليزية «نورمان دى جارس ديفز» (١٨٦٥ - ١٩٤١) بويكان يميزها فى أهميتها العمل فى المقابر، الذى قام «معهد الدراسات الشرقية فى جامعة شيكاغو» (Oriental Institute of The University of Chicago) ، وهو المنظمة الاثرية الكبيرة التى تدين بوجودها الى همّة العالم الأمريكى الكبير «جيمس هنرى برستد» (١٨٦٥ - ١٩٣٥) .

ومع ذلك فقد ظل الحفر العلمى بطيئاً فى أول الامر ، حتى علم ١٨٨٤م ، حين استخدم «سير وليم ماثيوس فلنדרز بترى» (١٨٥٣ - ١٩٤٢) ، وربما كان أنجح الحفارين جميعاً ، أكثر الوسائل دقة ، كما كان مثلاً طيباً ، لم يحتذ الا فى النادر القليل ، للنشر السريع لنقائج بحوثه (٣٣) .

وعلى أى حال ، فلقد وفدت الى مصر بعثات أثرية كثيرة أوفدتها الجمعيات والجامعات الاوربية والامريكية منذ عام ١٨٩٠م واستمر لها نسلمتها خلال القرن العشرين فى صعيد مصر ودلتاها وبلاسيما فى مناطق الجيزة وسقارة والفيوم وتل العمارنة وأبيدوس وطيبة ونقادة ونخن

33. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 15-16.

والكاتب ، فكشفت عن قرى ومدن وأهرام ومعابد ، واستخرجت كنوزا ، ونشرت مخطوطات ووثائق ونصوص كثيرة (٢٤) .

(٣) منهج البحث في التاريخ القديم :

لعمل من الأهمية بمكان الإشارة الى أن منهج البحث في التاريخ القديم ، لا يختلف عن غيره من فروع التاريخ الأخرى (الوسيط والاسلامى والجديث) الا في أمور تتعلق به وحده ، وخاصة في العلوم المساعدة لدراسة عصور ما قبل التاريخ ، فضلا عن حاجة الباحث في التاريخ القديم الى دراسة علوم معينة كالآثار واللغات القديمة مثلا .

وعلى أية حال فمعنى البحث : هو التعرف على الطريقة أو الوسيلة أو المنهج الذى يقود الباحث الى الطريق الصائب الذى يستخدمه في سبيل الوصول الى الحقيقة التاريخية ، فالمنهج Method اذن : هو نوع من التنظيم العقلى ينبغى على الباحث اتباعه في سبيل الوصول الى الحقيقة التاريخية ، وهو الخطة أو التخطيط لعملية كتابة التاريخ ، ولما كان التاريخ هو تسجيل وتدوين الحقائق التاريخية بالنسبة للأفراد أو الشعوب ، سواء أكان ذلك في المجالات الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية — الداخلية أم الخارجية — ومن ثم فعلى الباحث في التاريخ اتباع منهج معين في طريقة كتابة التاريخ ، حتى يكون معبرا عن الحقائق التى يرغب في تدوينها .

وبدهى أن التاريخ لا يدرس عفوا ، ولا يكتب اعتباطا ، وبدهى أيضا أنه ليس كل من يحاول الكتابة في التاريخ يصبح مؤرخا كما يتصور بعض الناس ، أو كما يتخيل بعض الكتاب — حينما يسطرون صفحات طويلة عن حوادث ماضية أو معاصرة ، ويظنون بذلك أنهم يكتبون تاريخا ماداموا قد أمسكوا بالقلم والمقرطاس ، ودارت لهم المطابع ، ومالت كتاباتهم رفوف المكتبات — ذلك لانه من الضروري أن تتوافر في المؤرخ

(٢٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٧ .

الصفات الضرورية، وأن تتحقق له الظروف التي تجعله قادراً على دراسة التاريخ وكتابته ، ومن ذلك :

(١) صفات المؤرخ :

لعل من الأهمية بمكان - وقبل دراسة منهج البحث التاريخي ، وكيفية التعبير عن الحقائق التاريخية بأسلوب علمي سليم - أن نشير ، بادية ذي بدء ، الى بعض الصفات الأساسية في كاتب التاريخ أو «المؤرخ» ، والتي تنقسم الى قسمين أساسيين : خصال خاصة بشخصية المؤرخ ، وأخرى خاصة بقدراته العلمية :

١ - خصال خاصة بشخصية المؤرخ :

ولعل مما تجدر الإشارة اليه هنا الى أن البحث موهبة فنية تمنح من الله تعالى لبعض الناس ، ولا تمنح لآخرين ، ومن ثم فليس الاطلاع ، ولا جمع المادة العلمية وترتيبها ، بالعناصر الكافية لانتاج بحث أو رسالة ممتازة في التاريخ ، فلا بد من توفر القدرة على البحث عند الباحث أولاً ، ذلك لأن جمع المادة وترتيبها شيء ، وتفسيرها وإبراز أهميتها ، واستخلاص النتائج منها ، شيء آخر بل أن هذا هو الصعب والمهم في كتابة الرسائل العلمية Thesis Writing والابحاث التاريخية ، وهنا يجب أن يعرف الباحث أن هناك أمراً لا يمكن التجاوز عنه أو تجاهله ، وهو أن تكون له مقدرة يستطيع أن يستقل بها في فهم الحقائق وفي تفسيرها ، كما أن فهمها وتفسيرها شيء قابل للاختلاف من شخص لآخر ، فإذا لم يكن الباحث قد وهب هذه القدرة ، فهو دون المستوى اللازم للمناهج العلمي المطلوب (٢٥) .

وعلى أية حال ، فليس هناك من ريب في أن هناك خصالاً خلقية معينة يجب توافرها فيمن يتعرض لمهمة البحث العلمي ، أهمها : الصدق والأمانة والإخلاص والنزاهة والشجاعة ، لأنه يستحيل على مؤرخ

(٢٥) أحمد شلبي : كيف تكتب بحثاً أو رسالة - القاهرة - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٧٤ ص ١٠ - ١١ .

الحقائق أن يكون انسلنا مزورا أو كاذبا ، أو غير ممبر عما تنص عليه الوثائق التاريخية .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الثقافة الاسلامية — كما أشرنا من قبل — قد ابدعت في تقويم الرجال فنا قلثما بذاته هو «الجرح والتعديل» (٣٦) ، فقد كان المسلمون يأخذون الاخبار من أفواه الرجال ، ومما قيده في نسخهم ، ناظرين دائما الى هيئة الرجل وصلاته ، فهم لم يكونوا يفصلون بين علم الفرد وسلوكه ، والفرد — في نظرهم الصائب — وحدة متكاملة ، يؤثر فيها سلوكه على عمله ، أو العكس ، ولا مناص من بحث حاله بحثا متقصيا ، يتناول أدق تفاصيل حياته الذهنية والسلوكية ، ليتمكن قبول نقله أو رفضه ، وما نظن أن ثقافة في الارض قامت على مثل هذا الاساس النقدي المنهجي النزيه ، فذلك شيء تفرد به المسلمون (٣٧) .

هذا وهناك أمر في غاية الاهمية والخطورة في منهج البحث التاريخي وأعني به «الوطنية» ، إذ أن على المؤرخ أن يهتم كثيرا بهذا الامر ، ذلك

(٣٦) انظر عن «الجرح والتعديل» : ابن قتيبة : تاويل مختلف الحديث — القاهرة ١٩٦٦م ، الذهبي : ميزان الاعتدال — تحقيق على محمد البجاوي — القاهرة ١٩٦٣ ، تذكرة الحفاظ — حيدر آباد ١٩٥٨ ، المشتبه — تحقيق على محمد البجاوي — القاهرة ١٩٦٢ ، ابن أبي حاتم الرازي : الجرح والتعديل — حيدر آباد ، الامام احمد : العلل ومعرفة الرجال — تحقيق طلعت قسوج واسماعيل أوغلي — انقره ١٩٦٢ ، ابن المديني : العلل — تحقيق مصطفى الاعظمي — بيروت ١٩٨٠م ، الحفاظ العراقي : ذيل ميزان الاعتدال — جامعة أم القرى مكة المكرمة ١٤٠٦هـ ، الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية ، حيدر آباد ١٣٥٧ هـ ، ابن حجر العسقلاني : نخبة الفكر في مصطلح أهل الاثر — ط مصر ١٣٠٨ هـ ، تهذيب التهذيب — حيدرآباد ١٣٢٥هـ ، مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث بيروت ١٩٧٨ ، اسد رستم : مصطلح التاريخ — بيروت ١٩٣٩ ، عثمان موافي : منهج النقد التاريخي الاسلامي — الاسكندرية ١٩٨٤ ، الغزالي : المستصفى في علم الاصول — القاهرة ١٩٣٧ ، الحاكم النيسابوري : معرفة علم الحديث : بيروت ، وانظر : هذه الدراسة ص ١٢٤ .

(٣٧) عهد الصبور شاهين : تاريخ القرآن — القاهرة ١٩٦٦ ص ٨٣ —

لان الوطن عنصر أساسى فى حياة الإنسان ، وأن الولاء للوطن حقيقة لا مرء فيها على الإطلاق ، ومن ثم فينبغى على المؤرخ أن يحاول التعبير عن الحقائق بطريقة مجردة ، ووطنية ، فى نفس الوقت ، حتى لا يقع فيما فيه اليه «كار» من : أننا اذا تناولنا عملا تاريخيا فلا ينبغى اهتمامنا على الحقائق التاريخية فضعب ، وإنما يجب أن يشمل المؤرخ أيضا ، ذلك لان المؤرخ إنما هو ابن عصره ، بل هو أحيانا ابن طائفته وأحيانا أخرى ابن مذهبه وحزبه ، وهو مقيد بهذا كله بحكم اتجاهاته وانفعالاته وميوله ، ومن هنا يمكن القول بأن الحقائق التاريخية والوثائق الأصلية قد تختلط مع الاتجاهات الخاصة للمؤرخ .

وأما الأسلوب العلمى الصحيح الذى يتضح فى الخطوات التالية فقد يساعد المؤرخ فى التعبير عن الحقائق مجردة ووطنية فى آن واحد ، فإذا كان المؤرخ معبرا بصديق ، وبأسلوب علمى ، وبطريقة مجردة ، ومعتمدا على الوثائق الصحيحة الموثوق منها حولا يتناولها الشك بحال من الأحوال والمعترف بها فى مختلف الهيئات العلمية ، فإنه يكون بذلك قد أدى واجبه العلمى الذى يتطلبه علم التاريخ ، والوطنية التى يدعو اليها الوطن ، وعلى أية حال ، فعلى المؤرخ ألا يكون متحيزا ، ولا مهاجما أو مدافعا ، وإنما يذكر الحقائق ، كما نصت عليها الوثائق ثم يؤيد ما يتطلبه الواجب الوطنى ، كما أن على المؤرخ أن يحرر نفسه — جهد الطاقة — من الميز أو الإعجاب أو الكراهية ، لغرض خاص ، أو لفأحية تاريخية معينة .

وهكذا فعلى المؤرخ أن يكون موضوعيا ، غير متأثر بالعوامل الذاتية وألا يجعل لآرائه الشخصية أو معتقداته الدينية أو اتجاهاته السياسية دورا فى تغيير الحقيقة أو طمس معالمها ، كى تخدم آراءه ومعتقداته ، وصدق الله العظيم حيث يقول «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، أعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خبير ما تعملون» (٢٨) ، كما أن على

المؤرخ ألا يقوم بدراسة موضوع ما ، وقد عقد العزم مقدما — وقبل بدء الدراسة — على تحقيق نتائج معينة ، بل عليه أن يضع فكره وثقافته وميوله في خدمة البحث العلمى وحده (٣٧) .

ولعل مما تجدر الإشارة اليه أن يعى المؤرخ تماما ، أن مهمته ليست إصدار أحكام الزينغ والضلال على الماضى ، أو أن يجعل من نفسه واعظا عقائديا ، لن يؤدى إلا الى أحكام خاطئة ، اذا قيست بأحكام العصر الذى يدرسه ، فلك لان كل عصر تاريخى ، بل لكل حقبة ، كما أن لكل حضارة شخصيتها وقيمها ، وليس من شأن المؤرخ أن ينظير الى الماضى من خلال معايير الحاضر ، لان الانسان ليس شكلا ولا طابعا ولا نمطا واحدا ، ومن ثم يتنبهى التمييز عن كل عصر بتعبيرات خاصة به ، لان لكل عصر — كما أن لكل أمة — طابعا فريدا لا يتكرر ، فليست الحضارة المصرية القديمة كالحضارة الصينية أو اليونانية أو الرومانية ، وانما تشكلت كل منها بطريقة متميزة منفردة ، ومن ثم فقد وجب على المؤرخ أن يتعاشى مع العصر الذى يدرسه ، وأما تجاوز ظروف الزمان والمكان ، وإصدار أحكام مطلقة ، فهذا أسوأ شهم للتاريخ ، فمثلا ليس شكسبير هو سوفوكليس ، ولا ميلتون هو هوميروس ، كما أن المتنبى ليس هو شوقى ، ولا سعد زغلول هو جمال عبد الناصر (٣٨) .

وأخيرا على المؤرخ أن يكون صاحب احساس وذوق وعاطفة وتسامح وخيال ، وأن يكون بعيدا عن الشهرة أو الظهور ، وأن يكون محبا للدرس ، جلدا صبوراً ، فلا تمنعه وعورة البحث أو الصعاب والعقبات عن مواصلة العمل ، ولا توقفه قلة المصادر ، ولا يصرفه عن عمله غموض الوقائع والحقائق التاريخية واختلاطها واضطرابها .

ب - وأما بالنسبة للقدرات العلمية للمؤرخ : فيجب أن يكون عند

(٣٩) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص ٢٥

(٤٠) أحمد محمود صبحى المرجع السابق ص ٢٨ ، وكذا

Patrick Gardiner, in *Encyclopaedia of Philosophy*, pp. 486-499.

المؤرخ قدرات واستعدادات تدريجية في الناحية اللغوية والعلمية. تتصل
بصفة خاصة بفرع التاريخ الذي يدرسه ، وفي الواقع أن هذه الصفات
انما هي نقطة أساسية ومكاملة لصفات المؤرخ — الإنفة الذكر — لان
توفر الصفات الخلقية النبيلة في المؤرخ ، ليست وحدها بكافية لاداء
عملية التأريخ ، وانما تكملها عملية الاستعداد العقلي والعملي لاداء هذه
المهمة ، وأول جوانب هذه المهمة هي قدرته اللغوية ، وخاصة لغة العصر
موضوع دراسته ، والتي كُتبت بها الوثائق المنتمية لهذا العصر ، لان
اللغة هي وسيلة التعبير ، ومن ثم فعلى المؤرخ أن يحرص بمداولتها ،
وما تريد أن تعبر عنه ، وأنظلاقاً من كل هذا ، فعلى دارس التاريخ
الفرعوني — مثلاً — أن يعرف اللغة المصرية القديمة ، بكتابتها المختلفة
(هيروغليفية وهيروغليفية وديموطيقية) ، وعلى دارس التاريخ الاسلامي
أن يجيد اللغة العربية ، وهكذا .

وليس هناك من ريب في أن ملكة النقد ، انما هي من الصفات
الضرورية للمؤرخ ، فلا يجوز له أن يقبل كل كلام ، أيا كان قائله من
ذوى الشهرة والرنين ، وكل واحد من الناس يؤخذ من قوله ، ويرد عليه
الا سيدنا رسول الله ﷺ فهو وحده المعصوم عن أن يقول إلا ما هو
حق وهدى^(٤١) ، كما أن على المؤرخ ألا يصدق كل وثيقة أو مصدر بغير
الدرس والفحص والاستقصاء ، فيأخذ منه ما يرى أنه الصدق — أو
ما هو قريب من الصدق — ويترك ما يتنافى مع ذلك ، حتى اذا كان هذا
الصدق يتنافى مع عواطفه الشخصية أو للوطنية ، فالحق أحق أن يتبع ،
وكل وثيقة أو مصدر ، يؤخذ منه ، ويرد عليه ، الا القرآن الكريم ، كتاب
الله الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم
حميد»^(٤٢) .

(٤١) محمد بيومي مهران : السيرة النبوية الشريفة — الجزء الثالث
بيروت ١٩٩٠ ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٤٢) سورة فصلت : آية ٤٢ ، وانظر : سورة البقرة : آية ٢٥٢ ،
ال عمران : آية ٣ ، ٦٢ ، النساء : آية ٨٧ ، الكهف : آية ١٣ ، فاطر : آية
٣١ ، الزمر : آية ٢ ، ٤١ ، الجاثية : آية ٦ ، محمد : آية ٢ .

وفي الواقع ان المؤرخ اذا ما أعوزته ملكة النقد سقطت عنه حفته ، وأصبح مجرد شخص يحكى كل ما يبلغه ، على أنه حقيقة واضحة ، ومن ثم فعلى المؤرخ أن يفهم آراء الغير ، وأن يكون دقيقا في نقله عباراته ، فكريا ما يقع بعض الباحثين في أخطئه جسيمة بالنسبة لآراء الآخرين ، إما لخطأ في النقل ، أو لسوء فهم ، كما أن على المؤرخ أن يفتح عينيه وقلبه لما يقرأ ، وأن يكون حذرا ، فلا يسلم تسليما مطلقا بالآراء التي قررها باحثون من قبله ، بل لابد له من أن يفكر فيها ، ويعمن النظر في محتوياتها ، وما أكثر الامثلة التلريضية التي خالف فيها الباحثون السابقين ، وانطلاقا من كل هذا ، فعلى المؤرخ أن يدرس بنفسه الاحداث والأسباب التي أدت اليها ، ثم يقارن النصوص بعضها ببعض ، وأن تبرز في كل مراحل البحث شفافيته ، بصفة ايجابية مؤثرة ، ولكن حذار من المبالغة في ذلك ، فيحاول الباحث بالحق والباطل أن يصل الى ما يريد فهذا ما يجب أن يبعد عنه طالب العلم ، البعد كل البعد (٤٣) .

ولعل من الاهمية بمكان أن يعي المؤرخ أن التاريخ ليس مجرد وثائق ومستندات ، ذلك لان مجرد تجميع المادة التاريخية إنما يجعل من التاريخ عملا من أعمال «القص واللصق» ، ومن المؤرخ مجرد كاتب حصيليات ، ككاتب «الارشيف» ، فالمؤرخ الحق لا ينظر الى مادته التاريخية نظرة «برانية» ، وإنما ينظر اليها من خلال الوقائع ليكشف الفكر الذي يتبطنها ويحركها ، أى الفكر الكامن وراء ما تسرده الوثائق ، وذلك بأن يتمثل الماضى في ذهنه ، أى أن يعيد التفكير فيه على النحو الذي وقع .

وهكذا فإن من يدرس شخصية امبراطور مثلا ، فعليه أن يتمثل الامبراطور ذاته ، كما لو كان في موقفه ، وعليه أن يدرس التصرفات البديلة ، وسبب اختياره لما اختار ، فالمؤرخ إذن يمر بنفس العمليات الفعلية التي مر بها الامبراطور حتى شرع في فعله ، وهكذا يتمثل المؤرخ

تجربة الامبراطور وفكره ، ويتمثل فعله ، وبمعنى آخر ، لا بد من اعادة تركيب الماضي في ذهن المؤرخ ، وذلك بالتواجد مع الشخصية موضوع الدراسة ، والنفاذ الى أعماقها ، والتعاطف مع العصر الذي يدرسه كي يفهمه ، وبذلك تصبح الاحداث التاريخية حاضرة ، وتستحيل الوقائع الميتة الى نبضات حية ، ولا يقف تمثل أفكار الآخرين وتجاربهم ، عند مجرد فهم مواقفهم وأفكارهم وسلوكهم ، وانما أن تصبح هذه العملية الفكرية جزءاً من ذات التاريخ^(٤٤) ، يقول كولنجوود : أنه عندما يدرس شخصية للقائد البحري الانجليزي «نلسون» ، فانه يتساءل ما الذي كان يفكر فيه قبل أن يلتحم مع الاسطول الفرنسي عند «أبو قير» - في أغسطس من عام ١٧٩٨م - وحين يقرأ نصاً لافلاطون في محاضرة تيتائوس عن نقده للاحساس كمصدر للمعرفة ، فانه يحاول أن يتمثل فكر افلاطون ذاته^(٤٥) .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن هناك اعتراضات تاريخية وفلسفية حول هذا الموقف ، فالوضعيون يتساءلون كيف يفكر المؤرخ في نفس ما كان يفكر فيه نلسون ، وليس لديه أدنى فكرة عسكرية بفن المعارك البحرية أو بفكر قادة البحار ؟ ولنفرض أن المؤرخ يدرس شخصية مريض بمرض ذهني مثل «البارانويا» (الشعور بالاضطهاد وجنون العظمة) أو «السادية» (الشعور باللذة في إيذاء الغير وتأله) ، مثل «راسبوتين» أو «نيرون» ، فكيف يتسنى للمؤرخ أن يتمثل فكر هؤلاء؟

ويرد المثاليون أنه يجب على المؤرخ أن تكون لديه دراسة عميقة وخصبة للنفس الانسانية ، ومن ناحية أخرى هل يمكن أن يصل تمثيل الذات للموضوع حد التقاطق ؟ ألا يصح ألا يبلغ المؤرخ حد التمثيل الصحيح أو أن يزيد بخياله خواطر وأفكاراً لم تدبر بذهن الشخصية ، موضوع الدراسة ؟

(٤٤) أحمد محمود صبحي : المرجع السابق ، ص ٣٤ ، ٤٨ .

45. R. G. Collingwood, The Idea of History, London, 1946, p. 294.

ويرد «كولنجوود» بأنه لا يتصور التتابع على نحو تماثل شخصيتين
كنسختين من أصل واحد ، وإنما أن يتمثل المؤرخ الفكر الباطن للآخرين
حتى تبلغ منه مرحلة الوعي .

وهناك اعتراض فلسفى آخر : أن فكر المؤرخ إنما يعثله حاضره
وميوئه ومصالحه ، ومن ثم فإن ما يعاد تمثيله ، ليس ما كان يفكر فيه
الشخص موضوع الدراسة ، وإنما ما يفكر فيه المؤرخ ، أى أن المؤرخ
إنما يخلع تصورات وفكره على غيره ، وبالتالي يفقد التاريخ موضوعيته
وتصبح عملية التاريخ أحادية تصويرية ، ويرد «كولنجوود» بأنه لا ريب
فى أن المؤرخ على وعى حين يتمثل فكر الغير وموقفه وسلوكه ، ومن ثم
فهو لا ينساق فى تجربة ذاتية خاصة ، وإنما هو مقيد بتجربة الغير الذى
فكر على نحو معين ، وسلك سلوكا خاصا (٤٦) .

بقى اعتراض آخر، هل كل وقائع التاريخ أفكار شخصيات تاريخية ؟
اليس فى التاريخ حضارات أو ثقافات تمثل أفكار شعوب بأكملها وأوجه
نشاطها ؟ فكيف يتمثل المؤرخ لغة شعب أو دينه أو أنظمته الاقتصادية
والسياسية والاجتماعية ؟

ويعترف «كولنجوود» بأن هذه الجوانب تشكل تاريخا ولكنه يطبعها
بظابع الفردية ، فالسياسة نتاج فكر السياسة ، أى أن فكر السياسى هو
الذى يحدد سياسته ، ويقاس نجاح السياسى بقدر نجاحه فى التوفيق
بين فكره وسياسته العلمية ، وعمل المؤرخ أن يستشف هذا الفكر، كذلك
الحروب من تخطيط القادة الذين يديرون المعارك ، والامر كذلك فى
النشاط الاقتصادى ، كذلك الاخلاق محاولة للتوفيق بين ما هو كائن ،
وما ينبغى أن يكون ، وذلك موضوع فكر ، ومن ثم «فكل التاريخ تاريخ
فكر» (٤٧) .

(٤٦) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٤٨ - ٤٩ .

(٤٧) نفس المرجع السابق ص ٥٠ ، وكذا

R. G. Collingwood, Op. Cit., pp. 280-282.

(٤) العلوم المساعدة للبحث في التاريخ القديم :

يتصل التاريخ القديم بكثير من فروع المعرفة الانسانية ، ومن ثم فعلى من يتصدى لكتابته أن يقوم بتحصيل هذه المعرفة ، ذلك لأنه إن أحسنها ، فهو بالتالى يحسن ما يكتبه من الدراسات التاريخية في هذا الفرع من التاريخ ، وذلك على الرغم من أن «كولنجوود» انما يذهب الى أن التاريخ علم مستقل ، غير أن التاريخ ان انفصل عن بقية العلوم ، انما يصبح علما مبتورا ومنقوصا ، ومن هنا كانت ضرورة التأكيد على عملية «التكامل العلمى» الموجودة فعلا بين مختلف العلوم ، بل ان المؤرخ الانجليزى «ادوار فرمان» انما يذهب الى أن المؤرخ يجب أن يعرف كل شئ : الفلسفة والقانون والاقتصاد والاجناس والجغرافيا وعلم الانسان والعلوم الطبيعية ، ذلك لان المؤرخ معرض لأن يصادف في دراسته للماضى ، مسائل في الفلسفة والقانون والاقتصاد وغيرها وبقدر ما تتعدد معرفته بفروع المعرفة المختلفة ، انما يكون أكثر استعدادا لعمله كمؤرخ (٤٨) .

وعلى أية حال ، فهذه المعارف المختلفة هي ما نسميه بالنسبة لموضوعنا «العلوم المساعدة» أو «العلوم الموصلة» ، وهى بطبيعة الحال تختلف بالنسبة للباحث باختلاف العصر أو الموضوع ، مجال البحث ، فدارس التاريخ القديم مثلا ، انما تختلف علومه المساعدة عن علوم دارس العصور الوسطى ، وهذا تختلف علومه المساعدة عن دارس التاريخ الاسلامى أو الحديث ، بل ان دارس التاريخ القديم نفسه ، تختلف علومه المساعدة — ولكن الا حد ما — باختلاف المكان والعصر .

هذا فضلا عن أنه ليس من الضرورى أن يستخدم المؤرخ كل العلوم المساعدة في أبحاثه ، وانما يمكن الافادة منها ، طبقا لمقتضى الحال بما يخدم الموضوع الذى يدرسه أو المرحلة التاريخية التى يعالجها ، فمن

(٤٨) لانجلو أوسينوبوس : النقد التاريخى — ترجمة عبد الرحمن بدوى — السكويت ١٩٨١ ص ٣٠ ، ر ج . كولنجوود : فكرة التاريخ — ترجمة محمد بكير خليل — القاهرة ١٩٦٨ ص ٤٤٩ .

الممكن أن يستخدم المؤرخ أحد العلوم المساعدة عند دراسته لموضوع معين ، ولا يستخدمها عند دراسة موضوع آخر ، أو يستخدمها بشكل محدود (٤٩) .

وسوف نناقش العلوم المساعدة في التاريخ القديم هنا بصورتين ، الواحدة : في عصور ما قبل التاريخ ، والآخرى : في العصور التاريخية :

١ - العلوم المساعدة لعصور ما قبل التاريخ :

١ - الجيولوجيا : وهذا الفرع من المعرفة يعنى بدراسة طبقات الأرض بقصد تأريخها ، وبالتالي تقدير عمر البقايا والآثار التي توجد بها ، ومن الممكن أيضا عن طريق علم المناخ القديم الذي يستعين بعلم الجيولوجيا ، وعلم المناخ الحديث وغيرهما من العلوم الطبيعية كالنبات والحيوان والتشريح ، بل والعلوم الفيزيائية ، من الممكن أن ترسم صورة للظروف المناخية في فترة محدودة من تاريخ الأرض .

٢ - علم تتابع الطبقات : وهو فرع خاص من علوم الجيولوجيا (Geology) ، ويقوم على قانون الارساب الذي يقول بأن الأعلى هو الأحدث ، ما لم يحدث في الطبقات تغيير في الموضع .

٣ - علم الحفريات القديمة : وهو دراسة البقايا العضوية (النباتية والحيوانية) القديمة (أي المتجمدة) ، وقد أمكن اتخاذ الحفريات القديمة أساسا لتاريخ طبقات الأرض ، ويساعد علم الحفريات القديمة على تفهم المسرح الجغرافي الذي نشأ عليه الإنسان في العصر الحجري الحديث (البليستوسين) .

٤ - علم الإنسان : وهو علم تطور وتسلل الإنسان (Anthropology) . ويعتبر من العلوم المساعدة في مجال التاريخ ، بل إن «أتكن» انما يراه أشد العلوم الاجتماعية ملائمة للمؤرخ ، ذلك لأن علماء الأجناس

(٤٩) عادل حسن غنيم وجمال محمود حजर : المرجع السابق ص ٢٦ .

والمؤرخين يواجهون مشكلات كثيرة مشتركة ، وتظهر في بحثها أحيانا اختلافات متشابهة في الرأي ، وعلى أية حال ، فإن ما يتوصل اليه علم «الأنثروبولوجيا» انما يخدم المؤرخ كثيرا في أبحاثه ، وقد اهتم بعض القدامى بقصد أو بغير قصد - بالربط بين التاريخ والأنثروبولوجيا^(٥٠) /

ه - علم تاريخ وتقويم الارض : وقد نشأ حديثا ، وهو فرع من العلم يبحث في وسائل تأريخ الارض ، ويسمى «جيوكرونولوجيا» (Geochronology) ، ويستمد أصوله من علم الجيولوجيا والنبات والحيوان والطبيعة ، ويعتمد على بعض أسس التأريخ ، والتي من أهمها :

أ - طريقة تحليل حلقات الاشجار : وذلك بدراسة حلقات نمو تلك الاشجار ، وتقدير عمرها ، وبالتالي عمر حضارات المجتمعات التي استخدمت هذه الاشجار .

ب - طريقة تحليل رقائق الطمي الجليدى .

ج - طريقة قياس النشاط الراديويمى : وتعرف باسم «طريقة كربون ١٤» ، وتستخدم في المواد العضوية ، وخاصة المواد النباتية ، وهى تقوم على أساس أن كل مادة عضوية بها (كربون ١٤ المشع) و«كربون ١٤ غير المشع» ، بنسب ثابتة ، وأن للنبتة انما يكسب هذا الكربون المشع (كربون ١٤) من تفاعل الاشعة الكونية بالغلاف الجوى المحيط به ، وعندما تنتهى حياة النبات ، يبدأ كربون ١٤ فى التحول التدريجى بسرعة ثابتة ، الى كربون وزنه الذرى ١٢ ، ويفقد ظاهرة الاشعاع .

وقد توصل العلماء الى تقدير نصف عمر «كربون ١٤» وهو ٥٥٦٨

(٥٠) هيج اتيكن : دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية - ترجمة محمود زايد - بيروت ١٩٨٢ ص ٢٦ : وانظر : على محمود اسلام الفار : الأنثروبولوجيا الاجتماعية - القاهرة ١٩٨٤ ، وكذا A. Haddon, A History of Anthropology, London, 1927, p. 20-25.

سنة (مع احتمال زيادة أو نقص ٣٠ سنة) وبعد فترة مماثلة يفقد النصف الباقي نصف كميته ، أى أن «كربون ١٤» يصبح في النبات ربع كميته الأصلية ، ثم يصبح بعد حوالى ٣٣٤٠٨ سنة ١/٦٤ من كميته الأصلية .

وهكذا عندما يعثر العلماء على بقايا مواد عضوية — كالقمح والخشب — ففى الامكان عندئذ قياس بقايا «كربون ١٤» المتخلف من هذه المواد ، واحتساب عمرها الأصلي مع الاخذ فى الاعتبار الزمن الذى يستغرقه تحول «كربون ١٤» الى «كربون ١٢» ، وبالتالي يمكن تأريخ الحضارات التى أنتجت هذه البقايا العضوية ، وفى امكان العلماء الان — عن طريق كربون ١٤ — تقدير عمر بقايا حتى ٤٤ ألف سنة ، مع احتمال زيادة أو نقص فى حدود ٣٧ سنة^(٥١) .

على أن هناك من العلماء من لاحظ على اختبارات «كربون ١٤» فى مصر وشمال افريقيا لعينات مؤرخة أصلا ، أن التاريخ الكربونى للمادة السحيقة فى القدم ، انما يقل كثيرا عن التاريخ الذى تقرره النصوص أو الاحداث التاريخية^(٥٢) ، فمثلا أجريت اختبارات لمواد ، أخذت من مقبرة «حماكا» من موظفى الملك وديمو ، من الأسرة الأولى المصرية ، وأخرى من مقبرة الملك «سنفرو» ، مؤسس الأسرة الرابعة ، وكانت النتيجة أن هناك فرقا فى التأريخ يدور فى حوالى ٧٠٠ سنة ، بين الاراء المختلفة^(٥٣) .

هذا فضلا عن أن نتائج «كربون ١٤» ، فيما يتصل بعصور ما قبل التاريخ ، قد شابها كثير من الخط ، ولا يمكن فهم تسلسلها ، ومن ثم فلا يمكن الوصول الى تحديد زمنى قاطع من العينات القليلة ، وذلك لان معظمها قد تعرض للتفزين الطويل ، دونما أية حمائية ، مما ينقص

51. W. F. Libby, Radiocarbon Dating, Chicago, 1952, p. 2 F, 35.

52. R. M. Derricourt Sadio Carbon Chronology far Egypt and North Africo, in JENS, 1971, p. 271.

53. H. S. Smith, Egypt and C. 14 Dating, Antiquity, 1964, p. 36.

تأريخها القياسى بسبب الرطوبة^(٥٤) ، مما دعى البعض الى فرض بعض التواريخ المبكرة التى أعطيت لمواقع فى وادى النيل ، ترجع الى عصور ما قبل التاريخ^(٥٥) .

على أن الاعداد المقدرة بطريقة الكربون المشع انما جاءت تتفق مع الاعداد التاريخية من العصر الحالى ، وحتى عصر الملك «سنوسرت الثالث» (١٨٧٩ - ١٨٣١ ق/م) - من الاسرة الثانية عشرة - فمثلا المركب الجنائزى للملك «سنوسرت الثالث» قدر عمرها بطريقة الكربون المشع ، فوجد أنه يرجع الى حوالى ١٨٠٠ ق م ، وهو يتفق مع عمرها التاريخى (حوالى ١٨٣١ ق م) .

وأما فى العصور السابقة لحوالى عام ١٨٠٠ ق م ، فقد وجد أن هذه الطريقة تعطى أعمارا أقل من الاعداد التاريخية للمينات ، فمثلا : أخذت عينة من حصيرة من مركب الملك خوفو ، فوجد أن عمرها يرجع الى حوالى ٢٣٨٥ ق م بينما عمرها المعروف تاريخيا حوالى ٢٦٠٠ ق م .

هذا وقد وجد أن الفرق يزداد كلما زاد عمر العينة ، وقد أمكن عمل جداول لتصحيح نتائج تقدير عمر هذه العينات القديمة التى يرجع تاريخها الى ما قبل ١٨٠٠ ق م ، بمقارنتها بنتائج تقدير عمر الآثار ، بطريقة الحلقات السنوية للأشجار ، ومن ثم يمكن تقدير العمر بطريقة كربون ١٤ ، وتصحيحه طبقا لقانون التعديل ، لنحصل على نتيجة قريبة جدا من العمر الحقيقى للعينة^(٥٦) .

54. R. M. Derricout, Op. Cit., p. 289.

55. C. Flight, A Survey of Recent Results in The Radiocarbon. Chronology of Northern and Western Africa, in JAR, 14, 1937, p. 532.

(٥٦) زكى اسكندر : استخدام العالم الحديث وتطبيقاته فى الميدان الأثرى - القاهرة ١٩٧٢ ص ٩٠ ، وانظر عن : طريقة كربون ١٤ (محمد بيومى مهران - مصر - الجزء الاول - عصور ما قبل التاريخ - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٧١ - ٢٧٤) .

١ - اللغة : أو فقه اللغة (Phylogogy) (Philology) لا ريب في أن أول وسائل البحث العلمي ، إنما ينبغي أن تتركز على اللغة والكتابات التي كان الانسان المصري أو السومري أو السامى يعتمد عليها كوسيلة من وسائل التعبير عن مختلف نشاطات حياته ، سواء أكانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو غيرها ، لأنه لا فكاك عن معرفة اللغة الأصلية الخاصة بموضوع البحث التاريخي ، ومهما كان لدينا من ترجمات ، فإنها قد تفتى باحتياجات من يستهدف الحصول على ثقافة عامة ، لكنها لا تكفى المؤرخ أبداً ، فهو يستهدف الفهم الكامل العميق للموضوع الذي يريد أن يتناوله بالدراسة ، أعنى الذى يريد دراسة ناحية من نواحي التاريخ الفرعونى فإنه لا يستطيع أن يقوم بذلك بجدية ، وطبقاً للمنهج العلمى التاريخى ، الا اذا كان على معرفة جيدة باللغة المصرية القديمة (والتي تسمى خطأ عند العامة باللغة الهيروغليفية ، فالهيروغليفية نوع من الكتابة كالهيراظيقية والديموطيقية ، وليست لغة من اللغات) والامر كذلك بالنسبة لمن يريد أن يكتب في موضوع من موضوعات التاريخ الاغريقى ، لابد له من أن يعرف اللغة الاغريقية ، وهكذا في بقية فروع التاريخ ، فالذى يريد أن يكتب في موضوع من موضوعات التاريخ الأوروبى الوسيط ، لابد له من معرفة اللغة اللاتينية^(٥٧) .

ومبكذا يستطيع الباحث الاستعانة بالنصوص الرسمية والخاصة التي تنتمى الى العصر الذى يريد البحث عن حقائقه ، ومن الاهمية بمكان الاشارة الى هذه النصوص - رغم اصلتها - فقد تكون مبالغه في التعبير ، ذلك لانها مدونة من قسبل الدولة التي تعبر بطريقتها عن أحداث تلك الفترة ، ومن ثم فإن مقارنة هذه النصوص بغيرها من النصوص المعاصرة ، إنما نعتبر خطوة أساسية في هذا المجال^(٥٨) ، هذا

(٥٧) محمد عواد حسين : المرجع السابق ص ١٣٣ .

(٥٨) أنظر كيمثال لاختلاف النصوص : معركة قادش التي حدث عام ١٢٨٥ ق م بين رعمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق م) ومملك النحشيين

وينبغي على الباحث أن يصل في دراسة اللغات الى مرحلة الاحساس بالتعبير ، وليس مجرد الترجمة الحرفية ، حتى يمكن معرفة ما يرغب الانسان القديم التعبير عنه ، وبذلك يكون اقرب الى تأريخ الحقيقة التاريخية .

وهناك فجوات عديدة في التأريخ — بحكم الزمن أو الاحداث السياسية التي قد تشوه أو تعدل من حرفية النص لسبب أو لآخر — فينبغي على الباحث ملاحظة ذلك ، والتيقن من ملء الفجوات ، والامر كذلك بالنسبة الى بعض الكلمات المكسوة أو المحرفة التي تكون قد وردت في النص ، وهنا يجب على الباحث أن يلاحظ كذلك اختلاف التعبير من كاتب الى آخر ، فضلا عن اختلاف الضغط ، وخاصة في البرديات المكتوبة بالهيراطيقية والديموطيقية ، فضلا عن الاختلاف في بعض قواعد اللغة المصرية القديمة في الدولة القديمة عنها في الدولة الوسطى ، عنها في الدولة الحديثة ، عنها في العصر المتأخر من تاريخ مصر الفرعونية ، ومن هنا أقر علماء الدراسات القديمة تخصصات في اللغويات ، حتى يتفرغ العلماء لهذه الدراسة الدقيقة من فروع المعرفة المختلفة .

«مواتيلا» (١٣٠٦ - ١٢٨٢ ق.م) ، وقد ادعى كل منهما أن النصر كان حليفه فيها ، وقد نقش الفرعون أخبار نصره على كثير من دور العبادة في مصر : في معبد الكرنك على الحائط الخارجي لصالة الاعمدة ، وعلى الحائط الخارجي بين المرحين التاسع والعاشر ، وفي معبد الاقصر أعلى الصرح الاول ، وفي معبد الريمسيوم على الصرح الثاني ، وفي معبد أبو سمبل الكبير ، كما ذكر في ثلاث برديات ، ريفا وسالييه وقصائد بنتاؤر (انظر : محمد بيومي مهران : مصر — الجزء الثالث — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٥٢ - ٢٥٦ ، وكذا

A. Burn, in JEA, 7, 1921, p. 194-195.

The Art of War on Land, p. 36-47.

G. Gaball, in JEA, SS, 1969, p. 82-88.

A. Gotze, LDZ, 32, 1929, p. 832-838.

Sir Alan Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 259-264.

F. Daumas, La Civilisation de L'Egypte Pharaonique, Paris, 1965, p. 409-410.

وهنا تأتي أهمية علم «قراءة الخطوط» (Palaography) فهو علم لازم لدراسة التاريخ القديم والوسيط ، بل والمفترة المبكرة من التاريخ الحديث ، وتبدو أهمية هذا العلم واضحة جلية ، حين يتصدى الباحث لدراسة تاريخ الشرق الأدنى القديم ، وتاريخ اليونان والرومان ، وتاريخ العرب القديم ، وغيره من فروع التاريخ المختلفة ، ولو أخذنا مثالا من التاريخ المصرى القديم ، لرأينا أن المصريين فى عصور الفراعين قد استعملوا كتابات ثلاث هى : الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية ولما دخلت المسيحية مصر ، أراد أنصارها التخلص من الكتابة الوثنية — كما فصل السوريون عندما أطلقوا على لغتهم الارامية اللغة السريانية — أو أنهم كانوا فى حاجة الى وسيط لسهولة ترجمة الكتاب المقدس ، مما كان سببا فى ظهور «القبطية» كأخر مظهر للغة المصرية القديمة ، وكانت تكتب بحروف يونانية ، مع اضافة سبعة أحرف من الديموطيقية ، للتعبير عن حروف لا توجد فى اليونانية ، أما الادب القبطى فملئ بكلمات يونانية ، الامر الذى جعل مجمل التركيبات شيئا أقرب الى «الطرائد» منه الى وريث طبيعى للغة المصرية القديمة ، كما سنشير الى ذلك من بعد (٥٨) •

وعلى أية حال ، فما يقال عن الكتابات المصرية القديمة ، يقال أيضا عن انخط العربى القديم ، الذى لايمكن لغير المتخصصين قراءته وتفسيره ومن ثم فقد حرص بعض الباحثين فى التاريخ الوسيط والحديث والمعاصر على اصدار قواميس مساعدة ، لا تقوم بمهمة الترجمة ، بقدر ما تقوم بمهمة تفسير الالفاظ والتعبيرات التى كانت شائعة فى عصرها ، ومن ذلك مثلا : قاموس «دوزى» (R. Dozy) ، وقاموس الاب نخلة اليسوعى (غرائب اللهجة اللبنانية — السورية) ، وكتاب الدكتور أحمد السعيد سليمان (تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتنى من الدخيل) (٦٠) •

(٥٩) محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الاول — عصور ما قبل التاريخ — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ١٥٣-١٦٢ •
(٦٠) حسان حلاق : المرجع السابق ص ٦٨ •

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أن تعلم اللغات القديمة بالذات أمر فيه الكثير من المشقة والعسر ، ومن ثم فقد أخذ الباحثون الشباب من خريجي الجامعات العربية يبتعدون - للأسف عن التخصصات التي تتطلب العلم بهذه اللغات ، وكان من نتائج ذلك تلك الندرة الواضحة في فروع التاريخ القديم بعامة ، وتاريخ الشرق الأدنى القديم بصفة خاصة ، ولعل الأيام القادمة تريد من عددهم - خاصة بعد أن أنشئت أقسام الآثار في كثير من الجامعات المصرية والعربية - وذلك لأن تعلم اللغات القديمة ليس بالأمر المحال ، بل ان الدراسة الجادة على مدى عام واحد لأية لغة ، قد تكفى لوضع أساس طيب للاستمرار وتحصيل المزيد /

٢ - علم الآثار : (Archaeology) : وهو علم البحث عن أصول الحضارات ، حيث الجذور وتشكيل الذات ، وميدانه هو ما أنتجته يد الانسان في العصور السابقة في كل مكان ، وهو من علوم التأخى بين الشعوب ، يفسر مراحل الاخذ والعطاء بينهما ، وعن طريقه تستطيع كل أمة أن تتعرف بصدق على منابع شخصيتها وقواعد بنيانها ، ويتكون لديها وعى عملى بتراتها المشترك الذى يحدد مكانتها بين مسيرة الأمم .

هذا وتحمل الدراسات الاثرية ، بطابعها النظرى ، وميدانها العملى مكانا بارزا بين الدراسات الانسانية المتكاملة بما تقوم عليه من بحوث فى خصائص العمارة والفنون والصناعات ، وما تؤدى اليه من بحوث فى اللغات والعقائد والتاريخ ، وما تمارسه من بحوث فى المجالات العملية للكشف والتنقيب ، ولا ريب فى أن الآثار بفروعها المختلفة ، هى التاريخ الحى لكل أمة ، وهى الشاهد القائم على ما بدأت به حضارة أهلها ، وما تطورت اليه ، وما أسهمت به فى تاريخ البشرية ، كما أنها التعبير الصادق عن أفكارهم ومعتقداتهم وعلومهم فى كل مرحلة من مراحل تاريخهم^(٦١) .

(٦١) عبد العزيز صالح : دليل كلية الآثار - جامعة القاهرة -

ولاربيب في أن تاريخ مصر القديم انما قد كشف عن طريق علم الآثار، حتى أصبحنا اليوم نعرف عن الحياة العادية في مصر في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ربما أكثر مما نعرف عنها في انجلترا في القرن الرابع عشر بعد الميلاد، والأمـر كذلك بالنسبة الى السومريين والبابليين والآشوريين والصينيين، وقد كانت معلوماتنا عنهم قليلة شحيحة، غير أننا — عن طريق التنقيب — أصبحنا نعرف عنهم، ربما كل شيء تقريباً (٦٢) .

هذا، ونظراً لان علم الآثار انما يتضمن كافة المخلفات الاثرية للمجتمعات القديمة، فيشمل المنازل والقصور والمعابد والمقابر والتماثيل والأواني المختلفة الأنواع والأشكال وغيرها من المخلفات الاثرية، ومن ثم فقد اتجه علماء الدراسات القديمة الى تحديد اختصاصات الباحثين في علم الآثار، فبينما يختص بعضهم بآثار ما قبل التاريخ، يختص آخرون بآثار الدولة القديمة وهكذا، هذا وترتبط دراسة الآثار ارتباطاً وثيقاً بدراسة النصوص، وفي أحليـن كثيرة تجمع الآثار بين النصوص والمعـاثر الاثرية، وكذا الشقف الفخارية، ومختلف جوانب المادة الاثرية .

بقيت الإشارة الى أنه لا يوجد حتى الآن حدود واضحة بين علم الآثار والتاريخ، ومن ثم فعلى الأثاري الاقـدر على الملاحظة، وعلى تسجيل مكتشفاته القيام بتقييمها كمادة تاريخية، أما اذا لم يكن لديه القدرة على التجميع والتفسير، فانه يكون قد احترف عملاً لم يخلق له، وهنا يكفيـه أنه كشف للقارئ المصادي — عن طريق مبشر أو غير مبشر — فصولاً جديدة في تاريخ الانسان، وأخرج من باطن الارض ما يثبت قيام حضارة يانعة في الماضي، وأما مادته الاثرية، فليس من الضروري أن يتصرف اراءها وهدمها وانما عليه أن ينشرها مفصلة تفصيلاً

62. Sir Leonard Woolley, Digging-up The Past, (Pelican Book), 1967, p. 23-24.

دقيقا ، حتى يتيح لغيره أن يستنتج منها ما يؤيد وجهة نظره في قضية ما وربما ما يعد ابتكارا جديدا (١٣) .

(٢) الجغرافيا : لاريب في أن الارتباط بين التاريخ والجغرافيا (Geography) إنما هو وثيق الصلة (١٤) ، فالبقاع — كما يقول المقدسي — تؤثر في المطابع ، ذلك لأن الأرض إنما هي المسرح الذي حدثت عليه وقائع التاريخ ، فضلا عما للظواهر الجغرافية المختلفة — من أنهار وبحار وسهول وجبال وصحارى وغابات وموقع ومناخ وغيرها — من أثر كبير في الانسان ، وبالتالي في التاريخ ، فهي المؤثر في تكوين الانسان وفكره وعقائده وملكاته العقلية وفلسفته وأدبه .

وبدهى أنه لاريب في أن لجغرافية أى اقليم أثرا كبيرا على توجيه مسار تاريخه ، ومن ثم على مصائر أهل هذا الاقليم ، ذلك لأن القوم في أية بيئة من البيئات إنما يتفاعلون معها تفاعلا تلقائيا تمليه الطبيعة الجغرافية لهذه البيئة ، ومن ثم يتشكل تريخهم بما يتفق وهذه البيئة ، وبالتالي يتحدد مسار تاريخهم /

ولعل من أبرز الامثلة على أثر الطبيعة الجغرافية في تاريخ قوم من الاقوام ، انما كان في «مصر» ، فالنيل — مثلا — هو مصدر حياتها وهو الذى شكل تاريخها ، ووجهه الوجهة التى سار فيها ، لقد تعيلم منه سكانها ، هندسة الرى ، وأدركوا منه معنى الوحدة والتعاون ، وجعلهم من أغنى شعوب العالم القديم وأسبقهم الى الاخذ بأسباب التقدم الحضارى .

وفي الواقع ، فلقد كان فيض النيل صاحب الزمنم في الحياة المصرية ومفتاحها ، به تكون الزراعة التى تميز أهلها عامهم كله ، ومنه تعلموا

63. Ibid., p. 136-137.

(١٤) انظر

H. B. George, The Relations of Geography and History, Oxford, 1924.

— منذ أقدم العصور — ادخسار الحصيد ، والقصد في انفاقه ، حتى يعود الفيض الجديد ، فلقد أعثرتنا الحفائر منذ حضارات العصر الحجري الحديث في مصر على مواضع ادخار الغلال — كما في الفيوم ومرمدة بنى سلامة (٦٤) .

هذا الى أن انحباس النيل ، ونضوب موارد الدولة ، انما كان وثيق الصلة بما ينزل بالبلاد من الضعف السياسى ، وتحلل السلطة المركزية ، واضطراب النظام ، فيكون شيوع الفساد ، وانتشار الجريمة ، — مع النتحط والجوع — شرا مستطيرا ، على أنه من ناحية أخرى ، قد يبالغ في فيضه أحيانا ، فتعظم أمواهه ، وتضرى أمواجه ، فاذا هو يندفع طوفانا عنيفا مدمرا مغرقا كل شيء ، ثم لا يكاد ينحسر عن الارض الا وقد انقضى من أوان البذر وقت ، قد يكون على أيام الحصاد سىء المسبعة ، وإن لم يبلغ ذلك في سوئه مبلغ نقص الماء .

والتاريخ يحدثنا أنه ما من بلد في العالم ، تتوقف حياته ووجوده ، بنهر مثلما تفعل مصر والنيل ، ومن هنا كان اهتمام المصريين بشئون الفيضان شديدا ، وقد هدام تفكيرهم الى اقامة مقاييس للنيل في جهات بعينها ، مثل «اليفانتين» (جزيرة أسوان) ، ومنف ، وكلفسوا بمراقبتها أشخاصا يقرأون المقاييس ، ويرسلون الرسائل الى المدن المختلفة يبلغونها مقدار ارتفاع النيل أو انخفاضه .

هذا وقد ساعد النيل على تضافر الجهود المشتركة ، اتقاء لخطر الفيضان الداهم الذى يهدد الجميع ، وأملا في الفائدة المشتركة التى ينالها القوم ، اذا ما نظموا الافادة من مياه النهر ، وكان هذا العمل يتطلب جهودا جبارة من جانب الجماعة ، واشرافا دقيقا من هيئة عليا

(٦٥) انظر مطامير الغلال في الفيوم ا (محمد بيومى مهران : مصر ٢٢٢/١ - ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، وكذا
G. Caton - Thompson and E. A. Gardiner, The Desert Fayum, London, 1934, p. 41, 91.
H. Junker, Merimde-Benisalame; III, V, Vienne, 1933, p. 5 F.

حاكمة ، الامر الذى أدى الى توحيد الجهود ، وقيام التضامن القائم بين أفراد المجتمع المصرى القديم ، بل وقد فرض النظام والطاعة على الجميع ، مما استلزم آخر الامر قيام حكومة متحدة شملت مصر كلها حوالى عام ٢٤٤٢ قبل الميلاد ، وتمضى الايام والسنوات ، حتى تقوم فى مصر أول دولة فى تاريخ العالم ، حوالى عام ٣٢٠٠ ق/م ، وبذا كانت مصر أول دولة فى التاريخ قاطبة تكاملت فيها عناصر الامة بمعناها الصحيح ، وبعدها كانت «أول دولة» موحدة بالمعنى السياسى المنظم ، تظهر على مسرح العالم القديم (٦٦) .

ولم يكن النيل وحده من أثر العوامل الجغرافية على مصر ، ذلك لان مصر بعزلتها فى اطار من صحراوات لا تحد ، ربما تستطيع القوافل الصغيرة أن تخترقها ، ولكنها موانع طبيعية لا يمكن التغلب عليها ، اذا ما أرادت قوة حربية كبيرة أن تشق طريقها فى فياها ، وهكذا حبت الطبيعة مصر وسائل طبيعية للدفاع عنها ، ففى الجنوب كانت الجنادل بمثابة حواجز طبيعية تصد هجومات الاقوام الساكنة فى جنوبها ، كما كانت الصحارى ومياه البحر المتوسط تصد هجمات من يسكنون الى الشمال والشرق والغرب منها (٦٧) ، ومن هنا كانت مصر — فى أوائل أيامها — بلدا آمنا لا يهدده خطر الغزو ، ومن ثم فلم يكن ضروريا للمصريين أن يحتفظوا بقوة حربية كبيرة بصفة مستمرة لصد ما عساه أن يحدث من هجومات ، فقد كان القوم يستطيعون أن يروا أى خطر محتمل من مسافة بعيدة ، فضلا عن أنه كان شيئا بعيد الاحتمال أن يتمكن أى شخص مهاجم ، ومعه قوة كبيرة ، من أن يصل الى مصر نفسها (٦٨) .

(٦٦) محمد بيومى مهران : مصر ٢٩٨/١ - ٣٠٥ ، جمال حمدان : شخصية مصر — القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٤١ - ٢٤٥ ، أحمد عبد الحميد يوسف : مصر فى القرآن والسنة — القاهرة ١٩٧٣ ص ٥٥ - ٥٦ .
(٦٧) محمد بيومى مهران ٨٣/٢ - ٨٧ ، وكذا

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 33.

68. J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 13, 154.

هذا ، وكان للجغرافيا أيضا تأثيرها الواضح في حركة الانسان ، وفي علاقاته وقدرته على الانتاج ، وفي نوعية اهتماماته ، فالنفاخ النحر مثلا - لنما يؤثر على الانسان تأثيرا مختلفا عن النفاخ البارد ، والبلد الذي تتوفر فيه موارد للثروة الطبيعية يختلف عن البلد الذي تنعدم أو تقل فيه تلك الموارد ، والسواحل ذات الموانئ الجيدة ، انما تخضع حركة التجارة أفضل من تلك الفقيرة والبلد الذي تحيط به الجبال من جوانب مختلفة انما يقل تأثره بالموثرات الخارجية عن ذلك البلد الذي يتيح له موقعه احتكاكا فعالا ومباشرا ، الى غير ذلك من الأمثلة المختلفة (٦٩) .

والواقع أن دراسة الجغرافيا التاريخية والسياسية والاقتصادية هي التي تمكننا من فهم الاحداث التاريخية والاشراف عليها ، وربطها بعضها ببعض ، وإدراك ما بينها من علاقات بعيدة المدى (٧٠) .

٤ - الاقتصاد (Economics) : وهو من العلوم المساعدة لدراسة التاريخ ، ذلك لان العوامل الاقتصادية ذات تأثير فعال في دراسة التاريخ ، فهي تؤثر في مستوى الرخاء أو الفقر ، وفي السياسة الداخلية والخارجية ، ونظام الحكم ، وفي علاقة طوائف المجتمع بعضها ببعض الآخر ، وفي مستوى العمران ونهوض الحضارة أو تدهورها /

ومن هنا ينبغي للمؤرخ أن يلم بعلم الاقتصاد (Economics) الماسما يمكنه من الوقوف على مدى تأثير العوامل الاقتصادية على مسار التاريخ ومثالنا في ذلك : ما يذهب اليه بعض المؤرخين من أنه من الاسباب الهامة لضياع الامبراطورية المصرية بعد عصر «رعميسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١ ق م) ، أن مصر لم تكن تملك مصدرا وطنيا لمعدن الحديد ، ومن ثم فبينما دخل العالم القديم في عصر الحديد ، بقيت مصر في عصر

(٦٩) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص

٣١ - ٣٢ .

(٧٠) سيدة الكاشف : المرجع السابق ص ٥ .

البرونز ، وهكذا استطاع العالم القديم أن ينتج لقرون عدة أسلحة من الحديد ، وأن يطور وسائله الحربية والزراعية والصناعية طبقا لذلك ، مما جعل من الصعب على مصر أن تحتفظ بامبراطوريتها ضد المنافسة الهائلة .

ولعل مما تجدر الإشارة اليه أن بسط النفوذ المصري والسيطرة المصرية على البلاد شرقى البحر المتوسط ، انما يتفق والمصور التي كان فيها النحاس هو المعدن الاساسى فى أهميته ، ولكنها لم تتمتع بمثل ذلك فى عصر الحديد .

وليس هناك من ريب فى أن معظم الثورات ، فضلا عن الحروب ، إنما كانت لها أسباب اقتصادية — كما حدث فى الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية فى أعقاب الاسرة السادسة ، وكذا فى اضطراب العمال على أيام «رعسيس الثالث» ، وهو أول اضطراب وصلتنا أخباره فى التاريخ ، وقد حدث فى العام التاسع والعشرين من عهد رعسيس الثالث (حوالى عام ١١٥٣ ق.م) (٧١) ، والامر كذلك فى التاريخ الاسلامى فالدعوة العباسية وحركة القرامطة ، وحركة الاسماعيلية لم تكن حركات سياسية أو دينية فحسب ، ولكن صلتها بالوضع والاهداف الاقتصادية جد وثيقة ، كما أن ثورة الزنج لم تكن حادثا سياسيا فقط ، وانما كانت وثيقة الصلة بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية ، كما كانت تنبئا هاما من أسباب تفكك الامبراطورية العباسية ، وتشجيع الحركات الاستقلالية والاقليمية فى بعض أجزائها ، كما أن العوامل الاقتصادية انما تفسر لنا كثيرا من التعديلات التى أدخلها الأمويون فى النظام المالى على يد

(٧١) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعسيس الثالث — الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٣٥٠ — ٣٥١ ، مصر ٣١٥/٣ — ٣١٧ ، مصر — الجزء الثانى ص ٢٥٦ — ٢٦٢ ، وكذا

J. H. Breasted, A History of Egypt, London, 1946, p. 60-62.

W. C. Hayes, in JEA, 32, 1946, p. 3-23.

E. F. Wente, in JNES, 20, 1961, p. 252-257.

J. Cerny, Archiv, Orientalia, 6, 1934, p. 173-178.

J. A. Wilson, in JNES, 10, 1951, p. 137-245.

W. F. Edgerton, Op. Cit., P. 97-100, 274-277.

الحجاج الثقفي ، والتي أعاد الخليفة الراشد «عمر بن عبد العزيز» النظر فيها على ضوء سياسته في العناية بنشر الاسلام ، قبل أى اعتبار آخر ، كما تفسر لنا العوامل الاقتصادية والاجتماعية معظم الاحداث التي أدت الى سقوط الاسرات الحسكية ، وقيام أسرات أخرى في التاريخ الاسلامي (٣) .

وانطلاقا من كل هذا يقول «هرنشو» : ليس بين الدراسات الاجتماعية التي غدا التاريخ وثيق الصلة بها ، ما هو أشد لزوما للمؤرخ من علم الاقتصاد ، ورغم أن جميع المفكرين المسئولين قد عدلوا عن العقيدة المرفقة التي صاغها «ماركس» و «وانجلز» والتي تفسر التاريخ تفسيراً محضاً ، إلا أن المؤرخين معترفون بأن العوامل الاقتصادية لعبت دوراً بارزاً في جميع عصور النشوء الاجتماعي للعالم ، وبخاصة في العصور القديمة ، أيام كان الانسان مضطراً الى أن يكافح من أجل وجوده كفلاحاً متصلاً ، أعداء طبيعيين مساوين له ، في القوة ، وشدة المراس (٣) .

٥ - الادب (Literature) : لا ريب أن الادب انما هو وثيق الصلة بالتاريخ ، فهو مرآة العصر ، وهو تعبير عن أفكار الانسان وعواطفه ، وهو يفسح عن داخل البشر ، ويصور أحلامهم وأمانيتهم ، فالادب المصري القديم — على الرغم من قلة ما وصل الينا من آثاره — يساعد الباحث في التاريخ على نواح مختلفة من الحياة المصرية القديمة ، فالباب المصرية القديمة — بطبيعتها وتقاليدها وأحداثها — قد أوجت الى الكتاب المصريين القدامى بالتعبير عن مشاعرهم بلغة أدبية مؤثرة ، فكتبوا عن معبوداتهم ، وعن تصورهم للعالم الآخر ، ودونوا قصصاً خيالية ، وكتبوا في الادب التعليمي لتهديب الأبناء والتلاميذ .

ومن ثم فلا بد لكاتب التاريخ أن يتذوق الشعور ، لكي يفهم ملكة

(٧٢) سيدة الكاشف : المرجع السابق ص ٦ .

(٧٣) هرنشو : علم التاريخ — ترجمة عبد الحميد العبادي — بيروت

١٩٨٢ ص ١٧٨ — ١٧٩ ، فتحى عثمان : التاريخ الاسلامي والمذهب المادى في التفسير ص ٢٢ — ٢٣ .

الخلق والابتكار وأن يقرأ كذلك شيئاً من النصوص الأدبية ، لكي يتعلم منه كيفية عرض موضوعاته ، وإبراز الحوادث الهامة ، ويبحث الشخصيات الأساسية والثانوية ، ووضع التفاصيل والجزئيات في المكان اللائم ، واحكام الموضوع الذي يدرسه ، واثارة انتباه القارئ وجعله قادراً على استيعاب ما يقدم اليه وتذوقه .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك — مثلاً — من عصور التاريخ المصرى القديم — وأعني به عصر الثورة الاجتماعية الاولى (٧٤) — انما يعتمد على مصادر أدبية ، أكثر منها أثرية ، ذلك لأن هذا العصر — بقدر ما ضل على المؤرخين بمصادره الأثرية ، فقد منحهم قدراً من الأدب يكاد يعطينا صورة شبه كاملة عن الحالة الاجتماعية في تلك الفترة من تاريخ مصر القديم ، ومما يزيد في أهمية هذه المصادر الأدبية أنها تمثل تفكير الشعب كله — حاكميه ومحكوميه — ذلك لأن الحاكمين قد كتبوا بعضها ، كما كتب المحكومون البعض الآخر وأن كان للمحكومين نصيب كبير مما كتب (٧٥) .

وليس هناك من ريب في أنه كان للتطور الاجتماعى والتغير السياسى الذى صاحب عهد الثورة الاجتماعية الاولى ، أثر واضح على الأدب ، نلمسه في الاسلوب المختلف للقصاصد عوفى ظهور نوع جديد من الأدب هو «أدب النقد والسياسة» ، ومن ذلك آراء الحكيم المصرى «إيبور — ور» في تحذيراته المشهورة (٧٦) ، التى تحدث فيها عن الاضطراب الخلقى والفوضى في المجتمع ، مما مهد السبيل لنوع آخر من الشعر والنثر يتحدث عن اليأس والعزلة (٧٧) ، وفي العصر الالهاسى بدأ الملوك

(٧٤) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفرعونية — الاسكندرية ١٩٦٦ .

(٧٥) نفس المرجع السابق ص ٤ — ٢٣ .

76. A. H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage, Leipzig, 1909, (1969).

(٧٧) أنظر : بردية اليائس من الحياة : (محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٠ — ١٢ ، وكذا

J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 406-407.

A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, London, 1927, p. 86-92.

للمصريون يقدمون لأولياء عهدهم خلاصة تجاربهم السياسية ، حتى يكون لهم من التجارب التي عاشها الآباء ، ما يفيدهم في ادارة شئون البلاد ، ومن ذلك تلك النصائح التي وجهت الى الملك «مرى كلرع» (٧٨) ، ذات المضمون السياسي والاخلاقي ، وقد صيغت في أسلوب أدبي رائع ، حتى اعتبرها القوم من الماثورات التي يحفظها تلاميذ المدارس (٧٩) .

ولا ريب في أن الأدب المصري القديم إنما يمثل أكثر اتجاهات القوم في الحياة أصدق تمثيل ، كما يؤكد لنا أن المصريين القدامى ان لم يكونوا قد وضعوا الأساس الاول في بناء للفكر الانساني الرفيع ، فإنهم كانوا من أئمة الناس في ذلك (٨٠) .

وعلى أية حال ، فلقد عالج القوم في آدابهم نواحي مختلفة من الأدب ، فكتبوا في المواعظ وآداب السلوك ، وما ينبغى التخلق به في الظروف المختلفة ، وضمنوها الامثال والحكم الخالدة على مر الايام ، وكر السنين ، وأنشأوا المقالات في الاصلاح السياسي لعلاج ما تفتش — في فترة ما — من مساوئ ، وما حل بالمجتمعات من نكبات ، وصنفوا الرسائل في المناسبات والاعراض المختلفة — في التهنيت والتواصي والتمنيات والتراجي والتفاضل والمفاخرة وغير ذلك من — مطالب الحياة ومقاصدها — وحاكوا القصص القصيرة المختلفة ، حتى ليعتقد أن مصر إنما هي موطن القصة القصيرة ، وصاغوا الاناشيد ، وألفوا الاغاني والتمثيلات الدينية .

على أن هناك كثيرا من النصوص الادبية المصرية لم تقتصر أهميتها

78. J. A. Wilson, Op. Cit., p. 414-418.

Erman, Op. Cit., p. 75-85.

M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, I, London, 1975, p. 97-109.

(٧٩) محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة — الجزء الاول — الادب والعلوم — الاسكندرية ١٩٨٩ ص ١٠ - ١١ .

(٨٠) أحمد بدوي ومحمد جمال الدين مختار : تاريخ التربية والتعليم في مصر — الجزء الاول — العصر الفرعوني — القاهرة ١٩٧٤ ص ٧٠ .

عليها كونها قرائنا أدبيا فحسب ، بل أنها تقدم لنا همدا انسانيًا للحضارة
المصرية القديمة التي لا يعرف عنها الشخص المعاصر ، سوى المقابر
والتوابيت والتمائيل ، بل أن كثيرا من الناس انما كانوا يعتقدون - إلى
عهد قريب - أن حضارة مصر الفرعونية ليست الا حضارة مادية في
الدرجة الاولى ، وأن هذه الشوامخ الراسيات على أرض الكنانة - من
الاهرامات والمعابد والمسلات وغيرها من الآثار المصرية - ليست الا
رمزا للاستعباد والسخرة (٨١) .

هنا وقد عرف المصريون القدامى كذلك الأدب الرومانسي يوبهموا فيه
الى قمم عالية ، وفي أشعار اخناتون أبلغ دليل على ذلك (٨٢) ، كما عرفوا
أيضا شعرا تغلب عليه النزعة الفلسفية ، وبعث بصورة رمزية في رحلة
الانسان بين الميلاد والحياة .

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة الى أن الادب الجاهلي انما هو
مصدر هام من مصادر التاريخ العربي القديم ، ذلك لان أيام العرب
في الجاهلية - مثلا - انما تعتبر مصدرا خصبًا من مصادر التاريخ ،
وينبوعا صافيا من ينابيع الأدب ، ونوعا طريفا من أنواع القصص ، وما
اشتملت عليه من الوقائع والاحداث ... فهي توضح شيئا من الجلات
التي كانت قائمة بين العرب وغيرهم من الامم كالفرس والروم ، وتروى
كثيرا مما كان يقع بين العرب أنفسهم من خلاف ، بل انها سبيل لفهم
ما وقع بين العرب بعد الاسلام من حروب شجرت بين القبائل ، ووقائع
كانت بين البطون والافخاذ والعشائر ، ثم هي في أسلوبها القصصى ،
وبيانها الفتى ، مرآة صادقة لاجوال العرب وعاداتهم ، وأسلوب حياتهم
وشأنهم في الحرب والسلم ، والاجتماع والفرقة ، والنجدة والاستقرار ،
وهي أيضا مرآة صافية تظهر فيها فضائلهم وشيمهم ، كالذقاع عن

(٨١) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر
الفرعونية ص ٢ .
(٨٢) أنظر عن أشعار اخناتون (محمد بيومى مهران : اخناتون :
عصره ودعوته - القاهرة ١٩٢٩ ص ٣٥٩ - ٣٨٢ .

الحريم ، والوفاء بالعهد ، والانتصار للعشيرة ، وحماية الجار والصبر في القتال ، والصدق عند اللقاء ، وغير ذلك مما نراه واضحا في تلك الايام (٨٣) .

وعلى أية حال ، فالشعر الجاهلي دونما ريب ، انما هو مصدر من مصادر تاريخ العرب قبل الاسلام ، وقديما قالوا : ان الشعر ديوان العرب ، يعنون بذلك أنه سجل سجلت فيه أخلاقهم وعاداتهم ودياناتهم ، وان شئت فقل : انهم سجلوا أنفسهم فيه ، كما نستطيع أن نستدل به على جغرافية شبه الجزيرة العربية وما فيها من بلاد وجبال ووديان وسهول ونبات وحيوان ، فضلا عن عقيدة القوم في الجن والاصنام وفي الخرافات (٨٤) .

وهكذا يروى «ابن سيرين» عن الفاروق عمر بن الخطاب ، رضوان الله عليه ، قوله : «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه» (٨٥) ، وقريب من هذا ما يروى عن عكرمة - تلميذ ابن عباس ومولاه - «أنه ما سمع ابن عباس يفسر آية من كتاب الله عز وجل ، الا ونزع فيها بيتا من الشعر» وأنه كان يقول : اذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله ، فاطلبوه في الشعر ، فإنه ديوان العرب ، به حفظت الانساب ، وعرفت المآثر ، ومنه تطمت اللغة ، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله ، وغريب حديث رسول الله ﷺ وغريب حديث صحابته والتابعين (٨٦) .

ومن ثم أصبحت كتب الادب من المصادر الهامة في التاريخ العربى

(٨٣) محمد أحمد جاد المولى وآخرون : أيام العرم في الجاهلية - القاهرة ١٩٤٢ ص ط - ي .

(٨٤) أحمد أمين : فجر الاسلام - بيروت ١٩٦٩ ص ٥٧ .

(٨٥) محمد بن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء - القاهرة ١٩٥٢ ص ٦٠ .

(٨٦) سجواد على : المفضل في تاريخ العرب قبل الاسلام - ٦٧/١ - ٦٨ ، ٦٦٣/٨ ، جلال الدين السيوطى : المزهري في علوم اللغة - القاهرة ١٩٤٢ - ٣٠٢/٢ ، ٤٠٧ ، لاتقان في علوم القرآن - القاهرة ١٢٧٨ هـ - ٥٢/٢ ، التبريزى : شرح حفاصة أبى تمام ٣/١ .

القديم ، ففيها ثروة أدبية قيمة ، قد لا نجد لها مثيلا في كتب التاريخ ، وأن ما جاء بها عن ملوك الغساسنة والمناذرة وكندة ، أكثر مما جاء في كتب التاريخ ، بل هو أحسن منه عرضا وصفاء ، ويدل عرضه بالاسلوب الأدبي المعروف ، على أنه مستمد من موارد عربية صافية ، لم يعكر هذا اللصفو شوائب من أسرائيليات ونصرانيات ، فضلا عن أنه أخذ من أقواء شهود عيان ، شهدوا ما تحدثوا عنه ، بل نستطيع أن نذهب بعيدا ، فنقول : ان كثيرا من الاخبار ماتت لموت الشعر الذي قيل في مناسبتها ، في حين أن أخبارا خلقت خلقا ، لان ما قيل فيها من شعر كان سببا في بقائها ، ومن ثم فقد أصبح الشعر سببا في تخليد الاخبار ، لمسهولة حفظه ، ولاضطرار رواته الى قص المناسبة التي قيل فيها (٨٧) .

على أن للادب الجاهلي ، كمصدر لتاريخ العرب فيما قبل الاسلام ، عيوبها منها (أولا) أنه لا يرجع الى أكثر من عصر الجاهلية ، وهو جزء من عصر ما قبل الاسلام ، يقدر له زمنا يتراوح بين قرن ونصف ، وقرنين ونصف قبل ظهور الاسلام مباشرة ، بينما قدر العلماء لحضور ما قبل الاسلام مدة ربما تتجاوز العشرين قرنا ، تمتد من حوالي ١٥٠٠ ق.م ، الى ٦١٠م (٨٨) ، ومنها (ثالثا) أن ما روى لنا منه انما يمثل المختارات ، وهم في هذا ينظرون اليها نظرة الاديب ، لا نظرة المؤرخ ، فالقصيدة التي لم يحكم نسجها ، ولم تهذب ألفاظها ، ولم يصح وزنها ، قد يعجب بها المؤرخ أكثر من اعجابه بقصيدة كاملة من جميع نواحيها ويرى فيها دلالة على الحياة العقلية ، أكثر من قصيدة راقية (٨٩) ومنها (ثالثا) أن الشعر الجاهلي لا يتحدث عن التاريخ السياسي ، بقدر ما يتحدث عن التاريخ الديني والاجتماعي .

ومنها (رابعا) أن الشعر الجاهلي قد تعرض للضياع بتركه يتناقل

(٨٧) جواد علي : المرجع السابق ٧١/١ ، ٧٣ ، دائرة المعارف الإسلامية : مادة تاريخ ص ٤٨٤ .
 (٨٨) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٩ .
 (٨٩) أحمد أمين : المرجع السابق ص ٥٧ .

على السنة الرواة شفها نحو قرنين الى أن دون في تاريخ متأخر (٩٠) ،
حتى أن أبا عمر بن العلاء قال : ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ،
ولو جاءكم وافرا ، لجاعكم علم وشعر كثير (٩١) ، ومنها (خامسا) أن
معظم ما وصلنا من الشعر ، إنما كان من عمل البدو ، وليس الحضرة .
ومن ثم فهو يمثل البداية أكثر مما يمثل الحاضرة (٩٢) ، ومنها (سادسا)
أن هناك مجالا للظن — على خلاف المشائخ — أن العلماء قد خففوا
— مدفوعين بالعامل الديني — من الطابع الوثني في بعض القصائد كما
أن الأقباط في الحرص على صحة اللغة وصفائها في أوساط البصرة قد
أنقذ إلى إجراء بعض التصحيحات في الآثار المروية (٩٣) ، ومنها (سابعا)
أنه حتى هذا الشعر القليل الذي وصل إلينا منه إنما توجه إليه سهام
الريب من كل جانب ، وليس بالوسع القول بأنه يرقى إلى ما فوق مظهر
الشنهات ، ذلك أن كثيرا من الرواة قد تجرأ عليه بالنحل ، أما بنقل
شيء من قائل إلى قائل ، وأما بوضع شيء منه على السنة للشعراء (٩٤) .

بقيت الإشارة إلى أن هناك ثمة وجه آخر لموضوع العلاقة بين
التاريخ والأدب ، فليؤرخون لا يشاركوا في الأدب بمشاهدة مباشرة

-
- (٩٠) طه حسين : الأدب الجاهلي — القاهرة ١٩٣٣ ص ٦٤ .
(٩١) محمد بن سلام الجمحي : المرجع السابق ص ١٠ .
(٩٢) القرشي : جمهرة أشعار العرب ص ٣٤ .
(٩٣) ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربي — العصر الجاهلي —
بيروت ١٩٥٦ ص ١٣٥ .
(٩٤) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية — بيروت ١٩٦٤ ص ١٨ .
ولنظير عن الشك حول الأدب العربي (طه حسين : المرجع السابق ص
٧١ — ٧٣ ، ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ١١١ — ٢١٧ ، عباس
محمود العقاد : مطلع النور — أو طالع البعثة المخمئية — القاهرة ١٩٦٨
ص ٤٨ — ٤٩ ، محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤٩ — ٥٢ ،

W. Muir, Ancient Arabic Poetry, in JRAS, 1875.

C. Lyall, Translation of Ancient Arabia Poetry, London, 1885.

D. S. Margoliouth, The Origins of Arabic Poetry, in JRAS, 1925, p. 417-449.

Giorgio Levi Della Vida, Pre-Islamic Arabia, The Arab History, New Jersey, 1944, p. 541-544.

فجسب ، بل ان المعلومات التاريخية لها تدخل في تقويم الادب بدرجاته متغلوته ، وربما كان ثقل دخولها في النشر للبحث أو في الدراما ، وأكثر دخولها في الادب السياسي ، حيث يتقيد موضوع الكتابة بالتاريخ ، فغلبا عن القصة ، هذا - وكما أشرنا من قبل - فلان إشغولك كلمة التاريخ وكلمة القصة في أصل واحد في اللغة الانجليزية (التاريخ History القصة Story) انما يدل على أن القصة انما هي عصب التاريخ (١٥) .

٦ - للفنون والعبارة : وهذه العلوم لابد وأنها تسعد على فهم تاريخ العصر ، فالفنون جميعها تعكس صورة دقيقة للحضارة ، وتبين كثيرا من قضايا أهلها ، ومن حياتهم الواقعية ، ومن عقاليدهم ونظمهم وأحلامهم وأمانيتهم ، كما تعكس هذه للفنانون المقيم التي يؤمن بها أصحاب تلك الحضارات .

٧ - علم النفس : وهو من العلوم المساعدة التي يحتاجها المؤرخ ، فدراسة العوامل النفسية ، والنوازع البشرية ، ومطوالة التوصل إلى المكونات النفسية لشعب من الشعوب أو جماعة من الناس ، إنما تساعد دونما ريب ، في فهم كثير من الأحداث التاريخية ، وهذا فضلا عن صعوبة التاريخ للشخصيات التاريخية الهامة ، دونما دراسة بعادة للعنواصل النفسية التي كونت هذا الزعيم أو ذلك ، والمؤثرات المختلفة التي شكلت فكره وميوله .

(٨) علم الاجتماع : يذهب «لويس نمار» إلى أن موضوع الدراسة في التاريخ انما هو الشؤون الإنسانية ، وأفعال الناس ، والأشياء التي وقعت وكيفية وقوعها ، والأحداث الملموسة مرتبطة بزمانها وجذورها في تفكير الناس ومشاعرهم ، دون أن يعني بالأشياء العامة وبالمعمومات،

(١٥) ١٠١ - ل. راوس : المرجع السابق ص ٤٧ - ٤٨ .
(١٦) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص

فالأحداث تتطوى على تفسير وتتنوع، مثلها في ذلك مثل أولئك الذين دونوها ، وتلك أمور تتصل بعلم الاجتماع ، كما تتصل بالتاريخ ، غير أن استخدام مفاهيم علم الاجتماع في الدراسة التاريخية لا تجعل من المؤرخ عالما اجتماعيا ، ولكنها تمنحه القدرة على تنظيم المادة التاريخية وتنسيقها ، كما تريد من قوة تفسيراته وتأويلاته السببية ، وهكذا فالتصرف على نتائج العلوم الاجتماعية قد يجعل مؤرخا بذاته أكثر قدرة من غيره على جمع معلومات متصلة اتصالا أوثق بمشكلات بحثه (١٧) .

ومع ذلك فعلم الاجتماع - رغم أهميته للمؤرخ - لا يقدم له تحليلات متعددة يضمنها في تحليلاته ، مثلما يطرح التاريخ الأحداث والشواهد أمام علم الاجتماع ، وإن كان علماء الاجتماع يعملون على تحقيق البحوث التاريخية عن طريق تنبيه المؤرخين إلى المزيد من محصن العوامل المؤثرة ، طالما أن الشواهد المستخلصة من البحوث الاجتماعية ترحى بذلك ، وإن كان هذا لا يعنى تصديق قضايا البحوث الاجتماعية تصديقا مطلقا على الماضي ، أو أنه من المحتم أن تتحقق نفس العلاقة بين المتغيرات ، وعلى أية حال ، فهناك من المفاهيم ما يفيد المؤرخ مثل «مفهوم الإطار المرجعي» Frame of Reference و «الجماعة المرجعية»

Reference Group والذين يتضمنان الافتراض القائل بأن فهم سلوك الأفراد والجماعات يقتضى الرجوع إلى الإطار الأشمل الذي يثير هذا السلوك ويشكله ، وليس هناك من ريب في أن المؤرخ - إن كان يهدف إلى فهم الظاهرة التاريخية فهما كليا دقيقا - فعليه أن يضع سلوك الأفراد والجماعات التي يؤرخ لها داخل الإطار المرجعي الذي يكون مسئولا عن وقائع وأحداث سلوكية ، كما أنه هو الذي يجعل هذه الوقائع والأحداث مفهومة ، وتبدو هذه المفاهيم ذات فائدة محققة للمؤرخ الذي يتناول دراسة القادة السياسيين ، حيث يحصل المؤرخ على معلومات

(١٧) انظر : محمد على محمد : المرجع السابق من ١٤٣ - ١٤٧ .

L. Namier, History and Political Culture ..., New York, 1956, p. 372.

تفصيلية تتناول الجماعات المرجعية التي أسهمت في سلوك هؤلاء ،
القادة (٩٨) .

هذا ويمذهب «ريكان» في دراسته عن المدخل التاريخي وصلته
بالمعلوم الإنسانية الأخرى أن هذا المدخل يعتمد أساساً على فهم
التعبيرات والمظاهر المختلفة بالنظر إليها في سياق تاريخي أو زمني ، ثم
أنه يسمى إلى فهم السياق الكلي للأحداث حينما ينتقل من شعب أو
مظهر إلى تعبير ومظهر آخر ، ويعتقد «ريكان» أن المدخل التاريخي بهذا
المعنى إنما يستخدم في الدراسات التاريخية المتخصصة « كما هو مفتاح
للافادة منه في كل العلوم الإنسانية ، فضلاً عن العلوم الطبيعية ، كما
أن تسجيل بعض التجارب العلمية قد يقوم بنفس الدور في الفيزياء أو
الكيمياء ، وهكذا يطبق المدخل التاريخي على موضوع خاص بعلم ما
أحياناً ، كدراسة تاريخ الطالة في علم النفس ، وعلى النتائج الخاصة
بالدراسات التاريخية والملائمة لتاريخ الاقتصاد ، ولتاريخ النظريات
الاجتماعية ، وانطلاقاً من هذا المنهج القائم على فهم التعبيرات الإنسانية
المختلفة فهما تفسيرياً كلياً ، فإن حياة الأفراد بالنسبة لمنهج «ريكان»
تمثل اهتماماً ثابتاً ، ولذلك نجد أنه يؤكد أن التاريخ والشواهد التاريخية
المستخدمة في العلوم المتفاوتة لها أهمية خاصة في الدراسات الإنسانية (٩٩) .

بقيت الإشارة إلى أن مصطلح «التاريخ الاجتماعي» Social History
إنما يشير إلى دراسة التغير الذي يطرأ على شبكة العلاقات
الاجتماعية ، وتطور النظم الاجتماعية ، والتحول في المفاهيم والقيم
الاجتماعية ، ويرتبط هذا المصطلح بمصطلح «التاريخ الاقتصادي»
Economic History وكلاهما نتيجة مباشرة واستجابة محدودة لمصطلح

98. S. M. Lipset and R. Hofstadter, Sociology and History Methods,
N. Y., 1968,

(٩٩) محمد علي محمد : المرجع السابق ص ١٤٨ - ١٥١ ، بول
ريكان : منهج جديد للدراسات الإنسانية ، ترجمة على عبد المعطي
ومحمد علي محمد - بيروت ١٩٧٨ ص ٢٦٧ - ٢٧٤ .

التاريخ السياسي ، وتاريخ الحكومة والدولة ، وقد وضع أصول التاريخ الاجتماعي كل من «ابن خلدون» و «فيكو» ، وسوف نناقش آراء ابن خلدون فيما بعد ، أما «فيكو» فقد نجح في تحويل الاهتمام في التاريخ الطبيعي من الحزوب والمجاهدات الى دراسة العادات والقوانين والانظمة الاقتصادية والاجتماعية والفنون والديانات والعلوم والاعمار .

وفكرة مفهوم التاريخ الاجتماعي عند «فيكو» هي نظرية التطور ذات المراحل الثلاثة : الاولى : المرحلة الدينية ، وتتميز بسيطرة التفكير الديني واللاهوتي ، والثانية مرحلة عهد البطولة : وتتميز بسيطرة ذوى القدرات العقلية الذين يرفعهم الناس الى أعلى المراتب ويخضعون لحكمهم وسناباتهم ، والمرحلة الثالثة : مرحلة الانسانية ، وهي عهد الحرية والحقوق السياسية والمدنية ، وبذا تميزت بالحكومة للديمقراطية ويهدف الدين هنا الى رفع المستوى الاخلاقي العام ، والقيمة الموجهة للسلوك هنا ، هي قيمة الواجب ، واجترام الطبيعة الانسانية (١٠٠) .

٩ - وهناك علوم مساعدة أخرى ، كالمنطق وفلسفة التاريخ وعلم الاجناس والقانون والنظريات السياسية وعلم الاحصاء والرياضة والفلك والنبات والحيوان ، فكل تلك العلوم انما تفيد في البناء التاريخي لموضوع الدراسة التاريخية ، وفي عقد المقارنة وتفسير الظواهر ، بحيث تخرج الدراسة متكاملة ، والبحث وافيا .

هذا ومن التواضعي الهامة لمن يرغب في دراسة التاريخ وكتابته ، أن يعرف صورة عامة ، على الأقل عن التاريخ العام ، ومن ثم فعليه أن يقرأ بعض مختارات من بعض كتابات المؤرخين ، المقدمي عنهم والمحدثين هذا فضلا عن أنه من الامور الاساسية للمؤرخ ، ألا يلتزم بخدود بلاده ، بل ينبغى عليه السفر والارتحال داخل بلاده وخارجها ، وأن يقضى

(١٠٠) محمد علي محمد : المرجع السابق ص ١٥٢ - ١٥٤ . وكذا

G. Vico, The New Science of G. Vico, Trans. by Bergin and Fisch, New York, 1948.

فترة ، أو فترات متعددة ، في البلد الذي يدرس نواح مختلفة من تاريخه .

هذه هي - بايجاز - أهم العلوم المساعدة التي تساعد المؤرخ لدراسة التاريخ القديم ، وهي دونما ريب ، تعطينا فكرة موجزة عن الثقافة الواسعة التي يتعين على المؤرخ أن يزود نفسه بها ، وبدهى أننا لا نطالب المؤرخ بالدراسة المتعمقة في كل هذه العلوم المساعدة ، فذلك أمر صعب ، ان لم يكن مستحيلا ، وانما نطلبه فقط بالالام بها ، الماما يساعد على انجاز دراسته على خير وجه ، وبدهى أيضا ، أنه لا بأس من أن يتعمق في ناحية بذاتها من هذه الدراسات تكون لها صلة وثيقة بموضوع بحثه التاريخي .

الفصل الخامس

كتابة الرسائل الجامعية

مراحل كتابة الرسالة

يحتاج طلبة الدراسات العليا - الماجستير (M.A. Thesis) والدكتوراة (Doctorate) - إلى أعداد رسالة علمية تعتبر من مهمات الدراسة العليا في الجامعات التي تعتمد على «الكورسات» Courses و «الرسائل» (Thesis)، كما تعتبر الوسيلة الوحيدة لذلك في الجامعات التي تعتمد عليها وحدها دون نظام «الكورسات» والرسالة - فيها يرى «آرثر كول» (Arthur Cole) - «تقرير واف يقدمه بحث عن عمل تمهده وأتمه» ، على أن يشمل التقرير كل مراحل الدراسة ، هذه كانت فكرة حتى صارت نتائج مدونة ومرتبعة ومؤيدة بالمعجم والاساليب^(١).

وهي - على أية حال - أما أن تكون تحقيقاً لخطوة ، أو بحثاً في موضوع معين ، والمعروف أن الجامعات عادة تعد طلبية الماجستير خلال السنة التحضيرية (التمهيدية) التي تسبق تسجيل الرسالة ، ليكونوا مؤهلين لكتابة الرسالة ، ويتم ذلك عن طريق تكليفهم بكتابة بحوث صغيرة متعددة ، وفق قواعد منهج البحث العلمي ، وغالباً ما تكون هذه البحوث متنوعة ، بغية أن يطلع الطالب على مصادر تخصصه المختلفة ، ويعتبر كيفية استعمالها ، والأفادة منها ، ولیمارس منهج البحث العلمي بصورة محددة ، ولا يجب في أن فجاح الطالب في كتابة هذه البحوث إنما هو الدليل على قدرته على كتابة الرسالة ، ذلك لأن الرسالة متكتم على طريقة نفس البحث المحدد ، وطبقاً للمنهج العلمي ، وإن كانت على نطاق أوسع ، فضلاً عن أنها ستبين بوضوح مدى افادة الطالب من بحوثه المحدودة التي أعدها طوال السنة التحضيرية .

وعلى أية حال ، فالمعروف - أنه رغم فائدة المواد العلمية التي يتلقاها طلاب الدراسات العليا في السنة التمهيدية ، بغية تعميق

(١) أحمد شلبي ، المرجع السابق ص ٥٠ .

تخصصهم ، وتوسيع اطلاعهم في موضوعات أبحاثهم ومصادرها ، فضلا عن إبراز شخصية الواحد منهم ، وتنمية مواهب النقد عنده ، ومعالجة جوانب النقص في ثقافته العلمية ومادته اللغوية — فإن الاهتمام الاساسى يجب أن يوجه نحو البحوث التى يقوم بها الطالب ، باشراف الاساتذة المختصين Supervisors ، ذلك لان اغفال البحوث الصغيرة المعدة وفق المنهج العلمى ، إنما يجعل الطالب غير مؤهل لكتابة الرسالة ، ويمرضه في الغالب الى الفشل (٣) .

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة هنا — وقبل أن نتحدث عن كتابة الرسالة الجامعية — أن نشير الى امرين : الواحد : أن الطالب وحده هو المسئول عن رسالته ، ولا ينبغي أن يظن أن أستاذه يشاركه أية مسئولية ، كما لا ينتظر أن يدافع عنه أستاذه عند نقاش نقطة ما ، ولو أقرها الأستاذ عند الاعداد ، فالأستاذ المشرف إنما يفرق تماما بين كونه مشرفا ، وبين كونه امتحنا .

والثانى : أنه من العدالة ألا يخرج الأستاذ المشرف Supervisor الرسالة التى يشرف عليها مضبوغة بروحه وعلمه ، بل أن تصبغ بروح الطالب وجهده ، حتى يمكن التفاوت المتبادل بين الرسائل التى يعدها طلاب متعددون ، متفاوتو المواهب ، تحت اشراف أستاذ واحد (٤) .

وأما مراحل كتابة الرسالة ، فيمكن أيجازها في النقاط التالية :

أولاً : اختيار موضوع البحث . ثانياً : وضع خطة البحث .

ثالثاً : اعداد بيبليوجرافيا للموضوع . رابعاً : جمع المادة العلمية .

خامساً : نقد المادة التاريخية . سادساً : اثبات الحقائق التاريخية .

سابعاً : العرض التاريخى . ثلثناً : ملحق للبحث التاريخى .

(٢) اكرم ضياء العمرى : دراسات تاريخية ، مع تعليقه في منهج البحث وتحقيق المخطوطات — المدينة المنورة — الجامعة الاسلامية — ١٩٨٣ ص ١٣ — ١٤ .

(٣) احمد شلبى : المرجع السابق ص ٢٢ — ٢٣ .

تاسعا : الحواشي أو الهوامش • عاشرا : طريقة كتابة المصادر والمراجع
جادی عشر : تنظيم الرسالة الجامعية •

أولا - اختيار موضوع للبحث : يختلف اختيار موضوع البحث باختلاف وضع الراغبين فيه ، فمثلا طالب الجامعة المبتدئ في التخصص لا يستوى مع طالب الدراسات العليا الذي أنهى دراسته الجامعية وبدأ يتطلع للحصول على درجة الماجستير فالدكتوراه ، وكلاهما لا يستوي مع المتخصص الكبير أو الاستاذ الذي أمضى حياته في كتابة الأبحاث التاريخية •

وعلى أية حال ، فإن أول ما يواجهه طالب الدراسات العليا هو اختيار الموضوع الذي يسجله رسالة الماجستير أو الدكتوراه ، وفي الواقع فإن اختيار الموضوع الصالح ليس عملا سهلا ، بل يحتاج إلى الاطلاع الواسع التخصص ، ذلك لأن الموضوع المختار إنما يقرر غالبا نجاح أو فشل الطالب في كتابة الرسالة في الوقت المحدد ، وقد يتعثر الطالب في دراسته ، ولا يستطيع انجازها ، بسبب عدم اختيار الموضوع الملائم ، وأحيانا يتمكن من انجازها ، ولكن بعد الوقت المحدد بفترة طويلة ، وفي المعادة يصعب أن ينفرد الطالب بمختيار الموضوع الصالح ، ومن ثم فعلى المشرف أن يشاركه الرأي ، لأن المشرف ينبغي أن يوافق على الموضوع ، وأن تكون له رغبة في متابعة الطالب وتوجيهه ، ذلك لأن الصلة العلمية يجب أن تتعقد بين المشرف والطالب قبل تسجيل الموضوع حتى يكون بينهما تجاوب ، فضلا عن أن يكون هناك تجاوب بين الموضوع وتخصص المشرف واتجاهاته (٤) •

وعلى أية حال ، فإن اختيار موضوع البحث مشكلة تواجه الباحث

(٤) أكرم ضياء العمرى : المرجع السابق ص ١٤)

في التاريخ ، إذ أنه ربما ظن أن أهم الموضوعات التي تتصل بتخصصه قد بحثت ، والواقع أن هذه الفكرة لا تتفق مع الحقيقة في شيء ، فغالبا الاساتذة يلمسون أن كثيرا من الموضوعات ما يزال في حاجة الى من يدرسها ويخرجها للناس ، غير أن الاساتذة انما يحرصون على أن يتركوا للطلاب حرية اختيار موضوعاتهم ، ومن أجل هذا كان على الطالب أن يتأثر على حضور محاضرات أستاذه ، وأن يكون على صلة قوية بأستاذة المادة التي تخصص فيها ، يجادلهم ويناقشهم ، وسيصل - إن شاء الله - الى معرفة كثير من الموضوعات التي تستحق الدراسة ، هيختار منها ما يلائمه ويوافق ظروفه (٥) .

وعلى أية حال ، فاختيار الموضوع هو مهمة الطالب ، وهي مهمة تحتاج الى إرشاد الأستاذ المشرف وتوجيهه ، على أن يكون الموضوع متصلا بتخصص الطالب ، ويميل بعض الطلاب الى أن يفتاروا للماجستير موضوعا يكون هو أول ما يتصل به ، قابلا فيما بعد لدراسة جديدة ذات طابع أعمق ، وعناصر أوسع ، حتي يصلح للدكتوراه فيها بعد .

وأيا ما كان الامر ، فال المطلوب من الباحث أن يقوم ببحث أصيل مبتكر في العلم ، وأن يكشف فيه عن حقائق تاريخية جديدة ، فلا يكون البحث في هذه الحالة ، بناء على الرغبة فحسب ، بل بناء على ما يجب أن يبحث وقد يقال أن البحث لا يختار للموضوع التاريخي ، ولكن الموضوع هو الذي يختار للبحث .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أنه لا بد من توفر الاصاله والابتكار والجدة ، والاضافة العلمية في رسائل الدكتوراه ، ويكفي في رسائل الماجستير القدرة على جمع المعلومات باستيعاب نوقدها وعرضها بصورة منظمة ، مع مراعاة المنهج العلمي بدقة ، ذلك لأن الهدف من رسائل الماجستير أن يجعل الطالب على تجارب في البحث ، تحت إشراف

(٥) أحمد شلبي : المرجع السابق من ٢٤ ± ٢٤ .

أحد الاساتذة ، ليمكنه ذلك من مواصلة البحث للدكتوراه التي يفرض فيها أن تمنح تجارب أكمل وأوسع ، وأن تكون مساهمة حقة في النهضة العلمية ، وأن تضيف جديدا للثقافة الرفيعة^(١) ، غير أن طالب الماجستير أن استطاع أن يختار موضوعا يمكنه من تقديم المساهمة العلمية ، ويحقق له صفة الاصاله والابتكار ، فلا ريب أن ذلك يكون أفضل .

ومن البدهى أن الموضوعات للجريدة التي لم تظرق بعدة أو تلك التي بحثت بصورة ناقصة ، أو دون منهج علمي ، إنما تمكن الطالب من تقديم الجسديد والاميل ، على عكس الموضوعات التي أشبعت قريبا وبخفا ، فإن البحوث الكثيرة فيها إنما تضيق الخناق على الطالب ، وتجعل معظم — ان لم يكن كل — ما يكتبه تكرارا لافكار الآخرين واستنتاجاتهم ، ومع ذلك ، فإن امكانية تحقيق الجودة في بحث الموضوع ، إنما يتوقف على لجنة الاشراف والقسم المختص ، أكثر مما يتوقف على الطالب نفسه ، ومع ذلك فإن واجب الطالب يكون في مراجعة الكتب والمقالات ودوائر المعارف والروايات المختصة بالموضوع الذي يؤلف فيه ليكون على بينة من أمره ، فيعرف ما كتب في موضوعه ، وما يمكن أن يضاف اليه — بصورة تقريبية — كما يلاحظ مستوى الدراسات والابحاث السابقة ، ومكانة مؤلفيها العلمية ، فأن كثرة الدراسات في موضوع معين لا تعنى بالضرورة أنه قد أشبع بحثا ودرسا .

هذا ومن المعروف ألا يكون الموضوع قد سجل من قبل لرسالة علمية سواء في نفس الجامعة أو في جامعة أخرى ، لأن ذلك يقيق مجال الجودة والابتكار ، فضلا عن تكرار الكتابة في الموضوع بنفس المستوى تقريبا ، مما يعتبر إضاعة للجهد العلمي ، غير أن هناك من يبرر هذا التكرار بحجة أن لكل باحث اتجاهاته وطريقة تناوله للموضوع وعقليته وثقافته التي تؤدي إلى الاختلاف في أسلوب ومادة وطبيعة الاستنتاجات ، هذا

(٦) انظر المادة (٩٢) من اللائحة التنفيذية لقانون الجامعات المصرية الصادر بالقرار الجمهوري رقم (٨٠٩) لسنة ١٩٧٥م ، في ١٠ شعبان ١٤٩٥هـ ، الموافق ١٧ أغسطس ١٩٧٥م .

فضلا عن مدى مدى على مناقشة الموضوع ، وظهور مادة علمية جديدة — كالاكتشافات الأثرية ، أو العثور على مخطوطات أو وثائق جديدة — ومع ذلك فيجب عدم الإقدام على هذه الخطوة ، إلا بعد دراسة جادة للموضوع ، والتأكد من أن هناك جديدا يمكن أن يضاف ، فافاق العظم أرحب من أن يكلف الطالب بأعادة كتابة موضوع سبقه إليه غيره ، وأما كيف يمكن معرفة عدم تسجيل الموضوع في الجامعات المختلفة ، فإن ذلك إنما يتم بمراجعة « دليل الرسائل الجامعية » في الجامعات المصرية ، بل في الكليات المتناظرة ، فضلا عن المجلات العلمية المختصة ، ونشرة القرط العربى التى تصدرها معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية ، وغيرها من المنشرات المعنية بذلك ، وسؤال الاساتذة المختصين في الجامعة التى ينقسم إليها الطلاب ، وغيرها من الجامعات الأخرى العربية ، وغير العربية .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أنه ليس من الضروري دائما ، تجديد عنوان الموضوع ، منذ بادى الامر ، وبكفى تصديد العصر والنواحي التى تصلح موضوعا للبحث فى نطاق معين ، أما التجديد النهائى فيتم فى الغالب بعد المضى شوطا فى القراءة والبحث ، وعلى الباحث أن يحدد بصفة تقريبية الزمن الذى سيخصصه لبحث موضوعه وتحديد الوقت التقريبى مرتبط بتحديد الموضوع ، ومن ثم فعلى الباحث ألا يختار موضوعا طويلا ، فلك لان اختيار ناحية أو مسألة معينة يمكنه من انجاز بحثه فى الوقت المناسب ، مع الاعتيان فيه بجديد على العلم ، على أن يراعى عند التجديد النهائى للموضوع أن يكون بطريقة واضحة بحيث يكون الموضوع ذا مضمون محدد ، فلا يكون عاما أو غامضا حتى يتمكن الباحث من حصر المادة العلمية التى يحتاجها لمسايلته ، وحتى لا يفرق نفسه فى تفاصيل لا علاقة لها بموضوع البحث ، كما يجب أن تكون بداية الموضوع ونهايته ذات دلالة خاصة .

هذا وعلى الباحث أن يلاحظ عند اختيار موضوع بحثه ، ميوله الخاصة وقدراته العلمية واللغوية ، سواء كان الموضوع فى اللغة

السياسية أو الاقتصادية أو الدينية أو العسكرية أو الجغرافية ، ذلك لان طرق المجالات التي يميل اليها الباحث تجعله أقدر على العمل ، وأقوى على كشف الحقائق التاريخية ، هذا فضلا عن أن يكون طالب البحث ملما بتلك العلوم المساعدة التي يحتاجها بحثه ، خاصة بالنسبة للغة الاصلية التي كتبت بها مصادر الموضوع الذي اختاره ، فضلا عن اللغة أو اللغات الاجنبية التي كتبت بها مراجعه .

ولعل مما تجدر الإشارة اليه هنا أن الرسائل الجامعية في التخصصات الإنسانية لا بد وأن تكون في حجم مناسب ، فلا يمكن أن تكون الرسالة في خمسين صفحة مثلا ، وقد جرت الاعراف الجامعية على أن تكون رسالة الماجستير ما بين ١٥٠ ، ٣٠٠ صفحة ، ورسالة الدكتوراه ما بين ٢٥٠ ، ٤٠٠ صفحة ، ومن ثم فلا بد أن يكون الموضوع المختار تقويفا له معلومات تكفي لبناء بحث طويل ، ولا شك في أن وفرة المصادر ، وكثرة المعلومات الموجودة فيها عن الموضوع ، هي التي يستحدد سعة البحث ، الأمر الذي يوجب على الطالب أن ينظر في مصادره ومراجعته لمعرفة ما فيها من معلومات عن موضوعه قبل أن يقوم بتسجيله ، ولا بد له من استشارة الاساتذة في ذلك ، وعلى الطالب — اذا لم يطمئن الى وفرة المادة العلمية — أن يغير موضوعه ، وأما ان كانت المعلومات أوسع بكثير من أن يتناولها في رسالة محدودة ، فعلى الطالب أن يمسك الخيط في تحديد عنوان موضوع الرسالة ، والاقتصار على جانب منه ، أو حذف بعض جوانبه ، أو تقليص امتدادها في الزمان والمكان ، حتى يتمكن من إنجاز رسالته في الوقت ، وبالحجم المناسب ، ودونما أي إخلال بمبدأ استيفاء المعلومات واستيعابها (٧) .

ثانيا : وضع خطة البحث : وهي المرحلة الثانية من مراحل إعداد

(٧) أكرم ضياء العمري : المرجع السابق ص ١٤ - ١٦ ، عاتل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص ٣٥ - ٣٧ ، محمد بيومي مهران : منهج البحث التاريخي - الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٢٧ - ٢٨ (مخطوط) ، أحمد شلبي : المرجع السابق ص ٢٣ - ٢٦ .

الرسالة — بعد اختيار الموضوع ، وتحديد المرحلة الزمنية التي يتناولها البحث — وذلك بتناول تنظيم الرسالة ، وتوزيع المادة العلمية على الأبواب والفصول ، ثم المباحث أو العناوين الصغيرة أو الجانبية ، مع تثبيت العناوين للموضوع كله ، ثم لأبواب الرسالة وفصولها ومباحثها ، وذكر أهم النقاط التي سيمعالجها الباحث في كل باب أو فصل أو بحث ، بحيث يعطى فكرة واضحة عن الموضوع الذي يريده الطالب تسجيله ، ويتبين مدى وضوح معالجه في ذهن الطالب .

هذا ويجب أن تكون الخطة مرتبة قابلة للتعديل — من حيث الإضافة والحذف ، والتقديم والتأخير — حسب ما يتطلبه البحث أثناء الكتابة على أن يراعى في الخطة الشمول لعناصر الموضوع ، والتسلسل التاريخي Chronology والترابط المنطقي ، ثم يرفق الطالب بالخطة قائمة بمصادر ومراجع البحث التي رجع إليها ، ووجد بها مادة علمية تخص موضوعه ، كدليل على وفرة المعلومات التي سيبنى بحثه عليها ، وليس بالضرورة أن تكون القائمة كاملة ، ولكنها تكفي لتكوين الانطباعات الأولى عن الطالب ، ومدى جديته في بحثه .

ولعل من الإهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن عنوان الرسالة يجب أن يكون واضحاً ومحدداً ثم يكون كذلك هو — وعنوان كل باب وكل فصل — قصيراً بقدر الامكان ، ولكن على أن يكون واضحاً تماماً للوضوح ، وأن يكون شاملاً لكل ما يستوعبه من جزئيات وتفاصيل ، وقد وضع Bigelow قاعدة لذلك خلاصتها : أن يشمل العنوان من المعلومات ما يدفع باحثاً آخر ، أن يبحث عن هذه المعلومات تحت هذا العنوان ، ويقرر الدكتور إبراهيم سلامة : أن العنوان يشبه الملائكة ذات النهم الموضوعية في مكان لقرشد السائرين حتى يصلوا إلى هدفهم (٨) .

ومن ثم ، فالعنوان يجب أن يدل القارئ على محتويات الرسالة ،

(٨) إبراهيم سلامة : تيارات أدبية من الشرق والغرب ص ٢٥٠ ، أحمد شلبي : المرجع السابق ص ٣٥ - ٣٦ .

وهذا يعني أن العنوانين للعلامة التي لم يحدد مطولها ، ليست ذات قيمة
 علمية ، فالحاشي الطالب أن يكون عنوانه رسالته فيها أو ضعيفا مثل :
 «دراسات في التاريخ المرمسوني» أو «دراسات في الأدب الجاهلي»
 ونحو ذلك ، فإن العنوان العام أو المبهم تخلفه في الشوط الأول ، ومن
 مصلحة الباحث أن يبدأ بدعا قويا ، فالمطلع للنجاح نصف الفوز .

هذا ويجب أن تخضع الأبواب والفصول في ترتيبها إلى أساس سليم
 وفكرة منظمة ، ورابطة خاصة ، كالترتيب الزمني مثلا ، أو كالأهمية أو
 نحو ذلك ، وليحذر الطالب أن يضع أبواب رسالته وقصودها ارتجالا ،
 وعلى غير أساس مقبول (٩) .

ثالثا - إعداد بيبليوجرافيا للموضوع : وهي للخطوة الثالثة من
 مراحل إعداد البحث ، حيث يقوم الباحث بإعداد «بيبلوجرافيا»
 Bibliography - للموضوع ، أي قائمة تضم المصادر المختلفة التي تعالج
 الموضوع - من وثائق وكتب ومفكرات وفكرات ودوريات - على أن
 يثبت البيانات الخاصة بكل مصدر في بطاقة (خزازة) خاصة ، يكتب
 الطالب في أعلاها اسم المؤلف واسم الكتاب في الزاوية اليمنى من أعلى ،
 ويكتب - بعد نقل النص - عنوان النص الدال على محتواه في الزاوية
 اليسرى من أعلى ، ثم يكتب النص ، فإذا انتهت منه كتب رقم المجلد
 ورقم الصفحة التي نقل منها النص ، ويمكنه أن يفصل بين اسم الكتاب
 وعنوان النص وبين النص نفسه بخط واضح ، ولعل من الأفضل أن
 يستعمل الطالب البيانات الخاصة بكل مرجع في بطاقة خاصة ، وهي :
 (اسم المؤلف كاملا - وتاريخ وفاته - اسم الكتاب كاملا - وعدد
 مجلداته - واسم الطبعة - ومحل الطبعة وتاريخه) ، وذلك ليستعين
 بهذه البطاقات عند تنظيم قائمة المصادر ، لأن الكتاب الواحد قد تكون
 له عدة طبعات ، فإذا نسي الطبعة التي نقل منها النصوص وغيرها ،
 اختلفت أرقام الصفحات التي أحال إليها في حواشي البحث (١٠) .

(٩) نفس المرجع السابق ص ٣٦ .

(١٠) أكرم ضياء العمري : المرجع السابق ص ١٤ - ٢٥ .

رابعة - جمع المادة العلمية : يبدأ الطالب بعد ذلك بجمع المادة العلمية لموضوعه من المراجع العامة والخاصة ومن المصادر والافسول مع خصر الاثار والمخلفات التي تتصل به ، فالمرجع العلمية والخاصة تفيد في إعطاء الباحث فكرة عامة عن العصر الذي يكون موضوع البحث جزءا منه ، كما تقدم له بعض المراجع التي تعينه في بحثه ومن الضروري أن يبدأ الباحث هذه المرحلة بالافادة مما كتبه السابقون ، والاستعانة بالمراجع التي اعتمدوا عليها ، وينبغي على كل جيل من المؤرخين أن يعرفوا ما كتبه السابقون ، والمراجع التي افادوا منها .

هذا ، وعلى الباحث أن يتتبع الفكرة الواحدة في بعض الكتب الجيدة والردئية ، سواء بسواء ، مع التعرض على المصادر التي اعتمد عليها أولئك وهؤلاء ، لكي يعرك كيف نمت الفكرة وتطورت ، وكيف عالجا الكتاب المختلفون ، وهذه القراءة الممتازة تساعد الباحث على مصرفة أوجه القوة ، وأوجه الضعف ، وتعينه على الوصول الى تحديد المسائل الجديرة بالدرس والايضاح .

وهناك طريقتان لجمع المادة العلمية ، الواحدة : أن يجمع المادة العلمية المتعلقة بالرسالة كلها ، بكل فصولها مرة واحدة ، ثم لا ينتقل الى خطوة أخرى حتى يتم الجمع ، والاخرى : جمع المادة العلمية المتعلقة بفصل واحد ، ثم ينتقل الى خطوات البحث الأخرى حتى يكتب الفصل ، ثم يعود الى جمع المعلومات المتعلقة بفصل آخر ، وهكذا حتى يتم كتابة الرسالة Thesis Writing .

ولايحب في أن الطريقة الاولى إنما تفيد في اختصار الوقت - خاصة إذا لم تكن المصادر والمراجع تحت يد الباحث - حتى لا يعود الى استعمال المصدر الواحد مرارا ، وإنما ينقل منه كل ما يتعلق بفصول الرسالة ، ولا يعود اليه غالبا ، وأما الطريقة الثانية فتفيد في دفع الملل ، لاحتساس الباحث أنه أنجز فصلا كاملا بوقت محدود ، مما يحفز له مواصلة العمل ، وعلى أية حال ، فإن طبيعة الموضوع ومدى سمته

ووضوحه أو تعقده ، إنما يؤثر في اختيار إحدى الطريقتين في جمع المادة العلمية ، ولا ريب في أن خبرة الأستاذ المشرف إنما تساعد الطالب على اختيار الطريق الأنسب لموضوعه .

علي أن المهم في جمع العلمية إنما هو الدقة في الحقل من المصادر والمراجع ، والبعد عن الأخطاء المثل ، والاختصار المختور ، والمحافظة على عبارات المصدر أو المرجع دونما أي تغيير فيها ، وصحط الأرقام الصفحات التي وردت فيها المعلومات ، وفي نفس الوقت ، على الطالب أن يستوفي جميع المعلومات من سائر المصادر التي يمكنه الحصول عليها وأن يستفيد جهده في ذلك (١١) .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن هناك أساليب مختلفة لجمع المادة العلمية ، منها كتابة المادة في كراسة واحدة أو جمعها في «دوسيه» مقسم ، أو الاعتماد على نظام البطاقات ، وأما أسلوب «الكراسة» فخطورته تراكم نقاط الموضوع ، الأمر الذي يجعل الطالب في العلمية عاجزاً عن تصنيف المادة العلمية أو الإفادة منها وأما أسلوب «الدوسيه» المقسم ، فمرغم أنه يتيح للطالب أن يوزع المادة العلمية التي جمعها أولاً بأول على أجزاء للدوسيه ، غير أن ذلك إنما يترتب عليه بعض الصعوبات عندما يجزئ الطالب تعديلاً في بعض فصول الرسالة ، ولو عندما تتناول المادة العلمية أكثر من نقطة من نقاط الموضوع .

ومن ثم فإن بعض الباحثين إنما يفضل «نظام البطاقات» ، لأنه — فيما يرون — أفضل الأساليب لجمع المادة العلمية ، على أن يؤجل الطالب تصنيف تلك البطاقات حتى ينتهي من جمع المادة العلمية ، وبالتالي تكون فصول الرسالة وموضوعاتها قد اتضحت أمامه بشكل نهائي .

وهكذا — وبعد أن ينتهي الطالب من جمع المادة العلمية — عليه أن

(١١) أكرم ضياء العمري : المرجع السابق ص ١٩ - ٢١ .

يقوم بتصنيفها وترتيبها ، بحيث تكون بطاقات كل فصل على حدة وأن
يصنف بطاقات كل فصل الى مجموعات مختلفة ، ثم يرتب تلك البطاقات
طبقا للخطة التي وضعها لكتابة الرسالة (١٢) .

وأما ان كان الطالب قد جمع المعلومات المتعلقة بالرسالة كلها دفعة
واحدة ، فعليه أن يوزع البطاقات على الابواب ، ثم يوزع بطاقات كل
باب على الفصول ، ثم بطاقات كل فصل على المباحث أو الموضوعات
غير الرئيسية ، وهكذا تكون المادة العلمية المجموعة قد انقسمت الى
مجموعات صغيرة موحدة الموضوعات .

على أن الطالب قد يواجه هنا بحالات يكون النص فيها متعلقا بأكثر
من باب ، وله أكثر من عنوان في أعلى البطاقة ، وفي هذه الحالة ، فعلى
الطالب أن يضع النص في أول باب من الخطة ، فإذا ما أنتهى من كتابة
ذلك الباب ، أعاد البطاقة الى مكانها من البطاقات المتعلقة بباب آخر ، على
أن يؤشر على العنوان الذي استعمله ، والذي يقع في أعلاها .

ولاريب في أن فرز المادة العلمية ، وتنظيم البطاقات على الابواب
والفصول إنما يهدف على فهم الطالب للنصوص ومحتوياتها - ولو
بصورة أولية - وقد يشير رأيه عند فحصها مجددا عند كتابة رسالته ،
ولاستخدام البطاقات المتحركة إنما يساعد كثيرا على هذا التغيير ، هذا
الى أن الطالب قد تخطر بباله استنتاجات من النصوص أثناء نقلها ،
ووضع عناوينها في أعلى البطاقات ، وهنا لعل من الافضل أن يدون تلك
الملاحظات في حواشي البطاقة بقلم مغاير في اللون ، لئلا تتداخل مع
النص الأصلي ، أو في دفتر خاص يرجع اليه فيما بعد ، حتى لا تضيع
هذه الملاحظات عن ذهنه أثناء الكتابة .

خامسا - نقد المادة التاريخية : لعل من الافضل أن يتبع التليخ في
نقد المادة التاريخية الخطوات التالية :

(١٢) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص
٤١ - ٤٢ .

١ - أثبات صحتها : لما كان التاريخ يفرس عن طريق الاصول التاريخية ، كالموثائق ، بما تشمله من آثار الانسان ومخلفاته وعجوايزه التاريخ القديم - مثلا - تعرف عن طريق دراسة آثار الانسان المختلفة فالمؤرخ لا يري الحوادث نفسها ، ولكنه يري ويدرس آثارها ، فآثار الانسان المتنوعة هي نقطة البدء ، والحقيقة التاريخية هي الهدف الذي يتوخى المؤرخ الوصول اليه ، وبين نقطة البدء والهدف يوجد طريق طويل معقد مليء بالمساكل والعقبات والاعطال ، التي تعبد الباحث عن الهدف ، ويلوغ الحقيقة ، ولكن المؤرخ لا يجد غير هذا الطريق للوصول الى غرضه ، ولاريب في أن دراسة الاصول التاريخية وتحليلها بلساليب مختلفة من أهم المراحل في طريق البحث ، وهو عبارة عن ميدان نقد الاصول التاريخية .

وربما تكون دراسة آثار الانسان - من لبنية ومفاهيم ومفردات مادية ملموسة - أسهل من دراسة كتاباته المسجلة عن حوادث الماضي ، وذلك لوجود علاقة واضحة بين الآثار الماثلة أمام المؤرخ ، وأسباب وجودها ، وارتباط ذلك بأحداث التاريخ ، ولكن الكتابات التي دونها الانسان عن حوادث تاريخية معينة ، انما هي أثر عقلي سيكولوجي وليست شيئا بارزا ملموسا ، وهي لا تزيد عن كونها مجرد رمز ، أو تعبير عن أثر تلك الحوادث في ذهن من دونها .

ولاريب في أنه للوصول من الاصل التاريخي المكتوب الى الحوادث ، يتعين على المؤرخ أن يتعمق سلسلة المراحل التي أدت الى كتابته ، ومن ثم لكي يصل المؤرخ الى الحوادث الاصلية أن تمر في خياله للظروف التي أحاطت بكتاب الاصل التاريخي ، منبذ أن شهد الوقائع ، وجمع معلوماته عنها ، حتى دونها في الاصل المكتوب المائل لتمام المؤرخ نحو أية حال ، فنقبل أن يبدأ الباحث في نقد الاصل التاريخي يجب عليه أن يرميه ، إن كان في حاجة الى ذلك ، كما أن المؤرخ لا يستطيع أن يصل الى الحقيقة التاريخية ، اذا لم يعمل النقد في كل ما يقع تحت يده من

الاصول التاريخية المختلفة ، الامر الذي قد يستفهم زمنا ليس بالمقليل على أية حال .

ومن هنا فقد ذهب البعض الى ان نقطة البدء في التاريخ هي الشك ، ذلك الشك الذي لابد ان يتسبب الى تضديق من أجل التثبت من صحة الخبر ، يقول «لانجلو أوسينوبوس» : لا تاريخ بدون تحصيل والتحصي . هنا : التاكيد من أصالة الاصول ، والتثبت من خلو الوثائق من كل دس أو خطأ أو تزوير ، ذلك لانه لا يجوز للمؤرخ ان يثق بكل ما يكتبه ، أو يصدق كل ما يقرأ ثم يقول «لانجلو أوسينوبوس» ان قضاء عشر سنين في تحقيق نص لوثيقة مستقيمة ، أفضل من نشر عدة مجلدات من وثائق غير مطابقة في نفس المادة ، اذ سيضطر العلماء في المستقبل ان يعيدوا تحقيقها بتكاليف جديدة (١٣) .

ولطخ من الاعمية يمكن الاشارة الى ان هناك عدة مراحل للنقد :

فالنقد الظاهري : (External Criticism) ، ويتعلق بمدة أمور ، مثل إثبات صحة الاصل التاريخي ، وفروع الخط والورق ، وتعيين شخصية المؤلف ، وزمان التدوين ومكانه ، الى غير ذلك من الوسائل والنقد الباطني : (Internal Criticism) ، ويبحث في الحالات العقلية التي مر خلالها كاتب الاصل التاريخي ، ففضلا عن الظروف السياسية أو الاجتماعية أو النفسية التي أحاطت به عند كتابتها .

وأول مرحلة من مراحل نقد الاصول التاريخية هي «اثبات صحتها» وذلك لأن الاصل والمصدر كله ، أو بعضه ، مزيف أو منتهل ، فلا يمكن الاعتماد عليه على وجه العموم ، فقد تزييف الآثار المادية من أجل الكسب في أحوال كثيرة ، ومن الأمثلة على ذلك ، ما حدث من وجود مجموعة من الاوانى الفخارية في القدس عام ١٨٧٢م ، وقد دلي على وجودها المدعو

(١٣) لانجلو أوسينوبوس : المرجع السابق ص ٥٤ ، أحمد محمود صبحي : المرجع السابق ص ١٢٢ .

«سليم العربي» الذي كان يعمل في خدمة بعض النقباء عن الآثار في فلسطين ، واشتوى بعضها «متحف برلين» ، غير أن البحث العلمي قد أثبت أن هذه الآثار مزيفة ، وربما كان سليم العربي نفسه هو صانعها بقصد الكذب .

وهكذا يدل المثال على أهمية نقد الأصول التاريخية ، وبالتالي يتضح الصعوبات التي يجب على المؤرخ أن يواجهها ، وأن يتطلب على ما يمكن التغلب عليه ، وبغير ذلك لا يستطيع المؤرخ أن يكتب التاريخ لأنه إذا ما بنى أبحاثه على أصول مزورة منتحلة ، خرج بنتائج بعيدة عن الحقيقة ، ومخالفة للواقع التاريخي .

ب - تعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه : لا ريب في أنه عندما يثبت للباحث في التاريخ أن الأصل أو المصدر التاريخي ، صحيح وغير مزيف ، فليس هذا بالضرورة يعني أن المعلومات الواردة فيه ، ذات قيمة تاريخية كبيرة ، ومن ثم فلا بد من نقد الأصل التاريخي من نواح أخرى ، وهذا وتحمل بعض الأصول التاريخية اسم مؤلفها وزمان ومكان تدوينها ، على أن بعض الأصول التي اشتهرت بطابع الصحة وعدم التزيف ، إنما تغفل أحيانا ناحية أو أكثر من هذه النواحي الأمر الذي ينقص قيمتها التاريخية .

وهنا لعل سائلا يتساءل : كيف يقدر الباحث قيمة الأصل التاريخي ، وهو يجهل اسم مؤلفه وشخصيته وعلاقته بالحوادث التي كتب عنها ؟ فهل شهدها بنفسه أم سمعها ونقلها عن الغير ، ومتى دونها ؟

إن معرفة كاتب الأصل التاريخي وشخصيته أمر هام ، ذلك لأن قيمة المعلومات التي يوردها إنما ترتبط كل الارتباط بشخصية الكاتب ، ومدى فهمه للحوادث ، ولكل الظروف التي تحيط به على وجه العموم ، فالمعلومات التي يدونها الحاكم تختلف عن تلك التي يدونها السياسي أو الجندي أو الطالب أو الفلاح ، وعلى ذلك يتضح أهمية البحث لمعرفة أكبر قسط ممكن من المعلومات عن كاتب الأصل أو الوثيقة التاريخية

وأحيانا تضيق عينا جهود المؤرخ لصرفه اسم كاتب الأصل التاريخي وشخصيته ، فيظل مجهولا ، وإن كان هذا لا يمنع من الاستفادة منه ، ومثالنا على ذلك كتاب نشره المستشرق «كارل مولر» مؤلف مجهول يبحث في آثار بلاد العرب ، واسمه (Glaucus) ^(١٤) ، وقد ألفه الباحثون منه ، وفي بعض الأحيان لا يستطيع المؤرخ إلا أن يجمع القليل من المعلومات عن كاتب الأصل التاريخي ، وعندئذ عليه أن يقر بذلك فيؤيدرس المعلومات الواردة في نطاق العصر ، أو الناحية التي تتصل بها ، ويفيد منها بقدر المستطاع .

هذا وينبغي أن يلاحظ الباحث أن وضع اسم شخص على أصل تاريخي ، لا يعنى بالضرورة أنه هو كاتبه ، وفي أحيان كثيرة يمكن للمؤرخ أن يتعرف على كاتب الأصل التاريخي لخطوط بدراسة نوع الورق والخط والحبر ، واللغة والأسلوب ، والمصطلحات الخاصة بالمعهد التاريخي المعين ، وبدراسة المعلومات التاريخية الواردة به .

وأما المسألة الثانية في هذه الناحية من النقد التاريخي ، فهي : معرفة الزمن الذي دون فيه الأصل التاريخي ، فقد يكون الأصل صحيحا غير مزيف ، وقد يكون كاتبه من الأشخاص الذين يتحرون للصدق والبعد عن الهوى ، ومع ذلك فقد ينقص من قيمته التاريخية بعد الزمن بين وقوع الحادث ورؤيته ، وبين تدوين أخباره ، فكلما بعد الزمن بالكاتب عن وقوع الحادث ، كلما تعرض لان يفوته قليل أو كثير من التفاصيل الخاصة ، إذا لم يحدد الكاتب التاريخ الذي دون فيه ما كتبه ، ولكن كيف يستطيع الباحث أن يحدد ذلك ، ولو على وجه التقريب ؟

في الواقع أنه يمكن للباحث في التاريخ أن يضع حدين — الواحد لبداية الأصل التاريخي والثاني لنهايتيه — وذلك بناء على دراسة محتوياته ، أي أنه يعين التاريخ الذي لا يمكن أن تكون الحوادث قد وقعت قبله ،

14. Glaucus, *Archaeologi Araabica*, by Carl Muller, in FHG, IV, Paris, 1851.

والتاريخ الذى لا يمكن أن تكون الجواد شقق وقعت بعده ، ولتحديد ذلك يجب أن يكون ملما بثقله تاريخية واسمة تتمسك بالعصر الذى يدرسه ، ومن البدوى أن الاصل للتاريخى يصدد بعد آخر جاذب ورد فيه .

وهناك أيضا مشكلة تعيين المكان الذى دون فيه الاصل التاريخى ، وهل دون فى مكان وقوع الاحداث أم بعيدا عنها ؟ وهل هذا المكان يجعل كاتب الوثيقة (الاصل التاريخى) قادرا على تصوير الوقائع تصويرا صحيحا ؟ أم أن التدوين حدث فى مكان بعيد ، واعتمد على الذاكرة والخيال فى سرد الوقائع ؟ وطبيعى أن يتدخل القريب أو البعيد عن مكان الاحداث فى تقدير المعلومات الواردة فى الاصل التاريخى ، وان لم يكن ذلك من الإدلة القاطنة على مدى الصدق فيها .

جـ - تحرى نصوص الاصول وتحديد العلاقة بينها : من الضرورى للباحث فى التاريخ أن يتحرى نصوص الاصول ، ويثبت من حصرية الفاظها وعباراتها قبل أن يستخدم المعلومات الواردة بها ، وعلى الباحث أن يتأكد فى حالة طبع الاصول التاريخية أنها مطابقة للمخطوط الاصلى ، ولم يتناولها تحريف أو تصحيف ، هذا ويمكن تقسيم الاصول التاريخية المخطوطة من ناحية تحرى النص ، وتحقيق اللفظ الى حالات ثلاث :

الاولى : وهى التى يكون أمام الباحث الاصل الاول ويمكن التحقق من ذلك بملاحظة نوع الجبر والمواد المكتوب عليها من بردى ولبخاف وعظام وخشب وجلد ويدرس الخط واللغة والمعلومات ومقارنتها بكتابات أخرى — ان جدت — يستطيع الباحث أن يفيد — وهو مطمئن من هذه الناحية — بالمعلومات التى يعدها هذا الاصل الاول .

الثانية : وهى التى يفقد فيها الاصل الاول ، ولا يبقى أمام الباحث سوى نسخة واحدة منقولة عنها ، ودراية هذه النسخة الوحيد والمنقولة عن الاصل المفقود تستلزم الدقة والحذر للثبوت من مصححة الفاظها ونصوصها .

الثالثة : وهى التى يضيع فيها الاصل الاول ، وتبقى عدة نسخ منقولة ، تتشابه وتختلط فيما بينها ، ولكن لا تعرف الصلة بين بعضها والبعض الآخر ، ولا الصلة بينها وبين الاصل الاول المفقود ، وفى هذه الحالة يعتمد الباحث فى التاريخ الى محاولة السعى الى تحديد النص الاول ، أو أقرب ما يمكن اليه ، بالدراسة والمقارنة ، وعلى أساس التشابه والاختلاف بين النسخ المتعددة ، وعلى أساس التوصل الى فهم لغة المؤلف وروحه ، والدراية بأحوال عصره (١٥) .

والواقع أن الوثائق هامة جدا بالنسبة للمؤرخ ، حتى ذهب البعض الى أن التاريخ انما هو علم الوثائق يستقرئها المؤرخ ويحللها للتوصل الى وقائع تشتمل عليها ، فالوقائع انما توجد فى الوثائق (Documents) وهى تفرض ذاتها بذاتها قبل كل تفسير ، وحتى ضاعت الوثائق ضاع التاريخ ، فالمعالجة التاريخية لا تقوم على التحليل فحسب ، وانما تجرى أيضا بوجود الوثائق والسجلات (Records) ، ومن ثم فقد ذهب المؤرخ الفرنسى «سيغوبوس» الى أنه لا تاريخ بغير وثائق ، فى حين ذهب البعض الى التقليل من أهمية الوثائق ، وأنه ما من وثيقة يوسمها أن تخبرنا أكثر مما أراد لها محررها ، ومن هنا فان مهمة المؤرخ لا تقتصر على جمع الوثائق ، وانما العمل على التحقق من صحتها ومما جاء فيها من آراء وأحداث وتطورات ، ورغم أن «لويس جوتسلك» يرى أن تزوير الوثائق بأكملها أو أجزاء منها أمر لم تجر العادة به ، فان كثيرا من الوثائق قد زورت ، حيث عمد الى ذلك بعض مؤرخى المناطق التى شهدت صراعات سياسية وعسكرية وطائفية (١٦) .

(١٥) انظر عن تحقيق المخطوطات (فرانز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى - ترجمة أنيس فريضة - بيروت ١٩٨٠ ص ٦٢ - ٦٦ ، ٧٢ - ٨١ ، أكرم ضياء العمرى : المرجع السابق ص ٣٥-٦٣ حسان حلاق : المرجع السابق ص ٨٩ - ١٩٤ ، عبد القادر أحمد طليمات : التاريخ الباهر فى الدولة الاتيكية - القاهرة ١٩٦٣ (رسالة ماجستير من جامعة عين شمس) .

(١٦) انظر عن تزوير الوثائق (محمد جميل بيهيم : عربى لبنان - بيروت ١٩٦٩ ص ١٠٣ - ١١٩ ، حسان حلاق : المرجع السابق ص ٩٢-٩٣) .

وهناك أمور أخرى تنقل من قيمة الوثائق كالمبالغ التي تشبه الاساطير ، أو الدعوة لهدف معين ، ومن النوع الاول ، «بردية تورين» والتي تعد من أكثر المصادر التاريخية قيمة بالنسبة لتاريخ مصر الفرعونية ، لم يفسد على كاتبها ملكته التاريخ سوى ايمانه بأساطير قومه التي جعلت للارباب نصيبا في اعتلاء عرش البلاد ، والمبالغة في مدة حكمهم (١٧) — كما فعلت قائمة الملوك السومرية التي جعلت مدة حكم ملوك ما قبل الطوفان ٢٤١٢٠٠ سنة . وان آخر الملوك قد حكم ١٨٦٠٠ سنة (١٨) — .

ومن النوع الثاني «بردية نفرتي» التي كتبت تمجيدا للملك «امنمحات الاول» (١٩٩١ - ١٩٦٢ ق.م) مؤسس الاسرة الثانية عشرة ، وان زعم صاحبها أنها ترجع الى عهد «سينفرو» مؤسس الاسرة الرابعة (حوالي ٢٦٢٠ ق.م) ، وهكذا تتيأت البردية بأن «اميني» (امنمحات الاول) سيتولى عرش الكنانة بناء على ارادة الهة . وأن الحكماء قد تتبأوا بذلك أمام الملك سنفرو ، رغم أنها كتبت على أيام امنمحات الاول ، وربما بعده بقليل (١٩) .

(١٧) انظر عن بردية تورين (محمد بيومي مهران : مصر ٦٣/١ - ٦٥ وكذا

(A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 62.

(١٨) - انظر عن قائمة الملوك السومرية (محمد بيومي مهران : تاريخ العراق القديم ص ٦٤ - ٦٦ ، وكذا

S. N. Kramer, The Sumerians, Chicago, 1970, p. 328-331.

J. Finegan, Op. Cit., p. 29-30.

A. L. Oppenheim, in ANET, 1966, p. 265-267.

T. Jacobsen, The Sumerian King List, in Assyrian Studies, II, 1939.

(١٩) انظر عن نبوءة نفرتي (محمد بيومي مهران : مصر ٢٣٧/٢ - ٢٣٩ ، وكذا

A. Erman, Op. Cit., p. 100-110.

J. A. Wilson, in ANET, p. 444-445.

A. H. Gardiner, in JEA, I, 1914, p. 100-106.

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience New York, 1939, p. 200-206.

٢ - النقد الباطني للأصول : وهو نوحان إيجابي وسلبى

١ - النقد الباطني الإيجابي (Hermeneutic) وهو عبارة عن تحليل الأصل التاريخي بقصد تفسيره وإدراك معناه ، والوصول إلى الحقائق التاريخية من خلال الوثائق والأصول التاريخية ، ويحدد ذلك في دورين أولهما : تفسير ظاهر النص ، وتحديد المعنى الحرفي له ، وثانيهما : إدراك المعنى الحقيقي للنص ، ومعرفة غرض المؤلف مما كتبه .

وتحديد المعنى الحرفي لنص تاريخي معين عبارة عن عملية لغوية ، ولا بد لفهم كل نص تاريخي من معرفة اللغة التي كتب بها ، ولا تكفي المعرفة العامة لهذه اللغة ، وإنما يجب فهم دقائقها ، فضلا عن الإلمام ببلغة العصر التاريخي الذي يرجع إليه ذلك النص ، مع الاستعانة بفلم فقه اللغة (الفيلولوجيا = Philology) إذا اقتضى الأمر ذلك ، وعلى أية حال ، فيمكن إجمال بعض القواعد التي ينبغي على الباحث السير بمقتضاها لتحديد المعنى الحرفي للألفاظ للنص التاريخي قلما يلي :

١ - تتغير اللغة الواحدة من عصر إلى آخر ، ويمكن الاستعانة في تحديد معنى بعض الألفاظ ، بفهم العبارات التي وردت بها .

٢ - ينبغي معرفة اللغة أو اللهجة التي وجدت في منطقة معينة ، والتي دون بها الأصل التاريخي .

٣ - ينبغي الإلمام بلغة للكاتب وأسلوبه ، ويمكن الاستعانة في ذلك بمؤلفاته الأخرى أو بمؤلفات العصر الذي عاش فيه .

٤ - ينبغي ألا تهمل كلمة أو جملة ما بداتها فحسب ، وإنما يجب أن تنظر في نطاق السياق العام للنص التاريخي .

٥ - وعندما يشك الباحث من تحديد المعنى الحرفي للألفاظ والتراكيب التي تحتل الشك في معانيها ، فعليه أن يصل إلى معرفة غرض الكاتب ، والمعنى الحقيقي لما يكتبه ، فمن الجائز أنه كتب بعض

الإساليب والتركيب غير الواضحة ، وفي هذه الحالة لا يؤدي ظاهر النص إلى المعنى المقصود ، ومن ثم فإن يكفي فهم ظاهر النص وفهم الجهر في الألفاظ ، وإنما يجب محاولة الوصول إلى المعنى الحقيقي الباطني الذي قصد إليه كاتب النص التاريخي ، ولكي هذا لا يعني إسراف الباحث في التشكك في معاني الألفاظ الحقيقية ، وأن يحمل النص ما لا يمكن أن تحمله ألفاظه من معان .

وعندما يصل الباحث إلى النص الحقيقي للنص التاريخي ، فإن عملية التجليل أو التفسير الإيجابي تكون قد انتهت ، والنتيجة التي يخرج الباحث بها من ذلك كله هي أنه أصبح عارفا بمعلومات كاتب الأصل التاريخي ، والصورة التي كونها في ذهنه عن الحوادث التي كتب عنها .

٢٠٠٠ النقد الباطني السلبى : وهو عملية ضرورية لتصفية الحقائق ، واستبعاد الزائف منها ، يقدر المستطاع ، هذا ويؤدي النقد الباطني السلبى إلى قاعدتين : الأولى : أن الاثبات العلمى لأية حقيقة تاريخية ، لا يمكن أن يتم عن طريق شهود عيان محسب ، وإنما يجب أن يستوفا لدى الباحث في التاريخ للأدلة التي تثبت تلك الحقيقة .

والثانية : أنه لا يجوز أن ينقد الأصل في هذه المرحلة كوحدة عامة ، وإنما ينبغي أن تنقد جزئياته وتفصيلاته وحوادثه المفردة ، واحدة بعد أخرى .

هذا وتربط قيمة كل أصل تاريخي بالظروف التي تمت خلالها عملية المعلومات العقلية التي انتهت إلى تدوينه ووصوله إلى المؤرخ ، والتعرف على شخصية المؤلف ، إنما يدلنا على بعض الظروف التي كتب خلالها الأصل التاريخي ، كما أن معرفة عواطف المؤلف وعاداته وأهماته وبيئته ومستواه إنما يساعدنا في الكشف عن عوامل الكذب أو الخطأ أو الضداع ، أو المصدق أو المصواب ، ههنا نتبع ما يمكن تتبعه من المعلومات العقلية والظروف التي ارتبطت بكتابة الأصل التاريخي .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه يحكم التفرقة بين ناحيتين من النقد الباطني المبطني إمران ، أولهما : التثبت من صدق المؤلف وحده ، وهو هو صادق فيما كتب أم كاذب ، وثانيهما : التثبت من صدق المعلومات التي أوردها ، ومبلغ دقتها ، وهل أخطأ المؤلف أو خدع بشأنها ، أم أنه لم يخطئ ، ولم يخدع .

وأما عن الأمر الأول : فإنه يلاحظ أن المؤلف قد يكذب طمعا في منفعة أو دقما لضرر ، أو قد يكذب بسبب تحيزه لأسرة بذاتها ، أو لحزب أو مبدأ سياسي أو فلسفي أو اقتصادي أو لعقيدة دينية ، وقد يكذب بسبب غروره الشخصي أو غرور الجماعة أو الناحية التي ينتسب إليها ، وقصمه مصلحتها ، وقد يكذب لقصد إرضاء الجمهور أو مداراته ، أو رغبته في عدم ازعاج الرأي العام أو كسب لمرضاته ، وقد يكتب كاتب الأصل التاريخي بأسلوب ادبي لارضاء ذوق الجمهور ، فيغير الوقائع ويكيفها بما يناسب ذلك الأسلوب الأدبي ، على حساب الحقيقة التاريخية .

ولعل الأمر الثاني : وهو معرفة حقة المعلومات الواردة في الأصل التاريخي ، فيجب معرفة : هل قصد كاتب الأصل التاريخي أن يقول الصدق ، غير أن الظروف دفعته إلى الوقوع في الخطأ دون أن يظن إلى ذلك ؟ ومن ثم فينبغي على الباحث أن يسعى لكشف هذه الظروف بالنسبة للأصل التاريخي ، كوحدة عامة ، وأما بالنسبة لجزئياته فيجب على الباحث أن يبحث : هل تمتع الراوي أو كاتب الأصل التاريخي بفواس سليمة وبمقل سليم ؟ وهل تمتع بجميع الشروط التي يجب توفرها حتى تتحقق المشاهدة العلمية ؟ وهل يتمتع بملكة خاصة أو موهبة تساعد على تدوين الكتابة التاريخية ؟ كل هذه العوامل تعمل على إبعاد الحقائق الخالصة من الوصول إلى الباحث في التاريخ .

وإنطلاقا من كل هذا ، يبدو واضحا مدى صعوبة دراسة التاريخ بعامه ، وصعوبة النقد التاريخي بخاصة ، فإن هذا ليس بالأمر السهل ،

اذ يقتضى الكثير من البحث والتحري والناة والصبر ، للوصول — قدر المستطاع — الى الحقيقة التاريخية .

سادسا — اثبات الحقائق التاريخية : لا يربى في أن الباحث في التاريخ انما يصل — عن طريق نقده للاصول التاريخية — الى مجموعة من المعلومات والآراء عن حوادث الزمن الماضى ، ورغم ذلك فان النقد التاريخى لا يثبت الحقيقة التاريخية ، بل يساعد على بلوغها ، ويؤدى الى احتمال الصدق فيها ، ومن ثم فلا بد من عملية نهائية للوصول الى نتيجة محددة ، اذ ينبغى الخروج من دائرة الاحتمال والشك الى دائرة اليقين ، ومن الضرورى للباحث فى التاريخ أن يتابع الدرس والبحث ، للوصول الى نتائج حاسمة ، قدر المستطاع ، وهكذا فعلى المؤرخ أن يبدأ بتقسيم النتائج التى وصل اليها عن طريق النقد ، ويضع فى قسم واحد كل المعلومات الواردة عن حادث أو قضية ما ، والوصول الى رأى نهائى فى هذا الامر يقوم على أساس من العلاقة بين هذه المعلومات .

وعندما تتعارض الاصول والصادر وتتناقض الروايات بشأن حادث تاريخى معين ، فيجب على الباحث أن يحاول ترجيح جانب على آخر ، بواسطة النقد التاريخى — كما أشرنا من قبل عن معركة قادش فى عام ١٢٨٥ ق م — واذا لم يستطع ذلك فعليه أن يمتنع عن اعطاء حكم نهائى حتى يعثر على أدلة جيدة تغير له الطريق ، هذا وقد تواجه الباحث أحيانا حالات لا يتم فيها التوافق بين الوقائع التى تثبتتها الاصول التاريخية ، وتلك التى تثبتها القوانين العلمية الثابتة ، وفى هذه الحالة فلا بد من أن تسلّم الاولى للثانية ، اذ لا يمكن لعلم التاريخ أن يدعى معارضة نتائج العلوم الطبيعية أو تصحيحها ، وانما عليه أن يصحح نتائجها ، طبقا لنتائج العلوم الطبيعية ونواميسها .

وأما فى حالة اتفاق عدة روايات عن حادث تاريخى معين ، فينبغى على المؤرخ ألا يعتبر ذلك الحادث صحيحا ، لجرد اتفاق عدة روايات بشأنه ، وانما عليه أن يثبت من استقلال هذه المصادر بعضها عن البعض

الأخرى ، والإلهامات تعد على بعض المسائل أو القضايا التي نتناولها - على الأقل - بمثابة مصدر واحد .

وفي إطار الحقائق التاريخية ، يمكن أن تشير إلى النقاط التالية :

١ - بعض القواعد العامة للتركيب التاريخي : ٢ - تنظيم الحقائق التاريخية : ٣ - الاجتهاد : ٤ - التخليد والاصحاح : ٥ - التمهيد : ٦ - الحقيقة التاريخية .

١ - بعض القواعد العامة للتركيب التاريخي : يمكن أن نلخص عمليات التركيب أو البناء التاريخي في عدة مراحل ، وعلى الباحث أن يجمع خلالها العناصر المأخوذة من أصول تاريخية متعددة ، ويحاول أن يكون منها صورة عقلية تشابه ، بقدر الامكان ، الصورة التي وجدت في ذهن شاهد العيان أو كاتب الأصل التاريخي ، ثم يقسم الباحث الحقائق إلى مجموعت على أساس التشابه القائم بينها ، وعلى أساس المسائل المتعلقة بنقطة أو حادث معين ، وعندما يضاف المؤرخ فجوات صغيرة أو كبيرة ، فعليه أن يحاول ملاحا عن طريق الاستنتاج العقلي المستمد من الحقائق التي توفرت لديه ، فضلا عن أن يستخرج من هذه الحقائق صفاتها العامة ، وعلاقتها ببعضها البعض الآخر ، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى كتابة التاريخ .

٢ - تنظيم الحقائق التاريخية : على الباحث أن يشرع في تنظيم الحقائق التاريخية ، وتنسيقها في مجموعات وأقسام ، تبعا لظروفها الظاهرة وسائر خصائصها ، هذا ويحكم تقسيم الحقائق التاريخية على أساسين طبيعيين الحقائق وخصائصها ، وارتباطها بمظاهر النشاط الإنساني - على النحو التالي :

١ - الظروف المادية : ٢ - الصلوات والتقاليد : ٣ - النظم الاقتصادية : ٤ - النظم الاجتماعية : ٥ - النظم العامة .

نلاحظ أن هذه التصنيفات ليست منفصلة بعضها عن البعض الآخر ،

وانما هي متداخلة فيما بينها ، ففي العرض التاريخي نجد مسائل
جغرافية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو أدبية متصلة ببعضها
البعض الآخر ، ويبدو الاثر المتبادل فيما بينها بحسب الموضوع الذي
يتناولته البحوث في التاريخ .

٣ - الاجتهاد : يلاحظ الباحث في التاريخ أن الحقائق التي تقدمها
الاصول التاريخية لا تكفي أحيانا لتغطية كل ما يتطلبه موضوع بحثه ،
وهو تكثر الحقائق في ناحية ، وتنقص في ناحية أخرى ،
ومن ثم وجدت فجوات في سلسلة الحوادث ، على الباحث أن يحاول
ملاها من طريق الاجتهاد ، والتي منها (أولا) ألا يصعب الاجتهاد
تحليل الوثيقة ، لأن هذا جهد يؤدي إلى تحميل الموضوع أكثر مما تحتمل
ومنها (ثانيا) أن الحقائق التي يصل إليها الباحث ، عن طريق تحليل
الاصول ونقدتها ، يجب أن تظل مميزة ، ولا تختلط بالحقائق الناتجة عن
طريق الاجتهاد ، ومنها (ثالثا) أن يكون الباحث حاضر المذهب متيقظا
غير ساه أو مشغول بشيء آخر ، وهو يحاول الاجتهاد ، ومنها (رابعا)
إذا وصل الباحث - من طريق الاجتهاد - إلى نتائج تتحدى على أقل
عنصر من المنطق ، فيجب أن يقرر ذلك بوضوح ، ومنها (خامسا) لا يجوز
في محاولة الاجتهاد أن يحاول الباحث جعل الافتراض والتكهن حقيقة ،
ما لم تكن لديه البراهين والأدلة الكافية .

وهناك طريقتان للاجتهاد ، الواحدة سلبية ، والاخرى ايجابية .

أما الاجتهاد السلبي : فمجرد عبر المناطقة عنه بقولهم : «السكوت
حجة» ، فقد يقال أن الحادث وقع لسكوت الوثائق والصادر عنه بهذا
استنتاج خطر في أحوال كثيرة ، فقد تعرض كثير من الاصول التاريخية
للظف والضياع ، فصاحت منه حوادث التاريخ ، كما أن بعض الحوادث
التفصيلية قد أفلتت من التدوين ، ذلك لأن بعض المسائل العامة للشائمة
ربما تمر دون تدوين ، لأنها مألوفة تماما ، أو لأن الحكومة منعت
تدوينها ، ومن ثم فإن سكوت المصادر عنها لا يعتبر حجة على عدم وقوع
الحادث .

وأما الاجتهاد الايجابي : فهو محاولة استنتاج حقيقة أو حوادث أو أكثر بمجرد التثبت من حدوث الواقعة معينة ، وهناك بعض القواعد والمبادئ في باب الاجتهاد الايجابي ، فتوجد أولا كليات عامة مستمدة من تجارب الانسان ، كما توجد جزئيات خاصة ذاتية ، مستمدة من الاصول التاريخية ، وتتعلق بمسائل أو حوادث معينة ، ومن الناحية العملية يبدأ المؤرخ بدراسة الجزئية الخاصة المتعلقة بالحدث ذاته ، فنجد مثلا ، أن مدينة «سلاميس» تحمل اسما فينيقيا ، ثم ينظر الى الكلية العامة التي تقول : ان اللغة التي يدون بها اسم مدينة تكون غالبا لغة الشعب الذي أنشأها ، ومن ثم يمكن القول ان مدينة سلاميس انما أنشأها أو أسهم في انشائها الفينيقيون ، ولكي نصل الى نتيجة ثابتة أو أقرب الى الثبوت يلزم مراعاة شرطين اثنين ، أولهما : أن تكون الكلية العامة صحيحة تماما ، وأن يكون الارتباط بين الواقعتين التاريخيتين قويا ، وثانيهما : لكي يستخدم الباحث في التاريخ كلية عامة ويطبقها على التفاصيل الجزئية ، يجب أن يكون وطيذ المعرفة بالمسألة التاريخية المعنية ، كما أنه من الخطأ أن يبنى الباحث اجتهاده على تفصيل جزئي مستقل بذاته ، دون أن يدرس كل الظروف المتعلقة به .

على أن الباحث يجب أن يدرك تماما أن الاجتهاد لا يؤدي الى نتائج ثابتة ، ولكنه يؤدي الى نتائج تقريبية في الطلب ، وأحيانا يمكن ملء بعض الفجوات في التاريخ عن طريق الاجتهاد ، وأحيانا أخرى تبقى بعض المسائل التي لا يمكن الوصول فيها الى رأي حاسم ، ويظل الشك يحوم حولها الى أن يأتي من يصل بها الى رأي أصح أو أفضل ، بقاء على ما قد يكشف عنه من الحقائق المجهولة .

٢ - التعليل والايضاح : لا يستطيع الباحث في التاريخ أن يقف عند هذا الحد من البحث والدرس ، وإنما يجب السعي الى محاولة الوصول - بقدر المستطاع - الى معرفة الأسباب والموطن التي أدت الى وقوع الحوادث التاريخية فهو في ذلك يجتهد مثلا في معرفة أسباب الحوادث العامة ، كارتفاع أمة وسقوطها ، وظهور حضارة ونهوها

وتطورها وإزدهارها ثم هبوطها ، كما يحاول معرفة الأسباب الخاصة
مثل كسب معركة .

ومن البدهي أن معرفة الأسباب في حوادث التاريخ تستلزم تتبع
الفترة السابقة التي مهدت لها ، وذلك لمعرفة العوامل المباشرة وغير
المباشرة التي أدت إلى وقوعها ، وعلى أية حال ، فليس من الممكن أو
السهل دائما معرفة أسباب الحقائق التاريخية بدرجة واحدة ، فقد
تعرف أسباب بعض الأحداث بسهولة ، لا يمكن معرفة الظروف التي
أحاطت بها ، على حين لا يمكن ، أو لا يسهل معرفة أسباب بعضها الآخر
على وجه الدقة ، لمعوض الظروف التي أحاطت بها لا فضلا عن اختلاف
الظروف والروايات بشأنها ، على نحو يجعل الوصول إلى الحقيقة أمرا
متعذرا أو عسيرا .

٥ - إنشاء الصيغة التاريخية : يحتاج التاريخ إلى صيغة للتعبير عن
طبيعة ظواهره المختلفة ، وينبغي أن تكون الصيغة التاريخية مختصرة
ودقيقة ، هذا وقد يوجد التعارض بين الاختصار والدقة ، فالأسلوب
المختصر ربما يحول دون فهم المراد ، كما أن الأسلوب المطول ربما يقلل
من قيمة التاريخ المكتوب ، ويقدم للقارئ ما ليس ضروريا ، ومن ثم
فيحسن اتباع طريق وسط بين الطرفين ، وذلك بضغط الحقائق أو
الحوادث ، وتحذف كل ما هو ضروري لايضاحتها .

سابعاً - العرض التاريخي :

يمثل العرض التاريخي آخر مرحلة من هذا المنهج ، وهي ليست
أسهل المراحل ، وبالضرورة لا تصبح كتابة التاريخ سهلة ، الا حينها
تكون الحقائق ماثلة أمام الباحث ، مثبتة مرتبة مظلة مشروحة ، وعندما
يتفخيل الباحث موضوع البحث كله ، كونه محددة عامة ، ويدرك الاهمية
بالنسبة لأجزاء البحث المختلفة ، ويحسن اللغة التي يكتب بها هذا البحث
على أنه من المخزن ، بل من المفسزي ، أن بعضا ممن يكتبون رسائل
المجستير والدكتوراه في هذه الايام ، يكادون لا يستطيعون كتابة

رسائلهم بلغة عربية سليمة ، بل أن بعضنا منهم لا يكاد يفقه كثيرا من معانى الكلمات العربية التى كتبت بها رسائلهم ، كما أن بعضنا منهم لا يكاد يستطيع قراءة الملخص الذى يكلف بالقائه أمام لجنة المناقشة (The Degree Committee) دون أن يخطئ فيه مرات ومرات .

وعلى أية حال ، فهناك شروط معينة للعرض التاريخى ومنها (أولا) أن يكون للباحث فى التاريخ القدرة على حسن التعبير باللغة التى يكتب بها ، ومن ثم شجب أن يكتب بلغة سهلة واضحة تلائم الموضوع الذى يتناوله بالبحث ، وأن يكتب بأسلوبه الخاص الذى تتضح فيه شخصيته ، والا يكتب بأسلوب أدبى حريف ، وذلك لأن المنهج العلمى الذى يجب على الطالب ممارسته أو تطبيقه فى الكتابة التاريخية إنما يتطلب التعبير بطريقة عقلية أكثر منها عاطفية ، وإن كان فى إمكانه الاعتماد على الأدب من آن لآخر ، تخفيفا للجانب العقلى ، بشرط ألا يتعدى ذلك الجانب الأدبى على الجانب العقلى ، وبذلك يكون الباحث قد استخدم الأسلوب العلمى ، وأنصف التعبير عن الحقائق ، ولأغلب فى أن ذلك الأسلوب فى المنهج إنما يتطلب التدريب على الكتابة بأسلوب علمى سليم ، ويتأتى ذلك بقراءة الكتب التاريخية المكتوبة بمنهج علمى .

ومنها (ثانيا) توفر الوحدة التاريخية فى الكتابة فى الموضوع ومنها (ثالثا) على الباحث أن يكتب ، وفى ذهنه احتمال الوقوع فى الخطأ ثم فعلية أن يبادر بتصويب ما يمكن أن يكشف عنه من الأخطاء ، إذا ما ظهرت له معلومات أو أدلة جديدة ، وبعد ذلك على الباحث مراعاة مسألة الهوامش والملاحظات ، ولأن تكون الهوامش جزءا هاما فى أسفل المصنفات ، أو فى نهاية المجلد ، أو فى نهاية الكتب ، وعلى الباحث أن أواد أن يورد فى الهوامش نصوصا أصليا مأخوذا من مخطوطه أو من مطبوعه ، أن يكون ذلك بلغة النص الأصلية (٢٠) و

(٢٠) - انظر من كتابه (الرسائل الجامعية والمراجع والمخطوطات) (محمد دويهي مهران : منهج البحث التاريخى - الإسكندرية ١٩٧٨ ص ٣٧ - ٣٩ ، ٥٩ - ٧٠ ، أكرم ضياء العمري : المرجع السابق ص ٢١ - ٢٤ .

ومنها (رابعاً) أن يحصى الباحث بصغوليته عن التصويص التي يقتبسها أو يعتقد عليها ، وإلا يبرهن سكوت أو رضاه بالمقولة المشهورة «بالعهد على الراوى» ، لأنه يباحث ، وليس راوية ، والفرق بين الاثنين واضح ، وقد نبه على ذلك «تاج الخبير يرمى» بقوله : «ابن الأيوام على المصنف من جهة عدم مطابقة المثال للمقالة المفروضة ولو كان حاكماً ، لأنه أقرب فرغيه» . ومن ثم فيجب عدم الاستسلام للظواهر ، وإنما يجب مناقشتها بعقلية نافذة ، ومن الضروري أيضاً استعمال المراجع وفق تخصصها ، وقد كتبت «ابن حجر العسقلاني» «ابن الصلاح» (ت ٦٤٢هـ/١٢٤٤م) ، عندما نقل عبارة عن «أبى عمر الداني» حيناً أن الداني أخذها من «الحاكم النيسابوري» (ت ٤٠٥هـ) ، وأن نقلها عن الحاكم أولى ، لأنه من أئمة الحديث ، والكلام يتطرق بمسألة حديثة ، وموجب الحفاظ ابن حجر كيف نزل «ابن الصلاح» عنه إلى النقل عن «الداني» ، كما نبه الحفاظ ابن حجر العسقلاني (٧٩٣هـ - ٨٥٢هـ/١٣٧٣ - ١٤٤٩م) إلى ضرورة العزو إلى المصدر الأقدم ، وتكتب تحيفه المواضع عندما نقل رواية من «ابن عبد البر» (٣٩٣ - ٤٦٣هـ) بأنه قد رواها «ابن عوانة» في صحيحه ، و «الطحاوي» (ت ٣٢١هـ) في شرح معاني الآثار ، والجوزقي في (المفتق) فعروها إلى رواية أحمد بن محمد ، أفضل من عزوها إلى «ابن عبد البر» ، لتأخر زمانه .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه على الطالب ، إذا ما أنجز كتابة بحث أو فصل من رسالته ، أن يقدمه إلى المشرف ليبين ملاحظاته عليه ، ثم يقوم بإعادته إلى الطالب الذي يقوم بدوره بإعادة الكتابة ، مع الأخذ بملاحظات الاستاذ المشرف ، ثم يبيده إليه ثانية ، فإذا ما اقتنع به أقروا ، والأعادته إليه ، ليعيد التعديل ، ولحقاً للملاحظات الجيدة ، ويعظم الطالب في عرض الأبواب أو الفصول على المشرف تباعاً ، حتى ينتهي من كتابة الرسالة ، ثم يقدمها للمشرف كاملة ، ليقرأها القراءة الأخيرة ، ويبدى الملاحظات المتنوعة ، ثم يقوم الطالب بتعديلها وإعادة تقديمها للاستاذ المشرف ليأذن له بطباعتها على الآلة الكاتبة .

هذا هو رغم أن الطالب هو المسئول الأول عن اختيار موضوع رسالته وكتابته ، غير أن لجان المشرف يجب أن تظهر فيها من خلال هذه المقررات والملاحظات التي يبدونها ، هذا فضلا عن أن المشرف سيعينه في اختيار الموضوع وتحديد خطة البحث ، ومواجهة المشاكل المستقبلية عليه ، واكسابه روح البحث والتفاني فيه ، ومواصلة العمل بحيث لا يعتريه فيه ، وإشعاره بأهمية بحثه . وتطمينه بالنسبة لتقدم البحث ، وقربيته ، في نفس الوقت ، على الاعتماد على النفس ، وحل المشاكل ، وإبراز ذاتيته وروحه في الرسالة — أفكارا وأسلوبا — لأن الطالب هو المسئول عن رسالته أمام لجنة المناقشة — أي اللجنة العلمية لمناقشة الرسالة (٢١)

ثامنا : ملاحق البحث : وهي مجال لتقديم أو نشر مختارات من الأصول التاريخية التي اعتمد عليها البحث ، ويذهب البعض إلى أن نشر هذه الأصول إنما هو أمر جوهري ، ذلك لأنه إنما يقدم للقارئ المختص شيئا من المادة الأولية التي يلتقى منها الباحث بمعلوماته بمن الأفضل أن تنشر هذه الأصول بلغاتها — فضلا عن أبحاثها وأخطائها ، كما وردت بغير تعديل — على أن يكون نشرها مصحوبا بشرح لهاظها الغربية ، وتصحيح أخطائها ، والتعليق على نصوصها ، وبيان قيمتها التاريخية .

تاسعا : الحواشي والهوامش : وهي وعاء تصب فيه المعرفة الزائدة عن قدرة المتن على استيعابها ، وهو الأطوار الذي يفصل فيه ما قد ينمض في المتن ، وهي مرصد لصنادير البحث ومراجعته ، وهي قاعدة الصفحة أو جذورها ، التي تكشف للقارئ عن عمق المتن وصلاحته ، ويمكن استعمال الحواشي في أمور كثيرة ، منها (أولا) الإشارة إلى المصدر أو المرجع الذي اعتمد عليه الباحث في كتابة المتن ، وهو ما يقترح تسميته بالصيغة البيبليوجرافية الحاشائية أو الأسلوب البيبليوجرافي

(٢١) أكرم ضياء العمري : المرجع السابق ص ٣٨ - ٣٣ .

للحاشية ، ومنها (ثانيا) تفصيل الموجز أو الغامض الوارد بالمتن بمحاظفة على السياق العام ، ومنها (ثالثا) احالة القليل الى أماكن أخرى سابقة أو لاحقة في الدراسة التي يعمدها الباحث ، لتحقيق للتوايط بين أطراف الموضوع .

ومنها (رابعا) توجيه القارئ الى مصادر ومراجع لمصافية تخدم نقطة فرعية أو ثانوية للوقوف على مزيد من المعرفة ، ومنها (خامسا) وضع نصوص بلغة أجنبية بدون ترجمة ، ومنها (سادسا) نقد النصوص والادلة التاريخية ، وهنا تكون الحاشية مجالا للحوار بين قسمي الصفحة الواحدة ، ومنها (سابعيا) نقد أو مناقشة رأي مؤلف آخر حول موضوع ورد بالمتن ، ومنها (ثامنا) التوفيق بين الآراء المخلافية حول موضوع ورد بالمتن ، ومنها (تاسعا) التعريف بالاعلام والاماكن الوارد ذكرها في المتن ، مما لا يتسع له (٣٣) .

عاشرا - طريقة كتابة المصادر والمراجع : ويمكن أن يتبع فيها ما يأتي :

١ - عند ورود المصدر أو المرجع لأول مرة : يكتب كالتالى :

اسم المؤلف كاملا + اسم الكتاب كاملا + الجزء (ان وجد) + مكان النشر واسم الناشر وسنة النشر + الصفحة .

أحمد فخرى : مصر الفرعونية - القاهرة - مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨١م ص ١٠ .

محمد بيومى مهران : مصر والشرق الادنى القديم - الجزء العاشر تاريخ العراق القديم - الاسكندرية - دار المعرفة الجامعية ١٩٩٠ ص ١٠٠ .

(٢٢) عائيل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص ٧٣ = ٧٤ .

ب - إذا تكرر المصدر أو المرجع في حاشيتين متتاليتين - أي لم يفصل
بين الحاشيتين فاصل آخر -
يكتب كالتالى :

نفس المرجع السابق - نفس الصفحة - أن لم يحدث تغيير فيها
بين هاتين الحاشيتين والسابق له .

وهذا يعنى عدم ذكر اسم المؤلف ، أو اسم الكتاب ، للتتابع أو
التعاقب بين الحاشيتين ، وعدم وجود فاصل يملئو جراً بينهما .

ج - إذا فصل للتعاقب حاشية أو أكثر (مرجع أو أكثر) أو أن
الحاشية ضمت أكثر من مرجع ،

يكتب كالتالى :

اسم المؤلف + المرجع السابق + الصفحة

محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٥٠ .

على أنه يجب أن يلاحظ أنه في حالة إذا ما كان للمؤلف أكثر من
مرجع ، استخدم في نفس البحث ، فلا يشار هنا بالمصطلح «المرجع
السابق» ، ذلك لأن هذا المصطلح لا يؤدي في هذه الحالة المراد به ،
ومن ثم فيجب أن تكتب البيانات الخاصة بكل مرجع لنفس المؤلف كاملة .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أمرين : ترتيب المراجع في
الحاشية الواحدة ، وطريقة كتابة المرجع المشترك :

١ - طريقة ترتيب المصادر أو المراجع في الحاشية : وهذه تخضع
لعدة معايير ، أولها : أن المصادر أو المراجع الأكثر أهمية بالنسبة
للموضوع تأتى أولاً ، وثانيها : أن المصدر أو المرجع الذى تم الاقتباس
منه يتقدم غيره ، وإن تناول نفس الموضوع ، وثالثها : أن المصدر يتصدر
الحاشية ، ثم يأتى بعده المرجع ، ورابعها : عند تساوى الأهمية للمصدر

أو المرجع في الحاشية الواحدة ، فيتم ترتيبها طبقا لسنة النشر فيسبق
الاقدم منها الاحدث ، ولا تخضع طريقة الترتيب هذه للجوهر الهجائية
أبجدا .

٢ - طريقة كتابة المصدر أو المرجع المشترك : ١ - إذا اشترك في
تأليف الكتاب شخصان - مثلا - وجب الإشارة إليهما وكما في المثال
التالى :

أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : تاريخ التربية والتعليم في
مصر - الجزء الاول - العصر الفرعونى - القاهرة - الهيئة المصرية
العلمة للكتاب - ١٩٧٤ ص ١٠ .

٢ - إذا اشترك في تأليف الكتاب ثلاثة أشخاص فأكثر ، فيذكر
اسم الاول منهم - كما جاء على غلاف الكتاب - ثم يعقبه بكلمة
«وآخرون» .

السيد الحسينى وآخرون : دراسات في التنمية الاجتماعية -
القاهرة - دار المعارف - ١٩٧٩ ص ١٠٠ .

٣ - إذا تعدد المؤلفون ، وكان لكل منهم فصل - أو أكثر - في
الكتاب الواحد ، فيعامل معاملة المقال ، ويكتب ، لأول مرة كالتالى :

اسم المؤلف كاملا + عنوان المقال + اسم الكتاب (أو الدورية) +
مكان النشر وسنة النشر + الصفحة .

عبد العزيز صالح : الرياضيات في مصر القديمة - تاريخ الحضارة
المصرية - العصر الفرعونى - القاهرة - مكتبة النهضة العربية -
١٩٦٢م ص ٥٨٧ .

وأما إذا تكرر نفس المرجع ، فيتبع نفس النظام السابق عند تكرار
المصدر أو المرجع .

هذا ويرى البعض انه ان كان للكتاب (المتعدد المؤلفين) مشرف أو محرر Editor ، فان الإشارة هنا تكون للمحرر ، وليس لمجموعة المؤلفين ، وهى طريقة تتبع فى الكتب الاجنبية ، وان كنت أفضل الطريقة الآتية الذكر .

ثانيا - الكتابات المترجمة الى اللغة العربية :

وهذه الكتابات يتبع فيها نفس النظام المتبع فى الكتابات العربية ، مع اضافة اسم المترجم (والمراجع ان وجد) ، بعد اسم الكتاب ، ومن ثم فهو يكتب كالتالى :

اسم المؤلف + اسم الكتاب + الجزء (ان وجد) + اسم المترجم + اسم المرجع (ان وجد) + مكان النشر واسم الناشر وسنة النشر + الصفحة ، ويكتب كالتالى :

جيمس هنرى برستد : تطور الفكر الدينى فى مصر القديمة — ترجمة زكى سوس — القاهرة — دار الكرنك ١٩٦١ ص ٥٠ .

سير آلن جاردنر : مصر الفراعنة — ترجمة نجيب ميخائيل ومراجعة عبد المنعم أبو بكر — القاهرة — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٣م ص ١٠٠ .

جيمس بيكى : الاثار المصرية فى وادى النيل — الجزء الثالث — ترجمة لبيب حبشى وشفيق فريد ، ومراجعة محمد جمال الدين مختار — القاهرة — مطبعة جامعة القاهرة — ١٩٧٢ ص ٥٠ .

واما الكتاب المحقق فيكتب كالتالى :

اسم المؤلف + اسم الكتاب المحقق + الجزء (ان وجد) + اسم المحقق + مكان النشر واسم الناشر وسنة النشر + الصفحة .

الحافظ ابن خلف الدمياطى : المتجر الرابع فى ثواب العمل الصالح —

تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ومحمد رضوان في مكة المكرمة -
عبد الملك بن دهيش (مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة) - ١٩٨٦ ص ١٩٠.

أبراهيم بن محمد بن سالم بن ضويان : مفار السبيل في شرح
الذليل في الجزء الأول - تحقيق زهير الشاويش - بيروت - المكتب
الإسلامي - ١٩٧٩ ص ٤٥٢ .

ثالثا - الكتابات الأجنبية :

١ - يكتب المصدر أو المرجع الأجنبي عند وروده ، لأول مرة ،
كالتالي :

١ - اسم المؤلف كاملا + اسم الكتاب كاملا + (الجزء أن وجد)
+ مكان النشر واسم الناشر وسنة النشر + الصفحة .

Sir Alan Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, At The Clarendon
Press, 1961, p. 400.

٢ - في حالة تعدد المؤلفين ، يكتب كالتالي :

اسم المؤلف + عنوان المقال + اسم الكتاب (أو الدورية) + الجزء
(ان وجد) + مكان النشر واسم الناشر وسنة النشر + الصفحة .

Elise J. Boumgartel, Predynastic Egypt, in The Cambridge Ancient His-
tory, I, Part, I, Cambridge, At The University Press, 1970, p. 463.

W. G. Hayes, The Coptes Degress, in JEA, GXXII, 1946, pp. 3-23.

٣ - اذا تكرر المصدر أو المرجع مباشرة في حاشيتين متتاليتين ،
ولم يفصل بينهما مرجع آخر ، يكتب كالتالي :

Ibid., p. 463.

وكلمة "Ibid" اختصار للكلمة اللاتينية (Ibidem) بمعنى نفس المرجع
الضابق في المراجع العربية ، وهي هنا تنطوي على اسم المؤلف ، فضلا
عن المرجع نفسه .

٤ - في حالة وجود مرجع يفصل بين المرجعين ، فتستعمل (Op-Cit) وهي اختصار لكلمتين لاتينيتين هما Opero - Citato ومعناها المرجع السابق ، وفي هذه الحالة يجب أن يكتب اسم المؤلف قبلها ، كما في المثال التالي :

Elise J. Boumgartel, Op. Cit., p. 463.

وذلك لأن (Op-Cit) انما تشير الى المرجع ، وليس المؤلف ، بينما تشير Ibid الى المؤلف والكتاب سواء بسواء .

٥ - على أن الباحث اذا ما أراد الاشارة الى نفس المرجع ونفس الصفحة ، فعليه أن يستعمل الاختصار (Ioc, Cit) الذي يشير الى الكلمتين اللاتينيتين (Ioco-Citato) بمعنى نفس المرجع ونفس الصفحة .

٦ - أما اذا أراد الباحث الاشارة الى نفس الصفحة من نفس الكتاب الوارد في حاشية سابقة مثل :

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 20.

فان الاشارة التالية تكون كالتالي :

A. H. Gardiner, Ioc-Cit, (Ioco-Citato)

والتي تعنى (In The Place Cited)

وهذا الاختصار ، الذي يشير الى نفس الصفحة ، ونفس الكتاب ، كما نشرنا آنفاً ، يستعمل عندما لا يفصل بين المرجعين فاصل ، والا استخدمت (Ibid) .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه ، أنه ليس من الضروري أن يذكر اسم المؤلف ، وعنوان الكتاب كاملاً ، مادام ذلك معروفاً مثل : الصابى : تاريخ الوزراء ص ٧٨ ، وذلك بدلا من :

أبو الحسن الهلال بن المحسن بن ابواهيم الصابى : تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ص ٨٧ .

ومثل

R. Coke, Baghdad, p. 13.

بدلاً من :

Richard Coke, Baghdad, The City of Peace, p. 13

وفي المراجع الأجنبية يشار إلى الجزء بـ (Vol) اختصار (Volume)

وإلى الصفحة (P) بدلاً من Page .

هذا وقد وضع الباحثون لاستعمال الأرقام في الرسائل نظاماً : مؤداه أن الرقم الذي لا يحتاج الطالب في التعبير عنه إلى أكثر من ثلاث كلمات، ينبغي أن يكتب بالكلمات ، مثل : (ألفان - مائة وثلاثون - مائة وثلاثة وأربعون) ، أما إذا احتج في التعبير عنه إلى أكثر من ثلاثة كلمات ، فتستعمل الأرقام مثل (١٤٦٥) وهناك أشياء اصطلاح على كتابتها بالأرقام مثل : الرقم الذي يشير إلى مبلغ من المال ، ورقم الصفحات في الكتب ، والنسبة المئوية والتاريخ والأرقام التي توضح الجداول والصور والرسوم .

على أن هناك حالة يجب أن يكتب فيها العدد بالحروف ، وإن احتج في التعبير عنه إلى أكثر من ثلاث كلمات ، وذلك فيما إذا وقع ذلك العدد في أول الجملة ، كأن نقول : ألف وثلاثمائة وأربعة وعشرون طالباً ناجحوا في الامتحان ، وإن كان على الطالب أن يتجنب استعمال هذا الأسلوب ، أو على الأقل ، التقليل منه كلما أمكن ذلك .

وأما طريقة ترقيم صفحات الرسالة ، فيجب أن يبدأ الترقيم بالحروف الهجائية (أ ب ج د هـ و ز ح ط ي) ، ويشمل ذلك صفحة العنوان (لا يوضع لها رقم ، ولكنها تحسب في الترقيم) ويشمل كذلك صفحة التقدير والاعتراف ، والفهارس (إن كتبت في أول الرسالة) والمقدمة ثم تبدأ الأرقام العربية (١، ٢، ٣، ٠٠٠ وهكذا) مع بدء الرسالة نفسها .

هذا وقد يكون في الرسالة لوحات طويلة تنشر وتطوى ، وتتكون كل منها من عدة ورقات ملتصقة ، فكل لوحة من هذه اللوحات تشمل

رقما واحدا - مهما كان طولها ، وعدد أوراقها - وفي الرسائل يجوز وضع الرقم في منتصف الصفحة من أعلى أو من أسفل ، وإن كان من الأفضل أن يوضع الرقم في الطرف الأعلى للصفحة من جهة الشمال ، ولا توضع نقطة بعد الرقم ، كما أنه لا يحاط بالاقواس .

حادى عشر - تنظيم الرسالة الجامعية :
عندما تستكمل الرسالة الجامعية كل عناصرها - وقبل القيام بطبعها على الآلة الكاتبة - يجب أن تتضمن التسلسل التالى :

١ - تقديم : وفيه يشكر الطالب الاستاذ المشرف (Supervisor) على الرسالة ، وكل من ساعده من الاساتذة الاخرين والعلماء والباحثين وأمثاء المكتبات وغيرهم .

٢ - مقدمة : وتتضمن أهمية الموضوع للذى بحثه ، وسبب اختياره له ، والخطة التى سلكها فى بحثه ، والمصادر التى توفرت له ، والمشاكل التى واجهته ، والدراسات التى سبقته فى الموضوع ، وما تركته له من ثمرات عالجه ، أو نظريات نقدتها - أو أيدها - والاضافات العلمية التى قدمتها الرسالة (وإن كان البعض يفضل ذكر تلك الاضافات فى الخاتمة) ومقترحاته للباحثين الآخرين ، بطرق جوارب معينة تحتاج - من وجهة نظره - الى الاهتمام ، وقد عرفها من خلال دراسته للموضوع ، وينبغى أن تكون المقدمة واضحة وشاملة ، بحيث يعرف القارئ أهمية الرسالة ، ومدى حاجاته الى متابعة التفاصيل التى تحتويها ، ومن ثم فيجب ألا تكتب المقدمة ، الا بعد الانتهاء من كتابة الرسالة ، حتى يتكون لدى الباحث نظرة شاملة للموضوع تتيح له أن يشير فى مقدمة البحث الى تلك النقاط التى أشرفنا عليها آنفا .

٣ - ابواب الرسالة وفصولها : مع ملاحظة وضع ورقة تفصل بين عنوان الباب أو الفصل فقط .

٤ - فهرس المحتويات : وفيه عناوين الابواب والفصول والمباحث

(أو العناوين الصغيرة) مع ذكر أرقام الصفحات التي وردت فيها (وإن كنت أفضل أن يكون بعد قائمة المصادر والمراجع) .

٥ - الخاتمة أو خلاصة البحث : وتتضمن ملخصاً لكل محتويات الرسالة ، من حيث إطاره العام ونتائجه .

٦ - قائمة المصادر والمراجع : وترتب أسماء المؤلفين حسب حروف المعجم ، ويذكر اسم المؤلف كاملاً ، واسم كتابه كاملاً ، وعدد أجزائه (واسم المحقق إن كان مخطوطاً أو المترجم إن كان معرباً عن لغة أجنبية) ، واسم الناشر ومكان الطبع (واسم المطبعة إن أمكن) ، وتاريخ الطبع ، والبعض يدمج قائمة المخطوطات والمطبوعات والمصادر القديمة والمراجع الحديثة ، ويفصل المراجع الأجنبية عنها فقط ، في حين يضع البعض قوائم منفصلة لكل منها ، على أن هناك فريقاً ثالثاً ، إنما يفضل أن يكتب : المراجع العربية أولاً ، ثم المراجع المترجمة إلى اللغة العربية ثانياً ، ثم المراجع الأجنبية ثالثاً ، وهذا ما نميل إليه .

على أن هناك من يرتب القائمة على أسماء الكتب ، وفسق حروف المعجم ، في حين يرتب آخرون المصادر على الموضوعات التي تتناولها ، مع مراعاة الترتيب المعجمي داخل الموضوع .

هذا مع مراعاة أن صياغة الاسم العربي يجب أن تتم طبقاً للترتيب الطبيعي للاسم ، أي اسم الشخص فالأب فالجد أو اللقب ، أما بالنسبة للأسماء غير العربية ، فيعتمد ترتيبها بدءاً باللقب ، مع وضع فاصلة (و) بين اللقب وباقي أجزاء الاسم ، ويمكن أن يطبق منهج صياغة الأسماء الأجنبية على الأسماء العربية التي ترجع إلى ما قبل القرن التاسع عشر الميلادي ، وهناك بعض الأمثلة على ذلك .

١ - محمد بيومي مهران : حركات التهجئة في مصر القديمة - القاهرة - دار المعارف - ١٩٧٦م .

Wilson, (John. A), The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963.

٣ - الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك
الجزء الاول - القاهرة - دار المعارف - ١٩٣٥ *

هذا ويراعى أن الاسماء الاجنبية ذات البائدة ، انما تحتفظ بهذه
البائدة على الاغلب في الترتيب الهجائي ، ويكتب مكانه في التسلسل (٣٣)
فمثلا :

O'Leary (De Lacy D. D.) Arabia before muhammad, London 1927.

ويجب أن يكتب في مكانه من التسلسل في قائمة حرف (O) *

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن القاعدة التي جرى
المعمل بها في الرسائل - كما جاءت في المراجع الاجنبية - ألا يذكر
الباحث ألقاب ووظائف أولئك العلماء والباحثون الذين رجع اليهم
صاحب الرسالة في بحثه ، ومن ثم فهو يقول : ويرى ابن الأثير ،
ويميل طه حسين الى ٥٥٥٠ ويؤيد آلن جاردنر رأيه ٥٥٥٠ وهكذا ، غير
أن ذلك - فيما أميل اليه - لا يبدو مقبولا على هذا النحو في أساليبنا
العربية ، وتقاليدنا الشرقية ، بله وتعاليمنا الاسلامية ، فليس من
المستساغ أن نقول :

ويبرئ عبد العزيز صالح ٥٥٥ ويذهب محمد جمال الدين مختار
الى ٥٥٥٥ ، بدون أن نذكر لقبه العلمي (الدكتور) *

ومن ثم فاننى أفضل للطالب العربى أن يذكر الملقب العلمى عندما
يتحدث عن أساتذته - وهم المفروض أنهم الاسوة المحسنة له في ميدان
تخصصه - والا نقلد الاجانب في كل شيء ، ذلك لان للقوم تقاليدهم ،
ولنا تقاليدنا ، وقصد علمنا ديننا الحنيف - الاسلام - وتقاليد سلفنا
الصالح أن نوقر العلماء - التوقير كل التوقير - قال تعالى (يرفع الله
الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (٣٤) ، قال ابن عباس -

- (٣٣) انظر : أحمد شلبي : المرجع السابق ص ١٠٠ - ١٢٤ ، ١٥٨ -
١٦٠ ، اكرم ضياء العمرى : المرجع السابق ص ٣٣ - ٣٤ ، غسان حسن
غنيوم وجمال جبر : المرجع السابق ص ٧٣ - ١١٨ .
(٣٤) سورة البقرة : آية ٢٦ .

خير الامة وترجمان القرآن :- العلماء فوق المؤمنين مائة درجة ، فابن
الدرجتين مائة علم .

وقال تعالى «شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما
بالقسط» (٢٥) ، وهكذا بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنى بالملائكة وثالث
بأهل العلم ، وكفاهم بذلك شرفا وفضلا وجلالة وتبلا .

وقال تعالى «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» (٢٦) ،
وقال تعالى «فاسألوا أهل الذكر أن كنتم لا تعلمون» (٢٧) ، وقال تعالى
«وما يعقلها الا العالمون» (٢٨) ، وقال تعالى «بل هو آيات بينات في
صدور الذين أوتوا العلم» (٢٩) ، وقال تعالى «انما يخشى الله من عباده
العلماء» (٣٠) ، وقال تعالى «أولئك هم خير البرية» التي قوله تعالى «ذلك
لن يخشى ربه» (٣١) ، فاقتضت الايتان أن العلماء هم الذين يخشون الله
تعالى ، وأن الذين يخشون الله تعالى هم خير البرية ، فينتج أن العلماء
هم خير البرية (٣٢) .

وقال سبحانه وتعالى «ولانا محمد رسول الله ﷺ» «العلماء ورثة الانبياء» ،
وحسبك هذه الدرجة مجدا وقضرا ، وهذه الرتبة شرفا وفكرا ، فكما
لا رتبة فوق رتبة النبوة ، فلا شرف فوق شرف وارث تلك الرتبة بوعد
ﷺ لما ذكر عنده رجلان ، أحدهما عابد والاخر عالم - فقال «فضل
العالم على العابد ، كفضلي على أدناكم» ، وعنه ﷺ أنه قال «من سلك
طريقا يطلب فيه علما ، سلك به طريقا من طرق الجنة» ، وإن الملائكة
لتضع أجنحتها لطالب العلم لرضا الله عنه ، وأن العالم ليستغفر له من

(٢٥) سورة آل عمران : آية ١٨ .

(٢٦) سورة الزمر : آية ٩ .

(٢٧) سورة النحل : آية ٤٣ .

(٢٨) سورة العنكبوت : آية ٤٣ .

(٢٩) سورة العنكبوت : آية ٤٩ .

(٣٠) سورة فاطر : آية ٢٨ .

(٣١) سورة البينة : آية ٧ - ٨ .

(٣٢) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم -

من كتاب آداب المتعلمين - تحقيق أحمد عبد القادر عطار - بيروت ١٩٦٧
ص ١٦٩ - ١٧٠ .

في السموات ومن في الأرض ، حتى الحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم العابد ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» .

وقال عليه السلام : يوزن يوم القيامة مداد العلماء ، ودم الشهداء ، وقال بعضهم : هذا مع أن أعلى ما للشهيد دمه ، وأدنى ما للعالم مداده ، وقال عليه السلام «من أكرم عالما فكأنما أكرم سبعين نبيا ، ومن أكرم معلما فكأنما أكرم سبعين شهيدا» ، وقال عليه السلام «من صلى خلف عالم فكأنما صلى خلف نبي ، ومن صلى خلف نبي ، فقد غفر له» .

وقال الامام علي - رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه في الجنة - «كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه ، ويفرح به إذا نسب إليه ، وكفى بالجهل ذما ، أن يتبرا منه من هو فيه» ، وقال نسفيان بن عيينة «أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عياده ، هم الأنبياء والعلماء» ، وقال أيضا «لم يعط أحد في الدنيا شيئا أفضل من النبوة ، وما بعد النبوة شيء أفضل من العلم والفقه» (٣٣) .

وقال عليه السلام : «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلمهم على قدر عقولهم» .

وفي سيرة السلف الصالح خير شاهد على ذلك ، قال الشعبي : «صلى زيد بن ثابت» فقربت إليه بغلته ليركبها ، فجاء ابن عباس ، فأخذ بركابه ، فقال زيد : خل عنك يا ابن عم رسول الله ﷺ ، فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء ، فقبل زيد بن ثابت يده ، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ، ﷺ» (٣٤) .

وقال عليه السلام : «ليس منا من لم يجل كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف

(٣٣) نفس المراجع السابق ص ١٧٠ - ١٧٢ .

(٣٤) الغزالي : أرؤه في التربية - آداب المتعلمين ص ٨٨ ، ١٠٢ .

لعالمنا بحقه» (٣٥) . ومن هنا فقد اهتم كثير من الائمة بواجبات المربين نحو طلبتهم ، ودونوا هذه الواجبات في مؤلفاتهم ، لانهم رأوا أن مهمة التعليم صناعة هي أشرف الصناعات ، كما يقول حجة الإسلام «أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي» (٣٦) (١٠٥٩/٥٥٥ هـ - ١١١١ م) ، فالمعلم متصرف في عقول البشر ونفوسهم ، وأشرف ما في الانسان عقله ونفسه ، فمحل صناعة التعليم أشرف الاشراف ، ومن ثم فقد حظى علماء المسلمين بالاحترام الواجب للمعلم عند طلبته ، لان طالب العلم لا ينال العلم ولا ينتفع به ، الا بتعظيم المعلم وأهله ، وتعظيم الاستاذ وتوقيره (٣٧) .

وروى عن الامام على بن أبى طالب — رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه في الجنة — «ان من حق العالم ، الا تكثر عليه بالسؤال ، ولا تعنته في الجواب ، ولا تلج عليه اذا كسل ، وتأخذ بثوبه اذا نهض ، ولا تنفسي له سرا ، ولا تغتابن أحدا عنده ، ولا تطلبن عثرته ، وان زل قبلت معذرتة ، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى ، مادام يحفظ أمر الله تعالى ، ولا تجلس أمامه ، وان كانت له حاجة سبقت القوم الى خدمته» (٣٧) ، وقال نصير الدين الطوسي (٥٦٧ — ٦٧٢ هـ) : «ينبغي لطالب العلم أن لا يجلس قريبا من الاستاذ عند السبق بغير ضرورة ، بل ينبغي أن يكون بينه وبين الاستاذ قد القوس ، لانه أقرب الى التعظيم» (٣٨) .

وانطلاقا من كل هذا — وغيره كثير — فأقل التقدير من التلميذ لأساتذته أن يخطبهم باللقابهم العلمية ، وأما عند ذكر المصادر والمراجع في الرسالة ، فالأفضل عندي ، أن يذكر اسم المؤلف مع لقبه العلمى ،

(٣٥) رواه أحمد والنسائي والحاكم .

(٣٦) مقدمة آداب المتعلمين ص ٢٠ ، شرف الدين خطاب : التربية في العصور الوسطى ص ٦٣ وما بعدها .

(٣٧) الغزالي : المرجع السابق ص ٨٩ .

(٣٨) نصير الدين الطوسي : آداب المتعلمين ص ١٤٦ .

والامر كذلك في التقدير والاعتزاز بالجميل ، أما الانقلاب غير العلمنة
 مثل الوزير والعميد ، وما شابههما ، فليس في المصطلح الجامعية مجال
 لها ، كما يجب أن يمتد الطالب عن ذكر جارات : الحانم الجليل ،
 وأستاذنا الكبير : والعلامة ، فمثل ذلك يجب أن يختص به المؤسسة
 الجامعية (٢٩) .

(٢٩) أحمد شوقي : المرجع السابق من ١٩٩٠ ، ص ٢٠٠ .

الفصل السادس

مصادر التاريخ المصرى القديم

تعتمد الدراسة في تاريخ مصر الفراعنة على مصادر أربعة أساسية هي : الآثار المصرية ، وماكتبه الرحالة والمؤرخون من الإغارقة والرومان ، الذين زاروا مصر ، وكتبوا عنها كتباً كاملة ، أو فصولاً من كتب ، ثم المصادر المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم ، وأخيراً ما جاء في التوراة والقرآن الكريم عن مصر وأحوالها ، ولنحاول الآن أن نتحدث بشيء من التفصيل عن هذه المصادر الأربعة :

أولاً : الآثار المصرية

لا ريب في أن الآثار التي تركها لنا المصريون القدامى ، وما تمده به الباحث في تاريخ الكنانة من معرفة ، سطرت على جدران المعابد والمقابر والاهرامات ، والتماثيل ولوحات القبور والتوابيت وقراطيس البردى وغيرها ، إنما هي المصدر الأول لتاريخ مصر القديمة ، فهي تتحدث عن الكثير من أخبار القوم ، وتروى معلومات هامة عن عقائدهم وقنونهم .

وفي الواقع ، فإن الآثار المصرية — التي تتضائل بجانبها آثار أى بلد آخر — إنما تمتاز بوفرة هائلة ، ترجع (أولاً) الى العقيدة الدينية التي قصت أن يتزود القوم لحياتهم الأخرى ، على نحو ما كانوا يفعلون في حياتهم الدنيا ، وترجع (ثانياً) الى تقدم المصريين في الفنون والصناعات والبناء ، مما أتاح لهم أن يشيدوا تلك الثروة الهائلة من التراث القومى المنقطع النظير ، وترجع (ثالثاً) الى جفاف مناخ مصر الذى ساعد على حفظ تلك الآثار ، فضلاً عن صيانة الاجساد ، صيانة لا يمكن أن توجد في الاحوال الطبيعية في أى جزء آخر من العالم (١) .

(١) جيمس هنرى برستد : تطور الفكر والدين في مصر القديمة — ترجمة زكى سوسن — القاهرة ١٩٦١ ص ٨٥ ، محمد جمال الدين مختار : تاريخ الحضارة المصرية — العصر الفرعونى — مصادر التاريخ الفرعونى — المجلد الاول — القاهرة ١٩٦٢ ص ٨٣ .

على أن الباحث إنما يلاحظ على هذا المصدر الاصيل عدة نقاط ضعف ، منها (أولا) أن كثيرا من الآثار إنما هو صادر عن المقابر أو المعابد، ومن هنا فقد كان المظهر السائد لمعظم ما يعثر عليه فيها ديني ، ومنها (ثانيا) أن كثيرا من هذه الآثار ، إنما قد كتب بأمر من الملوك — أو بوحى منهم — بلحاظ تفكيرنا أن الملك في الحقيقة المصرية إنما كان لها أكثر منه بشرا ، وجب علينا أن نكون على حذر فيما نروييه عن العروب بين مصر وجيرانها ، ذلك أن المصريين كانوا لا يمتسحون أن يهزم «الملك المؤله» في حرب ضالعة غصارتها ، ومن ثم فإن النصر يكاد يكون حليفه فيها دائما ، وقد تكون الحقيقة غير ذلك (١) .

وهنا وجب على الباحث أن يفلتر هذه النصوص بما يعاصرها من نصوص الدول الأخرى ، ذات الصلة بهذه الأحداث ، حتى يتبين وجه الحق فيها — فقد استطاعت — ومن أمثلة ذلك ، مؤسسة قادش التي دارت رحى الحرب فيها حوالي عام ٢٢٨٥ قبل الميلاد ، بين الفرعون «رعسيس الثالث» والملك الحيثي «مواتيلا» وزعم فيها كل منهما أن النصر كان من نصيبه ، غير أن الحقائق التاريخية — فيما أظن — إنما هي في جانب فرعون ، وليس مع الملك الحيثي (٢) .

ومنها (ثالثا) أن هذه المصادر تتفاوت فيها المعلومات المتصلة بشطري الوادي ، ذلك لأن جلها إنما هو صادر عن الصعيد ، بعكس الدلتا التي قدمت القليل ، ومع ذلك فإن هذا التعميم عرضة للاستثناء بالنسبة لمدينتي تانيس وبوباسطة ، اللتين قدما نتائج هامة ، وإن كان

(٢) محمد بيومي مهران : للشيرة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢٠٢ .

(٣) محمد بيومي مهران : مراكات التجريز في مصر القديمة — دار المعارف القاهرة ١٩٧٦ ص ٢٣٢ — ٢٣٧ .

A. Burn, JEA, 1921, p. 194-195.

A. H. Gardiner, The Kadesh Inscriptions of Rameses, II, Oxford, 1960, p. 6-9.

H. Goodick, Consideration on The Battle of Kadesh, JEA, 52, 1960, p. 72-80.

معظمها آثار من الحجر ، الذى امتنع أن يقاوم عامل الماء ، شأنه فى ذلك شأن المعابد الرائعة فى الصعيد ، التى تقوم على الأرض الزراعية على مرمى حجر من النيل .

ومنها (رابعاً) أن هذا المصدر الوطنى إنما يعنيه كذلك أن تسعة أعشار الحفائر إنما تمت فى الصحراء ، حيث شاد القوم «مساكن الأبدية» ، حيث يحفظ الرمل الجاف أكثر الأشياء عرضة للتلوث ، ومن هنا كان المظهر الجزئى المسند لمعظم ما يثر عليه ، وأما مساكن الأحياء التى كانت تبني عن قصد من مواد أقل قدرة على الاحتمال ، فكانت تقوم فى وسط الأرض الزراعية ، فالمدن والقرى النائية اليوم مبنية فوق أنقاض العصور السابقة ، وعندما كانت تنهار المنازل المبنية من اللبن كانت تحل محلها منازل أخرى تقام فوقها وهكذا يرتفع مستوى الأرض مرة بعد أخرى فوق منسوب الفيضان ، وقد أدى ذلك إلى ندرة الآثار المتلفة بالحياة اليومية ، ونواحي النشاط الدنيوى ، ومع ذلك فإن جزالة التعبير ، والثراء فى اللغات الإنسانية فى المستندات المصرية ، تفوق نظائرها كثيراً من بلاد الشرق الأدنى القديم (٤) .

ومنها (خامساً) أن السجلات الرسمية عن أعمال الفراعين فى العولة القديمة تكاد تكون غير قائمة ، ذلك لأن الملوك كانوا مؤلفين متعالمين إلى أبعد الحدود ، وأقوياء بصورة تجعلهم لا يهتمون برواية أعمالهم حتى تصل إلى رعاياهم وكانت الأهرامات كافية لتقوم شاهداً على عظمتهم ، ونفس الشيء — مع درجة أقل — يمكن أن يقال عن الأسرة الثانية عشرة (٥) .

ومنها (سادساً) ندرة الآثار التى ترجع إلى بعض العصور المظلمة ، ولعل أسوأ المراحل جميعاً ما عرف باسم «العصر الوسيط الأول» (الأسرات من السابعة إلى العاشرة) والثلاثى (الأسرات من الثالثة

٤. A. H. Gardiner, *Egypt of The Pharaohs*, Oxford, 1964 p. 52-53.

5. Ibid., p. 55.

عشرة الى السابعة عشرة) ، ثم ما بين الاسرات ، من الحادية والعشرين الى الرابعة والعشرين ، مما يجعل تسلسل الاحداث في التاريخ الفرعونى غير مطرد ، تتخلله فجوات لا بد من الاستعانة فى مثلها بمصادر أخرى ، ومنها (سابعا) أن زادنا من النصوص التاريخية انما يتوقف — قلة وكثرة — على مدى النجاس الح الذى استتمت به مصر من وقت لآخر ، وعلى مدى استقرار الامور ، وسطوة الحكامين فيها .

ومنها (ثامنا) أن النصوص المصرية — فى غالبيتها — صعبة الترجمة ، عسير التأويل ، لم ينشر الكثير منها ، أو لم يترجم ترجمة دقيقة ، وهى ، على أية حال ، مهمة بصفة خاصة فيما يتعلق بالمعتقد الدينية والطقوس الجنزية ، ومنها (تاسعا) أن المصريين — شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الشعوب القديمة — لم يعرفوا التواريخ المطلقة ، ولم يتفقوا على بداية زمنية ثابتة يردون اليها الاحداث ، مما جعل مهمة الباحث صعبة وشاقة فى تأريخ العصور الفرعونية ، بخاصة اذا ما تذكرنا أننا نتناول حضارة تمتد لآلاف السنين ، لم يبق منها سوى مخلفات ضئيلة .

ومع ذلك كله ، فان الآثار — مصدرنا الاول — انما تمتاز عن غيرها من المصادر الاخرى ، بأنها المصدر الوحيد الذى عاصر الاحداث والذى اشركه المصريون — عن قصد أو غير قصد — فى الكشف عن تاريخهم وتخليد حضارتهم ^(٦) .

هذا ولعل أهم ما عثر عليه بين تلك الآثار — من وجهة النظر التاريخية — ما عرف بقوائم الملوك هو كسوف أرخت لبعض الفراعين ، ولما سبقهم من عصور ^(٧) ، فمنذ الاسرة الخامسة (حوالى ٢٤٨٠ — ٢٣٤٠ ق م)

(٦) محمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٨٣ ، ٩١ .

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 56.

(٧) بدأ التاريخ للفراعنة فى بادىء الامر ، على بطاقات صغيرة من العاج أو الخشب ، ثم ما لبث أن تحول الى التفصيل والامهال على اللوحات الحجرية وعلى أوراق البردى وفوق جدران المقابر والمعابد ، وقد هذقت هذه التسجيلات الى تخليد ذكرى الملوك ، فوصفت الاعياد الملكية ، وما قام

نرى آثارا تسجل عليها أسماء الملوك وسنى حكمهم وأهم أعمالهم ، وكانت آثارهم هذه دقيقة — فى بعض الأحيان — لدرجة أنهم لم يقتصروا فيها على ترتيب الملوك ترتيبا زمنيا وحسب ، بل ذكروا مدة حكمهم بالسنة والشهر واليوم ، كما أنهم لم يقتصروا فيها على المصر التاريخي ، بل أرخوا كذلك للملك فجر التاريخ ، رغبة فى تخليد الملكية المقدسة ، وليصلوا الفراعين بأسلافهم من الأرباب الذين أورثوهم عرش الكنانة .

غير أن المعلومات التى أعطتها هذه القوائم متباينة أحيانا ، كما يعوزها الطابع العلمى أو التاريخي ، هذا فضلا عن أنها لم تقدم لنا شيئا عن النواحي الحضارية أو الثقافية ، مما جعلها محدودة الفائدة ، وربما كان السبب فى ذلك أن معظمها إنما يتصل باحتفالات دينية تتصل بالملكية ، وأخيرا فإنها لم تقدم لنا إلا القليل عن التاريخ السياسى كالحروب والغزوات ، وذلك لأن الحوادث التى كانت تحتل المكانة الأكثر أهمية فيها إنما كانت أوجه النشاط السلمية كالشعائر الملكية والرحلات وتشييد المباني (٨) .

وأما أهم هذه القوائم الملكية فهى : حجر بالرمو ، وقوائم الكرنك وأبيدوس وسقارة ، وبردية تورين +

١ - حجر بالرمو :

عثر عليه فى منف ، ثم نقل إلى صقلية عام ١٨٥٩م ، حيث أودع متحف العاصمة «بالرمو» عام ١٨٧٧م وهو قطعة من حجر الديوريت ،

به الفراعين من جلائل الأعمال ، وما قدموه لآلهتهم من قربان ، فضلا عما تناولته من الأحداث السياسية ، كحادث توحيد البلاد ، وطرد الهكسوس من مصر ، كما أسهمت نصوص المعابد وأوراق البردى فى تسجيل حروب الفراعين العظام من أمثال تحوتمس الثالث ورعمسيس الثانى والثالث (محمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٨٧) .

8. J. A. Wilson, Op. Cit., p. 63.

طولها حوالي مترين ، وارتفعها حوالي ٧٠ سم ، وهناك غيرها أربع قطع بالمصنف المصري ، اشترت هيئة الآثار المصرية ثلاثة منها في عام ١٩١٠م ، وعثر أحمد خفرائها على القطعة الرابعة فيما بعد في خرائب منفى ، هذا الى جانب قطعة سلاحها «بقرى» عام ١٩١٠م وتوجد الآن بمتحف الجامعة في لندن .^(٩)

هذا وقد دون على الحجر حوليات الملوك منذ أقدم العصور ، وحتى «نفر اير كارع» ثالث ملوك الأسرة الخامسة ، كما يشير الحجر كذلك الى أسلافه «مينا» ممن كلنوا يصكمون في الدلتا والمصعيد ، وأطلق عليهم اسم «أتباع الاله حور»^(١٠) .

ولقد نقش حجر بالرمو من الجانبين ، وقسم كل جانب عرضيا الى صفوف ويقسم كل صف الى أقسام ، وكتب على الصف العلوي من الترجمة الرئيسية أسماء حكام ما قبل الاسرات ، الذين لا نعرف شيئا عن طولهم مدة حكمهم أو أعمالهم ، وتحت كل منهم رسم ملك جالس ، وعلى رأسه تاج الصعيد أو الدلتا ، وفي بقية الصفوف نجد الخزانة المينى تفصل الخزانة اليسرى بالعلامة الهيرغليفية التي ترمز الى السنة ، وتوجد بين الصفوف ديلجة أفقية تقسم اسم الملك التي تتصل به النصوص أدناها ، ويصحب اسمه عادة اسم «أمه» ، وتحت كل إشارة ارتفاع النيل في تلك السنة بالذات .

وهكذا يبدو واضحا ، أن هذا السجل — عندما كان مكتملا — انما

9. W. M. F. Petrie, in *Ancient Egypt*, 1916, p. 114 f.
H. Gauffier, *Quatres Nouveaux Fragment de la Pierre de Palerne Musse Egyptien*, III, Pls. 24-31, p. 29-35.

10. J. H. Breasted, *ARE*, I, 1927, Parag. 76-167.

G. Daressy, *La Pierre de Palerne e la Chronologie de L'Ancien Empire*, *BIFAO*, XII, 1916, p. 16 f.

W. Kaiser, *ZAS*, 84, 1959, p. 119 F.

M. F. Read, *Egyptian Royal Accessions during The Old Kingdom*, *PSBA*, 36, 1914, p. 282 F.

كان سجلا سنويا مستمرا لكل الملوك المذكورين على وجهيه ، ومن ثم فلو أننا سلطنا جملة معلومات صاحب هذه الحوليات لمتحققنا من التتابع الصحيح للملوك جميعا من «مينسا» الى «ني وسر رع» سلكنا ملوك الاسرة الخامسة - رغم أن آخر اسم لحققت لنا به هذا الحجر - انما هو لسم «نفر لير كرع» - فضلا عن عدد السفن لكل منهم - وفوق ذلك كله ، قلنا انحصاء بسيط لكل الخانات انما يضع بين أيدينا مجموع السفن التي استغرقها عصر الاسرات الخمسة الاولى .

وعلى أية حال ، فحتى في حالة الحجر الحاضرة المتوفرة ، قانه يمكن استخدامه الى حد ما ، في الاغراض التاريخية ، ذلك لانه لو وصل اليه كاملا ، فان نقوشه انما كانت تستطيع أن تعرفنا بالكثير مما قم في الماضي ، بقصر ما رغب ملوك الاسرة الخامسة أن يعرف خلفاؤهم من اهتماماتهم التي انصبحت على الاعياد الدينية ، وصناعة تماثيل الالهة ، والانتصارات على القبائل الاجنبية من وقت لآخر ، ومحملات المسمى وراء الحصول على المعادن ، فضلا عن بناء المعابد والقصور (١١) .

وأيا ما كان الامر ، فرغم ما في هذه الدعوة من عيوب ، فانها كانت أول محاولة معروفة لجمع أخبار الملوك وترتيبها في التسلسل القديم ، وحسبها على هذا الاعتبار أنها «نقطة البدء» وأنها سبقت غيرها بقرون طويلة ، وأن مؤرخها الذي سبق عصرنا بنحو خمسة وأربعين قرنا المتروك فيها مبادئ ، لا تزال تعتبر من شروط التاريخ السليم ، فراعى (أولا) شرط الوضوح في كتابته بأن فصل بين أحداث كل حول وآخر بخط رأسي ، يرمز الى كلمة الحول في الكتابة المصرية ، وفصل بين حوليات كل ملك وآخر بخط أفقي .

11. E. Neville, La Pierre de Palerme, Recueil de Travaux, XXV, Paris, 1903.

J. A. Wilson, Op. Cit., p. 62.

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 63.

وراعى (ثانيا) الترتيب الزمني في تدوين أسماء الملوك وحوادثهم من الاقدم الى الاحدث ، وراعى (ثالثا) أمانة النقل - ما استطاع الى ذلك سبيلا - في رواياته ، فاكثفى من جانبهِ بالرمز الى ملوك ما قبل الاسرات بأسمائهم ، دون أفعالهم التي لم تدونها عهودهم ، وبدأ يفصل بالتدريج في حوليات العصور التاريخية ذات المصادر المكتوبة ، حسبما توفرت له أخبارها ، ثم أسهب أخيرا - ما شاء الله له أن ينسحب - في حوليات الاسرة الخامسة التي عاش في ظلها ، وعرف الكثير من أخبارها (١٢) .

٢ - قائمة الكرنك :

نقش هذه القائمة كاتب في عهد «تحتوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) على جانب من مقبده الفخم بأقصى مجموعة الكرنك ، وتستقصر هذه القائمة التي تعرف أحيانا باسم «قائمة حجرة الاجداد» بمتحف اللوفر في باريس ، منذ أن نقلها الاثرى الفرنسى «فويس دافن» في عام ١٨٤٤م .

وقد صور في قائمة الكرنك هذه ، الملك «تحتوتمس الثالث» ، وهو يتجبه بدعواته الى واحد وستين اسما من أسماء أسلافه الذين تحطم أولهم ، ومن ثم فقد كان أولهم «سنفرو» ، مؤسس الاسرة الرابعة ، ثم يليه بعض ملوك هذه الاسرة ثم ملوك الاسرتين الخامسة والسادسة ، ثم يتلوهم بعض ملوك الاسرات من البجادية عشرة الى المصابعة عشرة .

وهكذا يتضح لنا أن «تحتوتمس الثالث» إنما قد سجل من الملوك من يعتقد في شرعيتهم ، أو من كان يعتبرهم أسلافه الحقيقيين ، الذين يرتبط بهم برابطة من نسب ، ذلك لان القائمة لم تسجل كل الملوك الذين جلسوا على عرش الكنانة قبل «تحتوتمس الثالث» اذ أغفلت الكثيرين

(١٢) عيد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٣٤ .

منهم ، بخاصة ملوك عصر الانتقال الاول ، فضلا عن الملوك من الفترة الهكسوس (١٣) .

٣ - قائمة أبيدوس :

وقد نقشتم في عهد الملك «سيتي الاول» (١٣٠٩ - ١٢٩٢ ق.م) على جدران معبد الكبير في «أبيدوس» على حافة الصحراء الغربية ، عند قرية العرابة المدفونة ، على مبعدة عشرة كيلومترات الى الغرب من البلينا ، والذي يعد من أروع الآثار المصرية ، والمنظر يمثل الملك «سيتي الاول» مصحوبا بولده «رعمسيس الثاني»^(١٤) (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) وهو يقدم القرابين الى ستة وسبعين من أسلافهم ، الذين لا تقدم صورهم الشخصية ، وإنما تمثلهم «الخيراطيش» التي كتبت يداخلها أسماءهم بالهيروغليفية .

هذا ويقتصر القائمة الملك «ميناء» كما أن القائمة تغفل كذلك أسماء ملوك تعتبرهم غير شرعيين ، ومن ثم فهي لا تمتزج بهم ، وبالتالي لا تسجل أسماءهم ، كملوك الاسرتين التاسعة والعاشرية ، وملوك عصر الانتقال الثاني ، فضلا عن تجاوزها - عن عمد - لاسم الملكة «حتشبسوت» خصيصة الفرعون العظيم تحوتمس الثالث ، فضلا عن اسم داعية التوحيد «اخناتون» وأقربائه ، سمنخ كارع ، وتوت عنخ آمون وآي ، الذين اعتبرهم خلفاؤهم صابئين وذلك لخزوجهم على تقاليد الأسلاف الدينية^(١٥) .

13. Prisse D'Avennes *Monuments Egyptiens*, Paris, 1847, pl. I, K. Sethe, *Urkunden des Agyptischen Altertums*, Leipzig, IV, p. 608-610.

(١٤) هناك ثبت آخر في أبيدوس بمعبد الملك رعمسيس الثاني ، ولكنه تحطم ، وتوجد أجزاء منه بالمتحف البريطاني .
(B. Porter and R. L. B. Moss; *Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, Reliefs and Paintings*. VI p. 35).

15. A. H. Gardiner, *Op. Cit.*, p. 48.

ZAS, II, p. 81-83.

E. A. W. Budge, *The Book of The Kings*, I, London, 1908.

E. Meyer, *Aegyptische Chronologie*, Berlin, 1904, Pl. I,

٤ - قائمة سقارة :

عثر على قائمة سقارة هذه في عام ١٨٦١م في مقبرة بمغف لأحد رؤساء الاشغال ويدعى «ثونرى» أو «تتري» (وينطق تولي أو جونيوي) من عهد الملك «رعمسيس الثاني» ، وكانت تحوى أصلا خراطيش سبعة وخمسين ملكا ، يمجدهم رعمسيس الثاني ، وتوجد القائمة الآن بمتحف القاهرة ، وهي لا تبدأ بالملك «ميناء» ، وإنما بسادس ملوك الاسرة الاولى «عديج ايب» ، وتنتهى بالملك رعمسيس الثاني ، كما أنها لم تراعى الترتيب الزمنى .

هذا وقد أعقبت القائمة كذلك ملوك الاسرات من السابعة الى العاشرة ، فضلا عن كثير من ملوك الاسرة الحادية عشرة ، وان سجلت أسماء ملوك الاسرة الثانية عشرة جميعا ، مما يدل على أن كتبها إنما كان متأثرا بما تأثر به كاتب قائمة أبيدوس المعاصرة لها ، ومن ثم فقد أسقطت القائمتان ملوك عصر الانتقال الثاني ، وكذا اسم «حتشبسوت» و «اخناتون» ومن تلاه من عائلته ، ثم تنقضى القائمة بالملوك الثلاثة الاوائل من الاسرة التاسعة عشرة ، وهم رعمسيس الاول وسيتي الاول ورعمسيس الثاني (١٦) .

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة هنا الى أن اختلاف قوائم الشمال عن قوائم الجنوب ، إنما يدل على أنه كان للدلتا نظرة خاصة في شرعية الملوك ، تختلف عن تلك التي كانت لاهل الصعيد ، أما اغفال أسماء الملوك الذين اعتبرهم المصريون غير شرعيين كالهكسوس ، فهذا يتفق والمغرض الذي أقيمت من أجله هذه للقوائم ، وحتى لا ينعم من لم تذكر أسماؤهم بالقرابين التي تقدم للاجداد .

٥ - يردية تورين :

ترجع هذه الليرة الى عهد «رعمسيس الثاني» وتختلف عن بقية

16. E. de Rouge, Recherches sur les Monuments. Pl. F.
A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 50,

القوائم في أنها كتبت على ورق البردي، وبالخط الهيراطيقي، كما تمتاز كذلك بأنها قد أوردت بعض الاسماء الملكية التي لم تذكرها القوائم الاخرى، وبثلاثها قد عدلت الى التتبويب التاريخي، حيث قسمت الملوك الى مجموعات، ونسبت بعضها الى العواصم التي حكمت فيها.

هذا وقد عثر على بردية تورين الايطالي «دروفتي» في منف عام ١٨٢٠م، ثم وجدت طريقها الى ملك سردينا، ووضعت في صندوق، ثم جمعت بقاياها في غير نظام، ومن هنا فلن «سالمليون» حين بدأ ينقب في ثنانيا الخزون من الجزارات الكثيرة التي انتقلت الى متحف تورين، اتضح له أن هذه الوثيقة التي تعد أثمن الوثائق المصرية لم يبق منها سوى خمسين قطعة، هي في معظم الحالات ناقصة، وتقدم على الاكثر ما بين ٨٠ الى ٩٠ اسما ملكيا.

وفي عام ١٨٢٦م، قام «جوستاف سيفارت» الالماني باعادة جمع الجزارات، ثم توصل منها آخر الامر، الى نتائج هامة تتلونها تعديل ملحوظ فيما بعد، عندما نشرها الاثري «فارين» بعد الترميم في عام ١٩٣٨م^(١٧)، ثم قام «سير ألن جاردنر» بمراجعة الاصل، وأصلح بعض قراءات «فارين» ونشر ذلك كله^(١٨).

وتبدأ البردية — كما يبدأ مانيتو — بالالهة، الذين تنسب اليهم عدد حكم اسطورية^(١٩)، يليهم بعد ذلك «مين» كمؤسس للملكية المصرية،

17. G. Farina, I. Papiro di re-Restaurato, Rome, 1938.

18. A. H. Gardiner, The Royal Canon of Turin, Oxford, 1959.

(١٩) شابه المصريون في ذلك غيرهم من الشعوب القديمة، التي أعطت فترات حكم اسطورية الملوك ما قبل العصر التاريخي، وعلى سبيل المثال، فإن قائمة الملوك السومرية تذكر ثمانية ملوك حكموا قبل الطوفان في خمس مدن عراقية. وكانت مدة حكمهم ٢٤١٢٠٠ سنة، وأن آخرهم قد حكم ١٨٦٠٠ سنة، وفي تاريخ العرب القديم يروي المؤرخون أن عاداً تزوج من ألف امرأة، وعاش ألف ومانتى سنة، وقد رأى من صلبه أربعة آلاف ولد، كما رأى اليطن العاشر من أعقاب، ثم خلفه ولده «شديد» فحكم ٨٥٠ سنة، ثم جاء بعده أخوه «شداد» فحكم ٩٥٠ سنة (محمد بيومي مهران، قصة الطوفان بين الحجاز والكتب المقدسة ص ٣٩٢ - دراسات في تاريخ العرب القديم ص ٤).

وأما بقية البردية فمجرد قائمة من الاسماء ، تلى كل اسم إشارة بطول مدة الحكم والعمر ، ثم المجموع بما يتفق وما رمى اليه «مانيتو» من ناحية التقسيم الى أسر ، وأما عدد الملوك فيكاد يكون واحدا فيهما ، وان كانت البردية قد قدمت بعض أسماء غريبة ، حتى لتبدو لنا وكأنها لا تمت بصلة الى ملوك حقيقين .

ورغم ذلك فان جدول توزير للملوك انما يعد من أكثر المصادر التاريخية قيمة ، أو هو كان يمكن أن يكون كذلك ، لو أنه كان أكثر احتمالا ، أو لو أنه حوفظ عليه في غاية أدق ، ذلك لانه لم يسجل سوى كل حكم فحسب ، وانما سجل كذلك عدد الشهور والايام بعد اكتمال السنين ، ومن الواضح أن جامع هذه الوثيقة كانت لديه مصادر لمعلوماته ، ليست خالية من الفجوات فحسب ، بل هي كذلك دقيقة يمكن الاعتماد عليها ، فمثلا أرقام الأسرة الثانية عشرة تتفق تماما ، وما يشير اليه الآثار المعاصرة (٢٠) .

ولم يفسد على كاتب البردية ملكته التاريخية ، الا ايمانه بأساطير قومه التي جعلت للارباب نصيبا في اعتلاء عرش البلاد القديم ، فبدأ بحكم الاله «رع أتوم» ثم أرخ لحكم أرباب آخرين ، جعل مدة حكم أحدهم ٣٠٠ سنة ، وجعل مدة حكم آخر ٣٢١٦ سنة ، حتى انتهى بهم الى المعبود الملك «حور» الذي انتسب اليه ملوك ما قبل الاسرات ، واعتبروا أنفسهم أتباعه ، وانتسب اليه ملوك الاسرات واعتبروا أنفسهم ورثته وخلفاءه ، والمتجسدين لشخصيته (٢١) .

٦ - تاريخ مانيتو :

كان آخر المؤرخين المصريين القدامى المعروفين انما هو مؤرخ مصرى عظيم ، يعد أعظم مؤرخ أنجبته مصر القديمة ، وهو «مانيتو» - أو

20. A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 62.

(٢١) عبد العزيز صالح : التاريخ في مصر القديمة - مفهومه وعناصره وبواغث القومية فيه - القاهرة ١٩٥٧ ص ٢١ - ٢٣ .

«مانيتون» كما دعاه المتأغرقون — ومن أسف أن أصل اسمه المصرى لم يعرف بعد ، ويفترض «الكسندر موريه» (١٨٦٨ — ١٩٣٨) أنه كان اسما يتداول فيه اسم المعبود مونتو ، رب الحرب ، ويظن البعض أنه بمعنى «المراعى» أو «السائس» ، وأنه قد ولد في «سمنود» (تب نتر = سبتوتس) وعاش في الفترة (٣٢٣ — ٢٤٥ ق.م) ، وربما قد وصل في السلك الكهنوتى إلى منصب الكاهن الأكبر في «أون» (هليوبوليس) ، وأنه قام بدور هام في نشر عبادة «سرابيتس» ليكون معبود المصريين واليونانيين على السواء (٣) .

وكان مؤرخنا الوطنى ملما باللغة المصرية القديمة ، وعلى معرفة تامة باللغة اليونانية ، ثم هو متمكن من تاريخ وديانة بلده ، مما ساعده على كتابة تاريخه حوالى عام ٢٨٠ قبل الميلاد ، على أيام بطليموس الثانى (٢٨٤ — ٢٤٥ ق.م) بصورة أفضل كثيرا من سبقوه ، ولعل الذى دفع «مانيتو» الى القيام بهذا العمل هو الرغبة في اظهار الحقائق التى مسخها المؤرخ الاغريقى «هيرودوت» في كتابه الذى كتبه قبل «مانيتو» بما يقرب من قرنين من الزمان ، أو أن «بطليموس الثانى» أراد أن يستفيد من علمه ، فكلفه بكتابة تاريخ مصر .

وأيا ما كان السبب ، فإن مانيتو قام بكتابة تاريخ بلاده في ثلاثة أجزاء باليونانية تحت عنوان «اجبتياكا ايبو منيماتا» وخلص منه بموجز يحوى قائمة بأسماء الملوك ، مصحوبة بملاحظات قصيرة عن بعض العهود ، معتمدا في ذلك على بعض الاسانيد المكتوبة ، والقصص الروية ، مستفيدا في الوقت نفسه بأساليب أسلافه ، مجددا فيها .

ويقسم مانيتو مؤلفه — التاريخ الكامل لمصر — بعد حكم الالهة وأنصاف الالهة ، الى احدى وثلاثين أسرة ، من العائلات الملكية ، تبدأ

(٢٢) أحمد فخري : الموسوعة المصرية ٣٥٨/١ ، عبد الحميد زايد : مصر الخالدة — القاهرة ١٩٦٦ ص ١١٤ ، عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وأثارها — الجزء الاول — القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٣٦ .

بالملك «ميناء» ، وتنتهى بغزو الاسكندر الاكبر فى عام ٣٣٢ ق.م ، ورغم عيوب هذا التقسيم الى أسرات ، فإنه اتخذ جسوراً ثابتة فى دراسة «علم المصريات» (Egyptology) ورغم أن بعض المؤرخين المحدثين ينتقدونه كثيراً ، إلا أنه لا يوجد تقسيم آخر أكثر منه صلاحية .

هذا فضلاً عن أن «مانيتو» فى تقسيمه للأسرات التى تشملها التاريخ الفرعونى كله ، قد اعتمد على معلومات صحيحة وصلت اليه من مصادر مصرية قديمة لها قيمتها ، وذلك لأنها تتفق وما جاء فى بردية تورين ، كما أشرنا من قبل .

وفوق ذلك كله ، فإن تاريخ مانيتو إنما يمتاز بأنه يمدنا بأسماء الملوك الذين حكموا مصر فى عصورها الفرعونية ، مدونة بنطقها الأغريقى ، الذى كان سائداً على أيام مانيتو ، كما أنه لم يقتصر فى تاريخه على الحياة السياسية ، وإنما أرخ كذلك للحياة الاجتماعية ، ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، فأصاب الحقيقة فى كثير من الأحيان ، وإن كان قد ضل عنها ، وكماها بثوب المبالغة والاساطير ، فى أحيان كثيرة (٣) .

هذا فضلاً عن أن تاريخ مانيتو ، لم يبرأ من فترة حكم الارباب ، هذا الى جانب المبالغة أحيانا فى سنى حكم الملوك ، كما تبدو فيه خلاقات كثيرة فى الاسماء المؤكدة تفلما ، وفى الصورة التى وصل الينا بها الكتاب ، إنما نلتقى بلشياء غير مضبوطة بدرجة واضحة ، تصل الى ذروتها خلال الاسرة الثامنة عشرة ، حيث الاسماء والتسلسل التاريخى أصبح معروفا لدينا من مصادر أثرية لا يرقى اليها الشك ، وجمع ذلك فإن كتاب مانيتو مايزال يسيطر على دراساتها ، ولا يمكن الاستغناء عنه ، وربما يغنى لنا بعض المفاجآت ، كما حدث منذ بضع سنوات ، حين عثر فجأة على

(٢٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

J. Baikie, A History of Egypt I, London, 1929, p. 54.

W. G. Waddile, Manetho, With an English Translation
Cambridge, London, 1940.

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 46-48.

اسم ملك مجهول يدعى «نفر خيرس» - كان قد وضعه في الاسرة الحادية والعشرين - على اناء صغير من تانيس (٢٢٤) .

وايا ما كن الامر ، فما يؤسف له حقا ، أن تاريخ ملنيو الاصل قد فقد في حريق مكتبة الاسكندرية عام ٤٨٠ قبل الميلاد ، على يد «يوليوس قيصر» ، ولم يعثر حتى الان على أية نسخة منه - كاملة كانت هذه النسخة أو ناقصة - وكل ما وصلنا منه مقتطفات مختصرة أحيانا ، ومبتورة أحيانا أخرى ، ذلك لأن كتاب الاغريق لم يهتموا كثيرا بكتاب «مانيتو» ، نظرا للروح الوطنية التي تميز بها ، ومن هنا لم نثر على أي مدى له في كتابات المؤرخين الاغريق .

على أن الكتاب اليهود انما قد اعتمدوا عليه كثيرا في الدفاع عن قومهم ، كما فعل المؤرخ اليهودي «يوسف بن متي» ، حين أراد الرد على كاتب اغريقي متمصر ، يدعى «ايون المسكندري» ، وماهم بالرجس والتشرد ، ووضاعة الاصل ، وبكل شائنة ونقيصة ، فزعم يوسف بن متي (يوسفوس فيلاقيوس) هذا ، أنه وجد في مخطوطات «مانيتو» ما يربط بين قومه اليهود والهكسوس ، ثم شفع دعواه هذه بتسجيل حكم الفراعنة تسجيلا يصطبغ بالخرافة في معظمه ، وهكذا أنقذ يوسف اليهودي - عن غير قصد - جزءا من تاريخ مانيتو ، ضمنه كتابه «الرد على ايون» (ضد ايون = Contra Apionem) .

هذا وقد نقل عن «مانيتو» كفلك كتائب آخرون ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، منهم «يوليوس الاغريقي» (افوميكاتوس حوالي عام ٢١٧م) و «يوسبيوس» (٢٦٤ - ٣٤٩م) و «بوسيديوس» (أوزيب حوالي عام ٣٢٧م) - وكان آخر من نقل عن «مانيتو» جورج الراهب المعروف باسم «سينكلوس» (حوالي القرن الثامن) في مؤلفه المسمى «كرونوجرافيا»

24. P. Montet, Tanis, Paris, 1942, p. 164.

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 47.

والذى تحدث فيه عن تاريخ العالم منذ بدء الخليقة ، وحتى الامبراطور
«دقلديانوس» (٢٨٤ - ٣٠٥ م) (٢٥) .

وهناك بجانب كتاب التاريخ العام ، كتاب التاريخ الخاص ، والذين
قاموا بدور هام فى تسجيل أحداث عهود فراعينهم على جدران المعابد
والمسلات والمقابر الملكية والفردية على السواء ، كما اهتم بعض الافراد
بتسجيل تاريخ حياتهم على مقابرهم الخاصة ، ومن أمثلة ذلك الكاهن
«نخخت - ان سخمت» الذى كان كاهنا للاله «بتاح» والالهة «سخمت»
فى الاسرة الثانية والعشرين ، وقد كتب هذا الكاهن سجلا لنسبه يرجع
الى أيام الاسرة الحادية عشرة - أى حوالى أربعة عشر قرنا قبل
عهده - وترجع أهمية هذا السجل المحفوظ الان بمتحف برلين (رقم
٢٣٦٧٣) الى أن صاحبه ذكر أمام كثير من أجداده أسماء من عاصروهم
من الفراعين ، ورغم ما فيه من أخطاء ، فان ذلك لا يقلل من قيمته كمصدر
تاريخى هام هو وغيره من نصوص الانساب .

وهناك الأساطير والقصص الروائى . الذى تناقله المصريون على
مر السنين ، وسجلوه بوجه خاص على البردى ، واستطاع المؤلفون أن
يصفوا فيه الاحوال القائمة ، وأن يكشفوا عن أنفسهم ومشاعرهم فى
حرية لم تتوفر فى السجلات الرسمية ، وهكذا وجد لدينا من هذا
القصص ما يصور الاحداث على عهد الراوى ، دون تغيير كبير ، ومنها
ما استمدوا عناصره من وقائع تاريخية قديمة ، امتزج بها الخيال
وداخلها الخط والخرافة ، ولكنها جميعا أعطت المؤرخ فرصا كبيرة
ليستخلص منها الحقائق التاريخية ، والدلائل السياسية (٢٦) .

ولعل من أشهر الأساطير المصرية ، أسطورة «أوزير وإيزة» التى

(٢٥) الكسندر شاف : تاريخ مصر - القاهرة ١٩٦٠ ص ٢١ - ٣٠ .

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 46.

W. Smith, A Dictionary of The Bible, III, p. 107.

(٢٦) محمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٩٠ .

تصور قصة الكفاح بين «أوزير» و «ست» من ناحية ، وبين «حور» و «ست» من ناحية أخرى ، والتي تناولت سياسة البلاد وحضارتها في عصور لم تكن مصر قد عرفت فيها الكتابة بعد كما صورت حياة المصريين وتجاربهم في ذلك العهد السحيق ، ووصلت تاريخ الفراعنة بالهتهم العظام (٢٧) .

وهناك كذلك «قصة خوفو والسحرة» التي كتبها كهنة هليوبوليس ، ثم نسبوها الى عهد الملك خوفو ، وضمنوها أسماء يكن الشعب لها عميق الاحترام ، أمثال «زوسر» و «سنفرو» و «خوفو» ، والقصة ، على أى حال ، تتصل بأوضاع سياسية أدت الى تولى كهانة اله الشمس من ملوك الاسرة الخامسة عرش الكتانة ، كما أنها تبين الوسائل التي يلجأ اليها الفراعنة لتثبيت عروشهم في نظر الشعب ، حين أعوزهم الحق الشرعى فيه (٢٨) .

وهناك «قصة الفلاح الفصيح» التي تصور لنا الحالة الاجتماعية في مصر في أخريات عصر الثورة الاجتماعية الاولى ، وكيف يستغل بعض الموظفين ووظائفهم في ظلم الفقراء من الناس ، بينما يعنى كبارهم بتقيل شكوى المظلومين ، ورد حقوقهم اليهم ، لأنهم هم المسئولون عن ذلك ، وتصور لنا أن الوظيفة الكبيرة ذات المرتب الضخم ليست في كل الاحوال سياجا تحمى صاحبها من ظلم الناس ، وتصور لنا كيف ساء الحال ، وأهمل الموظفون واجبتهم وكيف اضطرب الامن في الطرقات ، وانتشرت السرقات ، وتفشى الغش والخداع ، وكيف فسد الحكم حتى وصل الامر

(٢٧) انظر جوستاف لوفيفر : روايات وقصص مصرية من العصر الفرعونى ص ٢٢٧ - ٢٧٠ ، محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة - الجزء الاول - الاداب والعلوم ، الاسكندرية ١٩٨٩ ص ٢٠ - ٢٨ .

J. A. Wilson, ANET, p. 14-17.

A. H. Gardiner, Late Egyptian Stories, 1932, p. 37-60.

(٢٨) جوستاف لوفيفر : المرجع السابق ص ١٣٦ - ١٥٨ ، أحمد قنزى : تاريخ الحضارة المصرية - الادب المصرى - ص ٣٩٦ - ٤٠٢ محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٧٠ - ٧٩ .

الى القضاء ، فانحرف عن واجبه المقدس ، غير أنها من ناحية أخرى ، تصور لنا كيف أثرت الثورة في المجتمع ، فأعلنت من شأن الفرد ، وأعطت الفرصة لأهل الناس في أن يتقدم ويطالب بحقوقه ، بل وكيف كتب له النجاح في مساعاه (٢٩) .

وهناك «قصة سنو هي» التي تلقي أضواء على الاحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية في مصر في مطلع الاسرة الثانية عشرة ، ونحن في هذه القصة نرى أنفسنا أقرب الى الواقعية منا في أية قصة مصرية أخرى ثم هي من الناحية الادبية ، انما تتفوق على ما عداها بأسلوبها وتركيبها ولغتها ، وما أجتمع لها من العناصر الملائمة للقصة الناجحة ، حتى ذهب البعض الى أنها جديرة بأن توضع بين روائع الاداب العالمية (٣٠) .

وهناك «قصة ونامون» التي ترجع الى أخريات أيام الاسرة العشرين وتصور بوضوح ضعف النفوذ المصري في الخارج في ذلك الوقت، وتضالول سلطان فرعون ، ما لاقاه رسله من مثيقة في أداء مهمته بولكنها

(٢٩) محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر
الفراعنة ص ٩٥ - ٢١٠ الحضارة المصرية ٩٠/١ - ٩٣ .

J. A. Wilson, Op. Cit., p. 407-410.

A. Erman, LAE, 1927, p. 116-232.

A. H. Gardiner, JEA, 9, 1923, p. 5-25.

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y., 1939.
p. 183-193.

(٣٠) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٩٤ - ١٠٩ ، وكذا

J. A. Wilson, Op. Cit., p. 18-22.

A. Erman, LEA, 1927, p. 14-29.

J. W. B. Barns, The Achaemlean Ostrakon of Sinuhe,
Oxford, 1952.

A. H. Gardiner, Notes on The Story of Sinuhe, Paris, 1916.

31: A. H. Gardiner, Late Egyptian Stories, p. 61-76.

J. A. Wilson, Op. Cit., p. 25-29.

A. Erman, The Literature of Ancient Egyptians, London,
1977, p. 174-185.

W. Golenischeff, in Recueil de Travaux, 21 1899, p. 74-102.

وانظر : محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ١٢٧ - ١٣٩ .

تصور كذلك أن نفوذ مصر الدينى والثقافى كان ما يزال له سلطانه على
الاسيويين (٣١) ... وهكذا .

هذا هو المصدر الاول لدراسة تاريخ مصر القديم ، ولكنه - فى
الغالب - تاريخ سياسى ، وهو لا يساعدنا فى كل الاحوال على معرفة
ما كان عليه الشعب ، أو ما كان من تطورات فى المجتمع أو فى الفنون
المختلفة أو فى المظاهر الثقافية والدينية بوجه عام ، وهى جميعا على
أكبر جانب من الاهمية لفهم الحضارة المصرية ، ولدينا - والله الحمد -
مصادر لا حصر لها تساعدنا على تلك الدراسة ، وتمدنا بالكثير من
المعلومات ، فالمتاحف فى جميع أرجاء العالم تمتلئ بما خلفته الحضارة
المصرية القديمة ، من تماثيل ولوحات وتوابيت وهلى وأوان وأدوات
منزلية ، وأدوات الصنّاع ، وفوى الحرف المختلفة ، وهذا فضلا عن
التقاويذ والتماثيل وقراطيس البردى وغيرها ، وعليها الكتابات المختلفة،
بعضها قطع أدبية ، والاخر نصوص دينية أو سحرية ، وبعضها يحتوى
على نصوص طبية (بردية أودين سمث الجراحية - بردية ابرس -
بردية برلين الطبية - بردية تشستر بيتن الطبية - بردية كلهول -
بردية لندن - بردية هرست) (٣٢) أو رياضية (بردية رند) أو
هندسية (٣٣) .

(٣٢) انظر : حسن كمال : الطب المصرى القديم - اربعة أجزاء -
فى مجلدين - القاهرة ١٩٦٤ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص
٣٧٩ - ٤١٠ .
(٣٣) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣٦٣ - ٣٧٨ .

ثانيا : كتابات المؤرخين اليونان والرومان

تميزت الفترة فيما بين القرنين ، السادس قبل الميلاد والثاني بعد الميلاد بزيارة عدد كبير من الاغارقة لمصر — مؤرخين كانوا أم رحالة — وشجهم على ذلك أن مصر قد بدأت منذ الاسرة السادسة والعشرين (٦٦٤ — ٢٢٥ ق.م) تستخدم كثيرا من الايونيين والمكاريين والاغريق كجنود مرتقة في جيوشها ، وزيادة العلاقات التجارية بينهم وبين مصر ، هذا فضلا عما سمعوه عن حكمة مصر وثرائها وآثارها ، الى جانب ما تواتر عن صلات أسلافهم في آسيا الصغرى وجزر بحر ايجة بمصر ، فضلا عن الامتنان والاحترام الشديد للبلد الذي ذكرت «أوديسة هوميروس» أنها «بلد الاطباء» أحكم أهل العالم ، وما تواتر اليهم ورووه من أن حكمتها كانت المهمة للمشرع «سولون» ، والفلاسفة طاليس وبيثاجوراس وأفلاطون ويودكسوس وغيرهم .

على أن الباحثين انما يلاحظون على كتابات المؤرخين من الاغارقة والرومان عدة نقاط ضعف ، منها (أولا) أن البعض منهم قد تحروا الصدق فيما قالوا أنهم رأوه بأنفسهم ، الا أن كثيرا منهم انما قد أساعوا فهم ما رأوه ، أو ذهب بهم خيالهم كل مذهب في تفسير أو تحليل ما سمعوه ، أو وقعت عليه أبصارهم ، ومن هنا فان المؤرخين المحدثين انما ينظرون الى هذه الكتابات بعين الحذر ، ومنها (ثانيا) أن أصحاب هذه الكتابات انما قد زاروا مصر في أيام ضعفها ، وفي عصور تأخرها واضمحلالها ، ولو أتاحت لهم الظروف زيارتها خلال عصور نهضتها وفي أيام مجدها ، لتغير الكثير من آرائهم وانطباعاتهم .

ومنها (ثالثا) أن اقامة هؤلاء الكتاب كانت في أغلب الاحايين في مدن الدلتا ، حيث اتخذت الحياة طبعا خاصا ، به مسحة أجنبية ، ومن ثم فلم يقينوا أوجه الحياة المصرية الصادقة ، كما كانت في الصعيد ،

ومن ثم فقد أخطأوا في الكثير مما صوره من مظاهر الحضارة المصرية القديمة (١) .

ومنها (رابعاً) أن هؤلاء الكتاب إنما قد اعتمدوا في الكثير من معلوماتهم على الأحاديث الشفهية التي كانوا يتبادلونها مع من قابلهم من المصريين ، وبخاصة صغار الكهنة والتراجمة الوطنيين وخدم المعابد والأغارقة المتصرين ، الذين حدثوهم عن عصور موغلة في القدم لا يعرفون عنها الكثير ، كما كانوا يفسرون لهم النصوص الهيروغليفية ، تفسيراً لا يتفق والحقيقة في الكثير ، ومنها (خامساً) أن كثيراً منهم قد كتب ما كتبه من وجهة النظر اليونانية ، وكثيراً ما كانت كتاباتهم في وقت اختلفت فيه مصالح بلادهم مع مصالح مصر .

ومنها (سادساً) روح التعصب التي عرفت عند الغربيين لحضارتهم ، وأظهارها وكأنها أرقى من غيرها ، وذلك عن طريق عرض نواحي العراة في الحضارات الشرقية التي عاصرتها أو سبقتها ، ومنها (سابعاً) عدم معرفة كتاب اليونان والرومان للغة المصرية القديمة ، مما أدى إلى سوء فهمهم للكثير مما ذكره المصريون ونقلوه عنهم محرفاً .

ومنها (ثامناً) أن كثيراً من هؤلاء الرحالة والمؤرخين قد وفدوا إلى مصر ، كما يفد السائح المعادي يلتبس الشوارد والنوادر ، أكثر مما يلتبس الحقائق ، ومنها (تاسعاً) أن كثيراً منهم احتفظ بذكرياته عن مصر في ذاكرته ، وبملاحظات دونها في أيجاز ، ولم يكتب بأسهاب ، إلا بعد أن طوف في بلاد أخرى ، وبعد أن عساده إلى وطنه ، فاختلط عليه بعد ما شاهده واحتفظ في ذاكرته وعمم أموراً ماكان ينبغي له أن يعممها (٢) .

وبدهى أن تكون النتيجة الطبيعية لذلك كله أن كتابة هؤلاء المؤرخين

(١) محمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٨٢ .
(٢) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وأثارها - الجزء الأول - ص ٢٤٠ .

قد امتلأت بالكثير من الاخطاء والاراجيف والتناقضات ، وبالتالي فقد أدت الى خلق الاساطير والخرافات عن الحياة في مصر الفرعونية .

وأما أشهر هؤلاء المؤرخين فقد كانوا : هيكتة الميليتي وهيرودوت وهيكاتة الابدري وديودور الصقلي وسترابو وبلوتارك الخيوني وغيرهم .

١ - هيكتة الميليتي :

ينسب هيكتة هذا الى ميليتوس الاغريقية في آسيا الصغرى ، وقد كان من أوائل الاغارقة الذين زاروا مصر (حوالي عام ٥١٠ ق.م) وليبيا ، وربما فارس ، ويبدو أنه كان أكثر اهتماما بفيضان النيل وتكوين الدلتا ومزروعات البلاد ، منه بالسكان وتاريخهم ، وقد ضاع كتابه (تخطيط الارض) الذي ناقش فيه كل هذه الامور ، والذي قيل أنه ضمنه خريطة لرحلته ، أو على الأقل ضمنه صورة من خريطة موطنه الفيلسوف الجغرافي «أنا كسيمندر الميليتي» وأثبت عليها البلاد التي زارها ، ويحتفل أنه صاحب العبارة المشهورة «مصر هبة النيل» أو «هبة النهر» التي ردها هيرودوت من بعده ، ثم نسبت اليه (٣) .

٢ - هيرودوت (٤٨٤ - ٤٣٠ ق.م) :

ولد هيرودوت أو «هيرودتس الهاليكارناسوس» في مدينة «هاليكارناسوس» (وهي مستعمرة دورية في اقليم كاريا تدعى الان Budron) في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى وذلك في عام ٤٨٠ ق.م (٤) .

ويبدو من كتبه هيرودوت أن صاحبه قد شاهد بعض أحداث الحرب

(٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤١ .

A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, p. 3.

(٤) اختلف الباحثون في ميلاد وموت هيرودوت ، فرأى البعض أنه ولد في عام ٤٨٩ ق.م ، ورأى آخرون أنه ولد في عام ٤٨٤ ق.م ، وأنه مات في عام ٤٣٠ ق.م ، على رأي ، وفي عام ٤٣٥ على رأي آخر (أحمد بدوي : هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٢ ، ج. أيفانز : هيرودوت ص ٥) وكذا .

A. H. Gardiner, op - cit, p. 3

البيلوبونيزية (٤٣١ - ٤٠٤ ق.م) في مرحلتها الاولى ، ومن ثم فمن المرجح أن يكون هيودوت قد عاش فيها بين الحرب الميدية (٥٠٠ - ٤٧٥ ق.م) التي دفعت بحضارة اليونان الى المجد ، وبين الحرب البيلوبونيزية التي كادت أن تودي بهذه الحضارة ، أى أنه كان يعيش في العصر الذهبي من التاريخ اليونانى (٥) .

وأيا ما كان الامر ، فان هيودوت انما قد نشأ في أسرة مفرغة ، وربما قد شارك في أحداث بلده السياسية ، ومن ثم غقد تعرض لالوان من المحن التي أثرت في حياته ، ودفعت الى الهجرة الى «ساموس» ، ومنها قام برحلاته العديدة ، حيث زار مصر وسورية ، بل وجاوز بابلن وهمدان ، ثم تنقل بين شواطئ البحر الاسود وجنوب روسيا ، وفي عام ٤٤٤ قبل الميلاد ، توجه الى بلدة «توريم» (ثورى) بجنوب ايطاليا مع فئة من المستعمرين الذين أرسلهم «بيريكليس» الى ايطاليا ومن ثم فقد صار من أوائل مستوطنى «توريم» التي بقى فيها حتى وافاه أجله ، ودفن في سوق المدينة التي كان يحبها جدا دفع بعض المؤرخين الى نسبته اليها فدعوه «هيودوت الثورى» .

وهناك في ثورى عكف هيودوت على كتابة سفره الضخم الذى قسمه النحويون السكندريون الى تسعة أجزاء ، كل جزء منها لاهدى عرائس العلوم والفنون من بنات «زيوس» ، أما هيودوت فقد كان عندما يشير الى أجزاء كتابه لايسميتها بغير عبارات عامة ، كالأحاديث الليلية ، أو الروايات الاثورية ... وهكذا (٦) .

كانت زيارة هيودوت لمصر ابان الحكم الفارسى لها ، وبعد ثورة «ايناروس» في عام ٤٦٠ ق.م ، ذلك لانه انما يقرر أنه رأى جماجم القتلى في معركة «بابريمس» التي انتصر فيها القائد المصرى ، واستولى

(٥) وهيب كامل : هيودوت في مصر - القاهرة ١٩٤٦ ص ٥ .

(٦) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ١٣ - ١٧ .

على الدلتا^(٧) ولكن يجب ألا تكون هذه الزيارة بعد هذه المعركة بوقت طويل ، وألا لا استقبل في مصر بهذا الترحاب الذي سمح له بحسرية دخول المعابد المصرية والاطلاع على سجلاتها .

وليس هناك من شك في أن الحكم الفارسي ، وانتشار الاغريق في مصر ، قد سهلا الزيارة أمامه ، ونسما له بحسرية التنقل بين أقاليم البلاد ومشاهدتها ، بل أن هناك من يرجح أن هيودوت انما قد زار مصر بتوصية من الفرس^(٨) ، وإن رأى آخرون أنه لم يعتمد عليهم ، فقد كان الفرس ينظرون الى اليونان بعين الريبة والتوجس ، بل أن هيودوت انما كان يتجنب الاوساط الحكومية ، حتى أنه لم يعلم أن اللغة الرسمية في الدواوين الحكومية انما كانت وقت ذاك هي اللغة الارامية^(٩) .

وأيا ما كان الامر ، فان هيودوت استطاع أن يزور الكثير من مدائن الدلتا ، كما تجول في الصعيد حتى الجندل الأول عند أسوان ، كما شاهد اقليم الفيوم ، وإن رأى نقاده من المؤرخين المحدثين أن رحلته ، التي كانت حوالي عام ٤٦٠ ق.م^(١٠) ، لم تستغرق أكثر من ثلاثة أشهر ، وربما أربعة ، وأنها قد تمت في أيام الفيضان ، وأن اقامته في مصر انما كانت مقصورة على الدلتا واقليم الفيوم .

ولعل هذا يفسر لنا عدم الاستطراد في الوصف لمدينة «طيبة» وآثارها ، حتى خلا كتابه من وصف مقابر الملوك وتمثال ممنون (وكانا يمثلان أمنتحتب الثالث عند مدخل معبده الجنائزي في طيبة الغربية) .

Herodotus, III, 12, VII, 7.

(٨) أحمد بدوي : المرجع السابق ص ٢٩ .

(٩) وهيب كامل ، المرجع السابق ص ١٦ - ١٧ .

(١٠) هناك خلاف على تاريخ زيارة هيودوت لمصر ، فمن يجعلها

عام ٥٤٩ ق.م ، ومن يجعلها عقب عام ٤٥٠ ق.م ، ومن يجعلها فيما بين

عامي ٤٤٨ ، ٤٤٥ ق.م ، ومن يجعلها عام ٤٣٠ ق.م ، ومن يجعلها ما بين

عامي ٤٦٠ ، ٤٥٥ قبل الميلاد .

وربما كان جهله باللغة المصرية القديمة ، وكثرة اليونانيين في الدلتا ، سببا في أن تكون زيارته للصعيد غابرة .

وعلى أى حال ، فلقد استطاع هيرودوت أن يزور أهم المدن المصرية ، وأن يسجل كل ما رآه وسمعه في الجزء الثاني من كتابه المشهور (١١) ، فتحدث عن جغرافية مصر ومدنها ، والحوادث التاريخية التي مرت بها ، وأعمال ملوكها ومظاهر الحياة فيها ، دونما تدقيق أو تمحيص ، فضلا عن سرده للكثير من القصص الساذج ، ومن هنا جاء كتابه جامعا الغث والسمين ، حاويا الكثير من الحقائق والمفتريات في آن واحد ، ولهذا يجب أن نكون على حذر مما يوضع أمامنا بحسبانه تاريخا ، وهو من التراث الشعبي في معايير غير دقيقة الرواية ، وتأكيدات بها نواة الحقيقة وإن غلفت بالمبالغة والتحريف (١٢) .

ومن هنا فقد اختلف المؤرخون في الحكم على هيرودوت ، وعلى كتبه ، اختلافا بينا ، فعلى حين رأى «سيترون» (١٠٦ - ٤٣ ق م) أنه أول من استطاع أن يميز بين فن التاريخ والرواية الشعرية ، حتى لقبه «أبو التاريخ» اتهمه «بلوتارك» (٤٦ - ١٢٠ م) بالتحيز لاعداء بلده ، وبأنه صديق البرابرة ، وسماه بعض المؤرخين المحدثين «أبو الإباطيل» ، وأنه كان عاجزا عن ادراك الحقائق ، كما كان ينقل عن سبقوه دون الإشارة اليهم ، وإن وقف آخرون موقف التأييد له (١٣) .

(١١) انظر : هيرودوت يتحدث عن مصر - ترجمة محمد صقر خفاجه ، تقديم وشرح أحمد بدوى - القاهرة ١٩٦٦ .

The History of Herodotus, Translated by G. Rowlison,
2 Vols, London, 1920.

Herodotus, The Histories, Translated, by A. de Selincourt,
Penguin Classics, 1954.

W. C. Waddell, Herodotus, Book, II, (The Loeb Classical
Library), London, 1939.

12. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 3.

(١٣) انظر : هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٩ - ١٢ ، ١٩ - ٢٤ ،

==

وعلى أى حال ، فليس هناك من شك فى أن هيرودوت ، إنما قد بذل الكثير من الجهد فى اخراج كتابه عن «مصر» ، وليس هناك من ريب كذلك فى أن الرجل لم تفته دقة الملاحظة وبراعة التعليل فيما كان يشهده ويكتب عنه ، من الظواهر البيئية والاجتماعية ، وأنه قد أنصف المصريين فى كثير مما كتبه عنهم ، يبدو ذلك واضحا حين نراه يعترف بتفوقهم وعظمتهم فى ميادين العلوم والمعارف ، ثم يمتدح فضائلهم ونزواتهم ، ويثبت لهم الفضل فى الكثير من العلوم والمعارف التى أفادت الانسانية منها بعامة ، وأفاد منها قومه الاغريق خاصة .

على أن هناك أمورا كثيرة تجعلنا ننظر بعين الحذر والحيطة ، بل والشك كذلك ، فى كل ما كتبه هيرودوت ، ومنها (أولا) أنه لم يكن يعرف من لغة المصريين كثيرا ولا قليلا ، ولا نستطيع أن نزعّم أن من بين المصريين من كان يعرف لغة الاغريق ، الا أن تكون قلة نادرة لن يلقاها الرجل فى كل مازار من مكان يؤمن ثم فلم يكن هناك من سجيل الى ادارة الحديث بين هيرودوت وبين من زعم أنه لقيهم من كهان ، الا بين يدى ترجمان أو واحد من بنى قومه ، يلم بشيء من لغة المصريين على الأقل .

أما التراجمة فقد كانوا — كما هم اليوم — ولعين بالاغراب والمبالغة ، معتمدين فى ذلك على جهل الاجانب بلغة النقوش واستعدادهم للتصديق ، بسبب فرط اعجابهم بالاثار المصرية ، وأما الاغارقة من بنى قومه ، والذين لانشك كثيرا فى أنه اعتمد عليهم ، فهم قوم — مهما طال مكثهم فى مصر — أجنب عن البلاد ، لا يستطيعون فهم حضارتها ، ولا هضم تقاليدها ، ولا الايمان بعقائدها .

ومنها (ثانيا) أن هيرودوت يقرر فى مواطن كثيرة ، أن مصدر أخباره

W. A. Heidel, Hecataeus and The Egyptian Priests in
H. Book, II, Boston, 1935, p. 113 F.

Save - Soderbergh, Zuden Aethiopischen Episoden bei
Herodotus, Eranos, 44, 1946, p. 68-80.

De Meulenaere, Herodotus over de 26 te Dyn, Lruvrn, 1951.

كهنة منف ، بل انه انما يزعم أن ثبتا بأسماء الملوك قد قرئ عليه في معبد بتاح بمنف ، ولو كان ذلك صحيحا لما زل هيودوت زلته الكبرى ، حين اعتبر بناء الاهرام (الدولة القديمة) تاليا لعصر الدولة الحديثة ، ولما جهل ترتيب المشاهير من الملوك ، ولما جاء كتابه خسلوا من الملاحم التاريخية الهامة ، وخاصة ملحمة الهكسوس وثورة المصريين ضدهم وطردهم من البلاد .

وهو أمر لا نظن أن المصريين قد نسوه ، مهما طال العهد عليه ، ولو جاز ذلك لما وقع على تلك الملحمة مؤرخنا الوطني «مانيتو» بعد ذلك بما يقرب من قرن ونصف القرن ، وليس لذلك كله من تعليل ، سوى أن يكون هيودوت قد اتصل بصغار الكهنة ، أو أن يكون قد ضنوا عليه بأسرارهم^(١٤) ، وإن كان أول التعليلين أفضل ، ففيها نصيب اليه ونرجحه .

ومنها (ثالثا) أن رغبة هيودوت في اظهار علمه ، وارضاء قرائه قد دفعه الى وصف ما لم يكتب له رؤيته من الاثار المصرية ، والى أن يكتب فيما لا علم له به ، مع أن اقامته في مصر لم تتجاوز أشهرا أربعة ، وهى فترة قصيرة في حدود امكانيات وسائل انتقالات عصره^(١٥) ومنها (رابعا) أن هيودوت^(١٦) لم يكن يختلف كثيرا عن سائر بنى قومه ، أو عن غيرهم من الغرباء الطامعين في مصر بجليل أنه لم يستغ ثوزة المصريين ضد الفرس في سبيل الحرية ، بل ظال يمتدح الفرس ، ويشيد بنبل مسلكهم ، ازاء من أخضعوا من شعوب الارض .

وبدهى أن تلك أمور أقل ما يمكن أن يقال فيها أنها تقلل من قيمة ما كتبه ، ذلك الذى ادعى العلم والمعرفة والثقافة والتقوى وحصافة الرأي ، حتى خدع قراءه ذهرا ، وحتى بات لديهم «أبو التاريخ» فأكثر

(١٤) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٢٧ - ٢٨ ، ٢٢ - ٢٤ ، Herodotus, II, 100, 125, 154, 264.

(١٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٢ .

(١٦) أحمد بدوى : هيودوت يتحدث عن مصر - القاهرة ١٩٦٦

ص ٢٩ - ٣٠ .

Herodotus, II, 12.

الحقائق كانت يومئذ ماثلة أمامه، وأمر البلاد كانت عارية غير مستورة، والاحتلال الفارسي قد مهد له سبيل الزيارة، وأتاح لم ملهم يتح لميره.

وهكذا يمكننا القول أن كتاب هيرودوت في جزئه الاول الذي ينتهى عند مطلع العهد المصاوى ، يكاد يخلو من الحقيقة التاريخية ، ومن ثم فلا يمكن الاعتماد عليه ، سواء من ناحية ترتيب الاحداث التاريخية ، أو من ناحية عدد الملوك وسنى حكمهم ، أما الشطر الثانى الذى أفتتحه بمصر «بسماتيك الاول» (٦٦٤ - ٦١٠ ق.م) فقد ظاهره فيه التوفيق، ذلك لأن رواته كانوا من الاغريق ، وكانوا على صلة بفرعون الذى احتضنهم وأشركهم فى بعض أموره ، هذا فضلا عن أن هناك روايات كانت متداولة، يمكن الاعتماد عليها - مع كثير من الحذر - وفوق ذلك كله ، فإن ما كتبه هيرودوت عن مشاهداته الشخصية ، وعن عادات المصريين وتقاليدهم ، ووصف آثارهم ، لذو قيمة كبيرتان نحن نتاولناه بمزيد من الحذر (١٧) .

أما فيما يتصل بالجغرافية ، فإن هيرودوت يقدم بعض المعلومات القيمة ، خاصة فيما يتصل بالدلتا ، أما فيما وراء الفيوم جنوبا ، فإنه لا يذكر سوى مدن قليلة ، مثل أخميم (١٨) ، وطيبة وسين (١٩) ، واليفانتين

(١٧) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٣٧ ،

Herodotus, II, 147-157.

(١٨) أخميم ، أو خمين عن أصل قديم يعنى وجه المعبود مين أو واجهة معبده ، وكان مين الها لأخميم وقفط ، وحاميا للقوافل ، وربما للسيول فى الصحراء الشرقية، وهى الآن مدينة كبيرة فى مقابل سوهاج عبر النهر ، وكانت عاصمة الاقليم التاسع من أقاليم الصعيد ، وأسمها بالمصرية «أبو» ، كما سميت «خنت مين» نسبة الى معبودها مين ، وهواصل اسمها فى القبطية «شمين» وسماها الاغريق «خميمس» و «بانو بوليس» وعلى مقربة منها عدة جبانات على حافة الهضبة كمقابر الحوايش ، وتنتمى الى الدولة القديمة والوسطى ، ومقابر «السلامونى» من العصر البطلمى والرومانى ، حيث يوجد فى أعلى المقابر معبد منحوت من الصخر، يرجع الى عهد «تحتومن الثالث» على الاقل ، ثم قام الملك «آى» بترميمه ، فنسب اليه خطأ (عبد العزيز صالح) : المرجع السابق ص ٣٥ ، الموسوعة المصرية (٨٥/١) .

(١٩) سين أو سوينى أو سيينى، وهو الاسم الاغريقى لمدينة أسوان

(جزيرة أسوان) ، ثم «نيوبوليس» الغامضة ، ومن بين الأقاليم الثماني عشرة التي ذكرها ، لا نستطيع تحديد أكثر من نصفها بسهولة ، ومع ذلك فإن قائمته تحوى أسماء لا نجدها في غيرها من المصادر ، وربما كان مرجع ذلك سوء فهم الواحد أو الآخر (٢٠) .

وأما روايته عن الديانة المصرية ، فرغم ما تتسم به من اغاضة ، فإنها تدعو لليأس ، وقد ذكر بعض المعلومات عن الآلهة : آمون وبوباستس وايزة وأوزير ، بأسمائها المصرية ، وإن فضل مقابلاتها اليونانية ، لأنه إنما كان يعتقد أن الهيلينيين قد استقوا آلهتهم وأخيلتهم الدينية من مصر .

وأما عن العادات المصرية القديمة ، فقد أخطأ في الكثير منها ، فمثلا ادعى أن النساء المصريات اعتدن أن يخرجن إلى الأسواق دون الرجال ، وعلى أن يحملن البضائع فوق رؤوسهن دون الرجال ، ولم يكن في ذلك الحكم العام شيء من الصحة ، وإنما حدث اللبس عنده عندما شاهد صور النساء في مناظر المقابر والمعابد يحملن الهدايا والقرايين فوق رؤوسهن ويمشين بها في صفوف ، فظنها تعبر عن الحياة الفعلية في عصور تصويرها ، بينما لم تكن في حقيقة أمرها غير رموز مجسمة لأسماء الضياع والقرى والمدن التي امتلكها أصحاب المقابر والمعابد ، وقمنوا أن تشترك بخيراتها في أداء القرايين الضرورية لمقابرهم ومعابدهم ، ولما كانت أغلب الضياع والقرى والمدن أسماء مؤنثة ، عبر المصريون عنها بصور الاناث ، كما عبروا عن أسمائها القليلة المذكورة بصور الرجال (٢١) .

الحالية ، وكانت تدعى بالمصرية ، منذ الأسرة العشرين ، «سونو» ثم تحول في القبطية إلى «سوان» و «سويان» ، والاسم بمعنى السوق ، إشارة إلى دور أسوان التجاري بين مصر والنوبة والسودان (عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٣) .

20. A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 4.
(٢١) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها - الجزء الاول - القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٤٢ .

ينسب هيكااته الابدرى الى بلدة «أبديرا» في بلاد اليونان بمقد زار مصر حوالي عام ٣٣٠ ق م ، على أيام «بطليموس الاول» (٣٣٣ - ٢٨٤ ق م) وقام بوضع كتاب عن مصر ، فقد معظمه ، يتحدث فيه عن مصر بصفة عامة ، وعن العقائد والاساطير الدينية المصرية بصفة خاصة ، وقد اُتسمت كتاباته بروح التعصب والتحيز لوطنه .

٤ - ديودور الصقلى : (حوالى ٨٠ - ٣٠ ق م)

قام ديودور الصقلى في عام ٥٩ قبل الميلاد برحلة سياحية لمصر ، ولفترة قصيرة ، ثم ألف كتابا عن «التاريخ العالم» منذ فجر التاريخ حتى حملة «يوليوس قيصر» على بلاد الغال في عام ٥٨ ق م بمقد أفرد الجزء الاول منه لتاريخ مصر وهو يروى مرة أو اثنتين من تجاربه للشخصية ، وأما مصادر الاصلية فكانت للكتاب الذين سبقوه مثل «هيكااته الابدرى» و «أجاثارخيدس السفودى» الجغرافى المؤرخ (القرن الثانى قبل الميلاد) ، ولم يستطع «ديودور» أن يتجنب الاستعانة بهيرودوت على نطاق واسع ، وان انساق وراء جمهرة نقاده (٣) .

هذا وقد تناول ديودور أوضاع مصر السياسية والاجتماعية والدينية ، كما تناولها هيرودوت ، ولكنه كان أكثر منه انصافا للمصريين ، وأكثر فطنة في تفسير عقائدهم واساطيرهم ، فكتب عما تواتر اليه من آرائهم في نشأة الوجود وقعاقب المعبودات وعمران الكون ، ثم يتبع هذا قسم مستفيض عن أرض مصر ونهرها والحياة الزراعية والحيوانية بها وعن الفيضان وأسبابه ، ثم يتحدث عن تاريخ مصر ، فيسلم بأن «ميناء» هو أول ملوكها ، ثم يتحدث عن «طيبة» حديثا مدعما بالعالم القديمة البالغة الدقة لآثار «أوزيماندياس» (رعمسيس الثانى) المعروف اليوم باسم «الرمسيوم» في طيبة الغربية ، وان كان يؤخذ عليه أنه جعل تأسيس «منف» تاليا لتأسيس طيبة ولحكم رعمسيس الثانى .

ومع ذلك فإن ما كتبه عن القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد يجعل كتابه بالغ الأهمية ، فهو يقف في هذا المضمار ، جنباً إلى جنب مع «ثيوسيديدس» و «أكسنفون» (٤٣٠ - ٣٥٥ ق م) كمؤرخ حجة ، أما عن المصور القديمة فإن كثيراً مما يرويهِ لا يمكن التحقق منه عن طريق مصدر آخر ، ولما كان مؤلفه بعد تجميعها ، فإنه يصبح ذا قيمة لاتبارى .

وأياً ما كان الامر ، فإن «ديودور» يمثلُ باعتماده على الكثير من المصادر ، وبحسن عرضه لآراء من سبقوه وبدقته ونزوعه إلى البحث عن الحقيقة ، كما كانت له عبارات صائبة ، مثل قوله «إن مصر حمتها الطبيعة من جميع جهاتها» ، كما استطاع أن يقدر آثارها ، ويقدر أصحاب الفضل فيها تقديراً سليماً ، فهو - مثلاً - يرجع شهرة الاهرام إلى دقة مبانيتها ومهارة صناعتها وليس فقط إلى ضخامة مبانيتها ، وكثرة تكاليفها فيعجب بمهندسيها أكثر من إعجابه بالملوك الذين أمرؤا ببنائها ، ودبروا نفقات أنشائها ، ذلك لأن الأولين إنما بذلوا من أرواحهم وجهودهم ، وخلاصة أفكارهم ، حتى تم إنجاز هذه الصروح الشامخة ، بينما استغل آخرون ذلك كله لمصلحتهم الخاصة (٣٣) .

٥ - مسترأبو : (حوالي ٦٣ - ٢١ ق م)

سترأبو ، أو استرأبون هذا من مواطني (بونتس) زار الاسكندرية حوالي عام ٢٥ قبل الميلاد ، على أيام الامبراطور «أغسطس» (٣٧ ق م - ١٤ م) وأقام بها نحو من خمس سنوات ، ثم صحب صديقه الوالى الروماني «الميوس جالليوس» في حملة حتى الجندل الاول (حوالي عام ٢٥/٣٤ ق م) ، وقد تحدث عن مصر في الجزء السادس عشر من مؤلفه

(٢٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٣ وهيب كامل .
ديودور في مصر ، القاهرة ١٩٤٧ .

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 5.

A. F. Miot, Diodore de Sicile, Paris, 1834.

W. G. Waddell, an Account of Egypt by Diodorus the Sicilian, in the University of Egypt, Bulletin of the Faculty of Arts, I, Part, I, 1933, p. 1-47, Part, 2, 1933, p. 162-28.

«الجغرافية» (Geographica) (٢٤) ، فوصف النيل ومصر ، وإن اهتم كثيرا بالدلتا كما صحبه في حملته على اليمن عام ٢٤ ق.م .

وكان اهتمام «سترابو» جغرافيا في الدرجة الاولى ، فهو يبدأ بحديث موجز عن النيل ، ثم يتابعه بوصف مفصل عن الاسكندرية والاقليم المتاخم لها شرقا ، ثم يتابع الكتابة بعد ذلك تبعا للترتيب الطبوغرافى ، وتتناول اقاليم ومدن الدلتا حفا من التفاصيل الكاملة ، وهذا الضغط على الدلتا يستحق أكثر الترحيب ، ذلك لان الوثائق الوطنية عن الدلتا جد شحيحة في هذه الناحية، هذا وقد أشار «سترابو» كذلك الى مقياس النيل في «اليفانتين» (٢٥) ، وهو نموذج مشهور من طراز من الدرج كانت تسجل على جدرانها سنويا الارتفاعات التى يصل اليها فيضان النيل ، كما قدم لنا تسجيلات هامة عن المباني والعبادات .

أما ملاحظاته على التاريخ والعادات الدينية فخاضعة للنقد الذى أشرنا اليه بالنسبة للمؤلفين السابقين ، وإن كان كان يذكر له أنه أول من أشار الى تمثالى ممنون ، والى أن أحدهما كان يصدر عنه عند الفجر صوت كان يستطيع تمييزه الكثيرون من الزوار الاغريق والرومان ، وأخيرا فتلقد أفاد استرابو كثيرا من «ايراتو سثينيس» (٢٦٦ - ١٩٢

(٢٤) انظر :

The Geography of Strabo, Translated by Hamilton,
London, 1912.

The Geography of Strabo, Translated by H. Jones,
8 Vols, London, 1949.

(٢٥) اليفانتين : وتعرف الان باسم جزيرة أسوان فى مقابل مدينة أسوان عبر النهر ، ويعنى اسمها فى المصرية (فيل) ، وقد نقل الى اليونانية تحت اسم «اليفانتين» ونظرا لتحكم جزيرة اليفانتين (يب) ومدينة أسوان فى مدخل مصر الجنوبى . أقيمت قلعه فى كل منهما ، وكان «خنوم» سيد الشلال معبود اليفانتين (أبو = يب) الرئيسى ، ومعه المعبودتان «عنقت» و «ساتت» وقد عثر فى خرائب المدينة على أطلال معابد كثيرة ، أهمها معبد خنوم ، ومعبد من الاسرة الثامنة عشرة ، كما وجد خلفها مقابر حكام أسوان من عهد الدولة القديمة والوسطى (انظر :

H. Goedick, ZAS, 81, 1956, p. 81-124 E. G. Kraeling,

The Brooklyn Museum Aramic Papyri, New Haven, 1963, p. 21.)

ق ٥٠م) في كتابه عن «الجغرافية» ، وأما كتابه في التاريخ الذى جمع مادته من كتابه في الجغرافية ، فلم يصل إلينا للأسف الشديد (٣٧) .

٦ - بلوتارك الخيرونى :

يعد «بلوتارك الخيرونى» (٥٠ - ١٢٠ م) من أصدق المؤرخين القدماء ، وأكثرهم أمانة فى النقل ، وقد ولد «بلوتارك» عام ٥٠ (وربما عام ٤٦م) بمدينة «خيرونيا» فى وسط بلاد اليونان ، ثم أرسله أبوه حوالى عام ٦٦م الى أثينا لدراسة الفلسفة وعلوم الطبيعة والخطابة ، غير أنه برع فى علم الاخلاق ، ثم تنقل فى بلاد كثيرة ، فزار روما واسبرطة وكورنث والاسكندرية وغيرها فى عام ٩٥م عين كاهنا بمعبد «أبو اللون» بمدينة «دلفى» وبقي فيها حتى توفى عام ١٢٠م (وربما عام ١٢٧م) .

وقد ألف بلوتارك (بلوتارخوس) كثيرا من الرسائل زاد عددها على الستين ، سميت بالاخلاقيات ، تناول فيها موضوعات شتى فى الاخلاق والدين والسياسة والفلسفة ، كما ألف فى الطبيعة والفلك والتاريخ الطبيعى والآثار والتراجم (٣٨) .

هذا وقد اهتم بلوتارك فى كتاباته بالعقائد المصرية ، واهتم بصفة خاصة بقصة «أوزير وايزة» والتى كان قد رواها من قبل تيودور، فكتب كتابه "Die iside et Osiride" الذى يروى فيه - بعد المقدمة - بلغة بسيطة ، قصة «أوزير» الذى اغتاله أخوه الشرير «تيفون» (ست) ثم انتقم له ولده «حور» الذى كانت أمه «ايزه» قد نشأته فى عزلة خفية،

26. K. Baedeker, Egypt and Sudan, Leipzig, 1939, p. 345.

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 6-7.

B. Porter and R. L. B. Moss, Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts Reliefs and Paintings, II Oxford 1927, p. 160.

(٢٧) بلوتارخوس : ايزيس وأوزيريس - ترجمة حسن صبحى البكرى ومراجعة محمد صقر خفاجة - القاهرة ١٩٥٨ ص ٣ - ٥ .

ويتفق قصة بلوتارك هذه مع القصة التي يمكن بقاء هيكلها من النصوص المصرية ، وإن حملها بالكثير من التفاصيل التي استقى بعضها على الأقل من بعض مصادر مصرية لم تصل إلينا (٢٨) .

وعلى أي حال ، فقد كانت له ومضات طريفة في تفسير الديانة المصرية القديمة وشطحات أخرى غنية ، فمن الأولى ما رآه من أن القصة الاوزيرية لا ينبغي أن تؤخذ بحرفيتها ، وأن لها كثيرا من الألوان كألوان «قوس قزح» (٢٩) المتعددة ، وأن يكن في تصويره لهذه الألوان قد أصاب الحقيقة مرة ، وأخطأها مرات ، كما أننا آخر الأمر لانستطيع أن نجزم بأن التفسيرات التي قدمها بلوتارك ليست من أصل مصري (٣٠) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه — فضلا عما ذكرنا من المؤرخين — إنما يوجد عدد كبير من الكتاب الذين اعتمدنا على كتاباتهم في دراسة التاريخ المصري القديم ، فهناك «أغلاطون» (٤٢٩ - ٣٤٧ ق.م) الذي نلتقى في كتاباته من وقت لآخر ببعض الاشارات التي لا تخلو من أهمية فهو يعرف مثلا اسم «نيت» آلهة «سايس» (ساو = صا الحجر — مركز بسيون ، بمحافظة الغربية) ، كما يصدد تحديدا صحيحا اختصاصات «تحت» آله الاداب والعلوم والفلك ، وكذا لعبة «الداما» (٣١) .

(٢٨) بلوتارخوس : المرجع السابق ص ٢٩ - ٣٩ ،

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 8-9.

(٢٩) ينشأ قوس قزح في السماء ، أو على مقربة من مسقط الماء من الشلال ونحوه ، وتكون في ناحية الافق المقابل للشمس ، وترى فيه ألوان الطيف متتابعة ، وسببها انعكاس أشعة الشمس من رذاذ الماء ، وقد أخطأت التوراة (تكوين ٩ : ١٣ - ١٥) عندما رأت أن الله سبحانه وتعالى أتشأها لتكون تذكرة له بالا يعود إلى أغراق الأرض أبدا ، بعد طوفان نوح المشهور ، وقزح من أسماء الشيطان ، ولهذا نهى رسول الله ﷺ ، عن هذه التسمية ، مؤثرا تسميتها «قوس الله» .

(٣٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٣ - ٢٤٤ ،

بلوتارخوس : المرجع السابق ص ٣٩ - ٤١ .

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 9.

31. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 4.

وهناك كذلك «بليني الأكبر» (٢٣ - ٧٩ م) صاحب موسوعة *Historia Naturalis* (٢٢)، وهي تجميع ضخمة لتقديم المؤلفين، نالت مصر فيها نصيبها الوافي، وعلى أي حال، فالرجل يعد حجة في جغرافية مصر.

وهناك «كلوديوس بطولميوس»، وهو من مدينة «بطلمية» (٢٣)، وقد قام بأبحاثه خلال النصف الأول من القرن الثاني الميلادي (١٣١ - ١٥٠ م)، وقد أخرج كتابه في الجغرافية، حوالي عام ١٥٠ م. والخراف في علم «جغرافية بطليموس» (٢٤)، غير أن الأجزاء التي تناولت مصر والنواحي المتاخمة لها في هذا الكتاب قصيرة، وتحتوي أساساً قائمة في المقاطعات فقط، ومع كل مقاطعة دائرتها الإقليمية، وأخيرًا هناك «كليمنت الإسكندري» (١٥٠ - ٢١٥ م) والذي كتب في الديانة المصرية وطقوسها ومواكبها، وفي الرموز الهيروغليفية ومفهوماتها (٢٥).

32. Pliny, *Natural History*, Translated by H. Rackham.
London, 1967-1952.

(٢٣) بطلمية: ثاني مدينة اغريقية أقيمت في مصر بعد الفتح المقدوني (نقراطيس - الاسكندرية - بطليموس)، على أطلال مدينة مصرية تدعى «سوى» أو «بسا»، وقد أطلق عليها في عهد البطالمة «ببسي بطليموس» أي «ببسي» التي أنشأها بطليموس، وأصبحت في عهد «كلوديوس بطولميوس» عاصمة مقاطعة ثني، وكانت تتمتع بكافة مظاهر نظم المدن الاغريقية، وتقع أطلالها الآن تحت مدينة المنشأة، على مبعده بضعة كيلو مترات جنوبى مدينة سوهاج.

(Ptol. II, 5, 66)

34. Ptolemy, *Geographia*, Edited by C. F. Nobble, 3 Vols, 1843-1845.
(٢٥) عبد العزيز صالح: المرجع السابق ص ٢٤٤.
A. H. Gardiner, *Op. Cit.*, p. 84.

ثالثا : المصادر الاجنبية المعاصرة

وأما ثالث المصادر الرئيسية لتاريخ مصر القديم ، فهو المصادر المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم ، ذلك أن مصر انما كانت على علاقة ببلدان هذه المنطقة في فترات من تاريخها ، وخاصة في عصر الدولة الحديثة ، فتبادل حكامها مع الفراعين رسائل كثيرة ، اختلفت في عصور السلام عنها في عصور الحرب ، ففي الاولى نجد الود والاحترام المبالغ فيه ، ان لم يكن الخضوع والتذلل ، وفي الثانية نجد ادعاءات مبالغ فيها كذلك ، وواجب الباحث ازاء هذه الكتابات مقارنتها بما يعاصرها في مصر ، فهي - شأنها في ذلك شأن أمثالها في مصر - تبالغ في النصر التافه فتحيله الى نصر عظيم ، كما أنا تخفى الهزائم أحيانا ، أن لم تحيلها الى نصر مبین ، ومن المقارنة بينها جميعا يستطيع الباحث أن يتبين - ولو بقدر - الحقائق التاريخية .

هذا الى أنها انما تعين الباحث كذلك على تعيين عهود الفراعين بالنسبة الى من عاصرهم من ملوك الشرق وأمرائه ، كما أن هذه الرسائل المتبادلة انما تعطي فكرة عن العلاقات الدولية والحالة الحضارية لهذه المنطقة العامة من العالم ابان كتابها^(١) .

ولعل من أوضح الامثلة على ذلك ما عرف باسم «رسائل العمارة»

(١) انظر : محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفرعونية ، الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢ - ٣ .

التي عثر عليها عام ١٨٨٧م في أطلال مدينة العمارنة، في المبنى الذي كانت تحفظ فيه المراسلات الملكية ، وهي مكتوبة بالخط المسماى على لوحات من الطين الجفف ، وليس من شك في أهمية هذه الرسائل والمراسلات الملكية ، ذلك لأنها إنما تعتبر من أهم المصادر الأساسية المعاصرة في دراستنا لحالة الامبراطورية المصرية في أخريات أيام «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥-١٣٦٧ ق.م) وطوال عهد ولده اخناتون (١٣٦٧-١٣٥٠ ق.م)، فضلا عن علاقات مصر بدول الشرق الأدنى القديم (٣) .

(٢) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن «رمائل العسافرة» (انظر: محمد بيومى مهران : اخناتون - القاهرة ١٩٧٩ ص ٢٣٣ - ٢٤٥) .

رابعاً : المصادر اليهودية

١ - التوراة :

التوراة كلمة عبرية تعني الهداية والارشاد ، ويقصد بها الأسفار الخمسة الأولى (التكوين والخروج واللاويون والعدد والتثنية) والتي تنسب الى موسى عليه السلام ، وهي جزء من «العهد القديم» ، والذي يطلق عليه تجاوزاً اسم «التوراة» (Torah) من باب اطلاق الجزء على الكل ، أو لاهمية التوراة ونسبتها الى موسى عليه السلام ^(١) .

والتوراة أو العهد القديم ، تميزا له عن العهد الجديد ^(٢) (كتاب النصارى المقدس) هو كتاب اليهود الذي يضم ، الى جانب تاريخهم ، عقائدهم وشرائعهم ، ويقسمه أحبار يهود فلسطين ، وليس يهود الاسكندرية ، الى ثلاثة أقسام : التاموس والانبياء والكتابات ^(٣) .

هذا ويتفق اليهود والنصارى على قدسية العهد القديم ، وان اختلفوا في أسفاره ، عددا وشرعية ، فاليهود يتفقون جميعا على أسفار موسى الخمسة ، ولكنهم يختلفون على بقية أسفار العهد القديم ، ذلك لان السامريين منهم لا يعترفون الا بأسفار موسى الخمسة ^(٤) ، وربما

(١) قدم الدكتور محمد بيومي مهران دراسة مفصلة عن التوراة ، حيث خصص لها الجزء الثالث من سلسلة كتابه «اسرائيل» (انظر : محمد بيومي مهران : اسرائيل - الجزء الثالث - الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١ - ٣٧٩) .

(٢) انجيل متى ٢٨/٢٦ ، رسالة كورنثوس الثانية ٦/٣ ، ١٤ .

3. Epstein, (I.) Judaism, A Historical Presentation, (Penguin) Books) 1970, p. 23.

Unger, (M.F.) Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 1109.

(٤) : حبيب سليمي : المعقل الى الكتاب المقدس - القاهرة - ص ٣٥ -

يضيفون إليها أحيانا سفر يشوع ، ومن ثم فإن كتابهم المقدسين إنما يتكون من ستة أسفار فقط (٥) ، وأما بقية يهود فيؤمنون بكل أسفار العهد العبري ، وعددها ٣٩ سفر (٦) .

ولم يكن الأمر عند النصارى بأفضل منه عند اليهود ، ذلك لأن هناك على الأقل طبعتين للعهد القديم الواحدة تستعملها الكنائس البروتستانتية ، والإرثوذكسية الشرقية ، بأسفار عبدة اعتبرها البروتستانت ، الذين احتفظوا فقط بأسفار العهد القديم العبري أسفاراً زائفة (أبو كريفا = Apocrypha) ، هذا إلى جانب الاختلاف في عدد أصحاحات تورا البروتستانت عن تلك التي في تورا الكاثوليك (٧) .

هذا فضلا عن أن هناك خلافا طفيفا في بعض التسميات التي يجانبها الخلاف في الترتيب الذي وضعت به الأسفار في العهد القديم العبري ، عن الترتيب الذي وضعت به نفس الأسفار في العهد القديم المسيحي ، ذلك لأن اليهود في فلسطين إنما قد راعوا التسلسل التاريخي للأسفار ، وهو نفس الترتيب الذي نجده في الطبقات العربية للعهد القديم ، ومن هنا نشأ الخلاف في أسفار العهد القديم بين اليهود والنصارى (٨) .

٣٦ ، محمد بدر ، الكنز في قواعد اللغة العبرية . القاهرة ١٩٢٦ ص ٢٨ - ٢٩ ، قاموس الكتاب المقدس - الجزء الأول - بيروت ١٩٦٤ ص ٤٥١ - Unger, (M. F.), Op. Cit., p. 1050.

(٥) حسن ظاظا : للفكر الديني للإسرائيلي - القاهرة ١٩٧٤ ص

٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٦) هناك من أخبار اليهود من يرى أنها ٢٤ سفر ، بضم بعض المتأخرين إلى بعض ، بينما يرى آخرون أنها يجب أن تتفق وعدد الحروف الأبجدية العبرية ، وهي ٢٢ حرفا (فؤاد حسنين : التورا الهيروغليفية - القاهرة ١٩٦٨ ص ١٣ - ١٤) ، وكذا (Josephus, Contra Apion, I, 8) .

(٧) انظر : الطبعة البروتستانتية (القاهرة ١٩٧٠) ، والطبعة الكاثوليكية (بيروت ١٩٥١) مع ملاحظة أن الطبعة الكاثوليكية تزيد عن الطبعة البروتستانتية بسبعة أسفار ، فضلا عن ١٥ أصحاحا ثم لنظر الجدول المقارنة للطبعتين (محمد بيومي مهران : لهرثيل ٨٨٢ - ١٠) .

(٨) حبيب سعيد : المرجع السابق ٣٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٤٤ - ٤٥ ، محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٦ - ٧ ، ١٩ ، ٢٠ .

وأما المسلمون فلهم رأى يختلف كثيرا عن اليهود والنصارى ، ذلك لان الاسلام الحنيف انما يؤمن بموسى عليه السلام ، رسولا نبيا ، ثم يقرر بمسند ذلك أنه قد جاءته صحف (٩) ، وأنزلت عليه تورا (١٠) . ومن اليدعى أن التوراة شيء ، والمهد للقيديم شيء آخر ، فالتوراة لاتعدو أن تكون جزءا من العهد القديم ، بل هي أسفار خمسة من جملة أسفار العهد القديم البالغ عددها ٣٩ سفرًا ، على الأقل كما رأينا أنفاء .

ومن ثم فان حديث القرآن الكريم عن توراة موسى لا ينطبق أبدا على كتاب اليهود المتداول اليوم ، والمعروف بالعهد القديم ، وبالتالي فان من يعتقدون أن القرآن الكريم يؤمن بالعهد القديم انما يخطئون الخطأ كل الخطأ ، هذا فضلا عن أن التوراة التي يؤمن بها القرآن الكريم ، انما هي التي أنزلها الله تعالى هدى وتورا ، فهي تقرر وحدانية الله تعالى ، وتنزيهه عن كل مظاهر النقص ، وترتكز على الاعتراف باليوم الآخر ، والايمان بما فيه من ثواب وعقاب ، وجنة ونار ، والتي تضمنت عظات وأفكار ، وشريعة لبنى اسرائيل يحكم بها أنبياءهم ، فضلا عن الاعتراف لهؤلاء الانبياء بالعصمة والاسوة الحسنة .

غير أن هذه التوراة الاصلية الاصلية بينودها ونصوصها وتعاليمها السماوية وموادها الكاملة ، لا وجود لها الان بهذه الصورة الالهية ، التي كانت عليها وقت موسى عليه السلام ، فلقد امتدت اليها يد أثيمة من يهود فحرفت وبديلت ، ثم كتبت سواها بما يتلائم من اليهوديوتواهم مع مخططاتهم ، ثم زعموا ، بعد كل هذا ، أنها التوراة التي أنزلها الله

(٩) انظر : سورة النجم : آية ٣٦ ، سورة الاعلى : آية ١٩ .

(١٠) جاءت كلمة التوراة في القرآن الكريم ١٨ مرة (انظر : سورة آل عمران : آية ٣ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٥ ، ٩٣ ، ٩٣ ، ٩٣ ، سورة المائدة : آية ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٩١ ، سورة الاعتراف : آية ١٥٧ ، سورة التوبة : آية ١١١ سورة الصف : آية ٦ ، سورة الجمعة : آية ٥) .

تعالى على موسى «كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون الا كذبا» (١١) .

هذا وقد روى أن سيدنا رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، رأى يوما ورقة من التوراة في يد «فساروق عمر بن الخطاب ، فأمره بالقاءها ، لما بها من أباطيل ، وما فيها من تحريف ، فلقد أخرج الامام أحمد بن حنبل وابن أبي شيبة والبخاري من حديث جابر بن عبد الله ، أن عمر بن الخطاب أتى النبي ، ﷺ ، بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه عليه فغضب فقال : أمتهوكون (١٢) فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده ، لو أن موسى عليه السلام كان حيا ما وسعه الا أن يتبعني» (١٣) .

(١١) انظر : سورة الكهف : آية ٥ وانظر : تفسير البيضاوى ٤/٢ (القاهرة ١٩٦٨) ، تفسير الفخر الرازى ٧٧١/٢١ - ٧٨ (القاهرة ١٩٣٨) تفسير الطبري ١٩٣/١٥ - ١٩٤ (ط الحلبي) ، تفسير الطبرسي ١١٥/١٥ - ١١٨ (بيروت ١٩٦١) تفسير القرطبي ص ٣٩٧٠ (ط دار الشعب - القاهرة ١٩٧٠) ، تفسير روح المعاني ٢٠٤/١٥ (بيروت ١٩٧٨) ، عبد الله محمود شحاته : في نور القرآن ص ١٢٧ - ١٢٩ (القاهرة ١٩٧٣) .
وانظر : عن الايات القرآنية التي تعرضت لتحريف اليهود لتوراة موسى عليه السلام (سورة البقرة : آية ٧٩ ، ١٥٩ ، سورة آل عمران : آية ٧٨ ، سورة النساء : آية ٤٦ ، سورة المائدة : آية ١٣ ، ١٥ ، سورة الانعام : آية ٩١) ، وانظر : تفسير الطبري ٢٦٧/٢ - ٢٧٤ ، ٥٣٧ - ٥٣٨/٨ ، ٤٣٩ - ٤٣٠/١٠ ، ١٢٥ - ١٣٥ ، ١٤٠ - ١٤٤ (دار المعارف ١٩٦٠/٥٧) ، تفسير الكشاف ١٥٧/١ - ١٥٨ ، ٥١٦ - ٥١٨ ، ٦٢٦ - ٦٢٧ (القاهرة ١٩٦٦) ، تفسير النسخي ٦٥/١ ، ٣٢٠ - ٣٢١ ، ٣٩٧ - ٣٩٨ (بيروت ١٩٨٠) ، تفسير الطبرسي ٣٢٥/١ - ٣٢٨ ، ٤٦/٢ - ٤٨ ، ٥١/٦ - ٥٧ ، تفسير روح المعاني ٣٠١/٤ - ٣٠٣ ، ٢٦/٢ - ٢٧ ، ٤٥/٣ - ٤٨ ، ٨٨/٤ ، ٨٩ ، ٩٩ ، تفسير الفخر الرازى ١٣٨/٣ - ١٤٠ ، ١١٧/١٠ - ١١٩ ، ٧٧/٢١ - ٧٨ ، تفسير المنار ٢٩٨/٢ - ٢٩٩ ، ٢٨٢ - ٢٨٤ ، ١١٠/٥ - ١١٢ ، ٢٣٣/٦ - ٢٣٥ ، ٥٠٨/٧ - ٥١٠ (القاهرة ١٩٧٣) ، تفسير ابن كثير ١٦٧/١ - ١٦٩ ، ٥٣/٢ - ٥٤ ، ٦٠ - ٦١ ، ٢٩٣/٣ - ٢٩٤ ، في ظلال القرآن ٨٥/١ ، ٩٧/٥ - ٩٩ ، ١٠٨ - ١١٠ ، ١١٣ - ١١٤ ، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٩٠/١ - ٩٢ ، ١٣٦ - ١٣٧ ، ٥٠/٣ - ٥١ ، ١٥٣ ، ٥٨/٤ (القاهرة ١٩٧٣) .

(١٢) المتهوك : المتحير الشاك .

(١٣) فتح الباري ٤٠٤/١٣ (ط الخيرية) ، مستد الامام أحمد

وهكذا يقرر الاسلام بمصدقية — الكتاب والسنة — أن التوراة وليس المهد القديم كله مكتاب أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم موسى عليه السلام، غير أن اليهود، من بعد موسى، قد حرفوه وبذلوه، ثم كتبوا سواه بأيديهم، ثم زعموا بعد ذلك كله، كذباً على الله وعلى الناس، أنه من عند الله «كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون الا كذباً» (١٢١).

وسؤال البهاجة الآن : إذا كانت هناك توراة أنزلت على موسى حقاً، وهذا ما تؤمن به، وإذا كانت هذه التوراة المتداولة اليوم، ليست هي توراة موسى فهذا ما لا شك فيه، فما حكم الرواية عن هذه التوراة؟ والجواب عند العلماء : أن هناك كثيراً من الأدلة التي تشير إلى منع النقل عن هذه التوراة، منها ما جاء في القرآن الكريم من الآيات الدالة على تحريف التوراة، مما أفقد الثقة فيها عموماً يصدقون به منها، وقد سبق لنا أن عرضنا لهذه الآيات القرآنية آنفاً *

ومنها ما رواه الامام البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة أنه قال : «كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام»، فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم فقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم .. الآية» (١٥).

ومنها ما رواه أيضاً الامام البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس حيث قال : يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الاخبار بالله تقرأونه لم يشب، وقد عدتكم

٣٨٧/٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ١/ ٢٩٨ (بيروت ١٩٦٦)،
على عبد الواحد وافي : الاسفار المقدسة في الاذهان السابقة للإسلام -
القاهرة ١٩٦٤ ص ١٧ - ١٨ .

(١٤) سورة الكهف : آية ٥ .

(١٥) صحيح البخاري ١٣٦٤٩ (ط. دار الجيل بيروت - عن ابن
الحديث بالقاهرة - تقديم أحمد محمد شاكر ١٩٨٦) : «والآية في سورة
البقرة : آية ١٣٦ ، وانظر أيضاً : سورة البقرة : آية ١٥٩ ، سورة
آل عمران : آية ٧٨ ، سورة المائدة : آية ١٥ ، سورة الانعام : آية ٩١ .

الله أن أهل الكتاب بدلوا ملكتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب ، فقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ، ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم» (١٧) .

غير أن هناك أدلة تجيز النقل عن التوراة ، منها قول الله تعالى : مخاطباً نبيه ، ﷺ ، «قل غاثوا بالتوراة فخلطوها لن كنتم صادقين» (١٧) وهذا صريح في جواز الرجوع إلى التوراة والاحتكام إليها (١٨) .

ومنها ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن عبد الله بن عمرو ، أن النبي ﷺ قال : بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» (١٩) .

ومنها ما ثبت أن النبي ﷺ استمع لبعض اليهود وهم يقولون التوراة ، ومن ذلك ما رواه الامام أحمد بسنده إلى عبد الله بن مسعود قال : «ان الله عز وجل ابتعث نبيه لادخال رجل الجنة ، فدخل الكنيسة فاذا يهودى يقرأ عليهم التوراة ، فلما أتوا على صفة النبي ﷺ ، أمسكوا ، وفي ناحيتها رجل مريض ، فقال النبي ﷺ : ما لكم أمسكنم ؟ فقال المريض : أنهم أتوا على صفة نبي فأمسكوا ، ثم جاء المريض يحيى حتى أخذ التوراة فقرأ ، حتى أتى على صفة النبي ﷺ ، وأمهته ، فقال : هذه صفتك وصفة أمك ، أشهد أن لا إله الا الله وإنك رسول الله» (٢٠) .

(١٦) صحيح البخارى ٢٣٧/٣ (باب لايسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها)

(١٧) سورة آل عمران : آية ٢١ .

(١٨) محمد حسين الذهبي : الاسرائيليات في التفسير والحديث - القاهرة ١٩٨٦ ص ٤٥ .

(١٩) صحيح البخارى ٢٠٧/٤ (باب ماذكر عن بنى إسرائيل)

(٢٠) مسند الامام أحمد ٤١٦/١ .

ويقول الدكتور الذهبي : فقول الرسول ﷺ ، لهم : مالكم أمسكم ،
ثم استماعه للرجل المريض وهو يقرأ التوراة في رضا وعدم انكار عليه ،
دليل على اباحة الاخذ عن كتب أهل الكتاب (٣) .

هذا وقد حاول بعض العلماء التوفيق بين للاتجاهين ، فذهب الامام
ابن حجر العسقلاني الى أن النهي كان قبل استقرار الاحكام الاسلامية
والقواعد الدينية ، خشية الفتنة ، فلما زال المحذور وقع الاذن في ذلك ،
لما في سماع الاخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار (٣) ، فضلا عن
الاحتياج الى الرد على المخالف ، بدليل نقل الائمة قديما وحديثا من
التوراة والزمام اليهود بالتصديق لسيدنا محمد ، ﷺ ، بما يستخرجونه
من كتبهم (٣) .

وبدهى أن جواز الرجوع الى كتب أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ،
انما يصح فيما لم تصل اليه يد التحريف والتبديل من الحقائق التي
تصدق القرآن وتلزم المماندين منهم ومن غيرهم الحجة ، ومن ثم فلا
يجوز لمسلم أن يقبل ما يحدثون به على اطلاقه ، ولا أن يرده على اطلاقه ،
بل يقبل منه ما جاء موافقا لما في القرآن أو السنة ، لان هذه الموافقة
دليل على أنه مسلم من التحريف والتبديل ، ويرد منه ما جاء مخالفا لما
في القرآن والسنة ، أو كان لا يتفق مع العقل ، لان هذه المخالفة دليل
على أنه مما تطرق اليه التحريف والتبديل .

وخلاصة القول في حكم روايات الاسرائيليات ، فيما يرى الدكتور
الذهبي ، أن ما جاء موافقا لشرعنا صدقناه ، وجازت روايته ، وما جاء
مخالفا لما في شرعنا كذبناه وحرمت روايته ، الا لبيان بطلانه ، وما سكت
عنه شرعنا توقفنا فيه ، فلا نحكم عليه بصدق ولا كذب ، وتجاوز روايته ،

(٢١) محمد حسين الذهبي : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٢٢) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح البخاري ٣٨٨/٦
القاهرة ١٣٨٠ هـ .

(٢٣) فتح الباري ٣٠٩/١٧ .

لأن غلب ما يروى من ذلك راجع إلى القصص والاختبار، لا إلى العقائد والأحكام ، وروايته ليست إلا مجرد حكاية له ، كما هو في كتبهم أو كما يحدثون به ، بمصرف النظر عن كونه حقا أو غير حق (٢٤) .

ويقول العلامة ابن خلدون في تاريخه : والقوم أعلم بأخبارهم ، إذا لم يعارضها ما يقدم عليها ، وكما قال رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب » فقد قال ، ﷺ « لا تكذبوهم » ، مع أن ذلك راجع إلى أخبار اليهود ، وقصص الأنبياء التي كان التنزيل فيها من عند الله تعالى ، لقوله ﷺ ، بعد ذلك « وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم » ، وأما الخبر عن الواقعات المستندة إلى الحس فخير الواحد كاف فيه ، إذا غلب على الظن صحته ، فينبغي أن تلحق هذه الأخبار بما تقدم من أخبارهم ، لتكمل لنا أحوالهم من أول أمرهم إلى آخره ، والله أعلم (٢٥) .

وعلى أية حال ، فلقد تحدثت التوراة ، أو العهد القديم ، في كثير من أسفاره عن علاقة مصر ببني إسرائيل منذ تشریف أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام أرض الكنانة بالزيارة (في حوالي عصر الاسرة الثانية عشرة على الأرجح) (٢٦) ، وحتى نهاية دويلتهم التي أقاموها في أرض كنعان في عام ٥٨٦ ق.م ، وحدث السبي البابلي المشهور (٥٨٦ - ٥٣٩ ق.م) ثم قيام الجالية اليهودية في مصر ، وعلى أيام الحكم الفارسي ، كما في أسفار التكوين والخروج والعدد والتثنية والقضاة والملوك الأول والثاني

(٢٤) محمد حسين الذهبي : المرجع السابق ص ٤٩ - ٥٣ ، وانظر : آراء أخرى في : ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ص ١٧ - ٢٠ ، ٤٥ - ٤٦ ، تفسير ابن كثير ٤/١ ، البداية والنهاية ٦/١ - ٨ ، تفسير القاسمي ٤٤/١ - ٤٥ ، تفسير البقاعي ص ٨٩ - ٩٠ ، عمدة التفسير ١٥/١ ، تعليق أحمد محمد شاكر .

(٢٥) عبد الرحمن بن خلدون : تاريخ ابن خلدون ١٣٤/٢ - ١٣٥ (بيروت ١٩٨١) ، وانظر : البداية والنهاية ١٣٢/٢ - ١٣٤ .
(٢٦) انظر : عن رحلة الخليل إلى أرض الكنانة (محمد بيومي مهران : إسرائيل ٨٢/١ ، ٩٩ - ١٠٤) ، مصر - الجزء الثاني ص ٤١٥ - ٤٣٦ (الاسكندرية ١٩٨٨) .

ونحنميا والزمير واشعيا وازميا وحزقيال ومشموش وفاهوم والمكابيين
الاول والثاني وغيرها (٣٧) *

وقد تحدثت التوراة في هذه الاسفار عن المصريين وعلاقاتهم بينى
امرائيل ، فضلا عن الحديث عن انبياء بنى اسرائيل ذوى الصلة بمصر ،
كما يبدو واضحا في قصص ابراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وهارون ،
عليهم السلام ، فضلا عن الملائكة المصرية اليهودية على ايام داود
وسليمان عليهما السلام كما جاء ذلك في اسفار التكوين والخروج والملوك
الاول والثاني ، ولخبر الايام الاول والثاني *

هذا الى جانب ما جاء في التوراة عن بعض الملوك المصريين من أمثال:
سيسنق الاول (٣٨) وطهرافا (٣٩) ونخاو الثاني (٤٠) وابريس (٤١) ، ثم ذلك
الذى دعت به «سوا» (٤٢) وقبل هؤلاء وأولئك الملوك الذين عاصروا
ابراهيم الخليل ويوسف الصديق وموسى الكليم (٤٣) صلوات الله
وسلامه عليهم أجمعين ، فضلا عما جاء في التوراة عن امرأة فرعون التى
ربت موسى (٤٤) ، وابنة فرعون التى تزوجت من سليمان (٤٥) ، وفي
أثناء ذلك كله إنما تحدثت التوراة كثيراً عن مصر ، وبسطت طرفا من

-
- (٢٧) قدم الدكتور محمد بيومي مهران دراسة مفصلة عن هذه
الاسفار (انظر : محمد بيومي مهران : اسرائيل ١٨/٣ - ١٩٦٠) .
(٢٨) ملوك اول ٢٥/١٤ - ٢٧ ، اخبار نعيم ثان ٢٢/٢٣ - ٩ .
(٢٩) ملوك ثان ١٩/٩ ، اشعيا ٣٧/٩ ، وانظر : (محمد بيومي
مهران : اسرائيل ٢/٩٧٢ - ٩٧٧ - الاسكندرية ١٩٧٨) .
(٣٠) ملوك ثان ٢٣/٢٩ ، اخبار ايام ثان ٢١/٢٥ - ٢٥ ، ارميا
٢/٤٦ .
(٣١) ملوك ثان ٢٤/٣٠ ، ارميا ٤٤/٣٠ .
(٣٢) ملوك ثان ١٧/٤ ، وانظر عن الاراء التى دارت حول «سوا»
هذا (محمد بيومي مهران : اسرائيل ٢/٩٤٠ - ٩٤٦) .
(٣٣) انظر عن ابراهيم (تكوين ١٢/١٠ - ٢٠ ، ١٢/١٣ - ٣) وعن
يوسف (تكوين ١/٢٩ - ٢٦/٥٠) وعن موسى (خروج ١/٢ - ٢١/١٥) .
(٣٤) خروج ٢٢/٢٠ - ٢٢/٢١ .
(٣٥) ملوك اول ٣/٣٤ ، ١/٢٤ .

منها هي الحياة الحضرية ، وبخاصة الفواهي الهيكلية والاقتصادية
والعمرانية وغيرها .

هذا ومن المعروف أن اليهود قد سجلوا في كتابهم المقدس «التوراة
أو العهد القديم» تاريخهم منذ برأ الله الخليقة ، وذرا البشر ، وحتى
القرن الثاني قبل مولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، بل أن
التوراة إنما سجلت الى حد ما كثيرا من الاحداث التاريخية التي وقعت
في منطقة الشرق الاكفى القديم ، في المفترة فيما بين القرنين الخامس
والرابع قبل الميلاد ، وخاصة تلك التي تتصل بتاريخ اليهود .

وزعم أن التوراة إنما تمثل مصدرا تاريخيا لا غبار عليه في بعض
الاحايين ، غير أنها كانت وما تزال — الى أن يمن الله علينا بمزيد من
كشوف حفريات عن أحقاب مافتتنا نجهل الوجه الذي كانت عليه — ركامات
من متناقضات ، أو ربما عقدا منظوما من حلقات متباينات — صحيح أنه
قد توصل عديد من باحثين الى التحقق من عدة وقائع ، ولكنه صحيح
أيضا أن الوقائع في حد ذاتها ليست هي التاريخ ، إلا أن تتداخل وتترابط
فتمتطرده (٣٦) .

أن التوراة — ولو كره المفتتون بها — ليست من التاريخ بشيء ،
وإن سلمنا أنها قد اشتملت على وقائع لها سند من تاريخ (٣٧) ،
ولا يسعنا — كما فعل علماء القرن الماضي — أن نأخذ بتلك المعطية ، من
أن الوثيقة التاريخية ، إنما تتطوى أساسا على ما ظن صاحبها أنه قد
حدث ، وربما ماود أن يكون قد حدث ، وأحيانا مايريد لغيره ، أن يظنوا

36. Mendenhall, (G.), Bible History In the Transition In the Bible and Ancient Near-East, N. Y., p. 37.

37. Bright, (J.), Modern Study of the Old Testament Literature in the Bible and the Ancient Near East, N. Y., 1961, p. 14.

Mendenhall, Op. Cit., p. 34.

أن قد يحدث. ، فإنا لو فطنا لما وجدنا تفسيراً منطقياً لما اشتملت عليه التوراة من تناقضات (٣٨) .

وفي الواقع أن التوراة ليست بوثائق تاريخية ، وإنما هي قد تشكلت من واقع تدوينات متعاقبة لاصول من مآثورات قديمة ، وأن المآثور — بوصفه أصلاً قصة محكية تناقلتها ذاكرة الناس جيلاً اثر جيل — ليخضع لقوانين غير تلك التي تهيمن على الكلمة، اذ تكتب تسجيلاً لتاريخه .

صحيح أن التوراة قد استقرت آخر الامر في صورة من وثيقة مكتوبة ، فيما بين القرنين الخامس والثاني قبل الميلاد ، ولكنها أصلاً مجموعة من قصص محكى ، لم يتهاى لحرف منها أن يدون فيسجل الا بعد أحقاب طوال ، قد بلغ ثمانية قرون في بعض الأسفار ، وعشرة في أسفار أخرى .

ولو أخذنا مثلاً ، قصص الاباء الأولين ، ودققنا النظر فيها لوجدنا انها مجموعة من قصص ، لكل طابعها الخاص ، ومفزاها المنفرد ، تتجه الى وعظ وقد تنحو الى سخرية أو ترفيه ، لا تحفل بالتزام دقة ، ولا تسعى الى تحقيق ، بقدر ما يعينها التأخير على السامعين ، لا روابط بين بعضها البعض ، الا ما ابتدع من بعد ، خيوطا واهية من أنصاب واضحة الافتعال ، ومن ثم فلا يعول عليها علمياً ، تحديداً لمواقعها من حيث زمان ، أو تنسيقاً فيما بينها من حيث تتابع (٣٩) .

ومن ثم فلا عجب أن يكون الطابع العام الاول الذي يبقى في نفس قارئ التوراة ككتاب تاريخ ، أنها لا تكاد تريد عن كونها مجموعة من

(٣٨) حسين ذو الفقار صبرى : توراة اليهود — المجلة — العدد ١٥٧ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٢ — ١٣ .

Carr, (E. H.), What is History ? N. Y., 1962, p. 15-16.

(٣٩) حسين ذو الفقار صبرى : المرجع السابق ص ١٣ ،

Lods, (A.), Israel, From its Beginnings to the Middle of the Eighth Century, London, 1962, p. 159.

وانظر : عن كتابة للتوراة (محمد بيومى مهران : اسرائيل ١٨/٣ — ٩٦) .

الخرافات والقصص التي صيغت في جو أسطوري ، حافظ بالاثارة ،
مجاف للمقل والمنطق ، غاص بالمتناقضات ، مشبع بالسخف ، مفهم
بمشاعر العدوان والتعطش الى الدماء (٤٠) .

وعلى أى حال ، فما يهم في هذا الصدد أن تكون التوراة بعد ذلك
كتابا مقدسا ، أو لا تكون ، فذلك شأن من يريدون أن يروها في نصها
الراهن على هذا النحو أو ذاك ، ولكن الذي يهم ألا تكون كتاب تاريخ
يحاول فرض مضمونه على الحاضر والمستقبل ، كما يحاول فرضه
على الماضي .

وإذا كان ما يعزى للتوراة من قيمة تاريخية لا يجد له سنداً ، إلا
فيما يزعم لها من قداسة ، فالذي لا شك فيه أن هناك ثمة علاقة بين قيمة
التوراة ككتاب تاريخ ، وقيمتها ككتاب مقدس ، ذلك أنه كلما تدعمت
قيمتها ككتاب مقدس ، تضاعفت الرغبة في صدق ما تضمنه من وقائع ،
وسهل وصول هذه الوقائع الى يقين الناس ، على أنها من حقائق التاريخ
التي لا ينبغي الشك فيها وقد أدركت اليهودية الصهيونية هذه الحقيقة ،
فأحسنست استغلالها اعلاميا في الغرب المسيحي ، لدعم ما زعمت أنه حقها
في إنشاء دويلة اسرائيل .

ولكن أية قيمة موضوعية تبقى لتاريخ لا يجد سندا له ، إلا فيما
يزعم لكتاب واحد من قدسية ؟ وهي بعد «قدسية» ، توجه اليها سهام
الريب من أكثر من جانب ، وليس بالوسع القول بأنها ترقى فوق مظان
الشبهات (٤١) .

وانطلاقا من كل هذه ، فإننا سنتعامل مع التوراة — أو العهد
القديم — في دراستنا هذه وغيرها — كمصدر تاريخي ، دون أن ننقيد
كثيرا بتلك الهالة التي فرضتها التوراة على المؤمنين بها . ذلك لأن من

(٤٠) صيرى جرجس : للتراث اليهودي — القاهرة ١٩٧٠ ص ٥١ .

(٤١) نفس المرجع السابق ص ٥٨ — ٥٩ .

كتبوا التوراة كانوا بشرًا مثلنا ، وهم كمؤرخين لا يختلفون كثيراً عن
نظائرهم من معاصريهم في الشرق (٤٢) .

هذا فضلاً عن أنه ليس هناك تاريخ لا يحتمل المناقشة ، بل لا يحتمل
أن نخطئه ، وما دامنا التوراة كتب تاريخ ، كما هي كتاب دين ، فليس
هناك ما يمنع المؤرخ من أن يناقشها منقشة حرة ، دون تمييز ، يتقبل
ما يقوله بصبر وحب ، إن كان يتفق مع الإحداث التاريخية ، ويوافق
المنطق والمقول ، ويرفضه حين يذهب بعيداً عن ذلك ، تحيزاً لليهود ،
أو جهلاً بحقائق التاريخ ، وما أكثر هذين النوعين من المواد التاريخية
في توراة يهود (٤٣) .

٢- كتابات المؤرخ اليهودي يوسف بن متى :

ولقد «يوسف بن متى» أو «يوسفوس فيلاطينوس» في أورشليم
القدس عام ٣٧م ، وتوفي في روما عام ٩٨م (أو عام ١٠٠م) ، وكان قد
أرسل إلى روما من قبل المحكمة العليا عند اليهود (السندريين) (٤٤)
للدفاع عن الأحبار الذين سجنوا بأمر المفوض الروماني ، وقد أدى
مهمته بنجاح ، ثم عاد إلى القدس ، واشترك في ثورة ضد الرومان
انتهت بأسره .

غير أن القائد الروماني «سبتيان» أنقذه من الأسر ، ثم سرعان
ما نال يوسف اليهودي تقدير القائد الروماني ، ثم صُحب ابنه «نيتوس»
عام ٧٠م إلى القدس ، ثم عاد معه إلى روما ، حيث حصل اسم

(٤٢) انظر : نجيب ميخائيل : حصر وللشوق الأدبي القديم من الجزء
الثالث - الإسكندرية ١٩٦٦ ص ٢٧٣ ،

Sayce, (A. H.), Early History of the Hebrew.

(٤٣) انظر : عن التوراة والحقائق التاريخية (محمد بيومي مهران
إسرائيل - الجزء الثالث - الإسكندرية ١٩٧٩ ص ٢٦٣ - ٢٩٦) .

(٤٤) انظره من «السندريين» (محمد بيومي مهران : إسرائيل ..
الجزء الرابع - الإسكندرية ١٩٧٩ ص ٤٨٥ - ٤٨٧) .

«فيلافىوس» باعتباره عبداً حرره سيده «فسابيان» ثم منح بعد ذلك حقوق المواطن الرومانى^(٤٥) .

وهناك فى روما كتب يوسف اليهودى كتبه المعروفة ، والتى من أهمها «آثار اليهود» (The Jews Antiquities) و «الطوبى اليهودية» (The Jewish Wars) فى سبعة أجزاء بالارامية ، ترجمت فيما بعد الى اليونانية ، ثم كتب «تاريخ اليهود القديم» فى عشرين جزءا ، منذ بدء الخليقة ، وحتى عام ٦٦م^(٤٦) .

هذا وقد تحدث يوسف اليهودى هذا كثيرا عن «مصر» ، وخاصة فى العلاقات بين مصر وبني اسرائيل ، وقد تميزت كتاباته بتحيظه لقومه اليهود ، واعطائهم من البطولات ما لم يكن لهم أبدا ، وتفسير الاحداث التاريخية بما يتفق وهواه ، فضلا عن هوى قومه لليهود ، حتى ان كان ذلك على حساب الحقيقة التاريخية ، بل هو كذلك فى أغلب الاحيان ، هذا الى جانب اعتماده الى حد كبير على العهد القديم فى كتاباته .

وهكذا بدأ يوسف اليهودى يتحدث عن «مصر» ، عندما أراد الرد على كاتب اغريقى متمصر يدعى «ايبون السكندرى» فى كتابه «الرد على ايبون» (Against Apion) ، والذي رمى اليهود بالرجس والتشرد ، ووضاعة الاصل ، وبكل شائنة ونقيصة ، وهنا زعم يوسف اليهودى أنه يروى الكلمات الاصلية للمانيقو عن الغزو الهكسوسى لمصر ، فى عهد ملك دعاه «توتيمايوس»^(٤٧) (تيمايوس ، فيما يرى وليم أولبرايت)^(٤٨) .

(٤٥) باروخ مابينوزا : رسالة فى اللاهوت والسياسة - ترجمة حسن حنفى - القاهرة ١٩٧١ ص ١٢٧ ، فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - الجزء الاول - ترجمة جورج حداد وعبدالكريم رافق - بيروت ١٩٥٨ ،

Harvey, The Oxford Companion to Classical Literature, p. 228.

(٤٦) انظر : محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم - الاسكندرية

١٩٨٨ ص ٣١ - ٣٢ .

47. Waddell, (W. C.), Manetho, (With an English Translation), London 1940, p. 79 F.

48. Albright, (W. F.), BASOR, 99, No. 44.

ثم زعم بعد ذلك أنه وجد في مخطوطات «مانيتو» المؤرخ المصرى القديم، ما يربط بين قومه اليهود والهكسوس .

وهكذا ربط بين قصة التوراة عن دخول بنى اسرائيل مصر وخروجهم منها ، وبين قصة الهكسوس وطردهم من مصر ، بقيادة «أحمس الاول» حوالى عام ١٥٧٥ ق.م^(٤٩) .

وانطلاقا من هذه الدعوى الكذوب ، فإن يوسف اليهودى لم يقبل تفسير «مانيتو» لكلمة «الهكسوس» ، من أنها تعنى «الملوك الرعاة» ، على أساس أن «هك» تعنى فى اللغة المقدسة «ملك» وأن «سوس» تعنى فى اللغة الدارجة «راعى» ، فيتابع يوسف هذا الاشتقاق باشتقاق آخر لاسم الهكسوس من مصدر آخر ، بمعنى «الاسرى الرعاة» لان كلمة «هك» تعنى «أسير» ، لان قصة التوراة عن دخول بنى اسرائيل مصر، ثم الخروج منها ، فى نظره ، لهما أصول فى احتلال الهكسوس لمصر، ثم طردهم منها^(٥٠) .

وأكبر الخن أن يكون ذلك أثرا من الخلط بين اللفظين المصريين «حقا» بمعنى (حاكم) ، و «حاق» بمعنى (غنيمة) ، ويوسف اليهودى لم يكن مؤلفا ، وإنما كان ناقلا ، نقل عن مانيتو ، وحرف ما نقل لحاجة فى نفسه ، وهو بعد ذلك قد كان غريبا على مصر ، وعن لغة المصريين ، وكان اعتماده على الرواية (ان صدقنا أنه كان أمينا فيما يروى) ، أكثر من اعتماده على الاستقصاء والتحري ، سمع تأويل المصريين لاسم الهكسوس ، فنقل عنهم ثم خرج ودون^(٥١) .

(٤٩) انظر : قصة دخول الهكسوس مصر وطردهم منها (محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة - القاهرة ١٩٧٦ ص ١١٩ - ٢٢٣) .

50... Gardiner, (A. H.) Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1961, p. 154-156.

(٥١) أحمد بدوى : فى موكب الشمس - الجزء الثانى - القاهرة ١٩٥٠ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

والواقع ، فيما يرى سير ألن جاردنر ، أنه على الرغم من وجود أسس لغوية للاشتقاق ، فإن يوسف قد جانبه الصواب وأن كلمة «هكسوس» مشتقة من غير شك من اصطلاح «حقا خست» بمعنى «رئيس أو حاكم البلد الاجنبية الجبلية» ، ويجمع على «حقاوا - خاسوت» أى «حكام البلاد الاجنبية الجبلية» ، والكلمة كانت تعنى منذ عهد الدولة الوسطى «مسايف البدو»^(٥٢) .

ومن البدهى أن يوسف اليهودى انما كان يعنى بربط قومه اليهود بالهكسوس ، رفع شأنهم بهم الذين كان الاغريق وقت ذلك يحتقرونهم ويحطون من شأنهم ، فضلا عن أن يبرهن للملا ، أن اليهود والهكسوس من عنصر واحد ، وأنهم قد خرجوا من مصر منذ حوالى ألف سنة قبل حرب طروادة ، التى كانت ، فى نظر الاغريق ، تاريخا سحيقا فى القدم .

ومن ثم ، فإن دعوى يوسف هذا فى الربط بين الهكسوس وأجداده العبرانيين ، لم تكن الا من نوع تلك الدعاية الكاذبة التى لايزال يحذقها أحفادهم الصهاينة المحدثون ، وأنه ليست هناك أية صلة بين اليهود والهكسوس ، من ناحية الجنس ، وان عاش بنو اسرائيل فى مصر حينما من الدهر ، تحت ظلال الهكسوس^(٥٣) ، كما أن اقتباسات يوسف اليهودى من مانيتو ، ربما توحى بحوادث وقعت فى أوائل الاسرة التاسعة عشرة ، ثم اختلطت بذكر حوادث الهكسوس^(٥٤) .

52. Griffith, (F. L.), in PSBA, 19, 1897.

Gardiner, (A. H.), Op: Cit., p. 154.

• (٥٣) انظر محمد بيومى مهران : اسرائيل ١/٣٦١ - ٣٧٦ .

54. Gardiner, (A. H.), The Geography of the Exodus, JEA, 10, 1924, p. 87-88.

خامساً : المصادر الاسلامية

١ - القرآن الكريم :

القرآن الكريم كتاب الله ^(١) الذى «لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» ^(٢) ، نزل على مولانا وسيدنا وجدنا محمد رسول الله ﷺ ، منجما فى ثلاث وعشرين سنة ^(٣) (فيما بين عامى ١٣ ق م ، ١١ هـ = ٦١٠ - ٦٣٢ م) ، حسب الحوادث ومقتضى الحال ، وكانت الآيات والصور تدون ساعة نزولها اذ كان رسول الله ﷺ ، اذا ما نزلت آية أو آيات يقول : «ضعوها فى مكان كذا ٠٠٠ من سورة كذا» ، فقد ورد أن جبريل ، عليه السلام ، كان ينزل بالآية أو الآيات على النبى ، فيقول : «يا محمد أن الله يأمرك أن تضعها على رأس كذا من سورة كذا» ، ولهذا اتفق العلماء على أن جمع القرآن «توقيفى» بمعنى أن ترتيبيه بهذه الطريقة التى نراه عليها اليوم فى المصاحف ، انما هو بأمر ووحى من الله ^(٤) .

وهكذا تمر الايام بالرسول الكريم ﷺ ، وهو على هذا العهد

(١) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن القرآن الكريم كمصدر تاريخى (انظر : محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الاول - الرياض ١٩٨٠ - الفصل الاول - القرآن الكريم ص ١٧ - ٨٨) .
(٢) سورة فصلت : آية ٤٢ .

(٣) قارن : صحيح البخارى ٩٦/٦ .

(٤) السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن - الجزء الاول ، القاهرة ١٢٧٨ هـ - ص ٤٨ ، ٦٣ ، الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، القاهرة ١٩٥٧ هـ - ص ٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٢٤١ ، السجستانى : كتاب المصاحف ، القاهرة ١٩٦٦ هـ - ص ٣١ ، مقدمتان فى علوم القرآن ، صححه ونشره آرثر جفرى ، القاهرة ١٩٥٤ هـ - ص ١٦ - ٣٢ ، ٤٠ - ٥٨ ، محمد أبو زهرة : القرآن ٢٧ - ٤٧ - ٤٩ .

يأتيه الوحي نجما بعد نجم ، وكتاب الوحي^(٥) يسجلونه آية بعد آية ، حتى اذا ما كمل التنزيل يوحى انتقل الرسول الاعظم الى الرفيق الاطى (في يونية ١٩٣٢م) كان القرآن كله مسجلا في صحف — وان كانت مفرقة لم يكونوا قد جمعوها بين الدفتين ، ولم يلزموا القراءة توالى سورها — وفي صدور الحفاظ من الصحابة^(٦) ، رضوان الله عليهم ، هؤلاء الصفوة من أمة محمد النبي المختار ، والذين كانوا يتسابقون الى تلاوة القرآن ومدارسته ، ويبدلون قصارى جهدهم لاستظهاره وحفظه ، ويعلمونه أولادهم وزوجاتهم في البيوت .

ومن هنا كان حفظة القرآن الكريم في حياة الرسول — ﷺ — لا يحرصون ، وتلك — ويم الله — عناية من الرحمن خاصة بهذا القرآن العظيم ، حين يسره للحفظ ، وصدق جل من قال «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر»^(٧) ، فكتب له الخلود بوحماه من التحريف والتبديل ، وصانه من أن يتطرق الضياع الى شيء منه عن طريق حفظة في السطور وحفظه في الصدور^(٨) مصداقا لقوله تعالى «وانه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد»^(٩) ، وقوله

(٥) لعل أشهر كتاب الوحي — والذين يقال أن عددهم ٣٦ كتابا — هم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وأبى ابن كعب وزيد بن ثابت والمغيرة ابن شعبة والزبير بن العوام وشرحبيل وعبد الله بن رواحة (فتح الباري ١٨/٩) وكانوا يضعون ما يكتبون في بيت النبي ، ﷺ ، ثم يكتبون لانفسهم منه حבורا ، يحفظون منها (البرهان ٥٨/١ ، الاتقان ٥٨/١ ، محمد عبد الله دراز : مدخل الى القرآن الكريم — الكويت ١٩٧٤ ص ٣٤ — ٣٥) .

(٦) الاتقان ٥٩/١ ، البرهان ٢٣٥/١ ، كتاب المصاحف ص ٥ ، مقدمتان في علوم القرآن ص ٣٢ .

(٧) سورة القمر : آية ٣٢ ، وانظر : تفسير القرطبي ص ٦٣١٠ — ٦٣١٣ ، تفسير ابن كثير ٤٥٤/٧ — ٤٥٥ ، صفوة التفاسير ٢٨٨/٣ ، في ظلال القرآن ٣٤٣٣/٦ ، تفسير النسفي ٢٠٣ — ٢٠٤ .

(٨) محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم — الكويت ١٩٧٠ ص ١٢ — ١٤ .

(٩) سورة فصلت : آية ٤١ — ٤٢ .

تعالى «أنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون»^(١٠) ، وقوله تعالى «ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه»^(١١) .

وليس هناك من ريب في ان القرآن الكريم كمصدر تاريخي ، انما هو أصدق المصادر وأصحها على الاطلاق فهو موثوق السند — كما بينا آنفا — ثم هو قبل ذلك وبعده كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن ثم فلا سبيل الى الشك في صحة نصه^(١٢) ، بحال من الاحوال ، لانه ذو وثاقة تاريخية لا تقبل الجدل ، فلقد دون في البداية باملاء الرسول ، ﷺ ، ونطى فيما بعد أمامه ، وحمل تصديقه النهائي قبل وفاته^(١٣) ، ولان القصص القرآني انما هو أنباء وأحداث تاريخية ، لم تتبس بشيء من الخيال ، ولم يدخل عليها شيء من غير الواقع^(١٤) .

ثم ان الله — سبحانه وتعالى — قد تعهد ، كما أشرنا آنفا ، بحفظه دون تحريف أو تبديل ، ومن ثم فلم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها الى حفظ الناس^(١٥) ، فقال تعالى «والربيانون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله»^(١٦) ، أى بما طلب اليهم حفظه .

(١٠) سورة الحجر : آية ٩ ، وانظر تفسير الطبرى ٦/١٤ - ٨ ، تفسير روح المعاني ١٦/١٤ ، تفسير الكشاف ٥٧٠/٢ ، تفسير الفخر الرازى ١٥٨/١٩ - ١٥٩ ، تفسير الطبرى ١١/١٤ - ٢٤ ، تفسير النسفى ٢٤/٣ ، تفسير الدر المنثور للسيوطى ٩٤/٤ - ٩٥ ، تفسير ابن كثير ٣٤٤/٤ - ٣٣٥ .

(١١) سورة القيامة : آية ١٧ - ١٩ .

(١٢) طه حسين : الادب الجاهلى - القاهرة ١٩٣٣ ص ٦٨ .

(١٣) محمد عبد الله دراز : مدخل الى القرآن الكريم ص ٤٩ .

(١٤) عبد الكريم الخطيب : القصص القرآني - القاهرة ١٩٦٤ ص ٥٢ .

(١٥) محمد عبد الله دراز : الدنيا العظيم ص ١٢ - ١٤ .

(١٦) سورة المائدة : آية ٤٤ ، وانظر تفسير الطبرى ١٠/٣٢٨ -

٣٥٨ ، تفسير القرطبي ص ٢١٨٥ - ٢١٨٨ ، تفسير ابن كثير ٢/١٠٥ -

١١٢ ، في ظلال القرآن ٢/٨٩٦ ، تفسير النسفى ١/٢٨٤ - ٢٨٥ ، تفسير

المنار ٦/٣٢٨ - ٣٣٠ ، صفوة التفاسير ١/٣٤٥ .

والسر في ذلك أن سائر الكتب السماوية انما جئ بها على التوقيت، لا التأييد ، وأن هذا القرآن جئ به مصداقا لما بين يديه من الكتب . ومهيمننا عليها ، وصدق الله العظيم حيث يقول «وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمننا عليه» ومن هنا كان القرآن الكريم جامعا لما في هذه الكتب من الحقائق الثابتة ، زائدا عليها ما شاء الله زيادته ، وكان سادا مسدها ولم يكن شئ منها يسد مسده ، ففضى الله أن يبقى حجة الى يوم القيامة ، واذا قضى الله أمرا يسر له أسبابه، وهو الحكيم العليم (١٧) .

ومع ذلك — ويا للعجب — فإن ميدان الدراسة في التاريخ القديم قد حرم من هذا المنهل الغزير ، ربما لان هذا الميدان قد ظل الى عهد قريب يتصدر الطلبة فيه العلماء الاوربيون ، ومن تحا نحوهم من العلماء العرب ، وأن هؤلاء وأولئك لم يتطرقوا في دراساتهم الى الاحداث التاريخية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم ، وربما لان هذه الدراسة بعيدة عن أهدافهم في البحث ، أو أن مجال البحث فيها قد لا يستهويهم لسبب أو لآخر ، وأيا ما كان السبب ، فإن ميدان البحث في التاريخ القديم، انما قد خسر بذلك أصح مصادره وأصدقها على وجه الاطلاق . ومن عجب فإن المؤرخين المحدثين — الاوربيين منهم والعرب — انما ينظرون الى التوراة وكأنها المصدر الاساسي لدراسة فترة معينة من تاريخ الشرق الادنى القديم ، رغم أنهم يجمعون — أو يكادون — على أنها غير موثوقة السند ، ورغم أن هناك الكثير من الابحاث التي كتبها المؤمنون بالتوراة ، فضلا عن غير المؤمنين بها ، وهي جميعا انما تثير جدلا حول وثاقة نصها بل حول نسبة هذا النص لهذا الشخص أو ذاك .

ورغم ذلك كله لم يفكر واحد من هؤلاء المؤرخين في أن يرجع الى القرآن الكريم ، ذلك الكتاب السماوي العظيم ، الذي تجمع آراء العلماء في العالم كله على وثاقته نصحاً أو كما يقول «سير وليم هوير» (١٨١٩) —

(١٩٥٥) - وهو من أشد المتعصبين ضد الاسلام - «ان العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن الكريم ظل أربعة عشر قرناً كاملاً ، بنص هذا مبلغ صفائه وحقته» ، ثم يؤكد بعد ذلك أن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد ، حتى وصل إلينا بدون أى تحريف ، وأنه قد حفظ بعناية شديدة ، بحيث لم يطرأ عليه أى تغيير على الاطلاق في النسخ التي لا حصر لها ، والمتداولة في البلاد الاسلامية الواسعة ، فلم يوجد الا «قرآن» واحد ، لجميع الفرق الاسلامية في كل العصور وكل الأزمان ، وهذا الاستعمال الاجماعي لنفس النص المقبول من الجميع ، انما يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل من الله ، والموجود معنا الآن (١٨) .

ويؤكد العالم الفرنسى «لوبلوا» أن القرآن السكريم هو الكتاب الربانى الوحيد الذى ليس فيه أى تغيير (١٩) ، كما يقرر العالم الالمانى «تيودور نولدكه» (١٨٦١ - ١٩٣٠) أن النص القرآنى انما بقى على أحسن صورة من الكمال والمطابقة (٢٠) .

هذا ويؤكد العلماء في كل أنحاء العالم أن المصحف الذى كتب على أيام أبى بكر الصديق (١١ - ١٣ هـ = ٦٣٣ - ٦٣٤ م) هو نفس المصحف الذى كتب على أيام الرسول ، ﷺ ، وهو نفس المصحف الذى كتب على أيام عثمان بن عفان (٢٤ - ٣٥ هـ = ٦٤٤ - ٦٥٦ م) ، ومن ثم فإن كل قراءة قرآنية يجب أن تكون متفقة مع نصه ، وأن الشك فيه كفر ، وأن الزيادة عليه أبداً لن تجوز ، وأنه القرآن المتواتر الخالد الى يوم القيامة (٢١) .

18. B. St. Hilaire, Mahomet et le Koran, p. 33.

W. Muir, The Life of Mohammad and History of Islam.

Edinburgh 1923.

19. Lellois la Koran et la Bible Hebraique, Paris, 1887, p. 47.

20. T. Noeldeke, Geschichte des Qurans, Leipzig, 1961, p. 16.

(٢١) محمد أبو زهرة ، القرآن - القاهرة ١٩٧٠ ص ٤٣ ، تفسير القرطبي ٨٠/١ - ٨٦ ، فتاوى ابن تيمية ٤٢٠/١٣ - ٤٢١ ،

وليس هناك من ريب في أن القرآن الكريم انما يقدم لنا — عن طريق القصص القرآنى — معلومات هامة وصحيحة تهما عن عصور ما قبل الاسلام ، وأخبار دولها ، أيدتها الكشوف الحديثة كل التأييد .

وفي التاريخ المصرى القديم يقدم لنا القرآن الكريم — عن طريق قصة موسى — كثيرا من المعلومات عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مصر الفراعنة فيتحدث القرآن الكريم عن الملكية الالهية في مصر ، بل انه انما يشير بطريقة أو بأخرى ، الى أن الوهية الفرعون انما كانت موضع جدل شديد بين النبى الكريم والملك الفرعون ، بل هي الصخرة التى تحطمت عليها كل أوجه التقارب بينهما .

ولعل مما يزيد الامر أهمية أننا لانعرف بين دعوات الانبياء الكرام ، دعوة يتعرض صاحبها لزعم من أرسل اليه ، على أنه «اله الناس» ، غير موسى عليه السلام ، بل ان الفرعون انما يهدد النبى نفسه ، «لئن اتخذت الهى غيرى لاجعلنك من المسجونين» (٣٣) ، ثم يعلن للناس كافة «ما علمت لكم من اله غيرى» (٣٤) ، وعندما يتقدم موسى بآياته الكبرى ، اذا بفرعون يعلن رفضه للدعوة ، «ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الاعلى» (٣٥) .

ويقدم لنا القرآن الكريم ، عن طريق قصة موسى كذلك ، شيئا عن السحر ، الذى شاع في مصر في فترة من تاريخها القديم ، حيث نرى المصريين ، فيما تشهد قصص أدبهم ، يحبون أحاديث السحر ، وخوارق الاعمال ، وفيما نسبوه الى خوفو في «بردية وستكار» أو «قصة خوفو والسحرة» ، والتى سجلت الاثارة اليها ، من حب للسحر واقبال عليه ،

وكذا محمد حسين هيكل : حياة محمد — القاهرة ١٩٦٥ ص ٥١ — ٥٥ ،
W. Muir, Op. Cit., p. XIV-XIX

(٢٢) سورة الشعراء : آية ٢٩ .

(٢٣) سورة القصص : آية ٣٨ .

(٢٤) سورة النازعات : آية ٢٢ — ٢٤ .

ما يصور لنا كذلك ما تعلقت به أوهام الناس في المصور القديمة من خيالات يردونها الى السحر ، ويستعينون عليها •

بل ان القرآن الكريم انما يشير الى أن القوم قد برعوا في سحرهم ، لدرجة جعلتهم واثقين من نصرهم على النبي الكريم ، ومن ثم فقد خيروه ، ثقة في أنفسهم وفي سحرهم بأن يبدأ في سحره أو أن يكونوا هم البادئين ، وأعطاهم حق السبق في عرض مهارتهم ، وحين فعلوا خيل للنبي الكريم أن حبالهم وعصيمهم التي ألحقوا بها أمامه ، انما هي حية تسمى على الارض ، فأوجس من ذلك في نفسه خيفة ، لولا أن تداركته غاية الله يومئذ ثم فقد ألتهمت عصاه حبالهم وعصيمهم التي سحروا بها أعين الناس واسترهبوهم •

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة : «قالوا يا موسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين» قال القوا قلما ألحقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم وأوحينا الى موسى أن الق عصاك فإذا هي تلف ما يأفكون» (٢٥) •

هذه أمثلة ، وغيرها كثير وكثير ، مما يقدمه القرآن الكريم من حقائق ترقى فوق كل شك الى الباحثين في التاريخ المسمى القديم ، غير أن ذلك لايعنى — بحال من الاحوال — أن القرآن الكريم كتاب تاريخ ، يتحدث عن أخبار الامم ، كما يتحدث عنها المؤرخون ، وانما هو كتاب هداية وارشاد للتي هي اقوم (٢٦) ، أنزله الله سبحانه وتعالى ليكون دستوراً للمسلمين في حياتهم ويدعوهم الى التوحيد (٢٧) ، والى تهذيب النفوس ،

(٢٥) انظر : سورة الاعراف : آية ١١٦ - ١١٧ ، سورة طه : آية

٦٥ - ٦٧ •

(٢٦) سورة الاسراء : آية ٩ •

(٢٧) انظر : سورة نوح : آية ٢٠ ، سورة يوسف : آية ٣٧ - ٤٠ ،

سورة النساء : آية ١٧١ - ١٧٢ ، سورة آل عمران : آية ٥٩ ، سورة المائدة : آية ٧١ - ٧٦ •

والى وضع مبادئ للاخلاق^(٢٨) ، وميزان للعدالة^(٢٩) ، واستتباط لبعض الاحكام^(٣٠) ، فاذا ما عرض لحادثة تاريخية فانما للمعبرة والعظة^(٣١) .

ومع ذلك فيجب ألا يغيب عن بالنا ، دائما وأبدا ، أن القصص القرآني أن هو الا الحق الصراح ، وصدق الله العظيم حيث يقول : «ومن أصدق من الله حديثا»^(٣٢) ، ويقول «ان هذا هو القصص الحق»^(٣٣) ، ويقول «نحن نقص عليك نبأهم بالحق»^(٣٤) ، ويقول «والذى أوحينا اليك من الكتاب هو الحق»^(٣٥) ، ويقول «انا نزلنا اليك الكتاب بالحق»^(٣٦) ، ويقول «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون»^(٣٧) .

وايماننا وبقينا بكل هذه الآيات الكريمة ، يمكننا القول ، على وجه اليقين ، أن القرآن الكريم هو الذى يصدق الاحداث التاريخية ، وليست الاحداث التاريخية هى التى تصدق القرآن الكريم ، فهو كتاب الله الذى «لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه» تنزيل من حكيم حميد^(٣٨) .

وانطلاقا من هذا يمكننا أن ننظر الى ما جاء فى قصة يوسف عليه السلام ، عن السنوات السبع العجاف التى كانت ستحل بالبلاد ، لولا رحمة الله وحكمة الصديق عليه السلام .

(٢٨) انظر : سورة البقرة ٤٤ ، سورة الاعراف : آية ٨٥ - ٨٨ ، سورة هود : آية ٨٤ - ٨٨ .

(٢٩) انظر مثلا : قصة داود (سورة ص : آية ٢١ - ٢٦) .

(٣٠) انظر : سورة المائدة : آية ٢٧ - ٣٢ ، ٤٢ - ٥٠ ، سورة البقرة : آية ١٧٨ - ١٧٩ .

(٣١) انظر عن أهداف القرآن مقاصده (تفسير المنار ٢٠٦/١ - ٢٩٣) .

(٣٢) سورة النساء : آية ٨٧ .

(٣٣) سورة آل عمران : آية ٦٢ .

(٣٤) سورة الكهف : آية ١٣ .

(٣٥) سورة فاطر : آية ٣١ .

(٣٦) سورة الزمر : آية ٢ ، ٤١ .

(٣٧) سورة الجاثية : آية ٦ .

(٣٨) سورة فصلت : آية ٤٢ .

يقول الله تعالى: «وقال الملك انى ارى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وآخر يابسات ، يا أيها الملا افقتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون» قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين» وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا انبئكم بتأويله فأرسلون ، يوسف أيها الصديق افقتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وآخر يابسات ، لعلنى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون ، قال قززعون سبع سنين دأبا ، فما حضتم فذروه فى سنبله ، الا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمت لهن ، الا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه ينفاث الناس وفيه يعصرون» (٣٩) .

وقال الامام الزمخشري : تأول عليه السلام البقرات السمان ، والسنبلات الخضر ، بسنين مقاصيب ، والعجاف اليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيئ مباركاً خصيباً ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي (٤٠) ، لان هذا العام الثامن لا يقابله رمز فى رؤيا الملك ، فهو اذن من العظم اللدنى ، الذى علمه الله يوسف ، فبشر به من أرسله الملك ليبشر به الملك والناس جميعاً ، بالخلاص من الجذب والجوع بعام رضى رغيد .

والمعروف من أحداث التاريخ المصرى ، أن مصر انما كانت عرضة للمجاعات ، وفقرات من تدهور الانتاج الزراعى والحيوانى على مر العصور ، وقد كان ذلك فى أغلب الاحايين من آثار اضطراب النيل

- (٣٩) سورة يوسف : آية ٤٣ - ٤٩ ، وانظر : تفسير الطبرى ١٦ / ١١٦ - ١٣٢ (القاهرة - دار المعارف ١٩٦٩) ، تفسير المنار ١٢ / ٢٦١ - ٢٦٤ (القاهرة ١٩٧٣) ، فى ظلال القرآن ٤ / ١٩٩٢ - ١٩٩٤ (بيروت ١٩٨١) ، تفسير الجلالين ص ٣١٠ - ٣١٢ (بيروت ١٩٨٥) ، تفسير القرطبي ص ٣٤٢٧ - ٣٤٣٤ (القاهرة ١٩٧١) ، صفوة التفاسير ٢ / ٥٤ - ٥٦ (بيروت ١٩٨١) ، تفسير الفخر الرازى ١٨ / ١٤٧ - ١٥٣ (القاهرة ١٩٣٨) ، تفسير ابن كثير ٢ / ٧٤٢ - ٧٤٣ (بيروت ١٩٨٦) ، تفسير النسفى ٢ / ٢٢٢ - ٢٢٥ (دار الفكر - بيروت ١٩٨٤) .

(٤٠) الزمخشري : تفسير الكشاف ٢٠ / ٤٧٧ (القاهرة ١٩٦٦) .

وامتناع فيضه ، واخلاقه بالوفاء ، كما تعود وتعود منه الناس كل عام ، فاذا ماتدهور وأقام على نقائصه ، لم تكد مياهه لتصل الى الارض التي تتحرق شوقا اليه ، وتنتظر العام كله أو جله للقاءه ، فعندئذ فلا رى ولا استقبات ، ثم لا زرع ولا ضرع ، فتكون الكارثة التي تنزل بالبلاد والعباد (٤١) .

والتاريخ يحدثننا أن الله تعالى ما جعل بلدا في العالم ، تتوقف حياته ووجوده ، ومصيره ومستقبله ، في السلم أو في الحرب أو يرتبط سكانه وتاريخه ، بنهر ، مثلما تفعل مصر والنيل يومين ثم اذا ما بلغ النيل في فيضه أحيانا فتعظم أمواجه ، وتضرى أمواجه ، فاذا هو يندفع طولها غنيفا مدمرا مغرقا كل شيء ، ثم لا يكاد ينحصر عن الارض ، الا وقد انقضى من أوان البذر وقت ، قد يكون على الانتاج أيام الحصاد سوى المسغبة ، وأن لم يبلغ ذلك في سوئه مبلغ نقض الماء ، ذلك أن النهر أن هبط عن معدله الطبيعي ، فهي «الشدة» التي قد تصل الى «المجاعة» ، واذا كان الفيض المغرق يعنى «الطاعون» فإن المجاعة تعنى «الموتان» ، الذى قد ينتشر معه الطاعون بدوره بعد ذلك ، حتى يتناقص السكان بدرجة مضيئة (٤٢) .

ويقدم لنا التاريخ المصرى أمثلة كثيرة لانخفاض النيل في مصر قبل وبعد عصر يوسف عليه السلام ، وما ينتج عن ذلك من كوارث اقتصادية ، ومن أسود الأمثلة ، ما حدث على أيام النبوذة الاجتماعية الأولى (الاسرات ٧ - ١٠) ، يقول المتنبى «نفرتى» : «لقد جف نيل مصر حتى ليخوضه الناس بالقدم ، وسوف يبحث الناس عن الماء لتجرى عليه

(٤١) انظر : احمد عبد الحميد يوسف : مصر في القرآن والسنة - القاهرة ١٩٧٣ ص ٥٥ ، تفسير ابن كثير ٢/٢٢١ ، تفسير النسقى ٢/٢٨٨ ، تفسير القرطبي ص ٣٤٤٦ - ٣٤٤٧ ، صفوة التفسير ٢/٥٧ .
(٤٢) جمال حمدان : شخصية مصر - القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٤١ - ٢٤٥ .

السفن ، فيجدوا أن الطريق صار شاطئاً ، وأن الشاطئ قد صار ماء» (٤٣) .

وهكذا رأينا «عنخ تفي» حاكم «نخن» (٤٤) في نفس الفترة يتحدث عن سنى المجاعة فيقول ، أنه أمد خلالها مدناً أخرى ، إلى جانب مدينته ، بالهبات والمقح ، وقد امتدت دائرة نشاطه حتى «ندرة» (على مبعدة

43. Erman, (A.), The Literature of the Ancient Egyptian London, 1927, p. 113.

(٤٤) نخن : أو مخن هو اسم عاصمة مصر العليا فيما قبل التوحيد ، وقد ترجمها «كورت ريت» بمعنى الحصن وقد تغير الاسم في العصر الاغريقى الى «هيراكوبوليس» بمعنى مدينة الصقر ، رمز الاله الباشق «حورس» الذى كان الاله الرئيسى فيها ، وموقعها الآن على حافة الصحراء الغربية ، على مبعدة ١٧ كيلا شمالى ادفو ، بمحافظة أسوان ، ويفصله عن النيل قريتي المويسات والجمعاوية وترعة الرمادى ، وينواجهها على الضفة الشرقية للنيل مدينة «نخب» (الكاب) .

ويرجع تاريخ «نخن» (البصيلية) الى عصر ما قبل الاسرات ، فقد عمرت منذ عصر البدارى ، وأثناء عصرى نقادة ، وعند بداية التاريخ قامت مصر العليا بتكوين اتحاد ، كانت عاصمته «نخن» ومعبوده الاله «حور» الذى رمز له بالصقر ، وكان معبودا أصيلا هناك فيما يرى البعض ، وقد تجمع حكام مصر العليا (الصعيد) وكذا الآلهة المحلية ، والذين أطلق عليهم «أتباع حور» وقد عرفوا في التاريخ باسم أصحاب «مملكة مصر العليا» وعلى أيديهم تحققت وحدة مصر كلها ، تحت قيادة الملك «مينا» مكونين أول أسرة ملكية في التاريخ البشرى ، حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، وذلك بدءا المظهر الختامى لتاريخ ما قبل الاسرات من «نخن» (هيراكوبوليس البصيلية) ، وانتهى بغزو مصر السفلى على يد الملك «مينا» ، ثم توحيد القطرين .

هذا وقد ظلت «نخن» محتفظة بمركزها السياسى طوال عصر التأسيس (الاسرتين الاولى والثانية) ، ثم عاصمة للاقليم الثالث من قاليم الصعيد (مصر العليا) ، حتى سلمت الراية الى مدينة «الكاب» ، وهذه بدورها قد سلمتها الى «اسنا» في عصر البطالمة ، انظر : محمد بيومى مهران : مصر - الكتاب الاول - الاسكندرية ١٩٨٢ ص ٣٠٥ - ٣٢٣ ،

Gardiner, (A. H.), Oram., I, Oxford, 1947, N. 320.

Quibell, (J. E.) and Green. (F. W.), Hierakonpolis. I, II, London, 1900-1902.

Kess, (H.), Goetterglaube, Leipzig, 1941, p. 178.

Sethe, (K.), in ZAS, LIII, p. 55 F.

Wilson, (J. A.), Buto and Hierakonopolis in The Geography of Egypt, in JNES, 14, 1955, p. 209-236.

ه كـيلا شمال غرب مدينة قنا عبر النهر) بهذا أنقذ الصعيد الأقصى الذي كاد أن يموت جوعا ، حتى ليكاد كل رجل هناك أن يفتال أطفاله» (٤٥) .

على أن المصريين اكتسبوا من ذلك حكمة التجربة وحسن التدبير؛ إذ كانوا يدخرون غلة الأرض من الرى لايام الجفاف ، ومن يسرهم لمسرهم ، ومن رخاهم لشدتهم ، وكانت حكمة الملوك والامراء وحكام الاقاليم وحسن تدبيرهم ، خليقا أن يخفف عن الرعية بما كانوا يصنعون (٤٦) .

ومن ثم فقد رأينا «خيتى» أمير أسيوط ، على أيام الالهناسين يقول : اننى غنى بقمح الشمال حيث كانت الأرض فى جفاف ، وعندما شحت أقوات البلاد أمددت المدينة بالحبوب والخبز ، وسمحت لكل مواطن أن يأخذ نصيبه ونصيب زوجته ، وقد أعطيت الارملة وولدها، وتجاوزت عن الضرائب التى فرضها أبى بوملات المراعى بالمواشى» (٤٧)

ويقول «ببى» أمير الكاب من الاسرة الثالثة عشرة ، التى سبقت قليلا جدا عصر يوسف عليه السلام ، وربما قد عاصرت ، أو عاصرت أوائله ، يقول «لقد كنت أكس القمح المطلوب ، وكنت يقطا فى فصل البذر ، فلما وقعت المجاعة على مدى الكثير من السنين ، أعطيت مدينتى القمح فى كل مجاعة» (٤٨) .

على أن العلماء ، على كثرة ما قرأوا من أخبار المجاعات فى مصر

45. Gardiner, (A. H.), Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. III. Breasted, (J. H.), ARE, I, 9906, p. 181.

(٤٦) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ٥٧ - ٥٨ .
(٤٧) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر
الفرعنة ص ١٢٨ - ١٣٩ .

48. Vandier, (J.), La Famine dans l'Egypte Ancienne, le Caire, 1936, p. 101 F.

التقدمة ٤. انما يقفون خاصة موقف الفلاحين من مجاعة نقشت أخبارها على الصخر في جزيرة سهيل جنوبي أسوان ، ولئن كان الخير منسوبا الى أيام الملك «زوسر» من الأسرة الثالثة، فالذى لا شك فيه انما نقش بعده بعشرين قرنا ، نقشه كهان المعبود «خنوم» ربما عام ١٨٧ ق م ، على أيام «بطليموس الخامس» (٢٠٥ - ١٨٠ ق م) ، وربما المعاصر (١٠٧ - ٨٨ ق م) ، في أكبر الظن .

وربما غير بعيد أن يكون النص صوتا من واقع بعيد ، يرجع الى أيام يوسف عليه السلام ، وأن كهان «خنوم» حين كتبوه ، انما كانوا تحت تأثير ما كان شائعا يومئذ من أصداء الماضي السحيق ، وبما ورد في التوراة^(٤٩) من أصداء السنين السبع الشداد التي جرت بها السنة من كان بمصر من يهود يومئذ ، بخاصة وأن الترجمة السبعينية للتوراة^(٥٠) ، انما تمت بمصر على أيام بطليموس الثاني (٢٨٤ - ٢٤٦ ق م) ، وأن هناك جالية يهودية كانت تقيم في «إليسانتين» (جزيرة أسوان) ، وتطل من حيث الموقع على جزيرة سهيل ، حيث نقش نص المجاعة^(٥١) .

وعلى أية حال ، وأيا ما كان أمر هذه المجاعات التي كانت بسبب عدم فيضان النيل ، فإن المجاعة التي كانت ستحدث على أيام يوسف الصديق عليه السلام في عهد الهكسوس ، انما كانت حقيقة لا ريب فيها. لولا أن تداركت رحمة الله أرض الكنانة بحكمة نبي الله يوسف الصديق ،

(٤٩) تكوين ١/٤١ - ٥٧ .

(٥٠) انظر عن «الترجمة السبعينية للتوراة»: (محمد بيومي مهران:

اسرائيل ١٠٧/٣ - ١١٢) .

(٥١) انظر عن «الجالية اليهودية في أسوان» (محمد بيومي مهران:

اسرائيل ١٠٧/٢ - ١١٠٢) .

انظر عن : نقش المجاعة على جزيرة سهيل جنوبي أسوان (محمد بيومي مهران : مصر ٣٦٣/١ - ٣٦٦ ،

Wilson, (J. A.), ANET, 1966, p. 31-32.

Parguet, (P.), La Stèle de la Famine a Saad, Cairo, 1935.

Vandier, (J.), Op. Cit., p. 132-139.

ومن ثم فقد كانت أيلام الصديق في مصر خيرا كلها - دينا ودينيا - بل إن وجود يوسف في مصر ، حينما من الدهر ، شرف ما بعده شرف ، وأن دعوته إنما كانت رحمة وهداية للمصريين ، ما في ذلك من ريب ، وأن الصديق عليه السلام ، قد أنقذ الله به مصر من مجاعة محققة ، كادت تهلك الحرث والنسل ، وأنه ، عليه السلام ، قد نشر في مصر دعوة التوحيد ، وبث العقيدة الصحيحة ، ما في ذلك شبهة من شك .

وهكذا حمل الصديق عليه السلام ، الى مصر ، نور الايمان، وهداية التوحيد ، وعدالة الله رب العالمين ، وكل ما هو خير وطيب من نعم الله التي يجريها سبحانه وتعالى ، على أيدي المصطفين الاخيار من أنبيائه الكرام ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ولعل من الاهمية بمكان الإشارة الى أن دعوة التوحيد ، التي نادى بها يوسف الصديق عليه السلام ، إنما قد انفرد بها القرآن الكريم ، من دون التوراة ، فالقرآن العظيم إنما يشير الى أن الصديق إنما قد انتهر الثقة المكيبة التي اكتسبها بين السجناء ، بسبب تأويل الرؤيا ونفسير الاحلام ، فيقوم بدعوته الدينية ، شارحا عقيدة الانبياء جميعا في وحدانية الله الخالق العظيم ، وهاتفا بمستمعيه^(٥٢) «إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبع ملة آباءى ابراهيم واسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبى السجن أرباب متفرقون خير ، أم الله الواحد القهار ، ماتعبدون من دون الله الا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون»^(٥٣) .

(٥٢) - محمد رجب البيومي : البيان القرآني ص ٢٢٥ ، عبد الوهاب النجار : قصص الانبياء - القاهرة ١٩٦٦ ص ١٤٠ .
(٥٣) - سورة يوسف : آية ٣٧ - ٤٠ ، وانظر : تفسير الطبري ١٠٠/١٦ - ١٠٦ ، تفسير المنار ١٢/٢٥٠ - ٢٥٦ ، صفوة التفاسير ٥٦/٢ - ٥٢ ،

وذلك لان يوسف عليه السلام ، لم يكن عالما يؤول الرؤيا فحسب ، بل كان رسولا نبيا أرسله الله هاديا للناس في دنياهم وآخرتهم ومعاشهم ومعادهم ، فما كان يرى فرصة يتنفس فيها برسالته ، الا انتهزها ، ولا نهزة صالحة للدعوة الا علق بها^(٥٤) ، ولهذا فلاشارة الى الاخرة في قصة يوسف مقصورة على القرآن^(٥٥) ، من دون التوراة .

أضف الى ذلك ، أن القرآن الكريم انما يتحدث بوضوح عن رسالة يوسف عليه السلام ، أثناء عرضه لقصة موسى عليه السلام ، يقول تعالى «ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبيانات ، فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب»^(٥٦) .

وفي الواقع انها المرة الوحيدة في القرآن الكريم التي يشار فيها الى رسالة يوسف عليه السلام ، للمقوم في مصر ، وقد عرفنا من سورة يوسف أنه وصل الى أن يكون على خزائن الارض أمينا ، وأنه أصبح «عزيز مصر»^(٥٧) .

وهي أول دعوة لنبي في مصر ، جاء ذكرها في القرآن الكريم ، فما حدثنا القرآن الكريم عن أنبياء بعثوا في مصر قبل يوسف ، وان أشار

=
تفسير البيضاوي ١/٢٦٤ - ٢٦٥ ، تفسير البحر المحيط ٥/٣٠٦ - ٣٠٩ ، تفسير النسفي ٢/٢٢٢ - ٢٢٣ ، تفسير ابن كثير ٢/٧٣٩ - ٧٤١ ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٤/١٩ - ٢٠ .

(٥٤) محمد جاد المولى وآخرون : قصص القرآن ص ١٠٣ .

(٥٥) سورة يوسف : آية ٥٧ .

(٥٦) سورة غافر : آية ٣٤ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٤/١١٩ - ١٢٠ ، في ظلال القرآن ٥/٣٠٨١ ، صفوة التفاسير ٣/١٠٢ ، تفسير البحر المحيط ٧/٤٦٤ - ٤٦٥ ، تفسير القرطبي ص ٥٧٥٦ - ٥٧٥٧ ، تفسير النسفي ٤/٧٨ - ٧٩ .

(٥٧) في ظلال القرآن ٥/٣٠٨١ .

الحديث الشريف الى زيارة أبى الانبياء ، ابراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام ، لمصر (٥٨) .

٢ - الحديث الشريف :

الحديث هو ما ورد عن سيدنا رسول الله ، ﷺ ، من قول أو فعل أو تقرير (٥٩) ، وللحديث مكانة كبرى في الدين تلى مرتبة القرآن الكريم مباشرة ، وصدق رسول الله ، ﷺ ، حيث يقول «تركتم فيكم أمري ، لن تضلوا ما تمسكتم بهما بعدى أبدا ، كتاب الله وسنتي» (٦٠) .

والحديث الشريف مفسر القرآن ، ذلك أن كثيرا من آيات الذكر الحكيم مجملة أو مطلقة أو عامة ، فجاء رسول الله ، ﷺ ، فبينها أو قيدها أو خصصها (٦١) ، قال الله تعالى «وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم» (٦٢) ، ومن هنا كان الحديث هو المصدر الثانى للشرعة الاسلامية ، ثم هو أصدق المصادر التاريخية ، بعد القرآن الكريم (٦٣) .

ولاريب في أننا نجد في الحديث الشريف تفسيرا لكثير من الاحداث التاريخية التى تعرض لها القرآن الكريم عن مصر ، كقصة يوسف ، وقصة موسى ، عليهما السلام ، فضلا عن الحديث عن مصر نفسها، وكما أشرنا من قبل ، فإن سيدنا ومولانا محمد رسول الله ، ﷺ ، إنما قد بشر المسلمين بفتح مصر ، فقال ، ﷺ ، «إذا افتتحت مصر غلبتكم» ، «بأهلها خيرا ، فإن لهم ذمة ورحما» وفى رواية «ستفتح عليكم بعدى

(٥٨) انظر : صحيح البخارى ١٧١/٤ ، ٢٧/٩ ، ٢٨ (دار الحديث - القاهرة) ، فتح البارى ٣٩٤/٦ .

(٥٩) انظر : تعريفات أخرى (مصطفى السباعى : السنة ومكانتها في التشريع الاسلامى - القاهرة ١٩٦١ ص ٥٩ - ٦٠ .

(٦٠) الحديث رواه أصحاب السنن .

(٦١) فتاوى ابن تيمية ٤٤٣/١٥ ، ١٩/١٣ ، ٤٣١/١٧ - ٤٣٢ (الرياض ١٣٨٣/٨١هـ) .

(٦٢) سورة النحل : آية ٤٤ .

(٦٣) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن الحديث الشريف (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الاول - الرياض ١٩٨٠ ص ٨٩ - ٩٨) .

مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لكم منهم صهرا وذمة» ، وفي رواية
ثالثة «ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا ،
فان لهم ذمة ورحما» (٦٤) .

وأما الذمة ، فان «مارية» أم ابراهيم ، ولد المصطفى ، ﷺ ، انما
كانت امرأة صعيدية من قرية ، بمحافظة المنيا ، تعرف الان باسم «قرية
الشيخ عبادة» ، نسبة الى الصحابي الجليل «عبادة بن الصامت» الذي
بنى بها مسجدا ، فعرفت القرية به (٦٥) ، وأما الرحم ، فان «هاجر»
رضي الله عنها ، زوج أبى الانبياء ابراهيم ، وأم ولده اسماعيل ، عليهما
السلام ، مصرية كذلك (٦٦) .

هذا وقد حدثنا الرسول ، ﷺ ، كذلك ، عن امرأة فرعون ، التي
احتضنت موسى عليه السلام وآمنت به ثم ضربت المثل الاعلى للمرأة
في كل عصر ، حين وقفت مع الحق ، أيا كان الثمن ، وأيا كان من تقف
ضده ، حتى وان كان زوجها فرعون مصر ، أعظم ملوك الارض وقت
ذاك ، حتى ضرب الله بها المثل للمؤمنين .

والتاريخ يحدثنا أن تلك السيدة الجليلة ، قد استطاعت أن تحرر
فكرها ووجدانها من كل الاواصر والمؤثرات والقيود ، فترفض أن تسير
في ركاب زوجها الفرعون ، وأن تنساق في تيار المجتمع الذي تعيش فيه ،
بل وتعلن عن موقفها في ثبات وايمان ، بعد أن اتضح لها ضلال فرعون
وكفره ، وتبين لها الحق في دعوة موسى ، رغم ضغط المجتمع وشدة
وطئه ، ورغم مغريات الحياة الرخية الناعمة في قصر أعظم ملوك الارض ،
ورغم آصرة الزوجية التي تربطها بفرعون ، فكانت مثلا للشخصية

(٦٤) انظر: صحيح مسلم ١٩٧/٤ ، الكندى : فضائل مصر - القاهرة
١٩٧١ ص ٢٦ - ٢٧ ، سيرة ابن هشام ٦/١ - ٧ ، طبقات ابن سعد
٩٢/١ - ٩٣ .

(٦٥) ياقوت الحموى : معجم البلدان ٣٨١/١ ، ٢٩٥/٢ (بيروت
١٩٥٥) القاموس الجغرافي ٢٣٢/١ .
(٦٦) الكندى : المرجع السابق ص ٢٧ - ٢٨ .

الانسانية المستقلة في الايمان بالمبادئ والقيم^(٦٧) ، وصدق الله العظيم حيث يقول «وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ، اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين»^(٦٨) .

ويقول صاحب الملال ، عن امرأة فرعون ، فى تفسيره لهذه الآية : وافراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران ، يدل على المكانة العالية التى جعلتها قرينة مريم فى الذكر ، بسبب الملابس التى اياها التى اشرنا اليها ، وهما الاثنتان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة للمتصدقة للقائته ، يضرب بهما الله لأزواج النبى ، ﷺ ، بمناسبة الحادث الذى نزلت فيه آياته صدر سورة التحريم ، ويضربهما للمؤمنات من بعد فى كل جيل^(٦٩) .

ومن هنا يروى الامام مسلم بسنده فى صحيحه عن أبى موسى قال : قال رسول الله ، ﷺ «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء ، خیر مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون»^(٧٠) .

وروى الامام البخارى فى صحيحه (باب قول الله تعالى : وضرب الله مثلا امرأة فرعون الى قوله : وكانت من القانتين) عن أبى موسى رضى الله عنه ، قال قال رسول الله ، ﷺ ، «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء ، الا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وان فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(٧١) .

(٦٧) التهامى نقرة : المرجع السابق ص ٤٠١ .
 (٦٨) سورة التحريم : آية ١١ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٦١٥/٤ - ٦١٦ ، صفوة التفسير ٤١٢/٣ ، تفسير القرطبي ص ٦٦٨١ - ٦٦٨٢ ، تفسير البحر المحيط ٢٩٥/٨ ، تفسير النسخى ٢٧٢/٤ ، فى ظلال القرآن ٣٦٢١/٦ - ٣٦٢٢ .
 (٦٩) فى ظلال القرآن ٣٦٢٢/٦ ، وانظر ٣٦٠٨/٦ - ٣٧٢٢ (بيروت ١٩٨١) .
 (٧٠) صحيح مسلم ١٩٨/١٥ (دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨١) .
 (٧١) صحيح البخارى ٩٢/٤ - ١٩٣ (دار الجيل - بيروت) .

وروى الامام أحمد في المسند والفضائل ، والترمذى في السنن .
والحاكم في المستدرک ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن عبد البر في
الاستيعاب وغيرهم ، عن أنس أن النبي ﷺ قال : حسبك من نساء
العالمين : مريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد
وآسية امرأة فرعون» (٧٣) .

وأخرج الامام أحمد في الفضائل ، والحاكم في المستدرک أن عائشة
قالت لفاطمة بنت رسول الله ، ﷺ : ألا أبشرك ، انى سمعت رسول
الله ﷺ ، يقول : سيدات نساء أهل الجنة أربع : مريم بنت عمران :
وفاطمة بنت رسول الله ، وخديجة بنت خويلد وآسية امرأة فرعون» (٧٣) .

٣ - كتب التفسير :

نزل القرآن الكريم بلغة العرب ، وعلى أساليب العرب وكلامهم (٧٤) ،
قال تعالى «أنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون» (٧٥) وهذا أمر طبيعي
لأنه أتى يدعو العرب - بادئ ذي بدء - ثم الناس كافة ، الى الاسلام ،
ومن ثم فلا بد أن يكون بلغة يفهمونها تصديقا لقوله تعالى «وما أرسلنا
من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم» (٧٦) .

هذا ورغم أن القرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين ، وفى بيئة عربية
كانت تفاخر من نواحي الحضارة بفن القول ، فانه لم يكن كله فى متناول
الصحابة جميعا ، يستطيعون أن يفهموه اجمالا وتفصيلا بمجرد سماعه ،

(٧٢) مسند الامام أحمد ١٣٥/٣ ، الامام أحمد بن حنبل ، كتاب
فضائل الصحابة - الجزء الثانى - بيروت ١٩٨٣ ص ٧٥٥ ، سنن الترمذى
٧٠٢/٥ ، ابن حبان ص ٥٤٩ ، المستدرک للحاكم ١٥٧/٣ ، أبو نعيم
الاصفهانى حلية الاولياء وطبقات الاصفياء - الجزء الثانى - دار الفكر -
بيروت ١٩٨٤ ص ٣٤٤ ، ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الاصحاب
٣٧٧/٤ ، مجمع الزوائد للهيثمى ٢٢٣/٩ .
(٧٣) الامام أحمد بن حنبل : كتاب فضائل الصحابة ٧٦٠/٢ (بيروت
١٩٨٣) .

(٧٤) ابن قتبية : تاويل مشكلات القرآن ص ٦٢ .

(٧٥) سورة يوسف : آية ٢ .

(٧٦) سورة ابراهيم : آية ٤ .

لان العرب كما يقول ابن قتيبة^(٧٧) ، لا تستوى في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه بل ان بعضها يفضل في ذلك على بعض^(٧٨) .

غير أن هذا لا يمنعنا من القول بأن الصحابة ، رضوان الله عليهم ، كانوا أقدر الناس على فهم القرآن ، لانه نزل بلغتهم ، ولانهم شاهدوا الظروف التي نزل فيها ومع ذلك فقد اختلفوا في الفهم حسب اختلافهم في أدوات الفهم ، وذلك لاسباب ، منها أنهم كانوا يعرفون العربية على تفاوت فيما بينهم ، وان كانت العربية لغتهم ، ومنها أن منهم من كان بلازم النبي ، ﷺ ، وقيم بجانبه ، ويشاهد الاسباب التي دعت الى نزول الآية ، ومنهم من ليس كذلك^(٧٩) .

وهكذا نشأ علم التفسير لفهم القرآن وتدبر مولى البيان ما أوجز فيه ، أو ما أشير اليه اشارات غامضة ، أو لما غمض علينا من تشابيه واستعاراته وألفاظه ، أو لشرح حكمه^(٨٠) هذا وقد نشأ علم التفسير في عصر الرسول ، ﷺ ، فكان النبي أول المفسرين للقرآن ، ثم تابعه أصحابه من بعده^(٨١) ، على أساس أنهم الواقفون على أسرارهم المهتدون بهدى النبي ، ﷺ^(٨٢) .

ولعل أشهر المفسرين من الصحابة ، سيدنا الامام علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه في الجنة ، ورضي الله عنه ، وعبد الله بن عباس ، جبر

-
- (٧٧) ابن قتيبة : رسالة في المسائل والاجوبة ص ٨ ، ثم قارن : مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٦ .
- (٧٨) قدم المؤلف دراسة عن التفسير (انظر : محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٩٩/١ - ١١٢ ، الرياض ١٩٨٠) .
- (٧٩) أحمد أمين : فجر الاسلام - بيروت ١٩٦٩ ص ١٩٧ - ١٩٨ .
- (٨٠) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية - بيروت ١٦٤ ص ١٦ ، وانظر : الزركشي : البرهان في علوم القرآن ١٣/٢ .
- (٨١) فتاوى ابن تيمية ١٣/١٣ - ٣٣٣ .
- (٨٢) انظر : شروط المفسر وآدابه (السيوطي ثلاثان في علوم القرآن ١٨٧/٢ - ١٨٩ ، الصابوني : التبيان في علوم القرآن - بيروت ١٩٧٠ ص ١٧٧ - ١٨١ ، تفسير المنار ١٧/١ - ٢٦ .

الأمة وترجمان القرآن — وعبد الله بن مسعود ، رضى الله عنهم
أجمعين (٨٢) .

وفي عصر التابعين تضخم التفسير بالاسرائيليات والمنصرانيات لسبب
أو لاخر ، جما دفع الامام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـ) الى أن يقول
«ثلاثة ليس لها أصل ، التفسير والملاحم والمغازي» «لأن ليس لها اسناد ،
لأن الغالب عليها المراسيل» (٨٤) ، وإلى أن يقول الامام ابن تيمية :
«الموضوعات في كتب التفسير كثيرة» (٨٥) .

ومع ذلك ، ورغم هذه الشوائب ، فالذي لا شك فيه أن كتب التفسير
تحتوى على ثروة تاريخية قيمة ، فلقد قدم لنا المفسرون بعض المعلومات
التي تدل على أن سند الرواية والتواتر موصول ، فمثلا حين يحدثنا
القرآن الكريم عن ذلك المصرى الذى قتله موسى عليه السلام ، فإن
الامام النسفى انما يروى أن اسمه «قاتون» ، ولا ندري كيف استقام
لمفسرى الاسلام هذا الاسم ، الذى تدل صيغته المصرية على أن سند
الرواية والتواتر موصول ، ذلك أن اسم «قاتون» انما هو اسم مصرى
خالص ، مؤلف من اسم الشمس (أتون) ، مع «فاء التعريف» (٨٦) .

وهناك مثال آخر فى تفسير قوله تعالى «وقال فرعون يا أيها الملا
ما علمت لكم من اله غيرى ، فأوقد لى ياهايمان على الطين ، فليجعل لى
مرحبا ، فألقى لى لطلح الى اله موسى ، وأنى لاظنه من الكاذبين» (٨٧) .

ولعل من الاهمية بمكان أن نقف قليلا عند هذه الآية ، وأقوال

(٨٣) انظر عن أشهر المفسرين من الصحابة/حاجى خليفة : كشف
الظنون عن أسامى الكتب والفنون - استنبول ١٣٢١هـ ، ١٧٨/٢ ، الاتقان
فى علوم القرآن ١٨٧/٣ - ١٨٩ ، فتاوى ابن تيمية ٣٦٤/١٣ - ٣٦٦ ،
أحمد أمين : المرجع السابق ص ٢٠٢ - ٢٠٤) .

(٨٤) ابن تيمية : مقدمة فى أصول التفسير - دمشق ١٩٣٦ ص ١٤ .

(٨٥) ابن تيمية : المرجع السابق ص ١٩ .

(٨٦) تفسير النسفى ٢٢٩/٣ ، أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع

السابق ص ٩٦ - ٩٨ .

(٨٧) سورة القصص : آية ٣٨ ، وانظر : سورة هافر : آية ٣٦ .

المفسرين فيها ، ذلك لأن ما عرف عن غرائع مصر ، وما تشهده به اليوم آثارهم ، أنهم لما كانوا ينتشون ، ما شاعوا ، من الحجر ، وهو كثير وافر يفتيحهم عما سواه ، إن أرادوا ، لما ينتشون ، العوام وطول اللبثاء ، فكانوا يتخذون منه المعابد والمسلات والقبور ، ولم يصطنعوا الطوب المحروق ولغير ذلك كانوا يتخذون «الطين» من طين غير محروق ، فكانوا يتخذون منه بيوتهم ، سواء أكانت للمنية من القوم والملوك ، أم للعامة وغمار الناس ، وربما تردد القاري غير المسلم فيما يسمع من قول الله في أمر فرعون أن يوقد له هامان على الطين ، وقد عرف أن المصريين ، فيما خلفوا من آثارهم ، لم يتخذوا الآجر المحروق في البناء قبل عصر الرومان (٨٨) .

والعمل سئلا يتساءل : ماذا عن الطوب المحروق الذي جاء في الآية الكريمة على عهد فرعون موسى ، وقد سبق عصره عصر الرومان بأكثر من ألف عام ؟

يرى الامام الطبري في تاريخه عن قتادة : أن فرعون موسى كان أول من طبخ الآجر ليبنى به الصرح (٨٩) ، وروى الامام النسفي في تفسيره لقوله تعالى «فأوقد لي يا هامان على الطين» ، أي اطبخ لي الآجر واتخذ ، وإنما لم يقل مكان الطين هذا ، لأنه أول من عمل الآجر ، فهو يعلمه الصفة بهذه العبارة ، ولأنه أفصح ، وأشبه بكلام الجبارة ، إذ أمر هامان وزيره بالإيقاد على الطين منادى باسمه بـ «يا» في وسط الكلام ، دليل التعظيم والتجبر (٩٠) .

وروى الامام السيوطي (٩١) في تفسيره عن ابن أبي حاتم عن قتادة : كان فرعون أول من طبخ الآجر ، وصنع له الصرح ، وأخرج ابن المنذر

(٨٨) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(٨٩) تاريخ الطبري ٤٠٥/١ (القاهرة ١٩٦٧) .

(٩٠) تفسير النسفي ٢٣٧/٣ .

(٩١) السيوطي : الدر المختور في التفسير بالمأثور ١٢٩/٥ (طهران

١٣٧٧هـ) .

عن ابن جريج قال : فرعون أول من صنع الآجر وبني به ، وأخرج ابن عبد حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله تعالى «فأوقد لى يا هامان على الطين» ، قال : أوقد على الطين حتى يكون أجرا .

وروى الامام القرطبي عن ابن عباس ، جبر الامة وترجمان القرآن ، أن فرعون موسى كان أول من صنع الآجر وبني به (٩٢) ، وقال الامام البيضاوى : أول من اتخذ الآجر فرعون ، ولذلك أمر باتخاذ على وجه يتضمن تعليم الصنعة ، ولذا نادى هامان باسمه بـ «يا» في وسط الكلام (٩٣) ، ويقول ابن الاثير في تاريخه : أمر فرعون هامان بعمل الآجر ، وهو أول من عمله ، وجمع الصناع وعمله في سبع سنين ، وارتفع البنيان ارتفاعا لم يبلغه بنيان آخر (٩٤) ، ومن ثم فإن أكبر الظن أن المفسرين ، كما بدا لنا من قبل ، كانوا يستندون الى طائفة من الخبر الصحيح كانت بين أيديهم ، وأن اختلط ذلك بما لاقيمة له من الاوهام .

ومهما يكن من أمر ، فلقد أعثرنا الاضافير على ما يوافق أقوال المفسرين ، من حيث البناء بالآجر ، فلقد عثر «سير فلندرز بترى» على طائفة من غير مالوف المصريين من الآجر المحروق بنيت به قبور ، وأقيمت به بعض أسس المنشآت ، ترجع الى عصور الفراعين : رمسيس الثانى ومرنبتاح وسيتى الثانى ، من الاسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ - ١١٨٤ ق.م) ، وكان عثوره عليها فى «نبيشة» و «دفنة» ، غير بعيد من «بى رمسيس» (قنتير) عاصمة هؤلاء الفراعين فى شرق الدلتا .

وقال «بترى» فى ذلك : ان حرق اللبن كان نادرا الى عصر الرومان ، وهو قول لا يكاد يخالف قول المفسرين من بدء اتخاذ الآجر المحروق على عهد فرعون موسى ، وهو كذلك من قرائن القرآن الكريم التى نتخذها مطمئنين فى تحديد عصر خروج بنى اسرائيل من مصر ، على أيام

(٩٢) تفسير القرطبي ص ٥٠٠٤ .

(٩٣) تفسير البيضاوى ١٢٨/٤ (القاهرة ١٩٦٨) .

(٩٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ١٨٥/١ (بيروت ١٩٦٥) .

الاسرة التاسعة عشرة ، والتي بدأت - كما ألمح القرآن ، وأثبتت الحفائر - تصطنع في بنائها الطوب المحروق (الآجر) (٩٥) .

وهناك قصة قطع الايدي والارجل من خلاف، التي هدد بها فرعون السحرة الذين آمنوا بموسى وهارون ، قال تعالى على لسان فرعون «فإنا آمنتم قبل أن آذن لكم ، انه لكبيركم الذي علمكم السحر، فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولاصليكنم في جذوع النخل، ولتعلمن أننا أشد عذابا وأبقى» (٩٦) ، وقال تعالى «لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لاصليكنم أجمعين» (٩٧) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هذا الوعيد من فرعون لسحرته ، انما انفرد به القرآن من دون التوراة ، وهو خبر خليق بالأمميين قبوله والايمان به ، لانه تنزيل «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (٩٨) بموع ذلك فقد شاء الله أن نجد مصداقا لما بين أيدينا من القرآن ، وأن ينحدر اليها من وثائق التاريخ نص يصور وسائل التعذيب في زمان فرعون يقال ابن عباس ، رضى الله عنهما ، «كان أول من صلب هو أول من قطع الايدي والارجل من خلاف فرعون ، وقد جاءت هذه الرواية في معظم كتب التفسير» (٩٩) .

(٩٥) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ١٣٨ ، وكذا Petrie, (W. M. F.) Nebesheh and Defeneh, p. 18-19, 47.

(٩٦) سورة طه : آية ٧١ .

(٩٧) سورة الاعراف : آية ١٢٤ ، وانظر : تفسير النسفي ٧٠/٢ ، تفسير المنار ٦٢/٩ - ٦٦ ، تفسير الطبري ٣٣/١٣ - ٣٤ ، تفسير القرطبي ص ٢٦٩٦ - ٢٦٩٧ ، صفوة التفسير ٤٦٤/١ - ٤٦٥ ، تفسير البحر المحيط ٣٦٤/٤ - ٣٦٥ ، في ظلال القرآن ١٣٥٠/٣ - ١٣٥١ ، تفسير ابن كثير ٣٨١ - ٣٨٠/٢ .

(٩٨) سورة فصلت : آية ٤٢ .

(٩٩) تفسير الفخر الرازي ١٣٥/٤ ، تفسير البحر المحيط ٣٦٥/٤ ، تفسير الطبري ٣٤/١٣ ، تفسير النسفي ٧٠/٢ ، تفسير البيضاوي ٢٣/٣ ، تفسير الدر المنثور ١٠٧/٣ ، تفسير ابن كثير ٣٨٠/٢ ، البداية والنهاية في التاريخ ٢٥٨/١ .

وأما النص الذى يصور وسائل التمتع في زمان فرعون ، فقد ورد في مبد «عمدا» من بلاد النوبة المصرية ، ويرجع الى السنة الرابعة من عهد «مرنبتاح» أى حوالى عام ١٢٢٠ ق م ، ويؤكد أن مرنبتاح هذا ، والذى شاع في الناس أنه فرعون موسى (وهذا ما نميل اليه وترجمته) (١٠٠) ، إنما قطع من خلاف وصلب ، وقد نشر هذا النص الزميل الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف (١٠١) .

غير أن هناك في بعض كتب التفسير خيالا كثيرا ، وبعض روايات أقرب الى الاساطير منها الى حقائق التاريخ ، فمثلا يروى المفسرون والمؤرخون المسلمون مبالغات كثيرة في تقدير عدد رجال جيش فرعون الذى طارد به بنى اسرائيل عند خروجهم من مصر ، حتى ذهب رواية الى أن فرعون تبع بنى اسرائيل في ألف ألف (مليون) ، وأخرى ذهب الى أن الجيش كان من الفرسان ، في ألف ألف وسبعمائة حصان (مليون وسبعمائة ألف) . وتذهب رواية ثالثة الى أنهم مليون وسبعمائة ألف ، وتذهب رواية رابعة الى أنهم مليون ومائة ألف ، وتذهب رواية خامسة الى أنهم مليون وخمسمائة ألف ، بل ان رواية سادسة تذهب الى أن فرعون كان في سبعة آلاف ألف (٧ مليون) ، وكان بين يديه مائة ألف ألف نائب ، ومائة ألف ألف حراب ، ومائة ألف ألف معهم الاعمدة .

وبدهى أن سكان مصر جميعا وقت ذاك ، ربما لم يبلغوا هذا العدد ، ثم اننا ، حتى لو صدقنا مبالغات التوراة ، ومن تابعها من المفسرين عن أعداد بنى اسرائيل وقت الخروج ، فان عددهم (وهو جد مبالغ فيه) «سبعمائة ألف» ، غير الاولاد والشميوخ» (١٠٢) ، ولا يتطلب ، بحال من

(١٠٠) - انظر : محمد بيومى مهران : اسرائيل ٣١٤/١ - ٤٣٦ .
(١٠١) - أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ١١٠ ، وكذا Youssef, (A. A.), Merenptah's fourth year Text at Amada, in ASAE, LVIII, 1964, p. 273.E .

(١٠٢) - انظر : محمد بيومى مهران ، اسرائيل ٢٦٦/١ - ٣٦٨ ، ٤٤٣ - ٤٤٤ ، وكذا

Petrie, (W. M. Egypt and Israel, London, 1925, p. 41-46.

الاحوال ، هذه الملايين من جنود مصر ، لطاردتهم، ثم كيف تمكن فرعون من جمع هذه الملايين من الخيل والرجال من كل أنحاء مصر ، حين علم فجأة بخروج بنى اسرائيل ، ثم خرج وراءهم مطلزدا .

ولعل أقل الاعداد مبالغة ، تلك التى قدرها الامام النفسى ، حيث يقول : ان موسى خرج ببني اسرائيل من أول الليل ، وكانوا سبعين ألفا ، وقد استعاروا حليهم ، فركب فرعون فى ستمائة ألف من القبط ، فقص أثرهم (١٠٣) .

والامر كذلك بالنسبة الى عدد السحرة ، فلقد اضطرب الناقلون للاخبار فى عدد السحرة اضطرابا متناقضا يعجب العاقل — كما يقول أبو حيان فى بحره المحيط — من تسيطره فى الكتب ، فمن قائل تسعمائة ألف ساحر ، ومن قائل سبعين ساحرا ، لما بينهما من الاعداد المعينة المتناقضة ، كالقول بأنهم ١٢ ألف ، ١٥ ألف ، ١٧ ألف ، ٣٠ ألف ، ٨٠ ألف ، ٧٠ ألف ، على أن من أغرب الروايات أنهم كانوا ٧٢ ساحرا ، اثنان من المصريين ، ٧٠ من بنى اسرائيل ، أو تسعمائة ، ثلاثمائة من الفرس ، وثلاثمائة من الروم ، وثلاثمائة من الاسكندرية (١٠٤) .

وبدمى أن المبالغة واضحة فى هذه الاعداد ، فما كان التنافس بين السحرة وموسى يحتاج الى تسعمائة ألف ساحر ، وربما كان رقم ٧٢

Cook, (S. A.), The Rise of Israel, in CAH, II, Cambridge, 1031, p. 358.

(١٠٣) تفسير أبى السعود ٢٤٤/٦ ، تفسير البنوى ٥٨/١ ، تفسير الخازن ٥٨/١ ، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٨٤/٥ ، تفسير الطبرى ٢٧٥/١ - ٢٧٩ ، تفسير النفسى ٦٠/٣ ، تاريخ الطبرى ٤١٤/١ - ٤١٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٧٠/١ ، تاريخ يعقوبى ٣٦/١ ، ثم قارن : خروج ٥/١٤ - ٩ .

(١٠٤) انظر : تفسير الطبرى ٢٥/١٣ ، تفسير النفسى ٥٧/٣ ، تفسير الدر المنثور ١٠٦/٣ ، تفسير القرطبى ٢١٤/١١ ، تفسير البحر المحيط ٣٦٠/٤ ، ٢٦/٦ ، ابن كثير : مختصر التفسير ٤٨٦/٢ ، البداية والنهاية ٢٥٤/١ ، الكامل فى التاريخ لابن الاثير ١٠٣/١ .

ساحرا مقبولا نوعا ما ، وأما الاماكن التى جاء منها السحرة ، كبلاد
 الفرس والروم والاسكندرية ، فليت الذين كتبوا ذلك يعلمون أن
 الاسكندرية أنشئت عام ٣٣٢ ق.م ، وبعد هذه الاحداث بما يقرب من
 ألف عام ، وأن الفرس ظهروا في مصر عام ٥٢٥ ق.م ، أى بعد هذه
 الاحداث بحوالى ٧٠٠ عام بالروم بعدها بما يقرب من اثنى عشر قرنا ،
 وأن مصر كانت تموج بالسحرة ، الذين بلغوا في السحر شأوا عظيما ،
 وما كانوا في حاجة الى بنى اسرائيل ، الذين ما كانوا يعرفون علما أو
 فنا أو صناعة ، غير السخرة في بناء المدن ورعى مواشيهم ، ثم كيف
 يستعين فرعون على موسى ببنى اسرائيل ، وهو الذى جاء لانتقاذهم من
 فرعون الذى كان يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم ثم أن سياق القصة
 في القرآن الكريم يشير الى استعانة فرعون بالسحرة المصريين ، وليس
 ببنى اسرائيل .

٤ - كتب التاريخ والجغرافية :

كتب المؤرخون والجغرافيون العرب بعض صفحات من كتبهم عن
 تاريخ مصر القديم ، وذلك حين كان يتعرض الواحد منهم غالبا لقصص
 الانبياء ذوى الصلة بمصر ، كابراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وهارون
 والمسيح ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وكتاباتهم ، في معظمها ، أن لم تكن جميعها ، روايات اعتمدت في
 الدرجة الاولى على الاسرائيليات والنصرانيات ، بل وحتى هذه ، رغم
 قيمتها العلمية الضئيلة ، ان كانت ذات قيمة علمية أصلا ، لم تؤخذ من
 مصادرها الاصلية ، وانما اعتمدت على الرواية من أفواه الرجال ، وهو
 أمر لا يمكن الاطمئنان اليه ، ذلك أن رواية الاخبار ، حتى ان كانوا
 بعيدين عن الميول والاهواء ، وحتى ان كانوا من أصحاب الملكات التى
 تستطيع التمييز بين الغث والسمين ، فان للذاكرة آمادا لا تستطيع
 تجاوزها .

ولعل عذرهم في ذلك أن عصر الاكتشافات الحديثة الذى نعيشه

الان لم يكن قد بدأ بعد ، وأن الاعتماد في التاريخ انما كان على ما جاء
في التوراة أو العهد القديم كما نقل اليهم عن طريق مسلمة أهل الكتاب،
ممن كانوا يقيمون في بلاد العرب ، وهم ليسوا بأفضل منهم في هذا
الميدان (١٠٥) .

وأخـر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على مولانا وسيـدنا وجدنا
محمد رسول الله ، وعلى آله الطيبين الطاهرين

(١٠٥) انظر دراسة نقدية لكتب المؤرخين والجغرافيين المسلمين
(محمد بيومي مهران : مصر - الجزء الاول - الاسكندرية ١٩٨٨ ص
١٣٣ - ١٥١) .

المراجع المختارة

أولا : المراجع العربية

القرآن الكريم

كتب الحديث

التوراة

ابن أبي حاتم (عبد الرحمن) : الجرح والتعديل
(٨ أجزاء)

ط الهند ١٩٥٣

ابن الاثير (عز الدين) : الكامل في التاريخ - المجلد
الاول -

بيروت ١٩٦٥

ابن الصلاح (عثمان بن عبد الرحمن) : مقدمة
ابن الصلاح في علوم الحديث

بيروت ١٩٧٨

ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب في أخبار من
ذهب - نشر حسام الدين القدسى

القاهرة ١٣٥٠ هـ

ابن المدينى : العلل - تحقيق مصطفى الاعظمى

بيروت ١٩٨٠

ابن تيمية (أحمد بن عبد الحلیم) : مقدمة في أصول
التفسير

دمشق ١٩٣٦

ابن حجر العسقلانى : نخبة أهل الفكر في مصطلح
أهل الاثر

القاهرة ١٣٠٨ هـ

ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح
البخارى

القاهرة ١٣٨٠ هـ

ابن خلدون (عبد الرحمن) : مقدمة ابن خلدون

بيروت ١٩٨١

ابن خلکان : وفيات الاعيان - تحقيق احسان عباس

بيروت ١٩٧٨

ابن قتيبة : تاويل مختلف الحديث

القاهرة ١٩٦٦

الدكتور أحمد بدر : أصول البحث العلمى ومناهجه

الكويت ١٩٨٢

الدكتور أحمد شلبى : كيف تكتب بحثا أو رسالة ؟

القاهرة ١٩٧٤

الدكتور أحمد محمد الحوفى : الطبوى

القاهرة ١٩٦٣

- الدكتور أحمد محمود صبحى : فى فلسفة التاريخ الاسكندرية
 الدكتور اسد رستم : مصطلح التاريخ بيروت ١٩٥٥
 الدكتور اكرم ضياء العمرى دراسات تاريخية - مع
 تعليقه فى منهج البحث وتحقيق المخطوطات المدينة المنورة ١٩٨٣
 الدكتور التهامى نقرة : سيكولوجية القصة فى القرآن
 الكريم تونس ١٩٧٤
 الثعلبى (احمد بن محمد بن ابراهيم النيسابورى) :
 قصص الانبياء - المسمى عرائش المجالس - ط الطبى القاهرة
 الحافظ العراقى : ذيل ميزان الاعتدال - جامعة
 أم القرى مكة المكرمة ١٤٠٦ هـ
 الحاكم النيسابورى : معرفة علوم الحديث بيروت ١٩٧٧
 الخطيب البغدادي : الكفاية فى علم الرواية حيدر آباد ١٣٥٧ هـ
 الخطيب البغدادي : تقييد العلم - تحقيق يوسف العش دمشق ١٩٤٥
 الذهبى : ميزان الاعتدال فى نقد الرجال - تحقيق
 على محمد البجاوى القاهرة ١٩٦٣
 الذهبى : تذكرة الحفاظ - تحقيق عبد الرحمن المعلمى حيدرآباد ١٣٧٥ هـ
 الذهبى : المشتبه - تحقيق على محمد البجاوى القاهرة ١٩٦٢
 السخاوى (محمد بن عبد الرحمن) : الاعلان بالتوبيخ
 لمن ذم التاريخ - دار الكتاب العربى - بيروت ١٩٨٣
 السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) : الشمارىخ فى
 علم التاريخ - نشر وتقديم ابراهيم السامرائى بغداد ١٩٧١
 الشافعى (الامام محمد بن ادريس) : الرسالة -
 تحقيق أحمد محمد شاكر القاهرة ١٩٤٠
 الطبرى (الامام محمد بن جرير) : تاريخ الرسل
 والملوك (تاريخ الطبرى) تحقيق محمد أبو الفضل
 ابراهيم القاهرة ١٩٦٠
 الغزالى (الامام أبو حامد محمد) : آراؤه فى التربية
 - كتاب آداب المتعلمين - تحقيق أحمد عبد الغفور
 عطار بيروت ١٩٦٧
 الغزالى (الامام أبو حامد محمد) : المستصفى فى علم
 الاصول (جزآن) - ط مصطفى محمود القاهرة ١٩٣٧

- المسعودى : التنبيه والاشراف القاهرة ١٩٦٨
- المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر بيروت ١٩٧٣
- الدكتور جواد على : الفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام (١٠ أجزاء) بيروت ١٩٧١/٦٨
- حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله) : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون استنبول ١٣٢١هـ
- الدكتور حسن حلاق : مقدمة فى مناهج البحث التاريخى - بيروت ١٩٨٦
- الدكتور حصن عثمان : منهج البحث التاريخى - دار المعارف القاهرة ١٩٦٥
- الدكتورة حكمت أبو زيد : التاريخ : تعليمه وتعلمه حتى نهاية القرن التاسع عشر القاهرة ١٩٦١
- سبط بن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان حيدرآباد ١٩٥٢
- الدكتورة سيدة الكاشف : مصادر التاريخ الاسلامى ومناهج البحث فيه القاهرة ١٩٧٦
- الدكتور شاكى مصطفى : التاريخ هل هو علم أم فن؟ مجلة عالم الفكر - المجلد الاول - العدد الاول - الكويت ١٩٧٤
- الدكتور عادل حسن غنيم والدكتور جمال محمود حجر : فى منهج البحث التاريخى - دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ١٩٨٩
- عباس محمد العقاد : الفلسفة القرآنية القاهرة ١٩٥٤
- الدكتور عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن القاهرة ١٩٦٦
- الدكتور عبد العزيز الدورى : بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب بيروت ١٩٦٠
- عبد القادر احمد طليمات : ابن الاثير الجزرى المؤرخ القاهرة ١٩٦٩
- الدكتور عثمان موابى : منهج النقد التاريخى الاسلامى والمنهج الاوربى - دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ١٩٨٤
- الدكتور عزيز العظمة : الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية - بيروت ١٩٨٣
- عصام الدين حفى ناصف : محنة التوراة على ايدى اليهود القاهرة ١٩٦٥
- على ادهم : تاريخ التاريخ - دار المعارف القاهرة ١٩٧٧

- الدكتور على عبد الواحد وافي : ابن خلدون - منشأة
علم الاجتماع
القاهرة ١٩٨٤
- الدكتور عماد الدين خليل : التفسير الاسلامي للتاريخ
دار العلم للملايين -
بيروت ١٩٨٣
- الدكتور لطفي عبد الوهاب : مناهج الفكر التاريخي
مطبعة كريدية -
بيروت ١٩٧٩
- الدكتور محمد البهي : الفكر الاسلامي الحديث -
مكتبة وهبة -
القاهرة ١٩٨١
- الدكتور محمد الطالبي : منهجية ابن خلدون التاريخية
الدكتور محمد الطالبي : التاريخ ومشاكل اليوم والغد
مجلة عالم الفكر - المجلد الخامس - العدد الاول
الكويت ١٩٧٤
- الدكتور محمد رشاد خليل : المنهج الاسلامي لدراسة
التاريخ وتفسيره
القاهرة ١٩٨٤
- الدكتور محمد بيومي مهران : محاضرات في منهج
البحث التاريخي
الاسكندرية ١٩٧٨
- الدكتور محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية
الاولى في مصر الفرعونية
الاسكندرية ١٩٦٦
- الدكتور محمد بيومي مهران : مصر - الجزء الاول
- دار المعرفة الجامعية -
الاسكندرية ١٩٨٨
- الدكتور محمد بيومي مهران : مصر - الجزء الثاني
الاسكندرية ١٩٨٨
- الدكتور محمد بيومي مهران : مصر - الجزء الثالث
- دار المعرفة الجامعية
الاسكندرية ١٩٨٨
- الدكتور محمد بيومي مهران : الحضارة المصرية
القديمة - الجزء الاول - الاداء بالعلوم
الاسكندرية ١٩٨٩
- الدكتور محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم
الاسكندرية ١٩٩٠
- الدكتور محمد بيومي مهران : اخنساتون : عصره
ودعائه
القاهرة ١٩٧٩
- محمد عبد الفتى حسن : علم التاريخ عند العرب
القاهرة ١٩٦١

- الدكتور محمد عواد حسين : صناعة التاريخ - مجلة
عالم الفكر - المجلد الخامس - العدد الاول
البيروت ١٩٧٤
- الدكتور محمود قاسم : المنطق ومناهج البحث
الدكتور مصطفى السباعي : السنة ومكانتها التشريع
الاسلامي
القاهرة ١٩٦١
- الدكتور مصطفى العبادي : محاضرات في مناهج الفكر
التساريفي
بيروت ١٩٨٤
- منح خوري : التاريخ الحضاري عند توينبي - دار
العلم للملادين
بيروت ١٩٦٠
- ياقوت الحموي : معجم الادباء - ط الحلبي
القاهرة ١٩٣٦

ثانيا : المراجع المترجمة الى اللغة العربية

- ادواركار : ماهو التاريخ ؟ ترجمة ماهر كيالى ،
وبيسار عقل
بيروت ١٩٨٠
- ارنست كاسيرر : في المعرفة التاريخية - ترجمة احمد
حمدي محمود
القاهرة
- اول . راوس : التاريخ : اثره وفائدته - ترجمة مجدى
حنفى ناصف ، ومراجعة محمد انيس
القاهرة ١٩٦٨
- ارنولد توينبي : دراسة في التاريخ (٤ اجزاء)
ترجمة منح خورى
بيروت ٢٠٠٠
- البان ج . ويدجيرى : المذاهب الكبرى في التاريخ -
ترجمة ذوقان قرقوط
بيروت ١٩٧٩
- ياروخ سبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة -
ترجمة وتقديم حسن حنفى
القاهرة ١٩٧١
- جفرى باراكلو : الاتجاهات العامة في الابحاث
التاريخية - ترجمة صالح احمد العلى
بيروت ١٩٨٤
- جوستاف لوبون : فلسفة التاريخ - ترجمة عادل زعير
القاهرة ١٩٥٤
- جولد تسهير : مذاهب التفسير الاسلامي - ترجمة
عبد الحلیم التجار - دار الكتب الحديثة
القاهرة ٢٠٠٠
- جوزف هوريس : قيمة التاريخ - ترجمة نسيم نصر
بيروت ١٩٨٢

- جورج سارتون : تاريخ العلم - ترجمة ليف من
العلماء ، باشراف ابراهيم بيومى مذكور
بيروت ١٩٧٢/٦٣
- حيدر بامات : مجال الاسلام - ترجمة عادل زعيتر
القاهرة ١٩٥٦
- عبد الحميد صديقى : تفسير التاريخ - ترجمة كاظم
الجسوادى
الكويت ١٩٥٥
- ف.ج. هرنشو : علم التاريخ - ترجمة وتعليق واطافة
عبد الحميد للعبادى
القاهرة ١٩٣٨
- فرانز روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين - ترجمة
صالح احمد العلى ، ومراجعة محمد توفيق حسن
بغداد ١٩٦٣
- فرانز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين فى البحث
العلمى - ترجمة أنيس فريجة ومراجعة وليد عرفات
بيروت ١٩٨٠
- فردريك أنجلز : التفسير الاشتراكى للتاريخ - ترجمة
راشد البراوى
القاهرة ١٩٤٧
- كارل بوير : عقم المذهب التاريخى - ترجمة
عبد الحميد صبرة - دار المعارف
الاسكندرية ١٩٥٩
- كولنجوود : فكرة التاريخ - ترجمة محمد بكير خليل
القاهرة ١٩٦١
- لويس جوتشلك : كيف نفهم التاريخ - ترجمة عايدة
سليمان عارف وأحمد مصطفى أبو حكمة
بيروت ١٩٦٦
- لانجلوا وسينيويوس : المدخل الى الدراسات التاريخية
ترجمة عبد الرحمن بدوى
الكويت ١٩٨١
- ه. جب : علم التاريخ - دائرة المعارف الاسلامية -
ترجمة ابراهيم خورشيد وآخرون
بيروت ١٩٨١
- هيوج اتكن : دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم
الاجتماعية - ترجمة محمود زايد
بيروت ١٩٨٢
- و. ه. وولش : مدخل لفلسفة التاريخ - ترجمة أحمد
حمدي محمود
القاهرة ١٩٦٢

ثالثا : المراجع الاجنبية

- Almack, (J. C.), Research and Thesis Writing, Boston, 1930.
- Aron, (R.), Introduction a la Philosophie de L'Histoire Essai sur les
Limites de L'objectivite Historique, Gallimard, 1948.

- Barnes, (H. E.), A History of Historical Writing,
- Carr, (E. H.), What is History, London, 1961.
- Clark, (G. K.), Guide for Research Student Working on Historical Subjects, Cambridge, 1958
- Cole, (A. H.), and Bigelow, (K. W.), A Manual of Thesis Writing, New York, 1949.
- Collingwood, (R. G.), The Idea of History, New York, 1956.
- Derricourt, (R. M.), Radio Carbon Chronology for Egypt and North Africa, in JNES, 1971.
- Fling, (F. M.), The Writing of History, an Introduction to Historical Method, New Haven, 1926.
- Flint, (R.), History of The Philosophy of History, Edinburg, 1893.
- Gardiner, (P.) Theories of History, London, 1954.
- Geyle, (P.), Toynbee and Sorokin, The Pattern of The Past, Beacon Press, 1949.
- George, (H. B.), The Relations of Geography and History, Oxford, 1924.
- Haddon, (A.), A History of Anthropology, London, 1927.
- Jaspers, (K.), The Origin and Goal of History,
- Libby, (W. F.), Radiocarbon Dating, Chicago, 1952.
- Margoliouth, (D. S.), Lectures on Arabic Historians, Calcutta, 1930.
- Meinecke, (F.), Machiavellism in Politics and History, by D. Scott, 1975.
- Minto, (J.), Reference Books, London, 1929.
- Nicholson, (R. A.), A Literary History of The Arabs, Cambridge, 1962.
- Oman, (C.), on The Writing of History, London, 1963.
- Rosental, (F.), A History of Muslim Historiography, Leiden, 1952.
- Roth, (L.), Thought of The Modern World, in The Legacy of Israel, Oxford, 1947.
- Rowse, (A. L.), The Use of History, London, 1964.

- Sarton, (G.), *Introduction to The History of Science*, IV, Cambridge, 1952.
- Sauvaget, (J.), *Historiens Arabes*, Paris, 1946.
- Seligman, (E.), *The Economic Interpretation of History*.
- Schluter, (W. C.), *How to Do Research Work*, New York, 1927.
- Simon, (R.), *Histoire Critique de Vieux Testament*, Paris, 1678.
- Smith, (H. S.), *Egypt and C. 14 Dating*, Antiquity, 1964.
- Steinmuller, (J. E.), *Companion to Scripture Studies*, II, N. Y., 1942.
- Taylor, (H.), *History as a Science*, London, 1933.
- Tholfson, (T. R.), *Historical Thinking*.
- Toynbee, (A.), *A Study of History*, London, 1948.
- Unger, (M. F.), *Unger's Bible Dictionary*, Chicago, 1970.
- Vincent, (F. A.), *Aids to Historical Research*, New York, 1934.
- Walsh, (W. N.), *Introduction to Philosophy of History*, London, 1951.
- Wells, (H. G.), *The Outline of History* London, 1963.
- Whitney, (F. L.), *Elements of Research*, New York, 1927.
- Wilson, (J. A.), *The Culture of Ancient Egypt*, Chicago, 1963.
- Woolley (L.), *Digging up The Past*, (Pelican Book), 1967.
- Encyclopaedia of Islam*.
- Encyclopaedia of Religion and Ethics*.
- The Jewish Encyclopaedia*.

مؤلفات

الاستاذ الدكتور محمد بيومى مهران
استاذ تاريخ مصر والشرق الاقصى القديم
كلية الاداب - جامعة الاسكندرية

أولا - التاريخ المصرى القديم :

- ١ - الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفرعونية الاسكندرية ١٩٦٦
- ٢ - مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث الاسكندرية ١٩٦٩
- ٣ - حركات التحرير فى مصر القديمة القاهرة ١٩٧٦
- ٤ - اخناتون : عصره ودعوته القاهرة ١٩٧٩

ثانيا - فى تاريخ اليهود القديم :

- ٥ - التوراة (١) - مجلة الاسطول - العدد ٦٣ الاسكندرية ١٩٧٠
- ٦ - التوراة (٢) - مجلة الاسطول - العدد ٦٤ الاسكندرية ١٩٧٠
- ٧ - التوراة (٣) - مجلة الاسطول - العدد ٦٥ الاسكندرية ١٩٧٠
- ٨ - قصة ارض الميعاد بين الحقيقة والاسطورة - مجلة الاسطول - العدد ٦٦ الاسكندرية ١٩٧١
- ٩ - النقاوة الجنسية عند اليهود - مجلة الاسطول - العدد ٦٧ الاسكندرية ١٩٧١
- ١٠ - النقاوة الجنسية عند اليهود - مجلة الاسطول - العدد ٦٨ الاسكندرية ١٩٧١
- ١١ - اخلاقيات الحرب عند اليهود - مجلة الاسطول - العدد ٦٩ الاسكندرية ١٩٧١
- ١٢ - التلمود - مجلة الاسطول - العدد ٧٠ الاسكندرية ١٩٧٢
- ١٣ - اسرائيل - الجزء الاول - التاريخ الاسكندرية ١٩٧٨
- ١٤ - اسرائيل - الجزء الثانى - التاريخ الاسكندرية ١٩٧٨
- ١٥ - اسرائيل - الجزء الثالث - الحضارة الاسكندرية ١٩٧٩

- ١٦ - اسرائيل - الجزء الرابع - الحضارة
 ١٧ - النبوة والانبياء عند بنى اسرائيل
 الاسكندرية ١٩٧٩
 الاسكندرية ١٩٧٩
 ثالثا - في تاريخ العرب القديم :

- ١٨ - الساميون والاراء التي دارت حول موطنهم
 الاصلى
 الرياض ١٩٧٤
 ١٩ - العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة
 الرياض ١٩٧٦
 ٢٠ - مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة
 الرياض ١٩٧٧
 ٢١ - الديانة العربية القديمة
 الاسكندرية ١٩٧٨
 ٢٢ - العرب والفرس في العصور القديمة
 الاسكندرية ١٩٧٩
 ٢٣ - الفكر الجاهلي
 القاهرة ١٩٨٢
 رابعا - في تاريخ العراق القديم :

- ٢٤ - قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة
 الرياض ١٩٧٦
 ٢٥ - قانون حمورابي واثره في تشريعات التوراة
 الاسكندرية ١٩٧٩
 خامسا - سلسلة دراسات تاريخية من القرآن الكريم :

- ٢٦ - الجزء الاول - في بلاد العرب
 بيروت ١٩٨٨
 ٢٧ - الجزء الثاني - في مصر
 بيروت ١٩٨٨
 ٢٨ - الجزء الثالث - في بلاد الشام
 بيروت ١٩٨٨
 ٢٩ - الجزء الرابع - في العراق
 بيروت ١٩٨٨

سادسا - سلسلة مصر والشرق الادنى القديم :

- ٣٠ - مصر - الجزء الاول -
 الاسكندرية ١٩٨٨
 ٣١ - مصر - الجزء الثاني -
 الاسكندرية ١٩٨٨
 ٣٢ - مصر - الجزء الثالث -
 الاسكندرية ١٩٨٨
 ٣٣ - الحضارة المصرية - الجزء الاول
 الاسكندرية ١٩٨٩
 ٣٤ - الحضارة المصرية - الجزء الثاني
 الاسكندرية ١٩٨٩
 ٣٥ - تاريخ العرب القديم
 الاسكندرية ١٩٨٨
 ٣٦ - الحضارة العربية القديمة
 الاسكندرية ١٩٨٨
 ٣٧ - بلاد الشام
 الاسكندرية ١٩٩٠

- ٣٨ - تاريخ السودان القديم
 ٣٩ - المغرب القديم
 ٤٠ - العراق القديم
 ٤١ - التاريخ والتاريخ

سابعاً - سلسلة : في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين :

- ٤٢ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الاول - بيروت ١٩٩٠
 ٤٣ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثاني - بيروت ١٩٩٠
 ٤٤ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثالث - بيروت ١٩٩٠
 ٤٥ - السيدة فاطمة الزهراء - بيروت ١٩٩٠
 ٤٦ - الامام علي بن أبي طالب (الجزء الاول) - بيروت ١٩٩٠
 ٤٧ - الامام علي بن أبي طالب (الجزء الثاني) - بيروت ١٩٩٠
 ٤٨ - الامام الحسن بن علي - بيروت ١٩٩٠
 ٤٩ - الامام الحسين بن علي - بيروت ١٩٩٠
 ٥٠ - الامام علي زين العابدين - بيروت ١٩٩٠
 ٥١ - الامام جعفر الصادق - تحت الطبع

ثامناً - معجم البلدان الكبرى في مصر والشرق الادنى القديم :

- (بالاشتراك مع الاستاذ الدكتور/محمد جمال الدين مختار) - تحت الطبع
 ٥٢ - الجزء الاول : مصر - الجزيرة العربية - بلاد الشام
 ٥٣ - الجزء الثاني : العراق - المغرب - السودان - تحت الطبع



المؤلف في سطور

دكتور

محمد بيومي مهران

استاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

- ١ - ولد في الجبيلية - مركز اخفو - محافظة أسوان .
- ٢ - حفظ القرآن الكريم ، ثم التحق بمعهد المعلمين بقنا ، حيث تخرج فيه عام ١٩٤٩ .
- ٣ - عمل مدرسا بوزارة التربية والتعليم (١٩٤٩ - ١٩٦٠) .
- ٤ - حصل على ليسانس الآداب بمرتبة الشرف من قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية عام ١٩٦٠ م .
- ٥ - عين معيدا لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية عام ١٩٦١ م .
- ٦ - حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف في التاريخ القديم من كلية الآداب - جامعة الاسكندرية عام ١٩٦٩ م .
- ٧ - عين مدرسا لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الاسكندرية عام ١٩٦٩ م .
- ٨ - عين أستاذا مساعدا لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الاسكندرية عام ١٩٧٤ م .
- ٩ - عين أستاذا لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الاسكندرية عام ١٩٧٩ م .
- ١٠ - أعير الى جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في الفترة ١٩٧٣ - ١٩٧٧ م .
- ١١ - عين عضوا في مجلس ادارة هيئة الآثار المصرية في عام ١٩٨٢ م .
- ١٢ - عين عضوا بلجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة في عام ١٩٨١ م .

- ١٣ - أعيى الى جامعة أم القرى بمكة المكرمة فى الفترة ١٩٨٣ - ١٩٨٧م.
- ١٤ - عين رئيسا لقسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية فى كلية الآداب جامعة الاسكندرية (١٩٨٧ - ١٩٨٨م) .
- ١٥ - أختير مقررًا للجنة العلمية الدائمة لترقية الاساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم (١٩٨٨ - ١٩٨٩م) .
- ١٦ - عين أستاذًا متفرغًا فى كلية الآداب - جامعة الاسكندرية فى عام ١٩٨٨م .
- ١٧ - عضو لجنة التراث الحضارى والآثرى بالمجالس القومية المتخصصة .
- ١٨ - عضو اللجنة الدائمة للآثار المصرية فى هيئة الآثار .
- ١٩ - عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الاساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم .
- ٢٠ - عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الاساتذة فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم .
- ٢١ - عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الاساتذة المساعدين فى التاريخ .
- ٢٢ - أشرف وشارك فى مناقشة أكثر من ٣٥ رسالة دكتوراه وماجستير فى تاريخ وآثار وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم فى الجامعات المصرية والعربية .
- ٢٣ - أسس وأشرف على شعبة الآثار المصرية بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية منذ عام ١٩٨٢م .
- ٢٤ - شارك فى حفائر كلية الآداب - جامعة الاسكندرية فى الوقف - مركز دشنا - محافظة قنا ، (فى عام ١٩٨١/١٩٨٠م) ، وفى «تل الفراعين» مركز دسوق - محافظة كفر الشيخ (فى عام ١٩٨٣/٨٢) .
- ٢٥ - عضو اتحاد المؤرخين العرب .

فهرست الموضوعات

الفصل الأول

- التاريخ : ماهيته وأهدافه ومكانته بين العلوم والفنون ... ١
١ - تعريف التاريخ ... ٣
٢ - غاية التاريخ وأهدافه ... ٧
٣ - مكانة التاريخ بين العلوم والفنون ... ١٥

الفصل الثاني

- المذاهب المختلفة في تفسير التاريخ ... ٢٥
١ - التفسير الدينى ... ٢٨
٢ - التفسير الفردى ... ٣٣
٣ - التفسير النفسى ... ٤١
٤ - التفسير الطبيعى ... ٤٣
٥ - التفسير المادى ... ٤٤
٦ - التفسير الحضارى ... ٥٦
٧ - التفسير الاخلاقى ... ٦٥
٨ - التفسير الاسلامى ... ٧٧

الفصل الثالث

- تاريخ الكتابة التاريخية ... ٩١
١ - فى الشرق الادنى القديم ... ٩٤
٢ - كتابة التاريخ عند اليهود ... ٩٧

- ٣ - كتابة التاريخ عند اليونان والرومان ١٠٣
- ٤ - كتابة التاريخ في أوائل العصر المسيحى ١٠٧
- ٥ - كتابة التاريخ في العصور الوسطى ١٠٩
- ٦ - الكتابة التاريخية عند المسلمين ١١١

الفصل الرابع

- التاريخ القديم ومناهج البحث فيه ١٥١
- ١ - عصور التاريخ القديم ١٥٣
- ٢ - نشأة علم المصريات ١٥٦
- ٣ - منهج البحث في التاريخ القديم ١٧٠
- ٤ - العلوم المساعدة للبحث في التاريخ القديم ١٧٩

الفصل الخامس

- كتابة الرسائل الجامعية ٢٠٧
- ١ - اختيار موضوع البحث ٢١١
- ٢ - وضع خطة البحث ٢١٥
- ٣ - إعداد بيلوجرافيا للموضوع ٢١٧
- ٤ - جمع المادة العلمية ٢١٨
- ٥ - نقد المادة العلمية ٢٢٠
- ٦ - اثبات الحقائق التاريخية ٢٣١
- ٧ - العرض التاريخى ٢٣٥
- ٨ - ملحق البحث التاريخى ٢٣٨
- ٩ - الحواشى أو الهوامش ٢٣٨
- ١٠ - طريقة كتابة المصادر والمراجع ٢٣٩
- ١١ - تنظيم الرسالة الجامعية ٢٤٦

الفصل السادس

٢٥٣	مصادر التاريخ المصرى القديم
٢٥٥	اولا : الآثار المصرية
٢٥٩	١ - حجر بالرمو
٢٦٢	٢ - قائمة الكرنك
٢٦٣	٣ - قائمة أبيدوس
٢٦٤	٤ - قائمة سقارة
٢٦٤	٥ - بردية تورين
٢٦٦	٦ - تاريخ مانيتو
٢٧٤	ثانيا : كتابات المؤرخين اليونان والرومان
٢٧٦	١ - هيكاثة الميليتى
٢٧٦	٢ - هيرودوت
٢٨٤	٣ - هيكاثة الابدري
٢٨٤	٤ - ديودور الصقلى
٢٨٥	٥ - سترابو
٢٨٧	٦ - بلوتارك الخسرونى
٢٨٩	٧ - بلىنى الاكبر
٢٨٩	٨ - كلوديوس بتولمايوس
٢٩٠	ثالثا : المصادر الاجنبية المعاصرة
٢٩٢	رابعا : المصادر اليهودية
٢٩٢	١ - التوراة
٣٠٤	٢ - كتابات يوسف اليهودى
٣٠٨	خامسا : المصادر الاسلامية
٣٠٨	١ - القرآن الكريم
٣٢٣	٢ - الحديث الشريف
٣٢٦	٣ - كتب التفسير
٣٣٤	٤ - كتب التاريخ والجغرافيا

الفنية للطباعة والنشر

٤٨ شارع هرده - رأس النبه - الإسكندرية
تليفون ٨٠٣٢٥٠

